التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

مفاهيم القرآن

في تشريعاته

بحوث فقهية في القرآن الكريم بتفسيره على أساس الوحدة الموضوعية والوحدة القرآنية

الجزء الأول

تأليف: جعفر السبحاني

2273
.935
.3

V.1

2273.935.3
v.1
Subhani
Mafahim al-Qur'an wa-
tashri'atuh
DATE
ISSUED TO
DATE ISSUED
DATE DUE
DATE ISSUED
DATE DUE

Subhani, Ja'far

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

مفاهيم القرآن

و

شريعاته

بحوث قيمة في القرآن الكريم
وتفسيره على أساس «الوحدة»
الموضوعية الواردة فيه

الجزء الأول

تأليف: جعفر السبحاني

منشورات مكتبة الحائري الطهراني - قم

مطبعة دار التبليغ الاسلامي - قم

«... إنها سلسلة بحوث قيمة في القرآن الكريم
وتفسيره على أساس «الوحدات الموضوعية» فيه
ويلاحظ الباحث فيها انها تعتمد قبل كل شيء، على
الاستفادة من نفس مفاهيم القرآن الكريم. في عرض
المواضيع، كما يلاحظ الروح الموضوعية الهادفة،
والأسلوب الفخم، والتتبع الدقيق، والإسهاب
في البحث، والاستيفاء الكامل
لكل جوانب الموضوع...
«انظر المقدمة»

2273
.935
.3
v.1

المفكر الإسلامي الكبير العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي
مؤلف الكتاب القيم
«الميزان في تفسير القرآن»

١٥-٦-٧٤
١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج متكامل فى عالم التفسير

الاسلام دين الله الابدي الخالد وشريعته الدائمة الباقيةمع مرالعصور والازمان ولابد لهذه الشريعة الباقية من سند قوي يسندها ، ودليل واضح يدل على انها حق لايتسرب اليه أي شك أوشبهة ، فكان ذلك السند والدليل هو القرآن الكريم ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعجزة الخالدة التي ستبقى سنداً حياً للشريعة الاسلامية الى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين .

لقدكانتالمعاجز التي ظهرت على أيدي موسى بن عمران والمسيح بن مريم عليهما السلام ، معاجز تخص عصرهما ، فلم يشاهد منها شيء فى العصور المتأخرة عنهما، ذلك لان شريعتهماكانتخاصة بفترة زمنية معينة محدودة بحدود مؤقتة ،فكانت معاجزهماكافية لتلك الفترة التي تسري فيها شريعتهما .

أما نبوة نبي الاسلام محمد صلى الله عليهوآلهالتيهي آخر النبوات ، وشريعته التي هي خاتمة الشرائع ، فلابد لها من معجزة تناسبها . وتواكب سيرها الزمني لتكونالنبراس التي تضيىء الطريق للجيل المعاصر للرسول والاجيال التي ستأتي بعده الى ماشاء الله تعالى ، وتمحو صدأ الشكوك عنأذهانكافة البشر ، وتدلهمدلالة واضحة الى طريق الحق اللاحب والصراط المستقيم .

القرآن وآفاقه اللامتناهية

لم يمض من نزول القرآن نصف قرن،الا وقد وضع علماء الاسلام علوماً جمة لفهمه وكشف أسراره ومعانيه ، ولو أمعنا النظر لنرى أن كثيراً من العلوم ، وضعت أولياتها لاستيضاح مداليل آيات القرآن وما يمكن أن يستخرج من جملها وعباراتها وذلك كالنحو ، والتصريف ، واللغة ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والقراءة ، والتجويد ، وقصص القرآن ، وشأن نزول الايات . .

مع هذه الجهود الجبارة المبذولة من أعلام العلماء ، طيلة القرون الاربعةعشر الماضية ، ومئات المؤلفات الكبيرة والصغيرة المدونةفى سبيل الكشف عن الاسرار الكامنة فى الايات القرآنية . .

مع كل هذه المساعي،لم يصلوا الى أعماق مافى القرآن من عجائب الاسرار وغرائب الحكم الكامنة فيه .

يسير الانسان حثيثاً فى استجلاء معارف القرآن الفكرية وقوانينه الاجتماعية والاخلاقيه وسائر تعاليمه العالية . . ولكنه لم يزل ، يجد الجديد فيه عند مايتعمق فى البحث ، ويرى ما قد غفل عنه الاقدمون ولم يتوصلوا اليه . . كأنه أمام بحر مواج بالحقائق العلمية لايدرك غوره ، ولا يتوصل الى اعماقه ، ولا يمكن معرفة ما فيه من الاسرار والعجائب .

كأن القرآن الكريم ، هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة ، الواسع الاطراف ، الذي لايزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه وأسراره ،الا معرفة أنه لايزال الانسان فى الخطوات الاولى من التوصل الى مكامنه الخفية فى أغواره . . فان كتاب الله تعالى كذلك، لايتوصل الى كل مافيه من الحقائق والاسرار ، لانه منزل من عند الله الذي لايتصور له نهاية ، ولا يمكن تحديده بحدود وأبعاد ،فيجب ان تكون فى كتابه لمعة من لمعاته،ويثبت بنفسه أنه من عنده ، ويتوفر فيه مايدل على أنه كتاب سماوي

ليس من صنع البشر ، وهو خالد الى ماشاء الله تعالى .

انّنبي الاسلام العظيم صلى الله عليه وآله هو أول من لفت الانظار الى تلكم المزية وان هذه المزية من أهم خصائصه ، حيث يقول فى وصفه له : «لهظهر وبطن وظاهره حكم وباطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لهنجوم وعلى نجومه نجوم. لاتحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائبه ، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة» (١) .

وبعد النبي يأتي دور أول تلميذ لمدرسته ، الامام أمير المؤمنين عليه السلام ليصف القرآن بقوله : « أنزل عليه الكتاب نوراً لاتطفأ مصابيحه ، وسراجاً لايخبو توقده ، وبحراً لايدرك قعره . . الى انقال : وينابيع العلموبحوره ،ورياض العدل وغدرانه ، وأثافى الاسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لاينزفه المتنزفون وعيون لاينضبها الماتحون ، ومناهل لايغضها الواردون » (٢) .

وسأل رجل علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال:مابال القرآن لايزداد عند النشر والدرس الاغضاضة ؟ فقال : « ان الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا لناس دون ناس ،فهو فى كل زمان جديد وعندكل قوم غض الى يوم القيامة» (٣) .

ترون ان الرضا عليه السلام لايشير فى هذا الحديث الى موضوع خلود القرآن فقط ، بل يشير أيضاً الى سرخلوده وبقائه غضاً جديداً لايتطرق اليه البلى والذبول

ويجب ان نذكر القارىء بأن النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام لميكونوا وحدهم هم الذين لفتوا الانظار الى موضوع آفاقه اللامتناهية ، بل عظماء العرب والعارفون منهم أدركوا هذه الحقيقة فى ايام الاسلام الاولى ، واعترفوا بعجزهمعن الوصول الى أغواره ، والتوصل الى مافيه من الاسرار والحكم .

هذا الوليد بن المغيرة حكيم العرب وريحانتهم وخطيبهم المنطيق يجلس الى النبي ليستمع ماكان يتلوه من آيات «سورة الغافر» ، وبعد هنيئة ذهب الى قومه

---

(١) اصول الكافى . كتاب القرآن ص ٥٩١ .

(٢) شرح نهج البلاغة لعبده ٢/٢٠٢ .

(٣) البرهان فى تفسيرالقرآن ١/٢٨ .

«بني مخزوم» ليقول لهم مصارحاً : «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان لـه لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه ليعلو وما يعلى» (١) .

يمكن اعتبار قولة الوليد هذه ، أول تقريظ بشري صدر من انسان واع أدرك بفطرته وذوقه السليم أن القرآن «أعلاه لمثمر ، وأسفله لمغدق،وانه يعلو ومايعلى» .

التفسير فى مختلف الاتجاهات

فى القرن الثالث الهجري ـ عند ماقطعت العلوم الاسلامية أشواطاً بعيدة ، ووصلت الى مراحل عالية من النضج والرقي ـ حدث فى علم التفسير تطور ملموس ، فانه قبل هذه الفترة كان التفسير منحصراً بنقل أحاديث مروية عن النبي صلى الله عليه وآله أوآراء بعض الصحابة والتابعين وأحياناً بعض أهل الكتاب الذين اعتنقوا الاسلام ، أما فى هذا القرن وما بعده فقد أدخل كل ذي اختصاص ، المباحث العائدة الى موضوع اختصاصه فى التفسير ، بل ربما لايكتب بعضهم الا مايدخل فى اطار العلم الذي أصبح له اليد الطولى فيه .

فأعلام الادب العربي خصصوا كتبهم التي تتناول القرآن بمباحث الاعراب واللغة والاشتقاق ، كما صنع الزجاج والواحدي مؤلف كتاب «البسيط» وأبوحيان مؤلف كتاب «البحر والنهر» .

وشيوخ البلاغة اهتموا بصورة خاصة بما يتعلق بفصاحة القرآن وأسراره البلاغية التي كانت العرب تدركها بفطرتها السليمة ، وذوقها المرهب، وحاول هؤلاء الشيوخ اثبات اعجاز القرآن من هذه الزاوية التي تعود الى اللفظ والتركيب .ومن باب المثال نذكر منهم الزمخشري وكتابه «الكشاف» .

والفلاسفة والمتكلمون والمتصوفة اطالوا الكلام فى الايات التي توافق اتجاههم

(١) مجمع البيان ٥/٣٨٧ .

الفكري ولم يهتموا اهتماماً كبيراً بالجوانب الاخرى من المباحث التفسيرية ، بل نرى فى كثير من كتاباتهم أنهم اوّلوا بعض الايات تأويلات بعيدة لايحتملهاالذوق الخالي عن المسبقات الذهنية الفلسفية والكلامية والصوفية ، وذلك كما صنع الفخر الرازي فى كتابه «مفاتيح الغيب» ومحي الدين بن العربي فى التفسير المنسوب اليه، وعبد الرزاق الكاشاني فى كتابه «تأويل الايات» وقبلهم اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة .

والفقهاء توفروا فى تفاسيرهم على آيات الاحكام فأشبعوها بحثاًودراسة ، ومروا على بقية الايات مروراً سريعاً كما صنع القرطبي فى تفسيره ، بل خص جماعة من الفقهاء كتابهم بتفسير آيات الاحكام فقط ولم يتناولوا بقية الايات اصلا كالجصاص والفاضل المقداد والمقدس الاردبيلي والشيخ احمد الجزائري .

وجماعة آخرون خدموا القرآن بجمع قصصه وما يتعلق بأسباب نزول الايات والقراءات واختلاف القراء والقواعد التجويدية، كالواحدى فى كتابه «أسباب النزول» والداني فى كتابه «التيسير» والجزري فى «المقدمة الجزرية» والسجاوندي فى كتابه «الوقوف» وغيرهم .

وقد خطى فريق من المفسرين خطوات أوسع ، فحاولوا التوفر على كل هذه الابحاث ودرجها بصورة مختصرة فى تفاسيرهم ، ومن هؤلاء الشيخ الطوسي فى «التبيان» والطبرسي فى «مجمع البيان» والنيسابوري فى «غرائب القرآن» والالوسي فى «روح البيان» .

المنهج الصحيح فى التفسير

المفسر الحقيقي هو الذي يتجرد عن ميوله الخاصة ، وعقائده الشخصية تجرداً كاملا ويعرض آراءه على الايات القرآنية لا الايات على ما يعتقده .

والطريق المفيد لتفسير القرآن ، ان لايروم المفسر ، تفسير كتاب الله سبحانه وقلبه ممتلىء باراء وافكار تخصه ، ولا يتقدم اليه باحثا عما قد يؤيد آراءه وافكاره

بل ان يتقدم اليه لتكشف مقاصده ومراميه ، فان العقيده التي يمتلىء بـه الشخص يملك عليه كل تفكيره ، ولا يترك له سبيلا الى المقاصد التي يستهدفه الكتاب .

ان احسن المناهج المتبعة فى التفسير ،عرض بعض الايات على بعضها والاستمداد من الاحاديث الاسلامية الصحيحة لاستخراج المعاني والمفاهيم القرآنية استخراجاً صحيحاً . فيجب لاتباع الطريقة المستقيمة فى التفسير مراعاة الشرطين التاليين :

تفسير القرآن بالقرآن :

١ ـ ان القرآن الكريم يؤكد بانه تبيان لكل شيء حيث يقـول : «ونـزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (النحل ـ ٨٩) ،فالقرآن حيث يكون موضحاً لكل شيء كما هو مصرح فى هذه الاية فموضح لنفسه ايضاً ،اذ لامعنى لان يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولايكون تبياناً لنفسه فلابد أن يوضح أيضاً مايبدو أنه غامض فيه نفسه،ومعنى هذا ، أنه يمكن استيضاح بعض الايات لفهم المراد من البعض الاخر .

القرآن كله «هدى» و«بينة» و «فرقان» و «نور» كما فى قوله تعالى «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان»(البقرة:١٨٥)، وقوله تعالى « و أنزلنا اليكم نوراً مبيناً » (النساء : ١٧٤) .

والكتاب الذي يحتوي على هذه المزايا لامحيص من الاعتراف ، بانه يرفع عن نفسه مايظن فيه من الالتباس والغموض ، ذلك لانه لايمكن أن يكون كتاب فارقاً بين الحق والباطل ، ونوراً هادياً للبشرية ، وبرهاناً مرشداً الى مـافيه الصواب ، ثم يكون فى جملة من آياته تعقيد يتيه الانسان فى فهمه والتوصل الى مفاهيمه. وعليه يجب الرجوع الى الايات نفسها لفهم ماأشكل من الايات الاخرى التي تشبهها .

قال النبي صلى الله عليه وآله : «ان القرآن يصدق بعضه بعضاً» .

وقال منعاً لحشر الاراء والنظريات الشخصية فى التفسير وحملها على الايات

حملا : «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» (١) .

ان تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض، وعرض الايات على ما يشبهها فى المنطوق أو الهدف ، هو الطريقة المأثورة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام . فان الدقة فى الاحاديث التفسيرية المروية عن الائمة تثبت بوضوح ما نقوله، وتدل على أن هذا المنهج كان المنهج المحبب اليهم فى ايضاح النصوص القرآنية لتلامذة مدرستهم .

ان الاحاديث التفسيرية المروية عن ائمة اهل البيت عليهم السلام تدل دلالة واضحة على انهم استعانوا من نفس الايات وعرض بعضها على بعض ، فى تفسيرها وبيان معانيها وايضاح مداليلها ومفاهيمها ولم يتصدوا فى وقت من الاوقات حمل آرائهم الشخصية على الايات الكريمة حملا ، بل استنتجوا من مقارنة الجمل والكلمات والالفاظ الموجودة فى بعض الايات لاستيضاح آيات اخرى مشابهة لها فى المنطوق أو المفهوم

يقول علي عليه السلام فى كلام له يصف فيه القرآن : «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض ، ولا يختلف فى الله ولا يخالف بصاحبه عن الله» (٢) .

ولا بأس أن نقدم هنا نموذجاً من تفسير القرآن بعضه ببعض ليرى القارىء الكريم كيف يمكن رفع الالتباس عن الايات بهذه الطريقة :

يقول تعالى فى سورة الشعراء ـ ١٧٣ فى قوم لوط « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » . ان هذه الاية واضحة كل الوضوح من جهة المفهوم ولكن فيها غموض من جهة المصداق ، فان الانسان يتحير فى المعنى المراد من المطر السوء، الا أن الاية ٧٤ من سورة الحجر، تبين هذا المعنى عندما تقول «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» .

ان اتباع هذه الطريقة تكشف كثيراً من الحقائق الخفية وتلقي اضواء على ما أبهم من الايات ، شريطة أن يجعل الانسان الصبر على البحث ، والدقة الكاملة والتأني فى اصدار الحكم رائداً له .

(١) حديث متفق عليه بين الفريقين .

(٢) نهج البلاغة ٢/٢٢ الخطبة ١٢٩ .

على ضوء الاحاديث الاسلامية الصحيحة

٢ ـ وبعض الايات تصرح بأن النبي الكريم صلى الله عليه وآله هو المبين للقرآن والمعلم لاياته ، فيقول تعالى : « و أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانـزل اليهم» (النحل ٤٤) ، ويقول : «هو الذي بعث فى الامين رسولامنهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب» (الجمعة ـ ٢) .

من هاتين الايتين نعرف أن ماابهم من القرآن لمصالح لانعلمها نحـن ، يجب الرجوع للكشف عن غوامضه الى النبي وأهل بيته الذين هم عدل القرآن بشهادة حديث الثقلين المتفق روايته عن الرسول صلى الله عليه وآله .

ولابد هنا أن نلفت الانظار الى أهمية معرفة الاحاديث الصحيحة،والتمييز بينها وبين الاحاديث غير الصحيحة ، وانه لايمكن الاعتماد على مانقل عن الصحابة والتابعين فى التفسير بصورة مرسلة غير مسندة، بل يجب التثبت فيها والتأكد من أنها واجدة لشرائط الحجية التي هي مذكورة فى محالها من مباحث علوم الحديث ، فلايحسن الاستناد اليها فى كشف ما أبهم من القرآن ، بسبب بُعد العهد من عصر الوحي أو كون الايات نزلت مجملة كذلك لمصالح خاصة ليس هنا محل تفصيلها (١) .

ولقد اثر عن اهل البيت عليهم السلام فى هذا المجال أحاديث لوحظ فى اكثرها جانب التربية و التعليم والمحاولة لتقريب استفادة المعاني والنكات الى الاذهان ، من دون حشر رأي خاص فيها وحمله على الذي يستعرضها بتدبر ودقـة . وهـذا موضوع يتضح جلياً لمن أمعن النظر فى تلك الاحاديث التفسيرية.وهذه الاحاديث لها قيمتها الخاصة وان لم يصح اسناد بعضها ، لمجانبتها عن التفسير التعبدي ومحاولتها التعليم وارشاد القارىء الى كيفية استفادة المعاني من الاية نفسها من دون استناد الى شيىء آخر .

---

(١) مثل الايات التى ذكرت فيها الصلاة الصوم والزكاة والحج و...

تأثير الحضارة الغربية فى المنهج التفسيرى

لقد أثرت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها الى العربية فى فهم معاني الايات والمفاهيم القرآنية تأثيراً عميقاً بعيد المدى ،فقد أدخل فى التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية التي لاتمت اليه بصلة، وحملت عليه حملا لايمكن تقبلها لو تجردنا عن الاتجاه الفلسفي اليوناني الوافد .

ان بعض المفسرين أولوا كثيراً من الايات حسب المفاهيم الفلسفية الوافدة من المشائيين والاشراقيين وعلى ضوء القواعد البطليموسية فى الهيئة القديمة وعلم الفلك، وللتوفيق بين هذه الاراء والايات القرآنية والاحاديث التفسيرية ، تشبثوا بنظريات بعيدة كل البعد عن السياق والمفهوم القرآني ، وكانت محاولتهم فاشلة ، بعد تبدل النظريات العلمية والمكتشفات التجريبية .

وقد واجه القرآن هذه المشكلة أيضاً بل أعمق منها بكثير عندما وسعت اوربا الخطوات الى المدنية الحاضرة وكان لها آراء حديثة فى النظريات الفلكية والطبيعية والرياضية وغيرها وسخرت بمكتشفاتها العلمية الجديدة البحار والوديان ، وراحت لتسيطر على ما فى أجواء السماء .

وانتقل كثير من هذه النظريات الحديثة الى الشرق ممزوجاً بشيء من سوء الظن بالنسبة الى المسائل الدينية والاصول المذهبية ،ذلك لان أوربا اتخذت القاعدة الاساسية لعلومها التجربة والحس ، وأهملت اهمالا كلياً ما يتعلق بما وراء الطبيعة وربما عملت على انكارها وابادتها وابعادها عن المجالات العلمية .

ان وفود هذا النوع من الفكر المزيج بسوء الظن بالمسائل الغيبية والمعارف الالهية ، دعا البعض الى الابتعاد عن الدين ، والالحادفيه ، كما دعا البعض الاخر الى تأويل الايات بما يوافق الاتجاه الفكري المعاصر ، وآل بهم الامر الى أن يأولوا الايات المصرحة بمعاجز الانبياء ، والروح ، والجن ، والبرزخ ، بتأويل يوافق

الاسس المادية والطبيعية (١) .

كما ان تقدم العلوم الطبيعية فى مجالات مختلفة ، دفع بعض الباحثين الى أن يفرطوا فى تأويل الايات حسب الاسس الطبيعية والنواميس الكونية ، كأن القرآن كتاب فى الكيمياء والفيزياء وليس له أهداف اخرى .

وفى مطاوي بعض الكتب التفسيرية المؤلفة فى هذا القرن ، نرى الاتجاه العلمي والفكري الغربي بوضوح، فى عرض المسائل القرآنية وتحليلها ، وهي تحاول بكل ماتملك من القوى أن توفق بين المفاهيم القرآنية الاجتماعية والاخلاقية ، وبين الوجهات الغربية، كأنها كتبت للتوفيق بين المدرسة الالهية والمدرسة الاروبية المعاصرة

ان هذا الفريق من الباحثين جلبتهم العقيدة الدينية بالقرآن الكريم وتقديسه والاذعان به، وانجرفوا من جهة أخرى فى تيار المدنية الغربية المبنية على أساس انكار المقدسات والمعنويات أو ارضاء لميولهم الخاصة نحو هذه المدنية، عملوا جادين فى تأويل الايات بالطريقة التي ذكرناها .

نزول القرآن نجوماً

لاشك ان الايات القرآنية نزلت تدريجاً ، على قلب الرسول صلى الله عليه وآله طيلة ثلاث وعشرين سنة ، ولانريد فى هذا المجال ، الحديث عن علة نزول القرآن هكذا لانه تحدث هو عن هذا فى بعض الايات ، (٢) وانما الذي يهمنا الحديث عنه هنا هو : ان القرآن لم يكن كتاباً من صنع البشر يتكون من أبواب وفصول ويبحث فى كل موضوع عن نقطة خاصة ، وانما هو كتاب سماوي أنزله الله تعالى لارشاد البشر الى المبدأ والمعاد والتكامل الروحي والجسمى ، ولا يحتاج مثل هذا الكتاب

(١) هذه الظاهرة المادية تبرز بوضوح فى تفسير «المنار» وعند تلامذة مدرسته .

(٢) «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك و رتلناه ترتيلا» الفرقان ـ ٣٢

الى التنظيم والالتزامات المتبعة في المؤلفات الاخرى ولا جل ذلك فله خصائص لاتوجد فى غيره ونشير الى بعضها فيما يلي :

١ ـ تنتقل الايات من موضوع الى موضوع آخر لمناسبات تستدعي الانتقال، اذ ربما تذكر عدة مواضيع فى سورة واحدة ، هدفها الوعظ ، والارشاد ، وايقاظ الضمير ، والعطف نحو العقل والحكمة، فجاءت تلكم المواضيع واحدة بعد أخرى، يجمعها ذلك الهدف الخاص ، ولكن يسبق الى اذهان بعض ان لاربط وثيق بينها ، الا انه يجد عند الدقة والتدبر ، نوعاً خاصاً من الارتباط الذي يسلك عقودها فى سلك واحد ووجود هذا القسم من الايات الكثرة ، بحد يغنينا عن التمثيل لها هنا .

٢ ـ اهمية توجيه الفكر الانساني ، وفطرته نحو الهدى والحق ، وايقاظ الضمائر الميتة الكامنة ، فى نفوس مريضة ، تستدعي تكرار بعض الموضوعات فى مناسبات شتى ، والعود اليها بمختلف الاساليب البيانية . وهذا التكرار فى الخطابات من الاهمية بمكان وهو من المحسنات التي لابد منها فى الكلام الموجه الى الناس بشكل عام .

مثلا اننا نرى القرآن الكريم يكرر فى مناسبات شتى موضوع الاعتبار من حياة الامم السالفة والملوك والجبابرة والطغاة الماضين كما انه يذكر موضوع «سيروا فى الارض» فى اكثر من مناسبة واحدة ، وفلسفة هذا التكرار والعود الى الموضوع مرة بعد أخرى هي ماذكرناه .

٣ ـ ربما يتحدث القرآن الكريم فى سورة عن جانب خاص من جوانب قصة أو موضوع يعد متعدد الجوانب واسع الاطراف لتعلق ذاك الجانب الخاص فقط بما يقصده من الكلام دون سائر جزئياتها وتفاصيلها ، ثم يعود فى سورة اخرى الى تلك القصة أو ذلك الموضوع ليذكرها بتفاصيلها وجزئياتها . واكثر مانشاهد هذا فى قصص الامم الماضية للاعتبار بها ، وهذه طريقة ضرورية لكتاب أنزل لهداية الناس وانتشالهم من الضلال .

٤ ـ يتبع القرآن طريقه التدرج ، فى بيان مفاهيمه العقلية ومعارفه التربوية ،

فيستدل مثلا على مفهوم من مفاهيمه فى بعض السور باستدلال، ثم يعودالى استدلال اخر لنفس المفهوم فى سورة أخرى. وبهذا توزع الادلة فى عدة أمكنة، وتذكر حسب المناسبات التي تقتضي ذلك .

مثلا ان موضوع المعاد والرجوع الى حياة جديدة من المسائل الاسلامية والقرآنية المهمة التي ركز على اثباتها القرآن ، فاستدل له بأدلة ستة (١) ولكنها موزعة ، لكل واحدة منها فى مكانها نكتة خاصة .

* * *

(١) ان الفكرة تتضح ابعادها ، وتنكشف جوانبها ، اذا تعددت الاستدلالات عليها من طرق شتى ، والمثال على ذلك حديث البعث والمعاد فى القرآن الكريم ، فقد استدل القرآن على امكانه ووقوعه بطرق ستة ، ونحن نذكرها فى المقام على وجه الاجمال ونكتفى فى بيان كل طريق ، بآية واحدة ، مع كثرتها فى كل باب .

١ ـ الاستدلال بعموم قدرته على كل شيىء كما فى قوله سبحانه : «الم يروا ان الله الذى خلق السماوات والارض ولم يعى بخلقهن ، بقادر على ان يحيى الموتى بلى انه على كل شيىء قدير» (الاحقاف ـ ٣٣) .

٢ ـ قياس الاعادة على الابتداء كما فى قوله سبحانه «كما بدأنا اول خلق نعيده» (الانبياء ١٠٤) .

٣ ـ الاستدلال على امكان احياء الموتى ، باحياء الارض بعد موتها بالمطر والنبات كما فى قوله سبحانه : «ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون» (الروم ـ ١٩) .

٤ ـ قياس قدرة الاعادة، على قدرة اخراج النار من الشجر الاخضر كما فى قوله سبحانه: «قل يحييها الذى أنشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون» (يس ٧٩ ـ ٨٠) .

وسيوافيك فى بحث المعاد ان للاية معنى آخر الطف بكثير مماذكره المفسرون ،ورائدنا فيه التدبر فى ذيل الاية ، وما كشفه العلم الحديث فى حقيقة الحرارة الكامنة فى الاشجار وحقيقة انطلاقها منها عند الاحتراق .

٥ ـ الاستدلال بالوقوع على الامكان فان أدل دليل على امكان الشيىء وقوعه ولاجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة اسرائيل (البقرة ـ ٨٨ ـ ٦٩) ، وحديث عزير (البقرة ـ ٢٦٢)

٦ ـ الاستدلال ببعض المنامات الطويلة التى امتدت ثلاث مئة سنين فان النوم اخو الموت ولا سيما الطويل منه كما ان القيام منه يشبه تجدد الحياة وتطورها .

الخصائص القرآنية التي استعرضنا بعضها، تدفعنا أن نشبه القرآن الكريم بحديقة غناء مليئة بالازهار الملونة ، والورود المنوعة ، وقد وزعت توزيعاً طبيعياً جميلا تأخذ بالابصار ، فهي بالرغم من أنها موزعة الا ان فيها طرافة وظرافة ، لان كل واحد منها وضع فى مكانه اللائق به .

الجمود فى التفسير

ان استعراض كتب التفسير وملاحظتها بشيء من الامعان ، توصلنا الى حقيقة غير خافية، وهي : ان علماء الاسلام مع شدة اهتمامهم بالتفسير وفهم الايات والكشف عن معانيها ، لم تتطور مؤلفاتهم التفسيرية بالقدر الذي يجب أن تتطور طيلة القرون الاربعة عشر الماضية .

فمع غض النظر عن طائفة من التفاسير المهمة المعاصرة، نرى أن التفسير لم ينم ولم يتكامل عند السنة والشيعة منذ تفسير «الطبري» الى «المنار» وتفسير «التبيان» الى «الميزان» .

ومن العوامل التي سببت الجمود المذكور ، أن التفاسير سارت على وتيرة واحدة فى تفسير القرآن سورة سورة، ففسروها من البدء الى الختم أو فسروا بعضها على الترتيب المذكور، ولم يهتموا فى كتابة التفسير بالتفسير الموضوعي(١) الذى يقتضيه نزول الايات نجوماً وتوزع الايات الراجعة الى اكثر الموضوعات فى امكنة وسور من القرآن .

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

وما ذكرناه حول نزول القرآن التدريجي وألمعنا الى مافيه من الخصائص ،

(١) نريد من « **التفسير الموضوعى** » تفسير القرآن على حسب الموضوعات التى وردت فيه وبحث عنها القرآن فى مواضع مختلفة مقابل تفسيره على حسب السور والايات .

يقتضى أن يفسر القرآن أيضاً حسب الموضوع الى جانب تفسيره على ترتيب السور، فتجمع آيات كل موضوع فى مكان وتفسر مجموعة لئلا تتشتت الجوانب المختلفة.

مثلا المفسر الذي يحاول التعمق فى الحديث عن السماء والارض على ضوء القرآن الكريم ، أو يريد أن يبحث بحثاً مستوفى عن المعاد ، أو يستعرض قصص بني اسرائيل ، أو يحكم فى أفعال الانسان من جهة الجبر و الاختيار، أو يكشف عن المعارف الاسلامية المتعلقة بافعال الله تعالى من قبيل الارادة والهداية والضلال والقضاء والقدر . . . لابد أن يتبع الطريقة الموضوعية التي ذكرناها ليتمكن من جمع أطراف الموضوع جمعاً كاملا شاملا .

من جملة الاسباب التي دعت الى ظهور عقائد مختلفة بين المسلمين ، وتشبث كل صاحب عقيدة بطائفة من الايات، أنهم وجهوا اهتمامهم الى آيات خاصة لتركيز معتقداتهم ، وأهملوا الايات التي تكشف لهم آفاقاً أخرى ،وتوضح لهم النقاط التي زلوا فيها، ولو انهم كانوا يلاحظون فى كل مسألة من المسائل العقائدية الايات بمجموعها لدرأوا عن أنفسهم الوقوع فى هذه المهاوي السحيقة .

ومن باب المثال نذكر بهذا الصدد أصحاب مذهب الجبر فى افعال الانسان أو مذهب التفويض فيها فانهم ابتلوا بماذكرناه وخبطوا خبط عشواء فى فهم المقاصد الالهية وتفسيرها .

أجل يمكن القول بأن العلامة المجلسي هو أول من استعمل اجمالا هذه الطريقة (التفسير حسب الموضوع)، فانه فى كتابه «بحار الانوار» جمع الايات المربوطة بكل موضوع فى أول الابواب ، وفسرها تفسيراً سريعاً بلا استنتاج منه . وهذه الخطوة القصيرة خطوة جليلة فى عالم التفسير نأسف على أن المفسرين بعده لم يسيروا على ضوئها . ولا يمكن تفسير القرآن بالقرآن ، والاستفادة الكاملة منه ، وتلقي مفاهيمه العالية الصحيحة الا بالمنهج المذكور .

اوليات الطريقة الموضوعية فى التفسير

لاشك أن الطريقة الموضوعية فى التفسير التي نتحدث عنها فى هذا المجال طريقة ، لم ينهجها علماء التفسير حتى الان ، كما قلنا ، وعليه نعتقد أن فيها كثيراً من الصعوبات التي تعترض سيرها ، فان تنظيم الايات وتقسيمها حسب الموضوعات ، أمر لايتم بعمل فردي ، بل لابد من لجنة تتولى هذا العمل ، ويحب أن يكون أعضاء اللجنة اناساً علماء لهم الخبرة الطويلة ، والاختصاص فى الفروع العلمية المختلفة ، وممارسة طويلة فى الايات القرآنية وفهم معانيها واستنباط مقاصدها ودرك مفاهيمها العالية

ونقترح أن تتبع هذه اللجنة الارشادات التالية :

١ ـ تقرأ الايات واحدة واحدة بدقة وامعان لافرازها موضوعياً، ثم يهيأ فهرس دقيق للموضوعات الواردة فى القرآن والمبحوث عنها فى آياتها ، ليعلم بصورة مؤكدة عدد ماجاء فيها من المباحث المختلفة، وما ورد فى كل واحد منها، من الايات

٢ ـ تهيا بطاقات خاصة بكل موضوع ، لتكتب فيها آياتها . والاحسن فى هذا أن تصور هذه البطاقات فى عدة نسخ ، لتوضع فى متناول أيدي الباحثين والمحققين ليقرأوها ويبدوا ملاحظاتهم ونقودهم، وبعد المداولة فى شأنها من قبل العلماء ، تطبع بصورة نشرات حسب الحروف الهجائية وتوزع فى اطار واسع ليطلع عليها المعنيون فى الاقطار .

٣ـ وبعد ان تنتهي اللجنة من فهرسة الايات كما ذكرنا ، يدعى كبار الشخصيات الاسلامية العلمية ليتولى كل واحد منهم ، موضوعاً حسب اختصاصه ، فتقدم اللجنة لهم الموضوعات التي فهرستها، ليختار هو الموضوع الذي جمعت آياته فى البطاقات الخاصة به ، ويكتب حولها ما يرى من البحوث والدراسات .

والنتيجة الحاصلة من هذه الجهود المشتركة المبذولة من قبل كبار علماء الاسلام انه تكتب للقرآن الكريم دائرة معارف كبيرة ملؤها التحقيق والبحث العلمى

لتبرز مافيه من الحقائق التى لازالت خفية حتى الان .

ان هذا العمل الجبار بالاضافة الى مايحتاج الى ميزانية ضخمة ، يحتاج الى لجنة مركزية تكون همزة وصل بين علماء الاسلام القاطنين فى اقطار نائية بعيدة الاطراف فانه لايتم عمل كبير كهذا العمل الا باللجنة المركزية ، فهي التي تنتخب الاعضاء الذين يقومون بفهرس الايات ، وهي التي تصور البطاقات وتعرضها على الباحثين والناقدين وبعد التنسيق الدقيق تنشرها فى نشرات متسلسله، وهي التي تتصل بالشخصيات العلمية لكتابة التفسير كما ذكرنا .

ان هذا الاقتراح ربما يكون كبيراً وغير قابل التنفيذ فى رأي البعض ، الا أنه بسيط عند ذوي الهمم العالية والعاملين فى حقول العلم والثقافة، فقد قامت جمعيات دينية قبل هذا بأعمال مشابهة ، لكتبهم المنسوبة الى السماء، وكان جهدهم من الطرافة بحيث ابدى كتبهم المحرفة بحلل زاهية تأخذ بالابصار وتثير اعجاب القارئين لها .

ونحن نأمل أن يتصدى مراجع الدين وكبار العلماء هذه الامنية ، فيتداولوا بينهم لازالة العوائق عن الطريق وتيسير المقدمات الاولية وتعيين نقطة الانطلاق لهذا المشروع الديني العلمي .

منهجنا فى هذا الكتاب

بعد ان أمضى مؤلف هذا الكتاب خمس عشرة سنة في دراسة القرآن الكريم دراسة مستوعبة وكتابة تفاسير لبعض السور، أجمع عزمه على كتابة نماذج من التفسير الموضوعي المقترح ، ليعبد الطريق للمحققين الذين يحلولهم السير فى هذا السبيل ومن الطبيعي ان مثل هذا العمل الاسلامي الكبير خارج عن نطاق شخص واحد ، ويحتاج الى ذوي الاختصاص من العلماء كما ذكر سابقاً ، ولكن بدىء به من زاوية من زواياه ، كان المؤلف أشبعها بحثاً ودراسة وهيأ موادها من ذي قبل .

انه فكر فى نفسه : ربما لايتحقق هذا الامل الجديد ، أو لايسعفه الاجل فى أن

يرى انجازه كما يتصوره ويود انجازه ، فعزم على ان يخطو خطوة نحوه ، ورائـده «الميسور لايسقط بالمعسور» وعندما يهيء الله تعالى جماعة من محققي الاسلام لهذا المشروع ،يمكنهم اعتبار هذا الكتاب جزءاً من دائرة معارف القرآن بعد سد مايرون فيه من النقص الذي هو من لوازم عمل الفرد .

* * *

بين الموضوعات الكثيرة التي وردت فى القرآن الكريم اخترنا تفسير موضوعين فقط ، هما :

١ ـ المعارف العقلية والاصول الاعتقادية فى القرآن .

٢ ـ تشريعات القرآن وأحكامه .

ومن المعارف العقلية والاصول الاعتقادية قدمنا مباحث حول النبوة والنبي الكريم صلى الله عليه وآله ، وخصصنا الجزء الاول والثاني من الكتاب بهذا الجانب الخاص فعليه تقرؤن فى الجزء الحاضر الذي تم طبعه المباحث الخمسة التالية :

١ ـ الاسلام شريعة عالمية لااقليمية .

٢ ـ الخاتمية فى الذكر الحكيم وان الرسول الاعظم هو خاتم الانبياء .

٣ ـ النبي الامي فى القرآن المجيد .

٤ ـ اسماء النبي وصفاته فى القرآن الكريم .

٥ ـ علم الغيب فى الكتاب العزيز .

ولما خرج الجزء الاول الى البياض ، عرضته على **الاستاذ العلامة ،المفكر الاسلامى الكبير السيد محمد حسين الطباطبائى** ـ دام ظله الوارف ـ مؤلف الكتاب القيم «الميزان فى تفسير القرآن» وغيره من الآثار الخالدة ، فقدره واستحسنه وشجعني على مواصلة العمل ، وتفضل بكلمة سجلتها فى صدر الكتاب لتبقى ذكرى خالدة من عواطفه الكريمة المبذولة لأحد تلامذة مدرسته ، وللاستاذ ـ روحي فداه ـ مني تحية عبقة وتمنيات خالصة .

والجزء الثاني من الكتاب الذي سيقدم الى المطبعة قريباً ان شاء الله يتضمن مباحث أخرى حول النبوة والنبي وما يرجع اليه ويتم بها البحث فى الموضوع .

ان الفصول التى يتضمنها هذا القسم من الكتاب ، كانت فى الأصل سلسلة من المحاضرات التي ألقيتها على طلاب الدراسات العالية فى «دار التبليغ الاسلامي» ، ونحن اذنقدمها الىالقراء الكرام ننتظر منالقارىء النقد الموضوعي البناء وتصحيح ما وقعنا فيه من الاخطاء

وفى الختام لو ترتب ثواب على عملي الضئيل فانما اهديه :

الى من بذر نواة وجودي فى هذه الحياة ، وبذل زهرة عمره فى تعاهد هذه البذرة ليضمن لها استمرار النمو .

الى من أنا مدين له في كل شيىء حتى فىهذه الدراسات التي بين يديك .

الى اول من فتح قلبي على اشعة نور القرآن وأرشد عقلي الىالاهتداء بهداه .

الىسيدى الوالدآية الله الشيخ محمد حسين السبحانى تغمدهالله برحمته .

والله ولى التوفيق . . .

قم ـ ايران **جعفر السبحانى**

٢٠ جمادى الاخرة ١٣٩٣

«١»

عالمية الاسلام
على ضوء القرآن المجيد

الحديث عن دعوة الرسول (ص) متعدد الجوانب ، واسع الابعاد ، بعيد الاغوار ، وبالرغم من سعة مجالات القول ، وجوانب البحث فيها ، فاننا نحاول بهذه النظرة الثاقبة الفاحصة ، أن نتحدث عن ناحية خاصة لدعوة الرسول (ص) ، وانها دعوة عالمية لا اقليمية ، وهي من أبرز الخطوط التي يستهدفها القرآن بشأن دعوته ورسالته .

نحن فى رحاب القرآن الكريم ، نسمع نداءه العالمي،وانفصلتنا عنه حُقب بعيدة من الزمان ، ونعي صراحته ومجاهرته : بأن الاسلام عقيدة لا ينفرد بها شعب أو مجتمع بعينه ، ولا يختص ببلد ، أو بلاد معينة ، بل هو دين ذو قوانين تسري على الافراد على اختلافهم : فى العنصر ، والوطن ، واللسان ، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الانسان ، ولا يعترف بأية فواصل وتحديدات جنسية ، أو اقليمية .

فهذا تاريخ دعوته ، وسيرته فى نشر دينه ، نتطلع اليه بشوق ولهفة ، حيث يبدد الدياجير من أمام أبصارنا ، وبصيرتنا ، ويقرب لنا الواقع دونما تكلف ، أو اصطناع .

كانت دعوة الرسول (ص) فى بدء أمرها تدور بين أهله وعشيرته ، ممتثلا لما أمره الله سبحانه بذلك ، بقوله : « وانذر عشيرتك الاقربين » (١) ، والسر فى ذلك ان النفوذ فى الآل والعشيرة ألزم وأسهل من الاجانب والاباعد .

مضى رسول الله (ص) فى دعوته السرّية ثلاث سنين ، وهو ينذر طيلة تلك المدة قومه وعشيرته ، ويومي الى عموم دعوته تارة ، ويجاهر بذلك اخرى ، ويستنتج ان دعوته وشريعته عالمية ، سوف تعم العالم كله ، ولا تُحبس باطارخاص.

---

(١) الشعراء ١٢٤ .

قال (ص) فى خطاب ألقاه فى داره ، حينما وفد اليه أعمامه وأخواله ومن ، كانت له به صلة :

« والله الذى لا اله الا هو، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة (١) ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون ، وأنها الجنة أبداً ، والنار أبداً » (٢) .

ثم أنه كان ينتهز الفرص ، التي تسنح له للاجهار بدعوته ، الى ان أمره تعالى ان يصدع بما امر به ، وأن ينادي الناس عامة باتباع دينه وشريعته، امتثالا لما أمره سبحانه به ، بقوله :

«فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» (٣) .

فصعد رسول الله (ص) على الصفا وهو يهتف ويقول : واصباحاه ! فاجتمع الناس حوله ، فقال : ان اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد ان تُغير عليكم ، أكنتم تكذّبوني؟ قالوا : ما جرّبنا عليك كذبا، فقال : يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار ، فاني لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، اني لكم نذير مبين، بين يدي عذاب شديد ، انما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو ، فانطلق يريد اهله فخشي أن يسبقوه الى أهله ، فجعل يقول : ياصباحاه يا صباحاه اوتيتم اوتيتم (٤) .

هكذا بدأت الدعوة الاسلامية ، وهو (ص) يخطو خطوات قصيرة ، يجابه ضوضاء الالحاد بحكمه وعظاته حتى دخل فى الاسلام بعض الشخصيات البارزة ، ممن كانت لهم مكانة مرموقة بين الناس ، وانجذبت اليه قلوب كثير من الشبان ، وأصبحت أفئدتهم تهوي اليه ، غير أن الجو المفعم بالاِحن والضغائن عرقل خطى دعوته ، وتفاقمت جرائم قريش نحوه ، فأجمعوا أمرهم على أن يُخفقوا ندائه ، بانهاء حياته واطفاء نوره ، حيث اجتمع سادتهم فى دار الندوة ، وأجمعوا على

(١) أليس هذا تصريحاً بعمومية رسالته فى بدء دعوته ؟
(٢) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٤١ .
(٣) الحجر ـ ٩٤ .
(٤) السيرة الحلبية ج ١ . ص ٣٢١ ، المقصود : هوجمتم من قبل العدو .

أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً ، ويسلموا له سيفاً صارماً ، وأوصوا هؤلاء الشباب بأن يضربوه ضربة رجل واحد ، حتى يموت، فيستريحوا منه ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً ، ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم .

ولكن الله ردكيدهم ، وصدّهم عن ذلك ، وخيب حيلتهم ، وأخبر الرسول صلى الله عليه وآله عن المكيدة الداهمة ، فغادر مكة متوجهاً الى « يثرب » حتى دخلها ، فاجتمع حوله رجال من الاوس والخزرج ، وبايعوه ، ووعدوه بالنصر ، والمؤازرة والحراسة .

والرسول (ص) وان غادر مكة ، وترك قومه ، الاّ أن قومه لم يتركوه ، بل أججوا نار الشحناء عليه ، ودارت بينهم وبين الرسول حروب دامية ، وحملات طاحنة ، وبذلت قريش آخر ما في وسعها ، ورمت كل ما في كنانتها ، وبالغت في تقويض الاسلام ، وهدم بنائه ، الى أن دخل العام السادس ، من الهجرة ، فتعاهد الفريقان في أرض الحديبية على هدنة تدوم عشر سنوات ، بشروط خاصة .

هذا الحلف الذى تحالف به المسلمون في الحديبية ، انقلب الى فتح مبين للاسلام ، فانتهز الرسول (ص) الفرصة لنشر دعوته في البلاد البعيدة ، فبعث الرسول(ص) سفراءه وفي أيدي كل واحد كتاب خاص الى قيصر الروم ، وكسرى فارس ، وعظيم القبط ، وملك الحبشة ، والحارث بن ابي شمر الغساني ، ملك تخوم الشام، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة ، بل الى رؤساء العرب، وشيوخ القبائل ، والاساقفة ، والمرازبة ، والعمال ، يدعوهم الى دين الاسلام ، الذي هو دين السلام ، ورسالته من الله وما انزل اليه من ربه .

وهذه المكاتيب أول دليل على أن رسالته، عالمية ، لا تُحدّد بحد، بل تجعل الارض كلها مجالا لاقامة هذا الدين ، ودونك نماذج مما ورد في تلكم الرسائل :

١ ـ كتب الى كسرى ، ملك فارس :

« **بسم الله الرحمن الرحيم** ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس :

سلام على من اتبع الهدى . . . أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأُنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تُسلم ، فان أبيت فعليك اثم المجوس » (١) .

٢ – وكتب (ص) الى قيصر ملك الروم :

«**بسم الله الرحمن الرحيم** ، الى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تُسلم ، يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسين» (٢) .

وما ذكرناه نماذج من رسائله ، وكتاباته الابلاغية ، وفيه وفي غيره مصارحة شديدة بأنه رسول الله الى العرب والعجم ، والى الناس كلهم ، من غير فرق بين اللون، والجنس، والعنصر والوطن ، ويمتد شعاع رسالته بامتداد الحضارة،ووجود الانسان ،وانه (ص) يكافح كل مبدأ يضاد دينه ، وكل رسالة تغاير رسالته ، وقد جرى الرسول (ص) عليه طيلة حياته الرسالية، حتى التحق بالرفيق الاعلى .

يقول سير توماس ارنولد : « ان هذه الكتب قد بدت فى نظر من ارسلت اليهم ضرباً من الخرق ، فقد برهنت الايام على انها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء . وتدل هذه الكتب دلالة اكثرَ وضوحاً وأشدَ صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الاسلام». فقد قال الله تعالى فى سورة ص ٣٨ – ٨٧ – ٨٨ : «ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين» . وفى سورة يس : «وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين» ٣٦ – ٦٩ – ٧٠ . وفى سورة الفرقان : «تبارك الذي نزل على عبده ليكون للعالمين نذيرا» ٢٥ – ١ . وقال سبحانه : «وما أرسلناك الا كافة للناس ، بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون » سورة سبأ ٣٤ – ٢٨ . وقال : «قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً» سورة الاعراف ٧ – ١٥٨ .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٩٥ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٦١ وغيرهما .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٥ ، مسند احمد ج ١ ص ٢٦٣ وغيرهما .

«ومن يبتغ غيرالاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين» سورةآل عمران ٣ ـ ٨٥ . وقال : «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً » سورة النساء ٤ ـ ١٢٥ . وقال : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولايحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون،وقالت اليهود عزير ابن‌الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول‌الذين كفروا من قبل قاتلهم‌الله أنى يؤفكون،اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من‌دون‌الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولوكره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» التوبة ٩ ـ ٢٩ ـ ٣٣ ، (١).

تأثير تلكم الكتب :

ومما يدل على أن هذه الكتب لم تصدر عن حماسة جوفاء ، انه قد كانت لها أثر بديع فى أكثر هذه الاوساط ، اذ تجاوبت مع شعور كثير منهم ، فهبتهم من رقدتهم ، ونهضتم من كبوتهم ، فأصبحوا متفكرين من مُلبّ لدعوته ، وخاضع لرسالته ، ومؤمن بما اتاه ، الى معظم لرسله ، ومجيز لهم ، ومكبر اياه بارسال التحف الثمينة ، ودونك صورة مصغرة مما أثارته تلكم الكتب فى هذه البيئات ، وقد روى أصحاب السير والتاريخ أموراً كثيرة يطول بنا المقام بذكرها :

قال قيصر لاخيه ، حين أمره برمي الكتاب : أترى أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر. وقال لابي سفيان : ان كان ما تقول حقاً فانه نبي ، ليبلغن ملكه ما تحت قدمي .

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٤ .

وخرج **ضغاطر** اسقف الروم بعد قراءة الكتاب ، الى الكنيسة وقال في حشد من الناس : يا معشر الروم انه قد جاءنا كتاب أحمد ، يدعونا الى الله واني اشهد أن لا اله الا الله وأن أحمد رسول الله .

وقال **المقوقس**: اني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده ساحراً ضالا ، ولا كاهناً كذاباً .

وكتب **فروة** عامل قيصر بعمان الى رسول الله كتابه ، اظهر فيه اسلامه، فلما اطلع عليه قيصر اخذه واستتابه ، فأبى ، فأمر بقتله ، فقال حينما يُقتل :

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي وبناني

وكتب هوذة بن علي ملك اليمامة الى رسول الله : ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله.

ولبى دعوة الرسول **المنذر بن ساوى** ملك البحرين وأظهر اسلامه .

و أجابه ملوك حمير ، وأساقفة نجران ، ولباه عمال كسرى باليمن ، واقيال حضرموت ، وملك ايلة ، ويهود مقنا بالاسلام ، أو باعطاء الجزية .

وكتب **النجاشي** ملك الحبشة ، كتابه المعروف ، وأظهر اسلامه ، الى حد صلى عليه النبي (ص) عند ما بلغه موته (١) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، من تأثير دعوته العالمية ورسالته العامة.

نعم قد شذ منهم كسرى ـ ومن لف لفه ـ وهو ذلك الملك الذي ورث السلطة والحكم عن اجداده من آل ساسان ، فأبى ان يكون تابعاً للعرب ، وخشى من هذا الدين على شخصه وملكه .

ولاجل ذلك لا تعجب اذا ثارت ثائرة كسرى ، فمزق كتاب الرسول، وأرسل الى باذان ، عامله باليمن ، وكتب اليه : «ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز ، رجلين جلدين فليأتياني به» (٢) .

---

(١) راجع في نصوص ما دار بينهم وبين الرسول (ص) الى كتاب «مكاتيب الرسول» .

(٢) الكامل ج ٢ ص ٨١ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٨ ، الى غير ذلك .

هذه صورة اجماليه من بدء دعوته الى ختامها ، أتينا بهـا بصورة مصغرة ، ليقف القارىء على ان دعوته لم تكن مقصورة على بلد خاص ، أو شعب خاص ، بل كانت عالمية غير محدودة،وان مرماه هو القضاء على النزعات الاقليميةوالمحلية والاديان السالفة ، وتذويبها فى اطار رسالتهالعالمية الواسعة النطاق ، وأنه(ص)كان يصرح بذلك فى بدء دعوته ، وأثنائها . . ومختتم أمره .

النصوص القرآنية فى عالمية رسالتـه :

هلم معنا نتلو عليك نصوص القرآن الدالة على ان رسالته ، رسالة عالمية ، وان دعوته لا تختص باقليم خاص ، أو أمة معينة ، وان مرماه اصلاح المجتمع البشري على وجه الاطلاق . ويمكن الاستدلال على ذلك بوجوه :

الاول ـ انكثيراً من الايات تصرح بأن رسالته عالمية ، وانه رسول الله الى الناس جميعاً ، وان الله أرسله رحمة للعـالمين ، وأن يكون بشيراً ونذيراً للنـاس كافة ، وأنه ينذر بقرآنه كل من بلغه كتابه وهتافه ، من غير فرق بين شخص دون شخص ، أو عنصر دون آخر ، ودونك بعض النصوص من هذا القسم :

١ ـ «قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً» (الاعراف ـ ١٥٧) .

٢ ـ «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (الانبياء ـ ١٠٧) .

٣ ـ «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (الفرقان ـ ١).

٤ ـ «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً» (سبأ ـ ٢٧) .

٥ ـ «وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ . . .» (الانعام ـ ١٩) . ـ أي كل من بلغه القرآن ، ووصلت اليه هدايته فى أقطار الارض ـ .

٦ ـ «وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً» (النساء ـ ٧٩) .

٧ ـ «هوالذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون» (الحجرات ـ ٩) .

٨ ـ «هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» (آل عمران ـ ١٣٨).
وهذه الايات ونظائرها ممالم ننقلها صريحة فى ان هتاف النبي(ص) لايختص بأمة دون امة ، وأنه بعث الى الناس كافة مبشراً ومنذراً لهم جميعاً .

الثانى: ان القرآن كثيراً ما يوجه خطاباته الى الناس غيرمقيدة بشيىء ، وهذا دليل واضح على أن هتافاته وتوجيهاته تعم الناس كافه ، ودونك نماذج من هذا القسم:

١ ـ «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» (البقرة ـ ٢١).

٢ ـ «يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين» (البقره ـ ١٦٨) . الى غير ذلك . . .
فترى أنه يخاطب الناس ، ويقول : يا أيها الناس . . . تصريحاً منه على أن رسالته السماوية الى الناس كلهم ، لا الى صنف خاص منهم .
فلو كان الاسلام ديناً اقليمياً ، ورسالته طائفية ، فلماذا يأتي هتافاته بلفظ **«يا أيها الناس»** ؟ ! .
فقد تكرر هذا النداء فى الكتاب ستة عشر مرة .
بل لماذا يخاطب اهل الكتاب ويناديهم بقوله : **«يا اهل الكتاب»** ؟ فقد ورد هذا الخطاب فى الذكر الحكيم اثني عشر مرة .

وربما يستدل فى المقام بالخطابات الواردة فى القرآن موجهة الى بني آدم، لكن الاستدلال بها لا يخلو من الاشكال ، كما سنوافيك بيانه عند البحث عن ختم الدين والرسالة (١) .

الثالث : ان القرآن ربما يأخذ العنوان العام موضوعاً لكثير من احكامه ، من غير تقييد بلون ، أو عنصر ، أو ملة أرض خاصة ، وهذا يكشف عن أنه بُعث الى اصلاح المجتمع البشري فى مشارق الارض ومغاربها ، وأن الرسالة التي أُلقيت

(١) راجع الفصل الثانى من هذا الجزء .

على عاتقه لا تتحدد بحد ، ودونك نماذج من هذا القسم :

١ ـ «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» (آل عمران ـ ٩٧) .

فقد أوجب حج البيت على الناس اذا استطاعوا اليه ، عرباً كانوا ، أم غير عرب ، وهو سبحانه لم يقل : لله على الامة العربية ـ مثلا ـ حج بيته .

٢ ـ «والمسجد الحرام جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد» (الحج ـ ٢٥).

٣ ـ « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » (لقمان ـ ٦) .

فذم سبحانه كل من اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله كائناً من كان ، الى غير ذلك من الايات .

الرابع : صريح القرآن ان هدايته لاتختص بمجتمع خاص ، بل تعم كل من تُظله السماء ، وتُقله الأرض . ودونك بعضها :

١ ـ «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا» ، (النساء ـ ١٧٤) .

٢ ـ «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس . . . » (البقرة ـ ١٨٥).

٣ ـ «ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون» ، (الزمر ـ ٢٧) .

٤ ـ «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور» (ابراهيم ـ ١)

أليست هذه الايات صريحة فى ان القرآن نور وهدى للناس كله ، لا للعرب خاصة ، ومعه كيف يمكن ان نحمل رسالته على انها مختصة بأمة دون امة .

هذه جوانب تلقي ضوءاً على البحث، وتهدف الى أمرواحد : وهو أن رسالته ذات نزعة عالمية ، غير محدودة بحد ، لا يحدها قطر ، ولا يقيدها شيء آخر من ألوان التحديد والتقييد ، نعم مبدأ البرهان فى كل واحد يختلف مع ما فى الاخر

ـ كما يظهر ذلك بالامعان والتدبر ـ (١) .

البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر :

وهناك لون آخر من البحث يتصل اتصالا وثيقاً بطبيعة الاسلام ، وبفكرته الكلية ، عن الكون والحياة والانسان،ونظرته الوسيعة الثاقبة فى التقنين والتشريع، وان شئت فاجعله خامس الوجوه :

بيانه : ان الحقائق الراهنة التي جاء بها الصادع بالحق، فى مختلف الابواب والفصول ، لاتستهدف سوى تبني الواقع، ولاتأخذ غيره دعامة ، ولاتخضع لشرط من الشرائط الزمانية والمكانية الا لنفس الامر .

وان شئت فقل : ان الاسلام لا يعتمد فى احكامه وتشريعاته وما يرجع الى الانسان فى معاشه ومعاده ، الا على مقتضى الفطرة التي فطرعليها كل بني الانسان، السائدة فى كافة افراده، فى عامة اقطار الارض جميعاً ، واذا كان الحكم والتشريع موضوعاً على طبق الفطرة الانسانية السائدة فى جميع الاقطار والافراد ، فلا وجه لاختصاصه باقليم دون اقليم ، أو بشعب دون شعب (٢) .

ولا يجد الباحث مهما اوتي من مقدرة علمية كبيرة فى ما جاء به نبي الاسلام صلى الله عليه وآله، على سعة نطاقه ، وبحثه فى شتى الجهات ، ومختلف النقاط، أي طابع اقليمي ، او صبغة طائفية، وتلك آية واضحة على ان دعوته دعوة عالمية، لاتنحيز الى فئة معينة ، ولا تنجرف الى طائفة خاصة .

هذا هو الاسلام وتعاليمه القيمة ومعارفه الاعتقادية ، وسننه التشريعية فأمعن فيها النظر مرة بعد اخرى ، فهل تجد فيه ما تلمح الى كونه ديناً اقليمياً خاصاً ، أو شريعة لفئة محدودة ، فان للدين الاقليمي علائم وامارات ، أهمها أنه يعتمد فى معارفه

---

١ ـ هذه الوجوه الاربعة تختلف فى طريق البرهنة على المطلب ، فقد استدل فى الوجه الاول بتصريح القرآن على عموم رسالته ، واعتمد فى الثانى على هتافات القرآن وعمومية خطاباته فى الفروع والاصول ، وفى ثالثها على أن القرآن كثيراً ما يتخذ العنوان العام لموضوع أحكامه ، وفى رابعها على نص القرآن بأن هدايته وانذاره لايختص بشعب خاص.

(٢) سوف نرجع اليه فى ختام البحث ، ونجعله دليلا مستقلا على عمومية رسالته .

وتشريعاتـه على خصوصيـات بيئية ، أو شرائط محلية ، بحيث لو انقلبت تلكم الخصوصيات الى غيرها ، أصحبت السنن والطقوس المعتمدة عليها كسراب بقيعة يحسبه الظمأن ماء ، وصار النافع منها ضاراً ، فهل تجد أيها الباحث فى مـا جاء به الاسلام شيئاً من تلكم الامارات .

هلم معي نحاسب بعض ما جاء به الاسلام فى ميادين العلم والعمل ، ونضعها على طاولة الحساب ، فنكون على بصيرة كاملة فى هذا الموضوع : فقبل كل شيىء، لاحظ كتاب الله العزيز ، ومعجزة الاسلام الخالدة ، فقد انبثق نوره منذ أربعة عشر قرناً . حين كانت البشرية تسبح فى ظلام دامس مخيف، ضاعت فيه كرامة الانسان، وحريته ، وسـاد العداء والتنازع بين الناس ، وكان نظام الغـاب وحده ، مفزعـاً للناس وملجأ اليهم .

وفى تلك الظروف جـاء القرآن نوراً يستضيىء به العـالم ، ويعيد للانسان كرامته ومكـانته وحريته ، مؤسساً لمجتمع قـائم على أساس وطيد من العدالـة الاجتماعية ، سواء فى ذلك انسان الجزيرة العربية أم غيرها .

هلم معى نستعرض تعاليمه ، فهل نرى آية من آيـاته الباهرة ، أو قـانوناً من قوانينه ، أو حكمة من حكمه ومعـارفه ، أو سنة من سننه ، أو طقساً من طقوسه ، تسود فى مجتمع دون آخر؟ تجري فى اقليم دون اقليم ؟ تبلغ بمجتمع خاص الى قمة الرقيّ والحضارة ، وتُسف بملة اخرى الى هوة الضلال والجهل ؟ ! .

ليت شعري ماذا يريد القائل من كلمته القارصة، أو فريته الشائنة ؟ : «الاسلام دين طائفى ، او مبدأ اصلاح اقليمى ، لايصح لعامة المجتمعات ، ولايصلـح لعامة القارات ، ولاتسعد به الانسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها» .

ليت شعري ماذا يريد منها ؟ ايريد معارفه العليا فى باب الصانع وصفاته، وما جاء فى ذلك الباب من الحقايق الغيبية ، والكنوز العلمية ، التى لم تحم حولهـا فكرة انسان قبله ، ولم توجد فى زبر الاولين مثلها ، او شبها.

فلو اراد ذلك، فتلك فرية بينة،اذالاسلام قداتى بفلسفة صحيحة وعرفان رصين

وتوحيد خالص ، فيه دواء المجتمع البشري فى الاقطار كلها .

ترى ويرى كل من له المام بالاسلام انه كافح كل لون من الشرك ، كافح عبدة الاصنام والاجرام السماوية ، كافح كل تعلق بغيره سبحانه ، وتخضع لشيء دون الخالق ، وأنجى المجتمع البشرى من مخالب الشرك ، ومصائد الضلال ، ونهاه عن عبادة حجر لايعقل او شجر لايفهم ، اوحيوان لايدفع عن نفسه ، اوانسان محتاج مثله ، او غيرها من الارباب الكاذبة، فأعاد للانسان كرامته وحريته ومكانته المرموقة سواء فى ذلك انسان الجزيرة أم غيره .

ايحسب هذا القائل ان ذاك التوحيد ، وهذا العرفان مختصان بقوم دون قوم، كيف ؟ فاذا كان النبي لا يستهدف سوى الواقع ولا يتبنى غيره، وبعبارة صحيحة: اذا كان لايوحى اليه سوى الحقيقة المجردة عن شوب كذب ، فلاوجه لان يختص بأمة دون امة .

ودونك سورة الحديد والآيات التى وقعت فى صدرها، فاقرأها بامعان وتدبر، فهل يعلق الشك بضميرك الحر ، انها تعاليم ومعارف تختص بمنطقة خاصة ولاتصلح للتطبيق في مناطق اخرى ، الى غير ذلك من الآيات الواردة فى العقائد والمعارف .

أم يريد ان احكام الاسلام وتشريعاتـه فى العبادات والمعلاملات والاخلاق وغيرها ، قوانين اقليمية ، لاتصلح الالظروف خاصة ، ولا تفيد الا فى شبه الجزيرة العربية، ولايسعد بها الا انسانها ، دون اناس المناطق الاخرى، الا ان تلك فرية بينة ليست فيها مسحة من الحق او لمسة من الصدق ، فهـذه فروعه ودساتيره وطقوسه واحكامه . لاتجد فيها اثراً للطائفية او امارة للاقليمية .

ضع يدك على النظام الاجتماعى الذى جاء به الاسـلام فى ابواب النـكاح والزواج ، واحكام الاولاد والنشوز والطلاق والفرائض ، واصـلاح حال اليتامى ، وانفـاذ الوصايا ، والاصلاح بين النـاس ، واداء الامانـة ، وحسن السلوك معهم ، والتعاون والاحسان ، الى غير ذلك ممايجده الباحث فى النظام الاجتماعى للاسلام .

ضع يدك على النظام الاخلاقى الذى فاق بـه الاسلام ، كافة الانظمـة الخلقية

التى كانت قبله ، او تأسست بعده ، فأمر بالصدق واداء الامانة ، والصبر والثبات وحسن الظن بالناس ، والعفو والغفران والقرى والضيافة ، والتواضع ، والشكر والتوكل ، والاخلاص فى العمل الىغير ذلك مما امربه ، او مانهى عنه كالبخل والاختيال ، والبهتان والغصب ، والاثرة ، والحسد ، والغش والبغى والخمر والميسر، والجبنوالغيبة والكذب، والاستكبار والرياء، والعجب والتنابزبالالقاب، والانتحار والغدر و . . .

ضع يدك على نظامه السياسى فى باب الحكم والسياسة، وما اتى فىاصلاح نظام الحرب ، ودفع مفاسدها ، وقصرها على مافيه من الخير للبشر، وايثار السلم على الحرب،وعلى الانظمة والقوانين التي جاء بها فى ابواب العقودوالمعاملات ، فأوجبحفظالمال عنالضياع والاقتصاد فيه وجعل فيهحقوقاً مفروضة ومندوبة،وأحل البيع وحرم الربا ، ونهى عن الغشوالتطفيف ، الى غير ذلك ممايجده السابر فى كتب الفقه والاحكام .

قل لي بربك هل تجد فى هذه الانظمة، او فى ثنايا هذه الابواب والاحكام، حكماً او احكاماً فيها تفكير طائفي او نزعة اقليميه . وان كنت في ريب فاقرء الايات التالية ومئات نظائرها ، تجدها دواء المجتمع الانسانى فى الاقطار كلها :

١ ـ «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تتقون» (النحل ـ ٩٠) . أليست هذه القوانين عماد الاصلاح ، وسناد الفلاح فى عامة القارات ؟

٢ ـ هلا كان منه قوله سبحانه : «انالله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها» (النساء ـ ٨٥) .

وقد ندد الله باليهود فى تجويزهم خيانة الاميين، يعني العرب المشركين ومن ليس فى دينهم،وقال: « ومنهم من ان تأمنه بدينار لايؤده اليك الا مادمت عليهقائماً ذلك بأنهم يقولون ليس علينا فى الاميين سبيل ، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون» (آل عمران ـ ٧٥) .

وليس هذا الا لان دينهم على زعمهم كان طائفياً ، فالحرام عندهم هو خيانة يهودي ليهودي مثله لاغير ، واما الاسلام فلما كان عالمياً غير مختص بطائفة دون اخرى ، فحرّم الخيانة مطلقاً على المسلم والكافر، وذلك آية كونه عالمياً لاطائفياً ولا اقليمياً .

٣ ـ أوليس منه قوله سبحانه : «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» ، (آل عمران ـ ١٠٤) .

وقد عرضنا هذه الايات بسبيل التنويه ، فليس معنى هذا ، ان ماجاء به الاسلام فى طريق اصلاح المجتمع ، محصور فى هذا النطاق ، فان فى كثير من الايات التي لم نأت بها تنويهاً بمختلف الاخلاق الفاضلة الانسانية،والشخصيةوالاجتماعية، من صدق ، وعدل ، وبر ، وأمانة ، وصلة رحم ، ولين جانب ، ووفاء عهد ، ووعد ، ورحمة للضعيف ، ومساعدة للمحتاج ، ونصرة للمظلوم ، وصبر ، ودعوة الى الخير ، وتواص بالحق ، وعدم اللجاج فيه ، والانفاق لله . والدعوة الى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدل بالتي هي احسن ، والتعاون على البر والتقوى ، والرغبة فى السلم .

كما احتوت آيات كثيرة تنديداً بمختلف الاخلاق السيئة والخصال المذمومة من كذب ، وظلم ، وبغي ، واثم ، وقتل نفس، وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض، وافك وزور ، وعربدة سكر، واسراف ، وتبذير، وخيانة ، ونكث وغدر، وخديعة، وقطع رحم ، وأكل اموال الناس بالباطل ، وجبن ، وشح وأمر بمنكر ، وغلظة قلب ، وفظاظة خلق ، ورياء ومكابرة وانتقام باغ ، وتناقض بين القول والعمل وغرور ، وصد عن الحق، الى غير ذلك من مساوىء الاخلاق ومحاسنها التي تجد نصوصها مثبوتة فى القرآن الكريم . وتسهل عليك مراجعتها والاهتداء والتدبرفي معانيها اذا لاحظت كتاب **«تفصيل آيات القرآن الكريم»** (١) ، و **«المعجم**

(١) تأليف المسيو جول لابوم ، وقد وضع كتاباً باللغةالفرنسية ، جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها ، ووضع كلا منها فى باب أو أبواب خاصة ، حسب ما فهم منها ، ولكنه اخطأ فى كثير من معانيها ، فانه اكتفى فى ترتيبه وتنسيقه بما فهمه من ظواهر الايات ، حسب اللغة العربية وقواعدها، من دون أن يرجع الى أسباب النزول، وسنة النبى وسيرته والائمة من بعده .

المفهرس »(١) وغيرهما من الكتب والمعاجم .

هذا وقد عاشت الامة الاسلامية بل الانسانية جمعاء (٢) فى ظل هذه الدساتير ونظائرها الوافرة فى اجيال متتابعة ، وفى حقب من الزمان والمكان ، فلو كانت مختصة باقليم خاص، لادت الى التناحر والاندحار فى الاقاليم الاخر، لا الى الرقي والحضارة (٣) .

الدعوة الى الفطرة ، أساس الاحكام الاسلامية :

لقد بني الاسلام احكامه وتوجيهه فى العلم والعمل على الفطرة الانسانية السائدة فى جميع الاقطار والافراد ، فدعا الى التوحيد المطلق ، وقرر مبادىء العدالة والحرية والمساواة والاخاء بين الناس كافة والديمقراطية الحقة، ونشر العلم والحضارة وقضى على الرذائل والمنكرات، والشهوات الجامحة ، والتقاليد البالية، والخرافات الكاذبة ، والرهبانية المبتدعة ، وأمر بالفضائل والصدق فى القول والوفاء بالعهد ، والاجتناب عن العزوبة بنكاح الحرائر والاماء الى غير ذلك من ألوف الاحكام والتشريعات التى اشرنا الى كثير منها وتعتبر بمجموعها دعائم الاصلاح فى العالم كله ، ولاتنازع الفطرة بل تطابقها ولاتتخلف عنها قدر شعرة .

فاذا كانت الفطرة الانسانية واحدة فى الجميع، وكانت الاحكام الاسلامية مبنية عليها فى جانب التشريع ، فلاوجه لان تختص بقوم دون قوم ، وهذا بحث لطيف، سوف نرجع اليه ان شاء الله عند البحث عن كون نبى الاسلام خاتم النبيين، ودينه

(١) تأليف محمد فؤاد عبد الباقى المصرى .

(٢) اعترف به المستشرق غوستاف لوبون فى آخر كتابه .

(٣) نعم كل امة ركنت الى الدعة والراحة،وحنت الى تقليد عادات الاجانب فى معترك الحياة ، ونسيت مكانتها ورسالتها ، وقوانينها واخذت بغيرها ، رجعت الى ورائها القهقرى ، وعلى هذا الاساس تعيش الامة الاسلامية فى هذا العصر فى انحاء العالم ، فتراها متفرقة الكلمة ممزقة القوى ، تأكلها حثالات الارض .

خاتم الاديـان وبـه نجيب على الاشكال الدارج على ألسنة بعض المستهترين ممن لايؤمن بصريح القرآن فى مسألـة الخاتمية ويقول : « ان النصوص الشرعيـة فى الكتاب والسنة محدودة ، وحوادث الناس ومقاصدهم متجددة و متغيرة ، ولايمكن ان تفى النصوص المحـدودة بالحوادث المتجددة الطارئة » فارتقب حتى يأتيـك الجواب والبيان .

الاسلام يكافح المبادىء الرجعية :

وأدل دليل على ان الاسلام رسالة عالمية، انه يكافح النزعات الاقليمية والطائفية ولا يفرق بين اللون والجنس والعنصر ولا يفضل احداً على احد الا بالتقوى، و يُزيف كل مقياس سواه ويقول: «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (الحجرات ـ ١٣) .

كفى له فخراً انه أول من حارب العصبية والنعرات الطائفية ودعا الى الاخوة الانسانية، والزمالة البشرية، والانضواء تحت لواء واحد، الا وهو لواء التوحيد المطلق.

أجل حارب العصبية ، والنعرات الطائفية فى ظل وحدات ثمان ، وهو أول من اسسها وأشاد بنيانها ، أعني : وحدة الامة ، وحدة الجنس البشري ، وحـدة الدين ، وحدة التشريع ، وحدة الاخوة الروحية ، وحدة الجنسية الدولية ، وحدة القضاء ، بل وحدة اللغة الدينية (١) .

وقد بلغت بها الامة الاسلامية فى العصور السالفة المزدهرة، الذروة من المجد والعظمة ، فأصبحت ساسة البلاد وحكام العباد .

أوليس الرسول (ص) قائل تلكم الكلم الدرية التالية ، القاضية على كل نعرة

(١) كل ذلك دليل على عالمية تشريعه ، وسعة نطاق رسالته ، ويجد الباحث من الذكر الحكيم والاحاديث الاسلامية ، دلائـل واضحة على كـل واحدة من هـذه الوحدات . فلا نقوم بذكرها لئلا يطول بنا المقام .

طائفية ، والانتماء الى فئة خاصة والاتجاه الى نجاح شعب خاص ، فكيف تُرمى شريعته بالطائفية وانقاذ ملة معينة دون غيرها ؟

١ ـ قال (ص) : «أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا انكم من آدم وآدم من طين ، ألا ان خير عباد الله ، عبد اتقاه» (١) .

٢ ـ «ألا ان العربية ليست باب والد ، ولكنها لسان ناطق ، فمن قصرعمله لم يبلغ به حسبه» (٢) .

٣ ـ «ان الناس من عهدآدم الى يومنا هذا ، مثل اسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لاحمر على أسود الا بالتقوى» (٣) .

٤ ـ «انما الناس رجلان: مؤمن تقي، كريم على الله وفاجر شقي هين على الله» (٤).

وللدكتور حسن ابراهيم حسن هنا كلمة قيمة ، يقول :

«ينكر بعض المؤرخين ان الاسلام قد قصد به مؤسسه فى بادىء الامر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الايات البينات ومن بينهم «وليم ميور» اذ يقول :

«ان فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الايات والاحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض انه فكر فيها ، كان تفكيره تفكيراً غامضاً ، فان عالمه الذي كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب كما ان هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها ، وان محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث الى ان مات الا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى ان نواة عالمية الاسلام قد غرست ولكنها اذا كانت قد اخترت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا الى الظروف والاحوال اكثر منه الى الخطط والمناهج» .

«وكذلك شك «كتياني» فى ان يكون النبي قد تخطى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو امم العالم فى ذلك الوقت الى هذا الدين» .

(١-٢-٣-٤) راجع فى الوقوف على مصادر هذه الكلمات : روضة الكافى ص ٢٤٨ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤١٢ ، بحار الانوار ج ٢١ ص ١٠٥ ، والشرح الحديدى ج ١٧ ص ٢٨١ .

«ومن الغريب أن يشك «وليم ميور» في صحة دعوى عموم الرسالة ، وأن يبني شكه هذا على ان محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة ، وانها كانت عالمه الذي لم يفكر في سواه ، وان هذا الدين لم يهيأ الا لتلك البلاد ، وأن محمداً منذ بعث الى ان مات لم يوجه دعوته الا للعرب دون غيرهم ، فهل خفيت على ذلك المؤرخ صلة قريش بدول ذلك العهد ، وما اتاحته لها التجارة من دربة وخبرة بشؤن هذه الامم وأحوالهم، وان محمداً بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة لبلاد الشام ، فقد سافر وهو صبي مع عمه «ابي طالب» في تجاراته حتى اذا بلغ خديجة ما بلغها عن خبرته وامانته ، القت بمالها بين يديه ، فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها ، ثم ظل يشتغل بالتجارة حتى بعث ، فبعد ذلك يمكن ان يقال عن محمد انه كان لا يعرف غير بلاد العرب وهو رجل عصامي لم يكسب مركزه الممتاز في مكة قبيل البعثة من ذكاء عقله وكفاية مواهبه» .

«هل يستبعد على محمد الذي خرج من مكة ناجياً بنفسه ونفس صاحبه ان يتخطفها الناس لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صبر وصابر حتى عاد الى مكة بعد ثماني سنين وهو السيد الامر فيها وفي الجزيرة ، تحوم حول شخصه مائة الف من القلوب او تزيد ، ومن ورائهم كثيرون من ارجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها، هل يبعد على هذا الرجل ان يرنوا بناظره الى ما وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه، ان كان من محبي السلطة والحكم أو ليفيض عليها من فضل الله الذي غمر الجزيرة وملأها عدلا وأمناً ودعة وحباً» .

«لو قيل ان **الاسكندر المقدوني** كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كله وتجعله يلتف حول هذا الشاب الاغريقي لصدقنا ، ولو قيل ان «**نابليون**» كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد ، ليجلس على عرشها الفتى الطلياني لصدقنا» .

«أما اذا قيل ان محمد بن عبد الله (ص) فكر في ان يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب المتصلين بقريش ـ اتصالا تعيش عليه قريش وينبني على أساسه كل شيء

فى البنية القرشية ـ فذلك امر يعز على البحث النزيه والعقل الحر (بزعم «وليم ميور») ان يقبله الا أن يكون تفكير ذلك النبي ، هذا الامر تفكيراً على نحو غامض.

«وأما القول بأن ذلك الدين لم يهيأ الا لبلاد العرب ، فان ذلك لم يمنع محمداً من التفكير فى تعميم دينه ، لان هذا التفكير سواء أتحقق أم لم يتحقق ، انما يعتمد على اعتقاده ان دينه صالح لذلك ، وقد ثبت من القرآن انه كان يعتقد ان الاسلام قد هيىء لكل حالة ، وان القرآن قد تكفل بتبيان كل شيىء ، اذ يقول الله تعالى لرسوله فى غير آية: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (سورة النحل ١٦ ـ ٨٩) .

«ويؤيد دعوى عموم الرسالة للجنس البشري قول محمد (ص) ان بـلالا أول ثمار الحبشة ، وان صهيبـاً أول ثمار الروم ، وكذلك ما قاله عن سلمان الذي كان أول من أسلم من الفرس، فكان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق هذا الدين الجديد فى السنة الاولى من الهجرة ، وهكذا صرح الرسول فى وضوح وجلاء ، ان الاسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل ان يدور بخلد العرب أي شيىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، ويؤيد ذلك ما ورد فى القرآن الكريم فى تلك الايات البينات» (١).

دحض شبهة فى المقام :

لقد بانت الحقيقة ، وحصص الحق بما أسهبناه من الكلام حول عالمية رسالة نبي الاسلام ، فلم تبق للمجادل كلمة ، ولا للمشكك شبهة فى هذا المضمار .

نعم حاول بعض المستهترين من المعاصرين التشكيك فيها مستدلا بقوله تعالى:

«وهذا كتاب أنزلناه مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالاخرة ، يؤمنون به وهم على صلوتهم يحافظون (الانعام ـ ٩٢)

(١) تاريخ الاسلام السياسى ـ الطبعة الخامسة ـ ج١ ص١٦٨ ـ ١٧٠ ، وذكر فى المقام بعض الايات التى تدل على عمومية رسالته .

وقال سبحانه : «وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنـذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (الشورى ٧)

قال : حدد سبحانه نطاق رسالته وجعلها فى اطار « **ام القرى ومن حولهـا**» و«ام القرى» اما علم من اعلام مكة، أو كلي اطلق عليها فى هذه الاية ، وعلى أي تقدير فرسالته مختصة بمن يعيش فيها وفي ما حولها من اقطار الجزيرة العربية .

قلت : غير خفي على القارىء النابه ان ما ادعاه من الظهور ضعيف جداً ، ولو سلم فلا يتجاوز حد الاشعار الابتدائي (١) ولا يعتني به تجاه الحجج الدامغة الدالة على سعة نطاق رسالته وعدم محدوديتها بشيء من الحدود والقيود، كما وافاك بيانها.

نحن نسأله لماذا نسى أو تناسى قوله سبحانه فى صدر هذه السورة (٢) الدال على عمومية رسالته ، وان الله سبحانه أمره ان ينذر بكتابه كل من بلغـه هتافه فى اقطار الارض وأرجاء العالم . وقال سبحانه : « قل أي شيىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى، قل لااشهد قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون » (الانعام ـ ١١٩) .

وصريح هذه الاية انه (ص) امر لينذر بقرآنه كل من بلغه ووصل اليه هتافه ، عربياً كان أو أعجمياً ، شرقياً كان أم غربياً ، فلماذا اخذ الكاتب بالاشعار الضعيف وترك التصريح على خلافه مع كونهما فى سورة واحدة ؟ ! .

فلو انه كتب ماكتب بدافع التحقيق والبخوع للحقائق ، فلماذا فتح بصره وألقى اسدالا على بصيرته فاعتمد على الاشعار ورفض التصريح .

ومن المحتمل انه رأى الايتين ، لكنه حسب ان الله سبحانه نقض كلامه

---

(١) بل ذيل نفس الاية دليل على عموم رسالته ، حيث انه سبحانه قال : «والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به» وظاهره ان كل من يؤمن بالاخرة من العرب والعجم يؤمن بهذا الكتاب ، وانه منزل من ربهم ، مصدق لما تقدمه من الكتب ، فلو كان دعوته اقليمية أو طائفية لما كان لايمان من ليس من تلك الطائفه ، أو لا يعيش فى الجزيرة العربية ، معنى صحيح .

(٢) سورة الانعام

الوارد فى ابتداء السورة بختامها وهو سبحانه يقول : «قل لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء ـ ٨٢) .

نحن لا نميط الستر عن نواياه وضمائره وهو قد وقف على هذه الاية وغيرهما مما سردناه من الايات الدالة على عالمية رسالته ، لـكن الظاهر انه لا يستهدف بذلك الا تعكير الصفو وبث بذور الشك فى قلوب السذج ، والبسطاء من الامـة الاسلامية لغاية هو اعرف بها وان كان لا يفوتنا عرفانها .

والحق انه (ص) لم يكن فى دعوته وانذاره بدعاً من الرسل ، فقد مشى فى ابلاغه على سنن من قبله من المرسلين ، فالمسيح كان رسول الله الى الناس كله ، أو الى امة كبيرة أوسع من بني اسرائيل (١) ، ومع ذلك كله فقد بدأ هتافه بكونـه رسولا الى بني اسرائيل مع انه رسول اليهم والى غيرهم وقال : «يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ...» (الصف ـ ٦) فخص خطابه ورسالته ببني اسرائيل مع كونه رسول الله الى غيرهم ايضاً ولا ضير فى ذلك لأن كونه رسولا اليهم لاينافي كونه رسولا الى غيرهم فان اثبات حكم لموضوع لا يلازم نفيه عن غيره .

وقد ضارعه نبي الاسلام ، فهو مع كونه رسول الله الى الناس جميعاً ، ومع انه أمره الله ان ينذر بقرآنه قومه وكل من بلغه كتابه فى مشارق الارض ومغاربها (٢) امره ، الله سبحانه ان يقول : «لتنذر ام القرى ومن حولها» فان كونه مبعوثاً لانذار الامة العربية القاطنة فى عاصمتها مـكة ومناطقها التابعة لها ، لا ينافي كونه مبعوثاً الى غيرها ايضاً ومنذراً بكتابه سواها .

وقد حـذا الرسول حـذو القرآن فى خطابـاته الشخصية فى اندية الانـذار

(١) نعم لم يثبت كون المسيح مبعوثاً الى الناس اجمع ، بل ظاهر القرآن كونه «رسولا الى بنى اسرائيل» آل عمران ـ ٤٩ فلاجله عطفنا على عمومية رسالته قولنا «أو الى امة كبيرة اوسع من بنى اسرائيل» لما ثبت من بعثه (ع) رسلا من حواريه وتلاميذه الى الامم التى لا يمت الى بنى اسرائيل بصلة ، وهو دليل على اوسعية نطاق رسالته من بنى اسرائيل .

(٢) الانعام ـ ٩٢ .

والابلاغ ، فقال (ص) حين ما وفدت الى داره عشيرته وأقربوه : « اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة » وهو في الوقت نفسه حين ما صعد الصفا خص قريشاً بالخطاب وقال : «يا معشر قريش انقذوا انفسكم من النار» .

وقد وافيناكم بتلك الدرية في صدر البحث (١) .

هذه سيرة الرسول وسيرة من قبله ، من اولي العزم من الرسل ، فهم يقتفون في توجيهاتهم ودعواتهم مقتضى الحال ، مراعين في ذلك شرائط البلاغة ، والقاء الكلام على وفق الحكمة ، فربما دعت المصلحة الى توجيه الكلام الى مجتمع خاص ، كما انه ربما اقتضت توجيهه الى الناس عامة من دون أي تنافر وتناكر في التوجيهين .

وان شئت قلت : انه (ص) بعث الى عشيرته والعرب والناس جميعاً على سبيل **«تعدد المطلوب»** كما قال «يا معشر قريش انقذوا انفسكم من النار» وقال : «اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة » وكانت كل واحدة من هذه الطوائف الثلاث صالحة لان يبعث اليهم رسول خاص. وعلى ذلك فله ان يصرح حسب مقتضيات المقام بأحد الاغراض التي ارسل لاجلها ويسكت عن ذكر الاخرين بلا استنكار .

ويشير الى ذلك قوله (ص) : بعثت الى الناس كافة ، فان لم يستجيبوا لي ، فالى العرب ، فان لم يستجيبوا لي ، فالى قريش ، فان لم يستجيبوا لي ، فالى بني هاشم ، فان لم يستجيبوا لي ، فالي وحدي (٢) .

ونظير ذلك لو بعثت انساناً لينجز لك اموراً مختلفه، وكان كل واحد منها صالحاً لان يبعث لانجازه شخص خاص ، فعند ذلك يصح لك ان تقول : بعثته ليعمل كذا وتذكر احد الامور التي بعث لاجلها وتسكت عن ذكر الباقي كما يصح للمبعوث ان يقول : بعثت لأفعل كذا ويذكر احد الاهداف التي بعث لتحقيقها من دون ان يذكر الامرين الاخرين وهكذا . . .

---

(١) انظر ص ٢٠ من كتابنا هذا .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢ .

على ان الآية التى استدل به القائل على ضيق نطاق رسالته ، مكية ، وردت فى سورتي الانعام والشورى المكيتين ، ولم تكن الظروف فى مكة تبيح لهالاجهار بنفس رسالته ، فضلا عن الاجهار بعالميتها ، فلاعتب عليه لوخص خطابه بجمع دون جمع ، مع سعة نطاقها فى نفس الامر ، اذا اقتضت المصلحة ذلك ، لان المرمى الاهم فى هذه البيئة ، الاجهار بنفس الرسالة لا كمها ولا كيفها وان كان (١) (ص) يصرح فى بعض الاوقات بعالمية رسالته اذا راى الظرف فى مكة صالحاً . كما فى قوله سبحانه : «وما هو الا ذكر للعالمين» (القلم - ٥٢) والاية مكية بلا كلام .

جواب آخر عن الشبهة ، جاء به بعض المعاصرين :

جاء بعض المعاصرين من الاجلاء ، فى تعاليقه القيمة على كتاب **«الابطال»** بجواب آخر (٢) مبني على أمرين :

(١) ان الظروف فى مكة كانت مختلفة متلونة ، ولم تكن حياة الرسول رخاءاً او شدة على نسق واحد ، فتارة كانت بيئة مكة قاسية عنيفة لاتسمح به الجهر بنفس رسالته ، فضلاعن المصارحة بكيفها وكمها ، والمسلمون من جانب اضطهاد قريش لهم كانوا يعيشون فى حالة عصيبة واخرى كانت الازمة قليلة مخففة بحلول اشهر الحج او طرء حوادث تمنع العصابة المشركة المجرمة وتكفهم عن ايذاء المسلمين .

وعند ذاك كان يفسح المجال امام النبى واصحابه بأن يبلغوا الدعوة على وفق الظروف وحسب المقتضيات شدة وضعفاً ، فنراه فى مواقفه بمكة يصرح بجانب من جوانب الدعوة على صعيد خاص كقوله : يا معشر قريش انقذوا انفسكم . . . واخرى ينادى بعموم دعوته مما يستفاد منه انه بعث الى الناس كافة ، ولاجل ذلك نواجه فى سورة واحدة لونين من طريقة الدعوة ، فترى انها فى صدرها تأخذ بجميع جوانب دعوته وتصرح بعموم دعوته وعالمية رسالته ، وانه (ص) امر من جانبه سبحانه ان ينذر بقرآنه قريشاً وكل من بلغه كتابه وانذاره ، حيث قال : «واوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» ، وفى الوقت نفسه نرى فى خلال السورة ، لوناً خاصاً من الدعوة حيث تخصها بمن فى ام القرى ومن حولها ويقول : «ولتنذر ام القرى ومن حولها» . فيعلم من ذلك انه (ص) كان يوجه حسب ما تقتضيه المصلحة تبعاً للاحوال المختلفة وتبدل الظروف الزمانية والمكانية من دون توهم تناقض فى طريق الدعوة ولونها .

(٢) ترى اجمال هذا الجواب فى مجمع البيان ج٣ ص٣٣٤ و ج ٥ ص ٢٢ والمفردات للراغب مادة «ام» .

الاول: ان المراد من «القرى» فى قوله تعالى» لتنذر ام القرى ومن حولها» مايعم المدن الواسعة ، وقد اطلق لفظ القرية فى القرآن على المدينة ايضاً ، كقوله تعالى: «واسئل القرية التي كنا فيها ، والعير التي اقبلنا وانا لصادقون» (يوسف ـ ٨٣) والقرية التي اقترح ابناء يعقوب على ابيهم ان يسئلها ، هي مدينة «مصر» وقد كانت يوم ذاك مدينة كبيرة ، ذات ابواب متفرقه ، لقوله سبحانه : « يا بني لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من ابواب متفرقة » (يوسف ـ ٦٧) .

الثاني : قد استفاضت الروايات من مهبط الوحي والتنزيل على ان الله سبحانه دحى الارض يوم دحاها ، من تحت مكة ، والمراد من الدحو من تحتها ، ان ارض مكة هى اول قطعة من الارض اخرجت من الماء ، بعد ما كانت الارض بعامة اجزائها مغمورة بالماء ، ثم برز سائر اجزائها ، عن تحت الماء تدريجاً ، وبذلك صارت مكة اماً لسائر البلاد ، وأصلا لسائر القرى ومركزاً تكوينياً للارض .

قال : اذا كان اطلاق ام القرى على مكة بهذه المناسبة ، فيصير المراد من « ام القرى» ، أي ام البلاد الموجودة فى العالم ومركزها التكويني كما يصير المراد من «ومن حولها » عامة من يعيش فى نواحى الارض وسائر اقطارها كلها ، واليه ذهب حبر الامة عبد الله بن عباس ، وفسره الامام الطبرسي بقوله : «من سائر الناس وقرى الارض كلها» (١) فتصير الاية من الادلة الدالة على عالمية رسالته .

وفى هذا الجواب مجال للنظر والبحث :

أما أولا : فلأن ام القرى ليست علماً لمكة ، بل كلياً اطلق عليها فى هذه الاية ، بما انها احدى مصاديقه وكيف وقد قال سبحانه مبيناً لسنته فى الامم الماضية جميعاً : «وماكان ربك مهلك القرى،حتى يبعث فى امها رسولا» (القصص ـ ٥١٩) اي حتى يبعث فى ام تلكم القرى رسولا يبلغ رسالات الله عليهم . وهذه سنة الله تعالى فى ابادة الامم الطاغية مطلقاً ، غير مختصة بالامة العائشة بمكة ومن حولها .

وهذا امام اللغة ابن فارس ، يقول فى مقاييسه : «ام القرى ، مكة ، وكل

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٢ .

مدينة هي ام ما حولها من القرى» .

قال ابن فندق فى تاريخه : اذا تركزت امور منطقة خاصة فى محل ، يقال له باعتبار القرى والقصبات التابعة له ، ام القرى ، ثم أتى بأمثلة وقال : فصنعاء ام القرى فى اليمن، «وبغداد» ام القرى فى العراق ، بعد ماكانت «البصرة» يوماً ام القرى ومرو ام القرى فى خراسان وهكذا . . (١) .

فهذا التركيب (ام القرى ومن حولها) ليس من مصطلحات القرآن واختصاصاته بل كان دارجاً فى عصر الرسالة وقبله وبعده ، وقد نزل القرآن بلسان النبي الذي هو لسان قومه وليس له في هذا التركيب اصطلاح خاص، بل هو والعرف فى ذلك سواسية ، فلا يصلح أن يحمل على غير ما هو المتفاهم عندهم . فاذا قيل : « لتنذر ام القرى ومن حولها » وقامت القرينة على ان المراد من ام القرى مكة ، فلا يراد منه ومما عطف عليه الا ما يراد فى نظائرها . فاذا قيل : هذا امام البصرة أو سائسها ومن حولها ، فلا يراد الا نفوذ حكمه فى نفس البصرة والمناطق التابعة لها، حكماً وسياسة واقتصاداً ، أو غيرها من وشائج الارتباط ودوافع التبعية ، لا انه امام الارض شرقاً وغرباً ، وهكذا اذا قيل : بعث نبي الاسلام لينذر مكة ومن حولها ، لا يراد منه الا انه بعث لتنذر من يعيش فى مكة وفى المناطق التابعة لها عرفاً ، سياسة وحكماً أو اقتصاداً وتجارة ، أو غيرها من القرى القريبة المتاخمة لها ، القائمة عند حدودها والقصبات التابعة لها فى العلاقات الاجتماعية، لا انه بعث لتنذر أهل العالم كله ، فان ارادة هذا المعنى من هذا التركيب عير معهود ، لو لم يكن مستهجناً .

وأما ثانياً : فلان ما ذكره من حديث دحو الارض الى آخره ، صحيح ، غير أن اطلاق ام القرى على مكة بهذه المناسبة التكوينية يحتاج الى دليل ، ودون اثباته خرط القتاد ، والعرب الجاهليون كانوا يطلقون ام القرى ، على مكة ، من غير أن يكون لهم علم ولا عهد بهذه المعارف ، وليس اطلاقها عليها من خصائص القرآن ، بل هو يتبع فى ذلك لما هو الدارج ، والحق فى الجواب ما أوضحناه .

* * *

(١) تاريخ بيهق ج ٥ ص ٢٢ بتعريب منا .

ابهام وايضاح :

جرت سنة الله على بعث رسله بلسان قومهم ، وهذا هو الاصل لو كان الرسول مبعوثاً الى انقاذ قومه .

أما اذا كان مبعوثاً الى امة اوسع من قومه، وكان كل قوم يتكلمون بلسانهم الخاص فعند ذلك لا حاجة الى نزول كتابه بجميع الالسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك ، مع ما فى نزوله بلسانين أو ازيد من التطويل ، وامكان تطرق التحريف والتبديل والتنازع والاختلاف. فبقي ان ينزل بلسان واحد. وأولى الالسنة لسان قوم النبي ولغتهم لانهم اقرب اليه ، ولا معنى لرفض هدايتهم والتوجه الى غيرهم .

على ان ايمان قومه به ، وخضوعهم له ، ربما يثير رغبة الاخرين بالايمان به كما ان اعراض قومه جميعاً عن دعوته ورغبتهم عنه ، تثير روح الشك والترديد فى قلوب البعداء عنه ، قائلين بأنه لو كان فى دعوته خير لما اعرض عنه قومه .

ولأجل هذه المهمة الاجتماعية يجب على الرسول صرف همته أولا فى هداية قومه وانقاذهم حتى يتسنى له هداية الاخرين ، وهذه سنة متبعة فى العاديات ، فضلا عن المبادىء العامة .

والى ذلك تهدف الاية التالية : «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء وهو العزيز الحكيم» (الشعراء ـ ٤) ومفاد الاية انه سبحانه لم يجر فى بعث رسله مجرى الاعجاز وخرق العادة، ولا فوض الى رسله من الهداية والضلال شيئاً ، بل ارسلهم بلسانهم العادي الذي يتحاورون به كل يوم مع أقوامهم ليبينوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم الا بيان ما امروا به ، وأما الغاية من بعثهم، أعني الاهتداء فهو بيد الله سبحانه ، لا يشاركه فى ذلك رسول ولا غيره .

وعلى ذلك فليست فى الاية دلالة ولا اشعار بلزوم اتحاد لغة الرسول مع لغة من أرسل اليهم ، حتى يلزم منه اختصاص دعوته (ص) بقومه . اذ الاية تصرح بلزوم اتحاد لغة الرسول مع لسان قومه ، لا اتحاد لغته مع لسان من ارسل اليهم ، كما هو اساس

الشبهة ، ومن الممكن المتحقق أن يكون المرسل اليه أوسع من قومه كما هو الحال في ثلة جليلة من الرسل ، فقد دعى ابراهيم عرب الحجاز الى الحج ، والوفود الى زيارة بيته، وأمر سبحانه كليمه بدعوة فرعون الى الايمان به،ودعى نبينا امتي اليهود والنصارى الى الايمان برسالته ، فآمن منهم من آمن . وبقي منهم من بقي .

مغالطة اخرى حول الاية :

نرى بعض من فسر الاية بأن مفادها «ان كل رسول من الله يوافق لسانه لسان من ارسل اليهم» ، جاء بمغالطة شوهاء في مفاد الاية ، وقال : اذا كان معنى الاية ما ذكر فهو ينعكس بعكس النقيض الى قولنا، من لا يوافق لسانه لسان من ارسل اليهم ليس رسولا منه سبحانه. فلوفرضنا ان نبينا (ص)كان مبعوثاً الى العالمين كلهم مع اختلافهم في اللسان ، يلزم منه كونه غير مبعوث من الله سبحانه أصلا .

وعلى الجملة:تنتج عالمية رسالته،وسعة نطاق دينه كونه غير مرسل من جانبه عزوجل.

ومنشأ هذه المغالطة ما تخيله المغالط من مفاد الاية ، اذ ليس مفادها ما تصوره من ان كل رسول يوافق لسانه لسان من ارسل اليهم ، حتى يصح ما بني عليه ، بل مفاده . ان كل رسول يوافق لسانه لسان قومه ، وفي الوقت نفسه يمكن ان يكون مبعوثاً الى ازيد من قومه (١) أو الى قومه فقط .

نعم تنعكس الاية الى قولنا : من لا يوافق لسانه ، لسان قومه ليس رسولا من الله سبحانه ، وهو صحيح ، وأما نبي الاسلام فالمفروض ان لسان كتابه ولغة دعوته موافق لسان قومه .

وعلى أي تقدير فالمراد من القوم هم الذين عاش فيهم الرسول وخالطهم، ولا

---

(١) هذا أحد الاحتمالات في اولي العزم ، أعني من ارسل الى ازيد من امة ، راجع الميزان ج ١٢ ص ١٣ وسوف نحقق معنى هذه الكلمه على ضوء ما ورد في الذكر الحكيم في فصول هذا الكتاب .

يختص بالذين هو منهم نسباً ، والشاهد على ذلك أنه سبحانه صرح بمهاجرة لوط من «كلدة» وهم سريانيو اللسان، الى المؤتفكات وأهلها عبرانيون، وفى الوقت نفسه سماهم قومه ، وأرسله اليهم ، ثم أنجاه وأهله الا امرأته (١) .

شبهة ضئيلة :

ترى بعض المعترضين ممن لاحذق لهم بحقيقة الاسلام ولا تكنه بأصوله وفروعه يستنكرون كون الاسلام ديناً عالمياً و يتمسكون بالضرائب الموضوعة فيه على الابل والبقر والغنم ، قائلين بأن الاسلام جاء فى هذه المجالات بأدق الضرائب، لان الجزيرة العربية كانت يوم ذاك تكثر فيها الجمال والمواشي ، دون غيرها من البلاد والقارات، وذلك آية كونه ديناً اقليمياً لاعالمياً، بل آية على ان تخطيطاته الاقتصادية ودساتيره في الضرائب وغيرها تناسب عصر الجمال والمواشى ، لا عصر الصاروخ والطائرة والمعامل والمصانع .

جاء الاسلام في باب الجمال والمواشي بأدق أنظمة الضرائب، لكنه في الوقت نفسه اهمل الضريبة على نتاج المعامل والمصانع التى كانت الحياة تدور عليهـا في القارات الاخر في القرون الخالية ، وبالاخص في العصر الحاضر .

أو ليس من الظلم الواضح ان يتحمل صاحب الجمال الذي لا فراش له سوى تراب الارض ، ولا يستره الا حر النهار، ضريبة تبهظه اعباؤها، ويخلى سبيل صاحب المعامل الكبيرة ، التي يبلغ نتاجها كل يوم الى عشرات الالوف ، ويطلق سراحـه حتى يعيش في ظل ضريبة تدفعها مساكين الامة ؟ ! .

قلت : هذه شبهة يتمسك بها تارة على نفي كون الاسلام ديناً عالمياً ، واخرى على نفى كونه ديناً ابدياً ، وخاتماً لرسالة السماء الى الارض ، بتخيل وجود النقص فى جانب التشريع الاسلامى وتقنينه ، حيث ان مدار الحياة فى الجيل الحاضر على

(١) الميزان ج ١٢ ص ١٣ .

المعامل والمصانع ، والثروات الطائلة الحاصلة من منابع الارض ومعادنهاوذخائرها والمنافع الهائلة العائدة،الى اصحاب المواصلات منالسفن والطائرات والسيارات، فقد أهمل الاسلام هذه الناحية الحساسة في هذه الاعصار ، فلم يفرض على أرباب المصانع والشركات الكبيرة التجارية التي تسيطر على الاقتصاد العالمي أية ضريبة ، وهذا نقص في وجهة التشريع الاسلامي !

الجواب :

عزب عنالكاتب أن الاسلام جاء بضرائب دقيقة علىأرباح المصانع والمعامل بل فى كل ما أفاد الناس من قليل أوكثير (١) وعلى جميع مايستفيده الرجل من قليل وكثير من جميع الضروب وعلى الصناع (٢) فقد،جعل على أرباح التجارات وسائر التكسبات من الصناعات والزراعات والاجارات حتى الخياطة والكتابة والتجارة والصيد وحيازة المباحات وغير ذلك من الاعمال التي لها اجرة ضريبة الخمس ، أي ٢٠٪ بعد احتفاظه واقتطاعه لمؤنة سنته ومؤنة عياله ونفقات المصنع والمكسب فيجبعلى أصحابها أن يدفعوا خمسها الى الحاكم الاسلامي حتى يصرفه في موارده. المعينة له (٣) .

والدليلعليه قولهسبحانه:«واعلموا انما غنمتم منشيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (الانفال ـ ٤١) والاية وان كانت واردة فى مغانم الحرب ، الا ان أئمة أهل البيت الذين هم اعدال الكتاب وقرناؤه فسروها بكل ما أفاد الناس من قليل أو كثير .

وضريبة الخمس عند الشيعة ، غير ضريبة الزكاة التي تجب عندهم فى تسعة أشياء : الانعام الثلاثة وهي الابل والبقر والغنم والنقدين : وهما الذهب والفضة

(١) الوسائل كتاب الخمس ، الباب ٨ ، الحديث السادس عن أبىالحسن الاول عليه السلام
(٢) الوسائل كتاب الخمس ، الباب ٨ ، الحديث الاول ، عن أبى جعفر الثانى عليه السلام
(٣) العروة الوثقى كتاب الخمس ص ٤٤١ .

والغلات الاربع وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب (١) .

هذا ما عند الشيعة، وأما غيرهم فهم وان قصروا ضريبة الخمس على مغانم الحرب غير ان لعروض التجارة عندهم ضريبة الزكاة بشروط وكيفية مفصلة في مذاهبهم .

نظرة عابرة الى صنوف الضريبة فى الاسلام :

الضرائب التي تأخذها الحكومة الاسلامية على أقسام ، نشير اليها بالاجمال :

١ ـ الارض التي فتحت عنوة أو صلحاً ، على أن تكون الارض للمسلمين ، وهي متعلقة بالحكومة الاسلامية، تأخذ منها الخراج والمقاسمة على شروط مذكورة فى محلها .

٢ ـ الزكاة وهي فى تسعة أشياء على ما عرفت .

٣ ـ الخمس ، ويجب فى سبعة أشياء :

الاول : الغنائم المأخوذة من الكفار من أهل الحرب قهراً بالمقاتلة .

الثاني : المعادن من الذهب والفضة والرصاص والصفر والحديد والياقوت والزبرجد والفيروزج والعقيق والزيبق والكبريت والنفط والقير والسبخ والزاج والزرنيخ والكحل والملح ، بل والجص والنورة وغيرها .

الثالث : الكنز : وهو المال المذخور فى الارض أو الجبل والجدار .

الرابع : الغوص: أي ما اخرج به من الجواهر من البحر مثل اللؤ لؤ والمرجان.

الخامس : المال الحلال المخلوط بالحرام على وجه لا يتميز مع الجهل بصاحبه ومقداره .

السادس : الأرض التي اشتراها الذمي من المسلم ، سواءاً كانت أرض زراعية أم سكنية .

السابع: ما يفضل من مؤنة سنته ،ومؤنة عياله من أرباح التجارات والمكاسب.

---

(١) العروة الوثقى ، كتاب الزكاة ص ٣٩٠ .

٤ ـ الجزية المضروبة على أهل الذمة على رؤوسهم وأراضيهم اذا قاموا بشرائط الذمة ، المحررة فى محلها .

٥ ـ الانفال : وهي كل أرض ملكت بغير قتال ، وكل أرض موات، ورؤس الجبال ، وبطون الاودية، والاجام وكل مايصطفيه الامام من الغنيمة ، وصفايا الملوك وقطائعهم غير المغصوبة ، وميراث من لا وارث له ، وما غنمه المقاتلون بغير اذن الامام ، الى غير ذلك .

والاصل فيه قوله سبحانه : «يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول ، فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم (الانفال ـ ١) .

ومالله وللرسول فى هذه الاية يصرف فى مصالح المسلمين .

٦ ـ هناك ضرائب ليس لهاحد معين، ولازمان خاص، بل هي موكولة الى نظر الحاكم الاسلامي يفترضها عند الحاجة اليها من عمران للبلاد ، أوجهاد فى سبيل الله ، أو سد عيلة الفقراء أو غيرذلك مما يحتاج اليه قوام العباد والبلاد .

وهذا هوالذكر الحكيم يصرح بأن «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» (الاحزاب ـ ٦) ، فهو أولى بهم من أموالهم ، يتصرف فيها كيف اقتضت المصلحة .

وهذا أميرالمؤمنين يقول فى عهده الى عامله «مالك» : وليكن فى نظرك فى عمارة أبلغ فى استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بـالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد . . .

فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم (الناس) من بعـد ، احتملوا طيبة أنفسهم به ، فان العمران محتمل ما حملته ، وانمـا يؤتى خراب الارض من اعواز اهلها (١) .

فلو كان للخراج حد معين غير متجاوز عنه ، لماكان لقوله(ع) «احتملوه طيبة أنفسهم» وجه فان معناه : انهم قبلوا ماطلبته من الناس بطيب خاطر فيعطونك كذلك .

(١) نهج البلاغة ، من عهد الامام (ع) الى عامله مالك .

أضف الى ذلك قوله (ع) : « فان العمران محتمل ماحملته » فانه يدل على أن الوالي اذا عمر البلاد ، وصارت عامرة وخصبة بالنعم ، يمكن له أن يفرض الخراج عليه بالمقادير التي يتوخاها الوالي ، وتقتضيها المصلحة .

وهذا وأمثاله من النصوص يدل على ان هنا قسماً من الضرائب التي ليس لها حد معين ، بل هي موكولة الى نظر الحاكم .

وفى المقام أبحاث قيمة ، لعلنا نتطرق اليها في مواضع اخر ان شاء الله تعالى.

خاتمة المطاف

نلفت نظر القارىء الكريم الى بعض ما ذكره الفطاحل الاعلام من علماء الكلام حول عالمية الاسلام، ولما كان الموضوع عندهم من أوضح الواضحات لم يتعرضوا له فى مسفوراتهم الكلامية الا على نهج الاختصار :

قال العلامة الحلي في شرح قول المحقق الطوسي «والسمع يدل على عمومية نبوته » ما هذا لفظه :

ذهب قوم من النصارى الى أن محمداً (ص) مبعوث الى العرب خاصة ، والسمع يكذب قولهم هذا ، قال الله تعالى : « لأنذركم به ومن بلـغ » ، وقال تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس » . وسورة الجن تدل على بعثه اليهم ، وقال صلى الله عليه وآله (بعثت الى الاسود والاحمر) لا يقال كيف يصح ارساله الى من لا يفهم خطابه ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » ، لأنا نقول لا استبعاد في ذلك بأن يترجم خطابه لمن لا يفهم لغته مترجم ، وليس فى الاية انه تعالى ما أرسل رسولا الا الى من يفهم لسانه، وانما أخبر بأنه ما أرسله الا بلسان قومه (١).

ويقرب منه ما ذكره الشارح القوشجي فى شرحه (٢) .

(١) ـ كشف المراد ص ٢٢٥ ط صيدا .

(٢) شرح التجريد ص ٤٧٠ للشيخ علاء الدين على بن محمد المتوفى سنة ٨٧٩ .

«٢»

الخاتمية فى الذكر الحكيم

عرض وتحليل للايات القرآنية الدالة على
أن محمداً (ص) خاتم النبيين ، وأن رسالته
خاتم الرسالات .

اتفقت الامة الاسلامية عن بكرة أبيها على أن نبيهم محمداً خاتم النبيين ، وأن دينه خاتم الاديان ، وكتابه خاتم الكتب والصحف ، فهو(ص) آخر السفراء الالهيين، ختم به باب الرسالة والنبوة ، وأوصدت به رسالة السماء الى الارض .

اتفق المسلمون كافة على أن دين نبيهم ، دين الله الابدي ، وكتابه ، كتاب الله الخالد ، ودستوره الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وقد أنهى الله اليه كل تشريع وأودع فيه أصول كل رقي ، وأناط به كل سعادة ورخاء ، فاكتملت بدينه وكتابه الشرايع السماوية التي هي رسالة السماء الى الارض .

توضيحه : ان الشريعة الحقة الالهية التي أنزلها الله الى أول سفرائه لا تفترق جوهراً عما أنزله على آخرهم ، بل كانت الشريعة السماوية في بدء أمرها كنواة قابلة للنمو والنشؤ ، فأخذت تنمو وتستكمل عبر القرون والاجيال ، حسب تطور الزمان وتكامل الامم ، وتسرب الحصافة الى عقولهم ، وتسلل الحضارة الى حياتهم .

ويفصح عما ذكرنا قوله سبحانه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً...» (الشورى ـ ١٣) فقد وصى نبينا محمداً بما وصى به نوحاً، من توحيده سبحانه وتنزيهه عن الشرك، والدعوة الى مكارم الاخلاق ، والتنديد بالجرائم الخلقية ، والقضاء على أسبابها ، الى غير ذلك مما تجده فى صحف الاولين والاخرين .

تتجلى تلك الحقيقة الناصعة، أي وحدة الشرايع السماوية ، جوهراً من مختلف الايات فى شتى المواضع ، قال سبحانه : «ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» (آل عمران ـ ١٩) وظاهر الاية يعطي ان الدين عند الله ـ لم يزل ولن يزال ـ هو الاسلام فى طول القرون والاجيال ، ويعاضدها قوله تعالى : «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه» (آل عمران ـ ٨٥).

وقد نبه سبحانه في مورد آخر على خطأ اليهود والنصارى في رمي ـ بطل التوحيد ـ ابراهيم باليهودية والنصرانية، وقال : «ماكان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» (آل عمران ـ ٦٧) .

نعم المراد من الاسلام فى الايتين هو التسليم لله والامتثال لأوامره ونواهيه لا المعنى العلمي منه ، الذي يقابل اليهودية والنصرانية .

وقد سئل علي (ع) عن حقيقة الاسلام ، فقال : لأنسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي : الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين (١) ففسر الاسلام بالتسليم له سبحانه ، وحقيقة التسليم هنا هو ارجاع الامر والنهي اليه سبحانه ، فالواجب ماأمر به والحرام ما نهى عنه،لا ماأمر به الاحبار والرهبان، أو نهوا عنه، ولا يتحقق التسليم الا برفض تحكيم الرجال فى الشريعة ، ورد آراء الناس والاحبار والرهبان في الحلال والحرام .

فحقيقة الشرائع السماوية في جميع الادوار والاجيال كانت أمراً واحداً وهو التسليم لله في فرائضه وعزائمه وحده .

ولاجل ذلك كتب الرسول الى القيصر عندما دعاه الى الاسلام ، قوله سبحانه : «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا اياه ولا نشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله،فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٢).

وقد أمر سبحانه في آية اخرى رسوله بدعوة معشر اليهود أو الناس جميعاً الى اتباع ملة ابراهيم ، قال سبحانه : «فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (آل عمران ـ ٩٥) .

وصرح سبحانه بأن كل نبي جاء عقب نبي آخر ، كان يصرح بأنه مصدق بوجود ذلك النبي المتقدم عليه وكتابه ودينه ، فالمسيح مصدق لما بين يديه من التوراة ومحمد (ص) مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليه ، كما قال سبحانه : «وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة » . «وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» (المائدة ٤٦ – ٤٨) .

(١) نهج البلاغة : المختار من الحكم ١٢٥ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٥ ، مسند أحمد ج ١ ص ٢٦٢ .

وهذه النصوص كلها تعبر عن وحدة أصول الشرائع وجذورها ولبابها .

وعلى هذا فرسالة السماء الى الارض ، رسالة واحدة في الحقيقة مقولة بالتشكيك ، متكاملة عبر القرون ، جاءت بها الرسل طوال الاجيال ، وكلهم يحملون الى المجتمع البشري رسالة واحدة لتصعد بهم الى مدارج الكمال ، وتهديهم الى معالم الهداية ومكارم الاخلاق .

نعم كان البشر فى أوليات حياتهم يعيشون فى غاية البساطة والسذاجة ، فما كانت لهم دولة تسوسهم، ولا مجتمع يخدمهم ولا ذرائع تربطهم، وكانت أواصر الوحدة ووشائج الارتباط بينهم ضعيفة جداً ، فلأجل ذاك القصور فى العقل ، وقلة التقدم ، وضعف الرقي ، كانت تعاليم أنبيائهم، والاحكام المشروعة لهم ، طفيفة في غاية البساطة ، فلما أخذت الانسانية بالتقدم والرقي ، وتوافرت المسائل يوماً فيوماً ، اتسع نطاق الشريعة واكتملت الاحكام تلو هذه الاحوال والانقلابات .

فهذه الشرايع (مع اختلافها فى بعض الفروع والاحكام نظراً الى الاحوال الاممية والشؤن الجغرافية) لا تختلف في أصولها ولبابها ، بل كلها تهدف الى أمر واحد ، وتسوق المجتمع الى هدف مفرد، والاختلاف انما هو فى الشريعة والمنهاج كما قال سبحانه : «ولكل جعلنا شرعة ومنهاجاً ولوشاء لجعلكم امةواحدة» (المائدة - ٤٨) (١) .

نعم جاءت الرسل تترى ، وتواصلت حلقات النبوة في الأدوار الماضية ، الى أن بعث الله آخر سفرائه ، فأتم به نعمته وأكمل به دينه ، فأصبح المجتمع البشري فى ظل دينه الكامل وكتابه الجامع، غنياً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوة ، فأصبح البشر غير محتاجين الى ارسال أي رسول بعده ، اذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكل مايحتاج اليه البشر فى أدوار حياتهم وانواع تطوراتهم

(١) أى جعلنا لكل من موسى وعيسى ومحمد(ص) أو لكل من امم التوراة والانجيل والقرآن شريعة وطريقاً خاصاً الى ما هو الهدف الاقصى من بعث الرسل ومنهاجاً واضحاً ، والاختلاف بين الكتب والشرائع جزئى لا كلى ، والنسخ فى بعض الاحكام لا فى جميعها .

وفى الوقت نفسه فيه مرونة تتماشى مع جميع الازمنة والاجيال ، من دون أن تمس جوهر الرسالة الاصلي بتحوير وتحريف .

ولنا عودة الى هذا الموضوع فى الابحاث الاتية .

النصوص القرآنية الدالة على ختم النبوة :

نص القرآن الكريم على ذلك تنصيصاً لا يقبل الشك والترديد ، ولا يرتاب فيه من له أدنى المام باللغة العربية ، وذلك فى مواضع :

النص الاول ، قوله سبحانه :

«ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً» (الاحزاب ـ ٤٠) . توضيحه : تبنى رسول الله زيداً قبل عصر الرسالة ، وكان العرب ينزلون الادعياء منزلة الابناء في أحكام الزواج والميراث ، فأراد سبحانه أن ينسخ تلك السنة الجاهلية ، فأمر رسوله أن يتزوج زينب زوجة زيد ، بعد مفارقته لها،فلما تزوجها رسول‌الله،أوجد ذلك الزواج ضجة بين المنافقين والمتوغلين فى النزعات الجاهلية ، والمنساقين وراءها ، فرد الله سبحانه مزاعمهم وطعنهم بقوله : ما كان محمد أبا احد من رجالكم (من الذين لم يلدهم ومنهم زيد) ولكنه رسول الله (وهو لا يترك ما أمره الله به) وخاتم النبيين (وآخرهم ختمت به النبوة،فلا نبي‌بعده ولاشريعة سوى شريعته،فنبوته أبديةوشريعته باقية الى يوم‌الدين)

الخاتم وما يراد منه :

الخاتم (سواء كان بفتح التاء كما عليه «عاصم» أم بكسرها، كما عليه الباقون وعلى الفتح سواء أقلنا انه فعل كضارب بمعنى ختمهم ، أم اسم بمعنى آخرهم ، أو بمعنى‌ما يختم‌به أي المختوم به باب‌النبوة،كما يختم بالطابع) لا يفهم منه فى‌المقام الا معنى واحد وهو انه قد ختم به باب النبوة وأوصد بوجوده ودينه وكتابه باب

الرسالة فلا نبي بعده أصلا .

وقد اصفقت على هذاكتب اللغة والتفسير والتاريخ طيلة أربعة عشر قرناً ولم يختلف فيه اثنان ، ولم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه ، فهذه معاجم اللغة وكتب التفسير المؤلفة فى العهود الاسلامية السابقة ، بيد أساطين اللغة وفطاحلها وأئمة التفسير وأبطاله، ضع يدك على أي واحد منها ، تجدها متظافرة على ما قلناه وسوف ننقل بعض نصوصهم .

والاولى أن نرجع قبل كل‌شيء الى نفس القرآن وموارد استعمال هذه المادة فيه ، حتى نستعين بالقرآن الكريم نفسه ، فى رفع الابهام :

١ ـ «يسقون من رحيق مختوم» (المطففون ـ ٢٥) أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه ، تختم أوانيه من الاكواب والاباريق بمسك ، أو مختوم بابه بشيء مثل الشمع وغيره ، وذلك آية خلوصه .

٢ ـ ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (المطففون ـ ٢٦) : مقطعه رائحة مسك اذا شرب .

٣ ـ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم (يس ـ ٦٥) أي طبع على أفواههم فتوصد أفواههم وتتكلم أيديهم .

٤ ـ أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله اللهعلى علم وختم على سمعه وبصره (الجاثية ـ ٢٣) .

٥ ـ ختم الله علىقلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة (البقرة ـ ٧).

فاذا انتهى الكافر من كفره الى حالة يعلم الله أنه لا يؤمن ، يطبع الله على قلبه كما يطبع على الشيء بالشمع والطين فيصير قلبه كالمختوم عليه ، لا يدخله شيء ، ولا يخرج منه شيء ، فلا يدخله الايمان ولا يخرج منه الفكر .

فالختم على الشيء،بمعنى الطبع عليه كناية عن ختم أمره ، فالختم على القلب يلازم انتهاء أمره وامتلاءه بالكفر والالحاد فلم يبق فيه موضع لنور الحق وكلماته، كما أن ختم الورقة وطبعها بالطابع علامة أن الكاتب بلغ ما أراد من كتابته فيها ،

وانتهى غرضه ومقصده .

والختم على النبوة عبارة عن أنه أوصد باب النبوة وطبع على بابها ، فهو مقفل الى يوم القيامة ، لا يفتح في وجه أحد .

وعلى أي تقدير فالناظر في هذه الايات لايتلقى من تلك المادة الا معنى واحداً وهو الانتهاء ، أو ما يلازمه من الطبع على الشيء .

وقد أوضحه امام اللغة ابن فارس في معجمه وقال : «الختم» له أصل واحد وهو البلوغ آخر الشيء ، يقال ختمت العمل، وختم القارىء السورة، فأما الختم وهو الطبع على الشيء، فذلك من هذا الباب أيضاً، لان الطبع على الشيء لا يكون الابعد بلوغ آخره في الاحراز ، والخاتم مشتق من الختم ، لانه به يختم ، ويقال: الخاتم بالكسر ، والخاتام والخيتام .

والنبي (ص) خاتم الانبياء لانه آخرهم ، وختام كل مشروب ، آخره، قال الله تعالى : «ختامه مسك» ، أي أن آخر ما يجدونه عند شربهم اياه رائحةُ المسك .

وقال أبو البقاء العكبري: الخاتم بفتح التاء على معنى المصدر أو هو فعل ، مثل قاتل بمعنى ختمهم ، وقال الاخرون : اسم بمعنى آخرهم ، وقيل: هو بمعنى المختوم به النبيون ، كما يختم بالطابع ويقرء بكسرها ، بمعنى آخرهم (١) .

وقال الجوهري في صحاحه : ختمه ويختمه ختماً وختاماً ، طبعه وعلى قلبه: جعله لايفهم شيئاً، ولا يخرج منه شيء ، وختم الشيء : بلغ آخره ، والختام ككتاب : الطين يختم به على الشيء ، والخاتم ما يوضع على الطينة ، وحلي للاصبع . . .

قال الفيروزآبادي في قاموسه : ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختم، شدد للمبالغة ، وختم الله له بخير منه ، وختمت القرآن : بلغت آخره ، واختتمت الشيء نقيض افتتحته ، والخاتم بكسر التاء وفتحها ، والخيتام والخاتام كله بمعنى واحد، والجمع الخواتيم ، وتختمت اذا ألبسته ، وخاتمة الشيء آخره .

(١) التبيان في اعراب القرآن ج ٢ ص ١٠٠ .

ومحمد (ص) خاتم الانبياء .

والختام ، الطين الذي يختم به ، وقوله تعالى : « ختامه مسك » أي آخره ، لان آخر ما يجدونه رائحة المسك .

قال ابن منظور في لسان العرب: ختام القوم ، أقصاه ، ختام القوم وخاتمهم آخرهم ، محمد (ص) خاتم الانبياء ، والخاتم من أسماء النبي (ص) ففي التنزيل: « ما كان محمد (ص) أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، أي آخرهم ، وقد قرأوا «خاتم» بالفتح،ومن أسمائه «العاقب» أيضاً ومعناه آخر الانبياء .

قال أبو محمد الدميري فى منظومته :

والخاتم الفاعل قل بالكسر وما به يختم ، فتحاً يجري (١)

وقال البيضاوي : وخاتم النبيين آخرهم الذي ختمهم ، أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح .

وفي تفسير الجلالين : وفي قراءة بفتح التاء ، كآلة الختم ، أي به ختموا .

وقال الراغب في مفرداته : يطلق الختم على البلوغ الى آخر الشيء ، نحو ختمت القرآن،أي انتهيت الى آخره،وخاتم النبيين،لانه ختم النبوة، أي تممها بمجيئه.

الى غير ذلك من الكلمات الواردة والنصوص الدالة على تظافر اللغة والتفسير على معنى واحد .

ولباب هذه النصوص:ان لمادة هذه الكلمة معنى واحد وهو الانتهاء والوصول الى آخره، وأما الخاتم المشتق منها فعلى الكسر بمعنى الاخر، وعلى الفتح اما فعل كضارب ، أو اسم بمعنى ما به يختم .

وأما اطلاقه على الحلية التي تزين بها الاصبع ، فلأجل ان الدارج فى عهد الرسالة طبع الكتاب بالخاتم ، فكانت خواتيمهم طوابعهم ، لا أنه وضع لها ابتداء .

ويدل على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته:ان رسول الله أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتاباً فقيل يا رسول الله ان الملوك لا يقرؤن

(١) التيسير فى علوم التفسير ص ٩٠

كتاباً الا مختوماً ، فاتخذ رسول الله (ص) يومئذ خاتماً من فضة ـ فصه منه ـ نقشه ثلاثة أسطر : **محمد رسول الله** ، وختم به الكتب (١) .

قال ابن خلدون في مقدمته عند البحث عن شارات الملوك : أما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية ، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده ، وقد ثبت فى الصحيحين ، ان النبي (ص) أراد أن يكتب الى قيصر ، فقيل له : ان العجم لايقبلون الكتاب ، الا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه : **محمد رسول الله** .

قال البخارى : جعل ثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال : لاينقش أحد مثله ، قال : وتختم به أبوبكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس...

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه .

وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم : اذا لبسه ومنه ختمت الامر : اذا بلغته ، وختمت القرآن ، ومنه خاتم النبيين ، وخاتم الامر ، ويطلق على السد الذي يسد به الأواني والدنان ، ويقال : ختام ، وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام، قال : آخر ما يجدونه فى شرابهم ريح المسك ، وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذي هو السداد،لان الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار ، يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين فى الدنيا . .

وأن الخاتم اذا نقشت به كلمات أو اشكال ثم غمس في دواة من الطين أو المداد، ووضع على صفح القرطاس بقى أكثر الكلمات فى ذلك الصفح ، وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه ... الى أن قال :

ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كان الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامات ، وهو من دونها ملغى ليس بتمام ، ومن

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٨ .

هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السلطان أو الخليفة ، أي علامته . . . الى آخر ما أفاده .

كل ما ذكره ذلك الفيلسوف الخبير بأسرار التاريخ ، شواهد على ما ذكرنا فراجع بقية كلامه (١) .

تشكيكان حول دلالة الاية على كون نبى الاسلام خاتماً :

لما أرادت الفرقة الضالة المضلة (البهائية) (٢) أن يعرف زعيمها وقائدها، رسولا

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) البهائية وهى حزب سياسى، لها طابع المذهب،قد اختلقها ميرزا حسينعلى النورى المتوفى عام ١٣٠٩ هـ ق فى عكا . وتليهم فى العقيدة والغـاية « القاديانية » ومؤسسها « غلام أحمد القاديانى » ينتسب الى احدى قرى البنجاب (قاديان) ، كان فى الرعيل الاول من فضلاء البنجاب وعلمائهم، لكنه ادعى عام١٨٩٢ أنه المجدد للقرن الرابع عشر الهجرى، وفق الحديث النبوى:سيأتى على رأس كل مأة سنة رجل يجدد لها دينها ، وقال : أنا المبعوث لهذا القرن، فاتبعونى لعلكم تفلحون ، فأطاعته عدة من الخواص والعوام زرافات ووحدانا ، ولما أحس روح التبعية فيهم ، ادعى أنه المهدى والمسيح الموعود ، ثم ادعى لنفسه النبوة وأنه نبى كمثل أنبياء بنى اسرائيل الذين كانوا معه ، وأنه نبى الامة الاسلامية بغير مصحف، وعند ذلك هجم الناس عليه ليقتلوه ، لولا تدخل الحكومة الانكليزية ، وبقى على ما ادعى الى أن اخترمته المنية عام ١٩٠٨ ولم يستخلف أحداً ، فحدث بينهم خلاف عظيم ، فمالت فئة من أتباعه الى ابنه « بشير الدين أحمد »وتبعت فئة قليلة منهم « الامير محمد على » الذى شد أزر غلام أحمد من ابتداء الامر ، وقرروا أن يجعلوا لهـم جمعية اخرى ، ويجتنبوا اتباع ابن غلام أحمد ، وجعلوا مركزهم فى«لاهور» عاصمة البنجاب ، واشتهروا باسم الاحمدية اللاهورية ، ومحمدعلى هو مترجم القرآن بالانكليزية ، وبين الطائفتين اختـلاف فى الاصول والفروع ، فالاحمدية منهم مؤمنة بأن النبى خاتم الانبياء ولا يؤمنون بنبوة غلام أحمد ولا يكفـرون المسلمين مهما كانت عقائدهم ، وهو وأتباعه يصلون خلف كل مسلم ، بشرط أن لا يكفرهم ، وأما القاديانية منهم ، فهم يعتقدون أن غلام أحمد كان نبياً بلاكتاب سماوى ، كأنبياء بنى اسرائيل ، ويؤولون آية « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » تأويلا يتوافق على زعم الطائفة المضلة ـ على ما سيأتى ـ :

من الله الى الناس ، كسائر المرسلين ، من موسى والمسيح ومحمد (ص) حاولت لتدعيم مدعاها أن تشكك في دلالة الاية على ما اتفق عليه المسلمون منذ نزولها لحد الان، وقد جاءت في ذلك بتشكيكين لا يقصران عن شبه السوفسطائية في بداهة الامور ودونك بيانهما مع دحضهما بأوضح الوجوه :

التشكيك الاول :

خلاصة هذا الوجه يرجع الى التصرف في معنى « الخاتم » كما أن التشكيك الثاني يرجع الى التصرف في معنى «النبيين» .

بيانه ان قوله سبحانه : **«وخاتم النبيين»** لا يدل على انتهاء النبوة بوجوده صلى الله عليه وآله لاحتمال كون المراد من «الخاتم» الحلية التي تزين بها الاصبع وعندئذ يصير الهدف من اطلاق «الخاتم» عليه (ص) واستعارته له هو تشبيه نبي الاسلام بالخاتم في الزينة وانه (ص) بلغ من الكمال مبلغاً حتى صار زينة الانبياء ، فهو بين تلك العصابة كالخاتم في يد لابسه .

وهنا احتمال آخر تسقط معه أيضاً دلالة الاية على ما يرتأيه المسلمون من اختتام النبوة به (ص) لجواز أن يكون المراد من خاتم النبيين انه مصدق للنبيين وما انزل اليهم من الصحف والكتب، كما قال سبحانه : وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ،مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه (المائدة ـ ٤٨) وقد تقدمت تصاريح التاريخ

ـ نعم تشترك الفئتان في الاعتقاد بحرمة الجهاد ، لان مسيحهما قد بعث وجاء لنشر السلام العام والمحبة ، ولزوم الخضوع والطاعة لمن تسلط ، والكد والكدح في اكتساب الاموال والنقود ، وأن الوحي مستمر الى الابد ، الى غير ذلك من المخازي لتضليل بسطاء الامة عن الاسلام ، وعند التحقيق يظهر أن الاستعمار خلق «البابية والقاديانية» لايجاد التشكيك بين عوام الشيعة والسنة ، وكلا الاخوين **«حية بطن واد»** ، وقد تحدثت مجلة العرفان عن الاحمدية والقاديانية في عدة أجزاء من أعدادها ، فراجع المجلد الثامن عشر في مقال تحت عنوان : « الاسلام في الهند » ، والمجلد التاسع عشر ص ٩٤ والعشرين ص ٢٣٣ و ٣٥٢ و ٤٨٩ ، وفيها مقالات بأقلام عدة من الباحثين تشرح لنا هوية هذه الفئة .

على أن الدارج في عصر الرسالة هو طبع الكتاب وتصديق ما فيه بالخاتم ،فيصير اطلاق الخاتم عليه (ص) واستعارته له ، لأجل انه (ص) خاتم النبيين ومصدقهم كالخاتم الذي هو مصدق لمضامين الكتب والصحف ، فأين الدلالة على انسداد باب النبوة (١) .

الجواب :

هذا التشكيك بمعزل عن التحقيق، بل لا يستحق ان يطلق عليه اسم التشكيك والشبهة ،ولا يعرج عليه أي عربي صميم،أي عارف باللغة العربية ، بل أي شخص له ادنى المام بها ولا يتردد في مخيلة أي ابن انثى ، اذا كان ذا فكر سليم وذوق مستقيم ، ولا يوجد احتماله في كلمات القدامى والمتأخرين .

اذ لم تعهد استعارة الخاتم في مصطلح العرف للشخص، لغاية الزينة والتصديق على وجه المجاز، أو استعماله فيهما على وجه الحقيقة منذ عصر الرسالة الى يومناهذا.

وقد عرفت المعنى الحقيقي لتلك الكلمة ، ولم تكن الزينة أو التصديق أحد معانيه ، وأما استعماله فيهما مجازاً ، فيتوقف على حصول أمرين :

الاول : أن يكون الاستعمال متعارفاً ودارجاً بين أهل اللسان ، أو يكون مما يستحسنه الطبع والذوق ، وكلاهما منتفيان (٢) .

الثـانى : وجود قرينة مقالية أو حالية صارفة عن المعنى الحقيقـي ، والا فيحمل على المعنى الموضوع له ، وهي أيضاً منتفية .

ولماكانت هذه الشبهة أشبه شيء بحديث خرافة ، وشبه السوفسطائية لم يلتفت اليه أحد من مناوئي الاسلام ، حتى مؤسس الفرقة الضالة وزعيمها الاكبر ، بل فسر هو نفسه في بعض كتبه (٣) « خاتم النبيين » على خلاف ما ذكر في الشبهة ، وقال :

---

(١) الخاتمية ص ٢٣ .

(٢) ولأجل ذلك لا تجد فى الاداب العربيـة ولا الفارسية ولا غيرها من اللغات استعارة الخاتم للزينة والتصديق .

(٣) اشراقات ص ٢٩٢ .

« والصلوة والسلام على سيد العالم ، ومربي الأمم ، الذي به انتهت الرسالة والنبوة وعلى آله وأصحابه دائماً سرمداً . . . » .

وصرح بذلك في « ايقانه » (١) وفسره بالختم والانتهاء . نعم أتى بعد ذلك بتأويلات باردة يشمئز منها الطبع ، وانما أول ما اوّل ليمهد الطريق لدعوى نبوّته وسفارته من الله سبحانه .

هلم معي نسأل مبدع الشبهة عن أنه لماذا خص سبحانه « الخاتم » بالاستعارة ، مع أن التاج والاكليل ، أولى وأبلغ في بيان المقصود (الزينة) ؟ .

هلم نسأله عن أنه لو صح ما أراد (من أن المراد أنه(ص) مصدّق النبيين) ولن يصح ، ولو صحت الاحلام فلماذا عدل سبحانه عن أوضح التعابير وأفصحها، ولم يقل «مصدّق النبيين» كما عبر به في غير واحد من السور (٢) عندما أراد توصيف النبي بكونه مصدقاً لمن تقدم عليه وأتى في المقام بتعبير غير مألوف ولا مأنوس .

نحن نسأله : ان تصديق من مضى من النبيين، ليس صفة خاصة له (ص) فان المسيح كان أيضاً مصدقاً للماضين منهم ، وما معهم من الكتب والصحف، كما حكى عنه سبحانه : «واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (الصف ـ ٦) ، وعند ذاك فلماذا عرّفه سبحانه بوصف مشترك بين الانبياء جميعاً .

ماذا يجيبنا المبدع اذا سألناه،وقلنا له : ان تشبيه الرسول الاعظم بالخاتم فى التصديق وليد الاحلام الباطلة ، وشتان بينه (ص) وبين الخاتم،حتى فى نفس وجه الشبه الذي اختلقه المبدع،فان الخاتم ليس هو نفسه مصدقاً، وانما هو آلة التصديق وما يصدق به ، وانما المصدق انما هو كاتب الصحيفة ، وهذا بخلاف النبي (ص) فانه هو المصدق نفسه .

لا أدري ماذا يجيب المشكك عن هذه الاسئلة ؟ .

---

(١) ايقان ص ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة : ٤١ و ٩١ و ٩٧ آل عمران : ٣ وغيرهما .

نعم اختلقت هذا التشكيك بعض الاقلام المستأجرة، لتأييد أقاويل تلك الفئة وتسويل أباطيلهم ، والكاتب أعرف ببطلانها ، وقد عرفته الامة ، وعرفت نواياه ، وما تخلق به من روحيات ونفسيات .

التشكيك الثانى :

ان منصب النبوة غير الرسالة ، وما هو المختوم انما هو الاول دون الثاني ، فباب النبوة وان كان مختوماً بنص الاية ، لكن باب الرسالة مفتوح على مصراعيه فى وجه الامة ، ولم يوصد ولن يوصد أبداً .

واجلاء الحق في هذا المقام يتوقف على الوقوف على مـا هو المقصود من النبي والرسول في الكتاب العزيز،وقد عقدنا لبيان الفرق بين النبي والرسول والامام فصلا خاصاً (١) وأوضحنا فيه حال هذا التشكيك وجعلناه في مدحرة البطلان وأقمنا الدليل على أن ختم النبوة يلازم ختم الرسالة .

التنصيص الثانى (٢) على الخاتمية :

هلم معي نقرأ النصوص الباقية الدالة على كون نبينا خاتم الرسل ، وان رسالته خاتم

---

(١) راجع الفصل السادس : «النبى والرسول والامام فى الكتاب الكريم» من هذا الجزء.

(٢) الهدف الاسمى من الاستدلال بهذه الاية وما تليها ، هو نفى قسم خاص من أقسام النبوة ، أى النبوة التشريعية الناسخة، فبهذه الاية وأمثالها نكذب كل من ادعى لنفسه منصب النبوة التشريعية ، وادعى أنه نبى كموسى وعيسى ومحمد ، وان له كتـاباً وشريعة ناسخة لما قبلها من الكتب والشرائع ، اذ لا يعقل أن يكون لمجتمع واحد كتابان مختلفا الاهداف والاغراض ، أو نذيران متعددا الغايات .

فلا يصح أن يكون الفرقان والقرآن نذيراً لهم ، وفى الوقت نفسه أن يكون كـتاب آخر، يخالفه فى المضمون، نذيراً لهم أيضاً. وقس على ذلك ساير ما يرد عليك من الايات .

نعم هذه الاية ونظائرها لا تفى بنفى النبوة التبليغية المحضة، أو التشريعية غير الناسخة، بأن تكون النسبة بين الشريعتين نسبة الاقل الى الاكثر ، أو المجمل الى المفصل. والدليل الوحيد فى القرآن ، على انسداد أبواب النبوات على اطلاقها ، هى الاية المتقدمة، فلاحظ .

الرسالات حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره، فمن النصوص قوله سبحانه « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** » (١) .

وصريح النص أن الغاية من تنزيل الفرقان على عبده (رسولنا) كون القرآن نذيراً للعالمين ، أي الخلائق كلها من بدء نزوله الى يوم يبعثون .

قال« الراغب »فى مفرداته:العالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والاعراض وهو في الاصل اسم لما يعلم به،كالطابع والخاتم، لما يطبع به وما يختم به، وجعل بنائه على هذه الصفة، لكونه كالالة والعالم آلة ، في الدلالة لصانعه ، وأما جمعه فلأن كل نوع من هذه قد يسمى عالماً ، فيقال عالم الانسان،وعالم الماء ، وعالم النار، وأما جمعه على السلامة فلكون الناس من جملتهم، والانسان اذا شارك غيره في اللفظ غلب عليه حكمه،وقيل انما جمع هذا الجمع لانه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والناس دون غيرها وروي هذا عن ابن عباس وقال جعفر بن محمد عنى به الناس ، وجعل كل واحد عالماً (٢) .

وقال : العالم عالمان : الكبير وهو الفلك بما فيه والصغير لانه مخلوق على هيئة العالم (٣) .

قال الزمخشري : العالم اسم لذوى العلم من الملائكة والثقلين ، وقيل كل ما علم به الخالق من الأجسام والاعراض ، وجمع ليشمل كل جنس مما سُمي به ، وأما جمعه بالواو والنون مع كونه اسماً غير صفة وانما يجمع بها صفات العقلاء،

---

(١) الفرقان ـ ١ .

(٢) هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، ويشهد له ما نقله سبحانه ، عن قوم لوط فى خطابهم له ، عند نزول ضيوفه : قال أن هؤلاء ضيفى ، فلا تفضحون،واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أولم ننهك عن العالمين (الحجر ٦٨ ـ ٧٠) أى قالو فى جوابه : أوليس كنا قد نهيناك عن أن تستضيف احداً من الناس ، ولا معنى لان ينهوه عن الاجرام السماوية ، أو الجن والملائكة ،

ونظيره قوله سبحانه حكايةعن لوط فىالرد على قومه : «أتاتون الذكرانمن العالمين» (الشعراء ـ ١٦٥) فالمراد من العالمين فيه ، هو الناس بلا ريب .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٤٩ .

أو مافى حكمهامن الاعلام، فلأجل معنى الوصفية فيه وهى الدلالة على معنى العلم (١). وعلى أي تقدير سواء كان المراد من العالمين فى الايات الاخر جميع المخلوقات التي يحويها الفلك من الجواهر والاعراض ، أم كان المراد الانس والجن ، فالمرادمنه فى الاية بقرينه كونه «نذيراً» خصوص الانسان أو مطلق من يعقل ، فالاية صريحة فى أن انذاره لايختص بناس دون ناس ، أو بزمان دون زمان ، فهو على اطلاقه يعطي كونه نذيراً للامة البشرية بلا قيد ولاحد .

ولقائل أن يعترض ويقول : ربما يطلق «العالمون» ويراد منه الجم الغفير من الناس كما فى قوله سبحانه : فى تفضيل بني اسرائيل : «يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين» (الانبياء ـ ٧١) ويقال رأيت عالماً من الناس يراد به الكثرة وعند ذاك لا تكون الاية صريحة فيما نرتأيه .

والجواب: ان المتبادر من العالمين فى مصطلح العرف والقرآن هو المعنى العام وهو عبارة اما عن الخلائق عامة كما عليه قوله سبحانه : «قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين» (الشعراء ٢٣ ـ ٢٤) ، وغيره من الايات الكثيرة التي استعملت فيها كلمة «العالمين» فى الخلق كله ، أو نوع ما يعقل من الملائكة والانس والجن وعليه قوله تعالى « ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة ـ ٢٥١) وقوله سبحانه «وما الله يريد ظلماً للعالمين» (آل عمران ـ ١٠٨) ، أو خصوص الانس وعليه قوله تعالى «ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين» (آل عمران ـ ٩٦) وقوله سبحانه «أتأتون الذكران من العالمين» (الشعراء ـ ١٦٥) وعلى ماذكرنا فلايسوغ أن يحمل هذا اللفظ على غير هذه المعاني، الابقرينة صارفة عن ظاهره وهي غير موجودة فى المقام .

وأما قوله سبحانه : «واني فضلتكم على العالمين» فليس ظاهراً فيما فسره صاحب الكشاف ، من الجم الغفير ، ولاجل ذلك فسره حبر الامة بأهل عالمي زمانهم كلهم،

(١) الكشاف ج ١ ص ٦ .

لابالجم الغفير ، كما فسر به قوله سبحانه : «ان الله اصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران ـ ٤٢) . وعلى اي حال سواء أفسرناه بالجم الغفير أم خصصناه بأهل عالمي زمانهم ، فانما هولقرينة صارفة عن ظاهره ، حيث دل القرآن على أن الامة الاسلامية أفضل الامم ، لقولـه سبحانه : « كنتم خير أمـة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (آل عمران ـ ١١٠) . ونظير تلك الاية مادل على اصطفاء مريم على نساء العالين ، كمـا قال سبحانه : «ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران ـ ٤٢) ، فالمراد منه هو نساء عالمي أهل زمانه ، لما اثر عن النبي وآله من عدم فضلها على ابنته فاطمة (ع) .

أخرج ابن سعد ، عن مسروق ، عن عائشة في حديث : ان النبي (ص) أسرّ الى فاطمة عند مرضه وقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامة ، أو نساء العالمين (١) .

ورواه أبو نعيم الاصفهاني أيضاً بهذه العبارة (٢) .

أخرج مسلم والترمذي والبخاري في صحاحهـم عن عائشة ، قالت : ان النبي (ص) قال لفاطمة فياخريات أيامه: ألاترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الامة (٣) .

روى الحديث بألفاظه المختلفة العلامة المجلسي في بحاره ، فراجـع (٤) .

ولو لا هذه المأثورات عمن نزل عليه القرآن لكان الواجب الأخذ بظاهرها والحكم بتفضيلها (مريم) على نساء العالمين جميعا .

* * *

على انه يمكن الأخذ باطلاق قوله سبحانه : « واني فضلتكم على العالمين » والقول بتفضيلهم على الناس كلهم،بتقريب ان ملاك فضلهمعلى غيرهم، تخصيصهم

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٢٧ .

(٢) حلية الاولياء ج ٢ ص ٤٠ .

(٣) التاج الجامع للاصول ج ٣ ص ٣١٤ .

(٤) بحار الانوار ج ٤٣ ص ٣٦ .

بأشياء من بين الامم اذ أنزل عليهم المن والسلوى ، وبعث فيهم رسلا ، وأنزل عليهم الكتب ونجاهم من فرعون وملأه الى غير ذلك مما خص به تلك الامة من بين الناس ولا يلزم منه تفضيل واحد منهم على غيرهم (١) .

وعلى أي تقدير فالمتبع هو ظاهر الاية ما لم يدل دليل على خلافه ، وليست فى المقام قرينة تصرف قوله سبحانه « ليكون للعالمين نذيراً » عن ظاهره وصريحه.

النص الثالث على الخاتمية :

ومن النصوص قوله سبحانه : أن الذين كفروا بالذكر لما جائهم وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . (فصلت ٤١ - ٤٢) .

والمقصود من « الذكر » هو القرآن ، لقوله سبحانه « ذلك نتلوه عليك من الكتاب والذكر الحكيم (آل عمران - ٨٥) وقوله سبحانه « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون (النحل ٤٤) .

والضمير فى « لايأتيه » يرجع الى « الذكر » ومفاد الاية أن الباطل لا يتطرق اليه ولا يجد اليه سبيلاً من جهة من الجهات ، فلايأتيه الباطل بأي صورة متصورة ، ودونك صوره :

١ - لا يأتيه الباطل : لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء .

٢ - لا يأتيه الباطل : لايأتيه كتاب يبطله وينسخه بأن يجعله سدى ، فهو حق ثابت لا يبدل ولا يغير ولا يترك .

٣ - لا يأتيه الباطل: لا يتطرق في اخباره عما مضى ولا في اخباره عمايجيء الباطل ، فكلها تطابق الواقع .

وعلى أي تقدير فمحصل الاية بحكم الاطلاق المستفاد من قوله سبحانه : « لا

(١) مجمع البيان ج ١ ص ١٠٢ .

يأتيه » ان القرآن حق لا يدانيه الباطل الى يوم القيامة .

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (الحجر ٩) أي نحفظه عن تطرق أي بطلان اليه الى يوم البعث ، كما هو أيضاً مقتضى اطلاقه .

والحق المطلق الذي لا يدانيه الباطل أبداً ، والمحفوظ عن تسلل البطلان اليه الى يوم القيامة كما هو ظاهر الايتين، يمتنع أن يكون حجة محدودة، بل يكون متبعاً لا الى غاية خاصة وأمد محدود ، لأن خاصة الحق المطلق والمصون عن تطرق البطلان مطلقاً هو كونه حجة لا الى حد خاص والله سبحانه عهد بأن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (الانفال ٨) .

فاذا كان القرآن حقاً مطلقاً مصوناً عن تسلل البطلان اليه،ومتبعاً للناس الى يوم القيامة ، يجب عند ذلك ، دوام رسالته وثبات نبوته وخاتمية شريعته .

وأن شئت قلت : أن الشريعة الجديدة اما أن تكون عين الشريعة الاسلامية الحقة المحقة التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل أو غيرها، فعلى الاول لا حاجة الى الثانية ، وعلى الثاني فأما أن تكون الثانية حقة كالاولى، فيلزم كون المتناقضين حقاً، أو يكون الاولى حقة دون الاخرى ، فهذا هو المطلوب .

والرسول (ص) لم يزل يبين شريعته ،بالكتاب الحق الذي لا يدانيه الباطل، وبسنته المحكمة التي لا تصدر عنه الا بايحاء منه سبحانه ، كما قال وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى،علمه شديد القوى (النجم ٣ ـ ٥) وعلى أي تقدير فالاية صريحة فى نفي أي تشريع بعد القرآن ، وشريعة غير الاسلام فتدل بالملازمة على عدم النبوة التشريعية بعد نبوته (ص) .

النص الرابع من القرآن على خاتمية الرسول (ص) :

ومن النصوص قوله تعالى : « قل أي شيىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم ، واوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ (الانعام ـ ١٩) وفسره

امين الاسلام بقوله:أي لأنذر به من بلغه القرآن الى يوم القيامة . ولذا قال النبي (ص) : من بلغه اني أدعوا الى أن لا اله الا الله فقد بلغه ، أي بلغته الحجة وقامت عليه ، حتى قيل من بلغه القرآن ، فكأنما رأى محمداً (ص) وسمع منه وحيث ما يأتي القرآن ، فهو داع ونذير (١) .

قوله سبحانه «ومن بلغ» معطوف على الضمير المنصوب فى قوله «لأنذركم» لا على الفاعل المستتر .

وقد وافاك توضيح مفاد الاية والتوفيق بينها وبين قوله سبحانه : « ولتنذر ام القرى ومن حولها » عند البحث عن كون رسالة الرسول عالمية (٢) .

التنصيص الخامس على الخاتمية :

ومن النصوص قوله تعالى:« وما أرسلناك الا كافة للناس ،بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (سبأ ـ ٢٨) .

المتبادر من الاية ، كون « كافة » حالا من الناس قدمت على ذيها ، وتقدير الاية : وما أرسلناك الا للناس كافة ، بشيراً ونذيراً .

ويحتمل كونها حالا من الضمير المنصوب فى « أرسلناك » ومفاد الاية : وما أرسلناك الا أن تكفهم وتردعهم . ولكنه ضعيف جداً ، اذ لا حاجة عندئذ الى لفظ « كافة » بعد تذييل الجملة بقوله : « بشيراً ونذيراً » اذ لا معنى للكف والردع ، الا تخويفهم عن عذابه وعقابه حتى يرتدعوا بالتأمل فيما أوعد الله فى كتابه العزيز ولسان نبيه (ص) على مقترفى الجرائم ، وليس ذاك الا نفس الانذار الوارد فى الاية :

أضف اليه أنه لم يستعمل لفظ «كافة» فى القرآن الا بمعنى عامة كقوله سبحانه: يا ايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة (البقرة ٢٠٨) .

---

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) راجع ص ٣٧ ـ ٤٣ من كتابنا هذا .

وقوله عزوجل « وقاتلوا المشركين كافة ،كما يقاتلونكم كافة » (التوبة ٣٦)

وقوله سبحانه « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » (التوبة ١٢٢) .

وكل ذلك يؤيد كون « كافة » بمعنى عامة حالا من الناس ، والاية مع كونها دليلاعلى كون رسالته عالمية،دليل على كونه مبعوثاًالى كافة الناس الى يوم يبعثون (١) .

(١) ويؤيد ذلك ما رواه ابن سعد فى «طبقاته الكبرى» عن خالد بن معدان قال : قال رسول الله (ص) : بعثت الى الناس كافة ، فان لم يستجيبوا لى فالى العرب ، فان لم يستجيبوالى فالى قريش ، فان لم يستجيبوا لى فالى بنى هاشم ، فان لم يستجيبوا فالى وحده .

ونقل عن أبى هريرة ، أن النبى (ص) قال : أرسلت الى الناس كافة ، وبى ختم النبيون (الطبقات الكبرى ج١ ص١٩٢) وكل ذلك دليل على أن الصحابة لم يفهموا من الاية الا ما استظهرناه

الخاتمية فى الاحاديث الاسلامية

لقد حصحص الحق بما أوردناه من النصوص القرآنية وانكشف الشك عن محيا اليقين ، فلم يبق لمجادل شبهة ، فى أن الرسول (ص) خاتم النبيين والمرسلين ، ودينه خاتم الاديان وكتابه خاتم الكتب والصحف ،وقد وردت عن النبي والائمة من بعده نصوص فى المقام تؤكد المطلب فلا بأس بالتعرض لها ، وتوضيح بعضها ، اذ لم نجدها مجتمعة فى باب أو كتاب .

١ ـ حديث المنزلة (١) :

خرج رسول الله من المدينة الى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له على (ع) أخرج معك ؟ فقال (ص) : لا ، فبكي على ، فقال له رسول الله (ص): « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبي بعدي ، أوليس بعدي نبي ، اولا ينبغي أن أذهب الا وأنت خليفتي» .

وهذا الحديث صحيح متفق عليه بين الامة ، لم يشك أحد فى صحة سنده ولا سنح فى خاطر كاتب أن يناقش فى ثبوته .

وحسبك أنه أخرجه البخاري فى صحيحه فى غزوة تبوك (٢) ومسلم فى صحيحه فى باب فضائل علي (ع) (٣) وابن ماجة فى سننه فى باب فضائل أصحاب النبي (ص) (٤)

---

(١) سمى حديث المنزلة، لان النبى (ص) نزل فيه نفسه منزلة موسى، ونزل علياً مكان هارون.

(٢) صحيح البخارى ، الجزء الثالث ص ٥٨ .

(٣) صحيح مسلم ، الجزء الثانى ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٤) سنن ابن ماجه ، الجزء الاول ص ٢٨ .

والحاكم في مستدركه في مناقب علي (ع) (١) وامام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة (٢) .

قال « ابن عبد البر » في استيعابه : هذا من أثبت الآثار وأصحها ، رواه عن النبي سعد بن أبي وقاص ، قال طرق حديث سعد كثيرة جداً ، ذكرها ابن خيثمه وغيره ورواه ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأم سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله ، وجماعة يطول ذكرهم (٣) . ورواه من أعلام الطائفة ، صدوق الامة في أماليه ومعانيه (٤) وشيخ الطائفة في أماليه (٥) والعلامة الكراجكي في كنزه (٦) وقطب الدين الراوندي في خرائجه (٧) وابن شهر آشوب في مناقبه (٨). وقال وصنف أحمد بن محمد بن سعيد كتاباً في طرقه قد تلقته الامة بالقبول اجماعاً، والكاتب الاربلي في كشف الغمة (٩). وقد جمع العلامة المجلسي طرق الحديث من الفريقين في جامعه (١٠) .

وفيما ذكرنا من المصادر غنى وكفاية ، لا حاجة الى الاستقصاء ، فان كل من تعرض لغزوة تبوك ، أو عقد باباً لفضائل مولانا أمير المؤمنين ، أثبته في كتابه . ووضوح دلالة الرواية أغنانا عن البحث حولها .

* * *

(١) مستدرك الحاكم ، الجزء الثالث ص ١٠٩ وفي مواضع أخر .
(٢) مسند ابن حنبل ، الجزء الاول ص ٣٣١ والجزء الثاني ص ٣٦٩ و ٤٣٨ .
(٣) راجع الاستيعاب في ترجمة علي (ع) .
(٤) أمالي الصدوق ص ٢٩ ومعاني الاخبار ص ٧٤ وقد بسط الكلام في دلالة الحديث .
(٥) أخرج في أماليه في مواضع مختلفة ، راجع ص ٢٨ و٣١ و١٥٩ و١٦٤ و١٩٣ و ٢١٨ و ٣٣١ .
(٦) كنز الفوائد ص ٢٨٢ .
(٧) الخرائج والجرائح ص ٧٥ .
(٨) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٥٢٢ .
(٩) كشف الغمة ص ٤٤ .
(١٠) بحار الانوار ج ٣٧ ، الباب ٥٣ ص ٢٥٤ - ٢٨٩ .

٢ – روى البخاري فى صحيحه عن النبي (ص) قال : أن مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ،الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين (١) .

صورة اخرى للرواية :

أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبي (ص) قال : مثلي ومثل الانبياء، كمثل رجل بنى داراً،فأتمها وأكملها الا موضع لبنة،فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع هذه اللبنة ، قال رسول الله (ص) ، فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الانبياء (٢) .

فقد شبه النبي عصابة الانبياء ببناء ذى اتزان وأجزاء وأن الانبياء يمثلون أجزاء ذاك البناء المعنوي وأن موضع النبي (ص) منه بمثابة موضع آخر لبنة منه فكما البناء يكتمل بوضع آخر لبنة مكانها فيه ، فكذلك اكتمل ذلك البناء المعنوي بمجيىء آخر فرد منهم فلم يبق بعده موضع لمجيىء فرد آخر .

* * *

٣ – أخرج الدارمي (٣) فى سننه عن جابر بن عبد الله ،أن النبي (ص) قال : أنا قائد المرسلين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر (٤) .

---

(١) صحيح البخارى ، الجزء الرابع ص ١٨٦ ، المطبوع عام ١٣١٤ هـ ق ، مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) صحيح مسلم ، الجزء الخامس عشر ص ٥٢/١٥ ،وسنن أبى داود ص ٢٤٧، ورواه التاج عن الترمذى . راجع التاج ، ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) الامام الكبير أبو محمد ، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ، المتوفى عام ٢٥٥ ، روى عنه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، وسننه أحد السنن المعتبرة .

(٤) سنن الدارمى ، الجزء الاول ص ٢٦ المطبوع بدمشق عام ١٣٤٩ .

٤ ـ أخرج الصدوق باسناده ، عن أبي جعفر (ع) قال : قال النبي (ص) : أيها الناس أنه لا نبي بعدي ولا سنة بعد سنتي فمن ادعى ذلك فدعواه وبدعته في النار، فاقتلوه ومن تبعه فانه في النار، أيها الناس أحيوا القصاص وأحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا وأسلموا وسلموا كتب الله: لأغلبن أنا ورسلي ، ان الله قوى عزيز (١) ، قوله (ص) « لا نبي بعدي » أي لا يصلح لأحد أن يدعي التنبوء والاتصال بالملأ الاعلى من بعدي مثل مايدعيه سائر الانبياء .

قوله (ص) «لا سنة بعد سنتي» يبطل كل شريعة سوى شريعته الى يوم القيامة.

ورواه الكاتب الاربلي في كتابه بصورة اخرى ، قال :

قال (ص) في مرض موته ، والمسلمون مجتمون حوله : أيها الناس أنه لا نبي بعدي ولا سنة بعد سنتي ، فمن ادعى ذلك فدعواه وباغيه في النار ، أيها الناس أحيوا القصاص وأحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا وأسلموا وسلموا، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، أن الله قوى عزيز (٢) .

٥ ـ روى الطبرسي (أحمد بن على بن أبي طالب) في احتجاجه ، مسنداً عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنه قال: حج رسول الله (ص) من المدينة، وساق قصة غديرخم وخطبة النبي فيها وقال: بي والله بشر الاولون من النبيين والمرسلين وأنا خاتم النبيين والمرسلين، والحجة على جميع المخلوقين من أهل السموات والارضين، فمن شك في هذا، فهو كافر كفر الجاهلية الأولى ، ومن شك في قولي هذا، فقد شك في الكل ، والشاك في ذلك فهو في النار (٣) .

* * *

٦ ـ روي الصدوق في خصاله، أنه (ص) خطب في أوسط أيام التشريق فقال: ان الله عز وجل حرم عليكم دمائكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا وبلدكم هذا ، الى يوم تلقونه، الا فليبلغ شاهدكم غائبكم، لانبي بعدي

(١) وسائل الشيعة ، أبواب المرتد ، الباب الثالث ، الحديث الثالث .
(٢) كشف الغمة ج ١ ص ٦ والبحار ج ٢٢ ص ٥٣١ .
(٣) مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٢٤٧ .

ولا أمة بعدكم ، ثم رفع يديه حتى أنه ليرى بياض أبطيه ، ثم قال : اللهم اشهد اني قد بلغت (١) .

* * *

٧ ـ أخرج الصدوق بسندآخر عن رسول الله ، عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أنا خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين (٢) .

* * *

٨ ـ أخرج ابن سعد فى طبقاته عن أبي هريره ، أنه قال (ص) : أرسلت الى الناس كافة وبي ختم النبيون (٣) .

* * *

٩ ـ روى ابن سعد فى طبقاته عن محمد بن جبير عن مطعم عن أبيه، أن رسول الله قال : لي خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد وأنا الماحي ، يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي (٤).

* * *

١٠ ـ وقال سمعت النبي (ص) يقول : اني عبد الله ، وخاتم النبيين ، وأن آدم لمنجدل فى طينته وساخبركم من ذلك دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى بي (٥) .

١١ ـ سئل جابر عن النبي (ص) عن أول شيىء خلقه الله ، قال : هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيىء . .. ثم أخرجني الى الدنيا ، فجعلني سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ومبعوثاً الى كافة الناس أجمعين ورحمة للعالمين (٦) .

---

(١) الخصال ج ٢ ص ٨٤ .
(٢) العيون ج ٢ ، الباب ٣١ ص ٧٤ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢ ، أو مسند أحمد ج ٢ ص ٤١٢ .
(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٠٥ ومسند أحمد ج ٤ ص ٨١ و٨٤ ، وصحيح مسلم الجزء السابع ص ٨٩ .
(٥) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٩ ، مسند أحمد ج ٤ ص ١٢٨ ، ينابيع المودة ص ١٠
(٦) ينابيع المودة ص ١٤ ـ ١٥ .

١٢ ـ عن قتادة ، أن النبي قال : كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث (١) .

١٣ ـ قال آدم : لما خلقتني رفعت رأسى الى عرشك ، فأذا فيه مكتوب : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، فاوحى الله اليه ، وعزتي وجلالي ، أنه آخر النبيين، من ذريتك ولولاه لما خلقتك (٢) .

١٤ ـ أنا الاول والاخر ، أول فى النبوة ، وآخر فى البعثة (٣) .

١٥ ـ عن جابر بن عبد الله ، قال قال رسول الله :

. . . وجعل اسمي فى القرآن محمداً،فأنا محمود فى جميع القيامة فى فصل القضاء ، لا يشفع أحد غيري وسماني فى القيامة حاشراً يحشر الناس على قدمي ، وسماني الموقف ، أوقف الناس بين يدي الله ، جل جلاله ، وسماني العاقب ، أنا عقب النبيين ، ليس بعدي رسول ، وجعلني رسول الرحمة (٤) .

١٦ ـ عن عرباض بن سارية،قال سمعت رسول الله صلى‌الله وآله وسلم‌يقول: اني عبد الله وخاتم النبيين ، فذكر مثله وزاد فيه أن أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام (٥) .

١٧ ـ فى حديث طويل قال (ص) : فيأتوني فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الانبياء،غفر الله لك ذنبك ، ما تقدم منه وما تأخر ، فاشفع لنا ربك ، الا ترى الى ما نحن فيه . . . (٦) .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٩ وينابيع المودة ص ١٧ ، الا انه قال : كنت أول الانبياء فى الخلق .

(٢) ينابيع المودة ص ١٧ ـ ١٨ .

(٣) كشف الغمة ج ١ ص ١٣ .

(٤) علل الشرائع ص ٤٥ ، الخصال ج ٢ ص ٤٨ ، معانى الاخبار ص ١٩ ، بحار الانوار ج ١٦ ص ٩٣ .

(٥) مسند أحمد ج ٤ ص ١٢٧ .

(٦) مسند أحمد ج ٢ ص ٤٣٦ ، وأخرجه الترمذى فى الجزء الثالث عشر .

١٨ ـ وفى حديث الشفاعة: فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى اشفع لنا الى ربك فليقض بيننا فيقول اني لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فانه خاتم النبيين . . . (١) .

٩١ ـ فى حديث ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اني خاتم ألف نبي وأكثر (٢) .

٢٠ ـ ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انما أخاف على أمتي الائمة المضلين فاذا وضع السيف فى أمتي لم يرفع عنها الى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتي الاوثان وأنه يكون فى أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك »

هذا الحديث أورده رزين هكذا وأخرج مسلم بعضه وهو مذكور في فضائل الامة من كتاب الفضائل .

وأخرجه أبو داود فى جملة حديث. وهو مذكور فى المعجزات من كتاب النبوة من حرف النون .

أخرجه الترمذي : مفرقاً فى ثلاثة مواضع (٣) .

* * *

٢١ ـ روى السيد بن طاوس فى اقباله متن الصحيفة التي ورثها الخلف عن السلف من الانبياء وفيها . . . : أكمل بمحمد (ص) وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني وأختم به أنبيائي ورسلي ، فعلى محمد وأمته تقوم الساعة (٤) .

---

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ٢٤٨ . صحيح البخارى ج ٦ ص ٨٥ .
(٢) مسند أحمد ج ٣ ص ٧٩ .
(٣) جامع الاصول ج ١ ص ٤١٠ مسند أحمد ج ٢ ص ٤٢٦ .
(٤) اقبال السيد ص ٧٣٤ من طبعة تبريز و ص ٥٠٩ من طبعة طهران .

هذه نصوص من النبي الاعظم على كونه خاتم الرسل والانبياء وأن دينه وشريعته خاتم الاديان والشرايع وقد اقتفت الائمة من بعده أثره فصرحوا فى خطبهم وكلماتهم أن الرسول خاتم الرسل والنبيين ونحن نثبت تلكم النصوص حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره .

تنصيص الامام أمير المؤمنين على الخاتمية :

هذا أمير المؤمنين ، باب علم النبي(ص) وموضع سره ، فقد نص فى غير واحد من خطبه على كون الرسول خاتماً لمن سبق ، وكتابه خاتماً للتشريع ، ودونك نصوصه الناصعة :

٢٢ ـ « الى أن بعث الله محمداً (ص) لا نجاز عدته واتمام نبوته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهورة سماته ، كريماً ميلاده » (١) .

٢٣ ـ اجعل شريف صلواتك ونامي بركاتك على محمد (ص) عبدك ورسولك الخاتم لما سبق ، والفاتح لما انغلق ، المعلن بالحق (٢) .

قوله : « الفاتح لما انغلق » يريد لما كانت أبواب القلوب قد انغلقت بأقفال الضلال عن طوارق الهداية ، فافتتحها بآيات نبوته ، فأعلن الحق ، واظهره بالحجة والبرهان.

وأما ما رواه الشيخ (٣) والسيد (٤) فى زيارة مولانا أمير المؤمنين : السلام على رسول الله ، أمين الله على وحيه وعزايم أمره ، الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كله ورحمة الله وبركاته » فالمراد منه : الفاتح لما استقبل من أبواب الهداية والبركات المعنوية ، فهو (ص) وان ختم ما سبق من أبواب الهداية، فلا يمكن الاهتداء بتوراة موسى ولا بانجيل المسيح ، الا أنه فتح امام البشر أبواباً للهداية بقرآنه ، وسنته وعمله وتقريره وأوصيائه .

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة الاولى .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٦٩ .

(٣) التهذيب ج ٦ ص ٢٥ .

(٤) فرحة الغرى ص ٣٢ .

٢٤ ـ وقال (ع) : أيها الناس خذوها من خاتم النبيين (ص) أنه يموت من مات منا وليس بميت (١) .

٢٥ ـ وقال (ع) : أرسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الالسن،تقفي به الرسل وختم به الوحي (٢) .

٢٦ ـ وقال (ع) : أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته (٣) .

٢٧ ـ وفى صحيفته (ع) ورب الملائكة أجمعين ورب محمد (ص) خاتم النبيين والمرسلين ورب الخلق أجمعين (٤) .

٢٨ ـ ومن كلام له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله وتجهيزه :

« بأبي أنت وأمي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والانباء وأخبار السماء ، خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء (٥) .

٢٩ ـ ثم ان هذا الاسلام ، دين الله الذي اصطفاه لنفسه ، واصطنعه على عينه ، واصفاه خيرة خلقه،وأقام دعائمه على محبته ، أذل الاديان بعزته ، ووضع الملل برفعه وأهان أعدائه بكرامته ، وخذل محادّيه بنصره ، وهدم أركان الضلالة بركنه ، وسقى من عطش من حياضه، وأتاق الحياض لمواتحه .

ثم جعله لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرته ، ولا انقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذلفروعه ولا ضنك لطرقه ، ولا وعوثة لسهولته ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصل فى عوده ، ولا وعث لفجه ، ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته .

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٣ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٦٨ .

(٤) الصحيفة العلوية ، من دعائه فى اليوم السادس والعشرين .

(٥) نهج البلاغة الخطبة ٢٣٠ ، ومجالس المفيد ص ٥٢٧ ، والبحار ج ٢٢ ص ٥٢٧ .

وقال (ع) وهو يصف القرآن :

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوءه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءاً لا تخشى اسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه،وأثافي الاسلام وبنيانه،وأودية الحق وغيطانه،وبحر لاينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون،وآكام لا يجوز عنها القاصدون (١) .

* * *

تنصيص الامام السبط على الخاتمية :

ففي دعائه يوم عرفه قوله (ع) : الحمد لله حمداً يعادل حمد ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين ، وصلى الله على خيرته محمد (ص) خاتم النبيين وآله الطاهرين المخلصين ... (٢) وقوله : ورب محمد خاتم النبيين وآله المنتجبين ومنزل التوراة والانجيل والزبور والقرآن الكريم (٣) .

* * *

نص الامام الطاهر زين العابدين (ع) على الخاتمية :

٣٠ ـ فختم بنا على من ذرع ، وجعلنا شهداء على من جهد (٤) .

---

(١) نهج البلاغة ـ عبده ـ خطبة ١٩٣ ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢و٣) اقبال السيد بن طاووس ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٤) الصحيفة السجادية ، الدعاء الثامن .

٣١ ـ « اللهم صل على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين،وأعذنا وأهالينا واخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات مما استعذنا منه (١) .

* * *

تنصيص الامام أبي‌جعفر الباقر (ع) على الخاتمية :

٣٢ ـ روى الصدوق فى اكماله مسنداً ، عن أبي جعفر (ع) فى حديث : « ثم ان الله عزوجل ، أرسل عيسى بن مريم الى بنى اسرائيل خاصة ، فكانت نبوته ببيت المقدس ، وكان من بعده الحواريون ، اثني عشر ، فلم يزل الايمان يستسر فى بقية أهله ، منذ رفع الله عيسى (ع) وأرسل الله تبارك و تعالى محمداً ، الى الجن والانس عامة ، وكان خاتم الانبياء وكان من بعده الاثنا عشر اوصياء» (٢) .

* * *

تنصيص الامام الصادق (ع) على الخاتمية :

٣٣ ـ أخرج الكليني باسناده ، عن أيوب بن الحر قال سمعت أبا عبدالله(ع) يقول : ان الله ختم بنبيكم النبيين ، فلا نبي بعده ابداً ، وختم بكتابكم الكتب ، فلا كتاب بعده ابداً ، وأنزل فيه تبيان كل شيء (٣) .

٣٤ ـ روى‌الكليني فى‌باب الفرق بين النبي والرسول والمحدث، عن الصادق عليه السلام فى حديث : لقد ختم الله بكتابكم الكتب ، وختم بنبيكم الانبياء (٤) .

٣٥ ـ وروي عنه (ع) فى‌حديث:«فكل نبى‌جاء‌بعدالمسيح أخذ بشريعته‌ومنهاجه

(١) الصحيفة السجادية ، الدعاء السابع عشر .
(٢) اكمال الدين ص ١٢٧ .
(٣) الوافى ، الجزء الثانى من المجلد الاول ص ١٤٤ .
(٤) اصول الكافى ص ٣٣١ .

حتى جاء محمد(ص) فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة (١) .

٣٦ ـ روى الشارح المعتزلي عن الصادق (ع) كان علي (ع) يرى مع رسول الله قبل الرسالة الضوء ، ويسمع الصوت ، قال وقال له (ص) : لولا اني خاتم الانبياء ، لكنت شريكاً فى النبوة ، فان لم تكن نبياً فانك وصي نبي ، ووارثه ، بل أنت سيد الاوصياء ، وامام الاتقياء (٢) .

٣٧ـ أخرج الصدوق عن الفضيل قال قال أبو عبد الله : لم يبعث الله عزوجل من العرب الا خمسة أنبياء : هوداً وصالحاً واسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين (٣) .

* * *

تنصيص الامام الطاهر على الرضا (ع) على الخاتمية :

٣٨ـ روى الصدوق مسنداً عن علي بن موسى الرضا(ع) عن أبيه عن آبائه عن فاطمة بنت النبي (ص) لما حملت بالحسن وولدته . . . ثم هبط جبرئيل فقال : يا محمد العلى الاعلى يقرئك السلام ، ويقول : علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي بعدك ، سم ابنك باسم ابن هارون ، فقال النبي (ص) وما اسم ابن هارون ؟ قال شبر ، قال النبي (ص) : لساني عربي ، قال جبرئيل : سمه الحسن (٤) .

٣٩ ـ اخرج الصدوق باسناده عن الامام علي بن موسى الرضا عن آبائه عن علي (ع) قال رسول الله (ص) يا علي ما سألت ربي شيئاً الا سألت لك مثله ، غير أنه قال لا نبوة بعدك ، أنت خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين (٥) .

---

(١) أصول الكافى ج ٢ ص ١٧ . المحاسن : ص ١٩٣ .
(٢) الشرح الحديدى ج ١٣ ص ٢١٠ فى آخر شرح الخطبة القاصعة .
(٣) بحار الانوار ج ١١ ص ٤٢ نقلا عن قصص الانبياء .
(٤) عيون أخبار الرضا ج ٢ ، الباب ١ و ٢ ص ٢٥ .
(٥) عيون أخبار الرضا ج ٢ ، الباب ٣١ ص ٧٣ .

ابهام وايضاح :

كون علي (ع) خاتم الوصيين لا ينافي كون الحسن والحسين والائمة من بعده أوصياء ايضاً ، فان الوصاية عن الانبياء قد ختمت بعلي ، فلا وصي نبي بعد علي ع وأما الائمة من بعده فهم اوصياء وصيه ، او اوصياء وصى وصيه ، لا اوصياء النبي نفسه ، كما لا يخفى .

ويمكن ان يقال هنا وصاية واحدة متعلقه بعلى واولاده (ع) فوصاية الحسن والحسين والائمة من بعده بنفس الوصاية المتعلقة بابيهم أمير المؤمنين ، فكون علي خاتم الاوصياء ، كناية عن كون الوصاية المتعلقة به وبأولاده قد ختم بها باب الوصاية السماوية . وبذلك يسقط استدلال الفرقة الضالة بهذا الحديث على نفي كون «خاتم» بمعنى «آخر» قائلة بأنه لو كان «الخاتم» بمعنى «الاخر» لزم سلب الولاية عن الائمة الاخرين، وقد عرفت منا فقه الحديث ، وليس استدلالهم بهذا ، الا كتمسك الغريق بالطحلب .

٤٠ ـ فى كلام له عليه السلام فى الامامة : فهي فى ولد علي (ع) خاصة ، الى يوم القيامة ، اذ لا نبي بعد محمد (ص) . . . (١) .

٤١ ـ اخرج الصدوق باسناده عن علي بن موسى الرضا (ع) ، عن ابيه موسى بن جعفر (ع) : ان رجلا سأل ابا عبد الله (ع) : ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة الاغضاضة ؟ قال لان الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة (٢) فقه الحديث ودلالته على الخاتمية واضح .

٤٢ ـ اخرج الصدوق باسناده عن علي بن موسى الرضا (ع) قال : انما سمي اولو العزم اولي العزم لانهم كانوا اصحاب الشرائع والعزائم وذلك ان كل نبي بعد نوح كان

(١) عيون أخبار الرضا (ع) ج ١ ص١٢١ .
(٢) العيون ج ٢ ، الباب ٣٢ ص ٨٧ ونقله فى البحار ج ١١ ص ٢٨ .

على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمان ابراهيم الخليل ، وكل نبي كان في ايام ابراهيم وبعده كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه ، الى زمن موسى ، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى ايام عيسى ، وكل نبي كان في ايام عيسى وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته الى زمن نبينا محمد (ص) ، فهؤلاء الخمسة اولو العزم ، فهم افضل الانبياء والرسل وشريعة محمد (ص) لاتنسخ الى يوم القيامة، ولا نبي بعده الى يوم القيامة من ادعى بعده نبوة او اتى بعد القرآن بكتاب ، فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه (١) نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد .

* * *

والرواية تدل على أن أصحاب النبوة التشريعية منحصرون في الخمسة المذكورة في الرواية ويشير الى انحصارهم فيها قوله سبحانه : «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى ـ ١٣) حيث جاءت الاية بأسماء خمسة من النبيين وتركت الباقي منهم مع كونها في مقام البيان والامتنان .

أما «العزم» الوارد في الحديث ، فالمراد من العزم فيه هو الثبات على العهد الاول والميثاق الذي أخذه الله منهم من الصبر على الاذى والتكذيب ، كما فسر به القمي قوله تعالى«فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون ، لم يلبثوا الا ساعة من نهار» (الاحقاف ـ ٣٥) .

ويؤيده قوله سبحانه « ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسي ولم نجد له عزماً » (طه ـ ١١٥) فالمراد عند ذاك من اولو العزم ، هو كونهم ذوي الثبات على العهد المأخوذ منهم .

ويحتمل أن يكون المرادمن اولو العزم، كونهم أصحاب الشرائع ولعل اتصافهم

(١) العيون ج ٢ ، الباب ٢٢ ص ٨٠ .

بالثبات فى طريق الدعوة وتحمل الأذى فى سبيل الحق، استتبع تلك المكانة المرموقة وجعلهم أصحاب الشرائع ، دون غيرهم ، وأما النبوة التبليغية التي يكون صاحبها مأموراً بترويج شريعة من قبله ، ولا يكون ذا شريعة من نفسها ، فلم يرد فى تحديد أصحابها الا الرواية المأثورة عن أبي ذر، عن النبي : قلت يا رسول الله كم النبيون؟ قال : مأة وأربعة وعشرون ألف نبي ، قلت : كم المرسلون منهم ، قال : ثلاثمأة وثلاثة عشر جماً غفيراً (١) .

ولم يتبين انه ما المراد من « المرسلين » من الرواية وقد عدتهم الرواية طبقة متوسطة بين مطلق النبي واولو العزم من البنين .

نعم فسر الاستاذ دام ظله فى ميزانه ، تلك الروايه بقوله : أن النبي والرسول كليهما مبعوثان الى الناس غير أن النبي مبعوث لينبىء الناس بما عنده من أنباء الغيب لكونه خبيراً بما عند الله ، والرسول ، هو المرسل برسالة زائداً على أصل النبوة ، فالرسول هو الذي يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول وفروع حتى يتم لهم الحجة (٢) ، وستعرف ما هو الحق فى الفصل السادس عند البحث عن النبي والرسول والامام في الذكر الحكيم .

* * *

٤٣ ـ روى الصدوق فى باب ما كتبه الرضا للمأمون فى محض الاسلام وشرائع الدين : سأل المأمون علي بن موسى الرضا (ع) أن يكتب له محض الاسلام على سبيل الايجاز والاختصار ، فكتب أن محض الاسلام شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له... وأن محمداً عبده ورسوله وأمينه وصفيه وصفوته من خلقه وسيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين، لا نبي بعده ، ولا تبديل لملته ولا تغيير لشريعته ، وأن جميع ما جاء به محمد بن عبد الله هو الحق المبين والتصديق به وبجميع من نص من قبله من رسل الله وأنبيائه حكيم حميد ، وانه المهيمن على الكتب كلها وانه حق من

(١) البحار ج ١١ ص ٣٢ .

(٢) الميزان ج ٢ ص ١٤٩ .

فاتحته الى خاتمته (١) .

٤٤ ـ أخرج الصدوق فى اكمال الدين ، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسن، قال:دخلت على سيدي علي بن محمد الهادي(ع) فلما أبصرنا قال مرحبا يا أبا القاسم أنت ولينا حقاً ، قال : فقلت : يابن رسول الله اني أريد أن أعرض عليك ديني . . . الى أن قال :اني أقول أن الله تعالى واحد ليس كمثله شيىء . . . وأن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ولا نبي بعده الى يوم القيامة وأن شريعته خاتم الشرائع، فلا شريعة بعدها الى يوم القيمة (٢) .

٤٥ ـ روى فى الاختصاص ، عن ابن عباس انه قال : أول المرسلين آدم ، وآخرهم محمد (ص) وكانت الانبياء مأة ألف وأربعة عشرين ألف نبي،المرسل منهم ثلاثمائة،خمسة منهم اولو العزم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وخمسة من العرب هود وصالح وشعيب واسماعيل ومحمد (ص) (٣) .

هذه جملة ما وقفت عليه من الاثار النبوية والمأثورات عن أئمة أهل البيت (٤) ولعل ما لم أظفر به أكثر مما ظفرت به كل ذلك يؤيد ما هو المنصوص فى القرآن الحكيم ، وان الله أوصد باب النبوة ورسالة السماء الى الارض ، ببعث نبيه وآخر سفرائه محمد (ص) فليس بعده نبي ولا شريعة ولاكتاب ولا . . . هذا ، وقد أغناهم تصريح الكتاب بالموضوع عن افاضة القول فيه،كما هو شأن كل موضوع فيه نص فى القرآن الكريم .

---

(١) العيون ج ٢ الباب ٣٥ ص ١٢٢ .

(٢) اكمال الدين ج ٢ الباب ٣٧ ص ٥١ .

(٣) الاختصاص للمفيد مخطوط ، بحار الانوار ، ج ١١ ص ٤٣ .

(٤) لا يخفى على القارىء الكريم ما عانيته من الجهود فى جمع تلكم الاحاديث المأثورة عن النبى وآله من مصادرها المختلفة .

شبهات حول الخاتمية

اختلقتها الفرقة الضالة اثارة للفتنة وسبيلا
الى هدم الاسلام واضلال السذج من الامة،
وتفريق الكلمة، وخدمة للاستعمار الغاشم.

لقد حصحص الحق مما سردناه من الادلة والدلائل الناصعة ، على خاتمية الرسول فلم يبق مقول لقائل ولا مصول لصائل ، وما سردناه من الادلة يفيدالقطع واليقين بالخاتمية ، للرسول الاعظم (ص) لكلمن آمن بقرآنه وسنته القطعية ، والاجماع المسلم ، بين الامة المدعم بالضرورة والبداهة بين المسلمين .

غير أن شرذمة قليلة ممن اصابهم مس من الالحاد والمادية ، أخذو يلقون حبالا وعصياً فىسبيل الضعفاء من المسلمين، يخدعون بها الهمج الرعاع والغجر من الناسفجاؤا بشكوك وشبهات لفقوها من هنا وهناك لا تقتصر عن شبهات السوفسطائية تجاه البديهة .

وقداتخذت تلكالشرذمة الضئيلة انكار الخاتمية اداة للفتنة وسبيلا الى هدم الاسلام، واضلال المؤمنين بها وتمهيداً لاهدافهم واغراضهم الرجعية . تلك الشبهات توقفنا على مبلغ علمهم بالكتاب والسنة ومبلغ المامهم بالادب العربي توقفنا على أنه لا هدف لهم فى اختلاق هذه الشكوك ، الا خدمةالاستعمار وتفريق الكلمة ، وهدمالصفوف الاسلامية، وقدعرفتهم الامة الاسلامية ، وعرفت نواياهم وضمائرهم كما عرفت قيمة شبهاتهم التي تتضاءل عند كل منله أدنى المام بالكتاب والسنة وتجعلها فى معرض البطلان .

ولاسكات ماحول هذه الشبهات،من جلبة وتركاض وصخب وهياج

ولاماطة اللثام عن حقايق ناصعة ، خفيت على من اختلقها . عقدنا هذا الفصل حتى يتجلى للقارىء ، الحق بأجلى مظاهره ولا يبقى للافاكين المتخرصين مجال للبحث والتشكيك .

حسب هؤلاء الاغرار ان ما لفقوه من الاوهام سينطلي على عقول أبناء الاجيال الصاعدة ، ويتقبلونه بصدر رحب ، الا انه خفي عنهم ، ان الوعي الذي تجلت به هذه الاجيال أخذ يرد عليهم خرافتهم الباطلة ، وان المستقبل الكشاف سيكشف عن سوءتهم .

ومن جهة اخرى ان بعض هذه الاوهام التي جمعوها وطلوها بما يُخيل للبسطاء من الناس انها مسائل مستحدثه ، أو دلائل جديدة الا أنها ليست الا نسائج قديمة ، أكل عليها الدهر وشرب ، وذكرت في كتب التفسير والحديث بشكل أسئلة اجيبت عليها بأجوبة مقنعة ناجعة . . . ولكنهم من أجل ايقاع السذج والبسطاء فى حبائلهم أخذوا بالاسئلة ، وتركوا أجوبتها .

وهانحن نقف تجاه هذه الشبهات وقفة ، نجعلها فى مدحرة البطلان ونقطع الطريق على هذه العصابات المجرمة وان طال بنا الكلام ، واتسع مقامنا مع القراء الكرام ، وقبل الخوض فى نقل الشبهات والرد عليها نقدم كلاماً :

ماذا يحاول المستعمرون ؟ !

الاستعمار الغاشم لما حاول الاستيلاء على الشرق الاوسط ومناطقه الخصبة وربوعه المعمورة ومعادنه الغالية وما يسيل تحت أراضيه من الذهب الاسود (البترول) الى غير ذلك من الثروات الطائلة ، قام بكل ما يملك من حول وقوة، بشن الغارات عليه بصورة استفزازية مزرية .

نعم للاستعمار أساليب وتخطيطات وألوان مختلفة، تختلف حسب طبائع الاجيال والامكنة والتخطيط الاصيل له والحجر الاساسي الذي ترتكز عليه مخططات المستعمرين هو أصل «فرق تسد» فأولئك هم وليدوا ذلك الاصل ؛ وهم المبتدعون له (على وجه غير دائر) فالتفريق بين قطاعات الشعب فى المبدأ والعقيدة عامل هدام ، يبدد قوى الشعب وسيل تيار جارف ، يخرب كل حاجز، دون نواياهم ، ويزعزع كل سد دون أهدافهم ، فلا شيىء أضر بحال الشعب وأنفع للعدو من اشاعة القلق والفوضى فى المجتمع واختلاف الكلمة والتشتت فى التوجية والدعوة بين أفراده ، فهي ضربة قاضية ، تنصب على وجوده وتعصب باتحاد أبنائه وتضامنهم ووقوفهم صفاً واحداً فى وجه العدو وجرائمه المخزية وأعماله الاجرامية .

فها هي ذي بلادنا « ايران » كان يضرب المثل منذ زمن بعيد ، باتحاد شعبها وتضامن أبنائها وقد اعتنق الاسلام كثير منهم فى عهد الخلافة ، وتفيؤوا فى ظلاله قروناً متطاولة ، غير أن الاستعمار الغادر لم يرض باتحادهم واتفاق كلمتهم ، فطفق يديف السم فى الدسم ، يفرق كلمتهم فى المبدأ والعقيدة ، يبعث رجال التبشير والانذار واختلاق أحزاب سياسية ،مطبوعة بطابع الدين، ومصبوغة بصبغة المذهب، وليس فيها شيىء يمت الى الدين بصلة ولا مرمى لهم فى ذلك ، الا تضليل عقيدة الشعب وتدمير أخلاقه وتحطيم كرامته حتى يعود مرتداً متحللا ،فاقد الكرامة،مسلوب الارادة،لا يلتزم بمبدأ ولا يؤمن بدين،ولا يعرف هدفاً يسعى اليه،سوى الاستهتار التام.

وعند ذلك يسهل للعدو تعكير الصفو وتمزيق الوحدة وضرب الشعب بعضه

ببعض ويهون له الاغارة على الثروات الطائلة فى أيديهم وما احتوته أراضيهم من معادن ومنابع .

هذا القلق الديني والفوضى المذهبية ، اللذين نشاهدهما فى الشرق الاوسط ولاسيما «ايران» انما هما وليدا هذا الاستعمار الغاشم،وليدا تكتيكه الاصيل(فرق تسد) وقد فتح الاختلاف فى وجه الشعب أبواباً من الازمات الكثيرة فى نواحي مختلفة .

ضع يدك على هذه الفرق المنحوتة ، والدعايات السياسية المتولدة فى القرن الاخير ، واقرأ اصولها وفروعها ،وتأمل فى غاياتها المتوخاة منها وطالع صحائف من حياة مؤسيسها ومبتكريها ، تجدها عمد الاستعمار وأذنابه، فمن شيخية الى بابية، ومن ازلية الى بهائية ، ومن قاديانية الى أحمدية كلها وليدةالاستعمار الغاشم وليدة رجال العيث والفساد ، وليدة الافاكين الذين عرفتهم الامة ، وعرف الشعب نواياهم وسرائرهم وأهدافهم .

فدونك البهائية من هذه الفرق السياسية، وقد اختلقها زعيمها « ميرزا حسينعلي المازندراني » فى ايران ، لتراه يدعو تارة الى الوهية نفسه ويقول ، «اني انا الله لا اله الا أنا ، كما قال النقطة الاولى من قبل بعينه يقوله من يأتي من بعد »(١) ويدعو الى نبوته ورسالته تارة اخرى ، وانه نبي كسائر الانبياء ، وان باب النبوة مفتوح الى يوم القيمة ، لم يوصد بعد نبي الاسلام ، ثم ان لهؤلاء الاقوام كتاباً مستأجرين استأجرهم الاستعمار لنصرة هذا الحزب المختلق باسم الدين وطابع المذهب ؛ وقد جاؤا بشبهات تافهة فى مسألة الخاتمية ، فدونك هذه الشبهات مع اجوبتها :

* * *

الشبهة الاولى :

« كيف يدعي المسلمون انغلاق باب النبوة والرسالة مع ان صريح كتابهم قاض بانفتاح بابه الى يوم القيامة ، وذلك قوله سبحانه :

(١) بديع س ١٥٤ .

«يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الاعراف ـ ٣٥)

قال: فهذا الخطاب الوارد فى القرآن الكريم ، النازل على قلب سيد المرسلين ينبىء عن مجيىء الرسل بعد نبي الاسلام ، ويدل بظاهر قوله : «يأتينكم» بصيغة المضارع،على ان باب النبوة لم يوصد وانه مفتوح بعد، ومعه كيف يدعي المسلمون ان محمداً (ص) خاتم النبيين وآخرهم وكتابهم يشهد على خلافه (١) .

الجواب عن الشبهة :

هذه الشبهة الواهية حصلت من الجمود على نفس الاية والغض عما تقدمها من الايات فانك اذا لاحظت سياقها تذعن بأنها ليست انشاء فى ظرف نزول القرآن بل حكاية لخطاب خاطب به سبحانه بنى آدم فى بدء الخلقة ؛ ولقد حكاه فى القرآن بعد لأي من الدهر ، فكما أنه سبحانه ،يحكي فيه الخطابات الدائرة بين رسله وجبابرة عصورهم من فرعون وقارون من دون انشاء خطاب فى زمن الرسول،فهكذا يحكى فى هذه الاية وما تقدمها ، الخطابات الصادرة منه سبحانه ، فى بدء الخلقة ، وان كنت فى ريب مما ذكرنا ، فلاحظ الايات الواردة فى سياقها ودونك اجمالها .

ابتدأ سبحانه بقصة آدم فى سورة الاعراف ، من الاية الحادية عشرة وختمها مع ما استنتج منها من العبر فى الاية السابعة والثلاثين،ودونك اجمال القصة ونتائجها بنقل الايات .

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين* قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين * قال انظرني الى يوم يبعثون * قال انك من المنظرين * قال فبما

(١) الفرائد ص ٣١٤ ط مصر ١٣١٥ هـ .

أغوتيني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم ، لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوأتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذا الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين * فدليهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »(١) .

وعند ذلك ناسب أن يستنج سبحانه من تلك القصة ويخاطب أبناء آدم بخطابات أربعة، هادفة الى لزوم اطاعة الله سبحانه والتجافي عما يأمر به الشيطان، وأن لهم فى قصة أبيهم وامهم لعبرة واضحة فقال سبحانه :

١ ـ «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» (الاعراف ـ ٢٦) .

٢ ـ «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان، كما أخرج أبوكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرهما سوأتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، أنا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون» (الاعراف ٢٧) .

٣ ـ «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين» (الاعراف ـ ٣١) .

ولا تجعل قوله سبحانه في ثنايا الخطابات الاربعة: يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . . . دليلا على كونها انشاء خطاب فى عصر القرآن للمسلمين بقرينة

(١) الاعراف ، الايات ١١ ـ ٢٥ .

ذكر المسجد . لانه مردود بوجهين :

الاول : لوجود المسجد فى الامم السابقة وعدم اختصاصه بعصر الرسالة كما يشهد عليه قوله سبحانه قال : « الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً » ، (الكهف ـ ٢١) .

الثاني : ان المراد من المسجد ليس البناء الخاص الدارج فى البلاد الاسلامية بل هو كناية عن حالة الصلاة والعبادة التي أمر الله بها عباده فى الامم جمعاء على اختلافها فى الاجزاء والشرائط والصور، كما يشهد عليه قوله سبحانه : «واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلوة والزكاة وكان عند ربه مرضياً» (مريم ـ ٥٥) وقوله سبحانه حاكياً عن المسيح «وأوصاني بالصلوة والزكاة ما دمت حياً» (مريم ـ ٣١) .

وعليه فالمراد ، اما خذوا ثيابكم التي تزينون بها للصلوة والبسوا أجودها فى حال العبادة ، أو خذوا ما تسترون به عوراتكم حالها ، وعلى أي تقدير فهذا الحكم لا يختص بالامة الاسلامية ، بل يعم الامم جمعاء .

٤ ـ «يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الاعراف ـ ٣٥) . ثم انه سبحانه فى الاية السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين توعد من كذب بآياته واستكبر عنها ومن افترى على الله كذباً ، وقال سبحانه : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين » .

وبعد ذلك ختم القصة مع ما استنتج منها لابناء آدم من عظات وعبر .

وأنت اذا احطت خبراً بهذه الايات ، صدرها وذيلها وهدفها ومرماها ، لوقفت على ان الخطاب الا خير الحاكي عن بعث الرسل الى بني آدم ليس انشاء خطاب في عهد الرسالة حتى ينافي صريح قوله الاخر (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) بل

هي حكاية لاحدى الخطابات التي القاها الله في بدء الخلقة ، حتى أخرج الشيطان أبانا من الجنة وأهبط الى الارض ، وتعلقت مشيئته سبحانه بأن يستقر هو وأبناؤه فى الارض الى حين ، فخاطب سبحانه ، أبناء آدم بلسان النصح وقال «يا بني اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي . . . » فصدق الخبر الخبرَ وجاءت الرسل تترى، مبشرين ومنذرين ، تالين على بني آدم آيات الله .

ومما يؤيد ماذكرنا (ان قوله سبحانه «يا بنى آدم أما يأتينكم رسل منكم...» حكاية للخطاب الذي القاه سبحانه فى بدء الخلقة ، لا انشاء خطاب فى عهد القرآن) ان الله سبحانه حيث ما يذكر فى القرآن قصة آدم على وجه التفصيل ، يذيلها بمضمون هذه الاية وما بعدها من الايتين (١) كما فى سورتي البقرة وطه ، فان مضمونهما موجود فى ذيل القصة ، وانما الاختلاف فى اللفظ والعبارة ، دون اللب والمعنى .

ودونك مافى سورة البقرة ، ترى ان الله سبحانه بعدما ذكر قصة آدم ، وان الشيطان ازلهما، يكرر مضمون هذه الاية وما بعدهما من الايتين حيث يقول «قلنا اهبطوا منها جميعا يأتيكم مني هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون» .

«والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النارهم فيها خالدون». (البقرة ٣٨ و ٣٩) .

فهاتان الايتان فى سورة البقرة ، يتحد مضمونها مع مضمون ما ورد فى سورة الاعراف غير انهما جاءتا في سورة الاعراف بلفظ «يابني آدم» دون مافى سورة البقرة وهذا يؤيد أو يدل على ان الوارد فى سورة الاعراف ليس انشاء لخطاب فى عهد الرسالة ، بل حكاية لخطاب سبق منه سبحانه فى بدء الخلقة .

ونظير ذلك ما ورد فى سورة طه ، حيث يقول فيها سبحانه : «وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» .

«قال اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى» (طه ـ ١٢٣) .

---

(١) الاية السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون .

« ومن أعرض عن ذكري فان له معيشه ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى ». (طه - ١٢٤) .

فهاتان الايتان تتحدان مع ما وردتا فى سورة الاعراف معنى ومضموناً ، وان اختلفتا معهما لفظاً وعبارة ، وبذلك يظهر صدق ما أوضحناه من كون الايتين فى سورة الاعراف قد وردتا حكاية عن خطاب الهي صدر منه بعد خروج آدم من الجنة، لا خطاب ابتدائي صدر منه سبحانه الى المسلمين .

دحض الشبهة بوجه آخر :

قد جمعنا وبعض البهائيين مجلس فى سالف الايام (١) فى مدينة عبادان وسألني عن هذه الاية ودلالتها على مجيء الرسل بعد نبي الاسلام وانها تدل على ان باب النبوة لم يوصد ، وكان فى المجلس بعض الفطاحل من الاعلام .

فقلت : ان لفظه « اما » مركبة من « ان » و « ما » الزائدة ، وكأنه سبحانه قال : ان يأتينكم... وهو فعل الشرط ، والجزاء قوله: فمن اتقى ، ولكنها مجردان عن الدلالة على الزمان (الحال والاستقبال) ،لان الاية سيقت لبيان أصل الملازمة بين الشرط والجزاء ، غير مقيد بزمان دون زمان ، بمعنى أن سنة الله جرت على انقاذ من أطاع رسله ، واتقى محارمه ، وأصلح حاله ، وان من كان حاله كذا ، فلا خوف عليه ولا حزن ، وهذه عادة الله فى الامم السالفة والحاضرة والمستقبلة .

وليس الخطاب مقيداً بزمان الحال حتى لايعم الخطاب الامم السالفة،ويختص بالامة الحاضرة والتالية لها ويدل بالدلالة الالتزامية على مجيء الرسل فى مستقبل الايام بعد رسول الله (ص) ، بل هو بيان لحكم قطعي جرت على مشيئته على وجه الاطلاق ، غير مقيد بزمان .

وان شئت قلت : ان الهدف من الاية ليس الاخبار عن مجيء الرسل بعد

(١) عام ١٣٧٩ ق .

رسول الله(ص) والا لكان اللازم ان يخرجها عن صورة الشرط،ويلقيها وجه الاخبار بل الهدف والذي سيق لاجله الكلام ، هو بيان الملازمة ، وان السنة جرت عليه فى الادوار كلها ، من دون ان يكون بصدد الاخبار عن وقوع الشرط فى زمان .

وهذا كقول المعلم لتلاميذه : لا صلة ولا قرابة بيني وبين أحد منكم، من جد فى درسه وأتقن كتابته وخرج عن عهدة التكاليف الموضوعة عليه فهوالناجح ، يعني بذلك ان السنة الجارية فى المدرسة والكليات والجامعات ، هي هذه من غير فرق بين هذا الصف والصف الاخر ، وهذه المدرسة والمدرسة الاخرى ، وهذا الزمان أو غيره من الاجيال السالفة والتالية .

وأدل دليل على أن الاية ليست بصدد الاخبار عن مجيىء رسل آخرين غير رسول الله هو استعمال كلمه « ان » الدالة على الشك والترديد فىوقوع تاليها، دون «اذا» الدالة على القطع واليقين، فلو كان الهدف الاخبار عن مجيئهم لكان له الاخبار عن ذلك بكلمة تدل على القطع والجزم ، لان الرسل ومجيئهم من مهمات الامور وعظائمها ، فلا يصح الاخبار عنه بهذه الجملة الدالة على الشك والترديد ، الا اذا سيقت الاية لبيان الملازمة فقط، لا الاخبار عن وقوع الشرط، ولذلكترى انه سبحانه يأتي فى معرض الدلالة على الامور القطعية بعبارة مؤكدة ، كما فى قوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة » (سبأ ـ ٤) .

وقوله سبحانه «ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها» (النحل ـ ٢٧).

وحصيلة البحث ان الاية بصدد بيان ان الفلاح والرشاد لمن يقتدي بهدى نبيه ويقتفي أثره ولا يتخطى الخطوط التيرسمها له رسوله فىمعاشه ومعاده،سواء أكان الرسل رسول الاسلام أم غيره ، وليست ناظرة الى بيان مجيئي الرسل بعد عصر نزول الاية كما هو مرمى المستدل .

ونظير المقام قوله : « ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله فىالذينخلوا من قبل وكان أمرالله قدراً مقدوراً*الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه

ولا يخشون أحداً الا الله وكفى بالله حسيباً » (الاحزاب ٢٨ - ٣٩) .

فان قوله «الذين يبلغون» وان كان بصيغة المضارع ، الا انه مجرد عن الدلالة على الحال والاستقبال ، بدليل انه صفة لقوله سبحانه : « الذين خلوا من قبل » فلو كانت الدلالة على الزمان مقصودة لوجب ان يقال : الذين بلغوا رسالات الله ، تطبيقاً للوصف على الموصوف،ولما كان المقصود قيام الرسل الذين خلوا من قبل،بنفس أمر التبليغ من غير دلالة على زمان القيام واستمراره ، صح توصيفه بالمضارع .

نقل كلام عن العلمين :

ثم اني وقفت بعد حقب من الزمان ، على سؤال وجهه بعض الاجلة (١) الى العلمين الشيخ محمد جواد البلاغي (٢) والسيد هبة الدين الشهرستاني (٣) يسألهما عن تلك الشبهة الضئيلة،وقد وافاه الجواب منهما، وبعث السائل السؤال والجواب الى مجلة العرفان (٤) فنشرهما مدير المجلة على صفحاتها (٥) فراقنا نقل الجوابين على وجه الاجمال ، لكون مضمونهما قريباً مما ذكرناه .

قال العلامة البلاغي : لابد من بيان أمرين :

الاول ان تلك الطائفة لا يعرفون اللغة العربية وخواصها ، فان الفعل المضارع غير مختص في المحاورات بالاستقبال ،بل يؤتى به منسلخاً عن خصوصيات الزمان

---

(١) العلامة الجرندابي المغفور له : كان آية في التتبع ، وله أشواط بعيدة ، وخدمات ومواقف مشكورة .

(٢) كان علماً من أعلام الامة وفطاحلها ، قد أفنى عمره في الذب عن حريم التوحيد والرسالة والتشيع ، توفى عام ١٣٥٢ .

(٣) نادرة الزمان ونابغة العراق ، توفى في ٢٥ من شهر شوال عام ١٣٨٦ .

(٤) مجلة علمية ادبية سياسية شيعية ، تصدر في مدينة صيدا ، من لبنان الجنوبي ، أسسها الشيخ احمد عارف الزين عام ١٣٢٧ وهي لم تزل تصدر الى الان وترأسها فعلا ابنه نزار الزين.

(٥) المجلد السادس والثلاثون ص ٧٦٧ - ٧٧١ .

للدلالة على الدوام والثبات كقولهم : زيد يكرم الضيف ، ويفك العاني ، ومن ذلك قول اليشكري في المعلقة :

يدهدون الرؤس كما تدهدى * مزاورة بأبطحها الكرينا

وقوله أيضاً :

علينا البيض واليلب اليماني * وأسباب يقمن وينحنينا

وقوله سبحانه :

لايغرب عن علمه مثقال ذرة (سبأ ـ ٣٠) .

الثاني ان الجملة الشرطية كثيراً ما تجيىء غير ناظرة الى الزمان ،بل لمجرد ملازمةالجزاء للشرط وترتبه عليه في أي زمان وقع الشرط،بمعنىأن لابد من وقوعه عند وقوع الشرط في أي زمان ، ومنه قول القائل :

من يفعل الحسنات الله يشكرها * والشر بالشر ، عند الله سيان

ومن قوله سبحانه :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

ومنه قول زهير في معلقته :

ومن لم يصانع في امور كثيرة * يغرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومثله قول الاخر :

ومهما تكنعند امرىء من خليقة * وانخالهاتخفىعلىالناستعلم

اذا تقرر هذا : فلا خفاء في ان حاصل الاية: انهمهما أتى بني آدم رسل، يعني رسل حق،يأتون بآيات الله ووحيه ويقصونها في التبليغ ، فمن اتقى حسب ما جاء في الايات ولم يعص الله بالمخالفة به وأصلح وجعل أعماله صالحة ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فجيىء بالشرط بصيغة المضارع، للدلاله على ثبوت الاتيان بتكرره ، بحسب الحكمة ، وان الجزاء لازم لهذا الشرط ، دون نظر الى الزمان الخاص ، والواقعة الخاصة ، وليس نظره الى خصوص الزمان الماضي ولا خصوص المستقبل . لكن

القرآن الكريم بين ان هذا الشرط لا يقع فى المستقبل وذلك بقوله سبحانه :

ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، فكان هذا البيـان من المحكمات التي هي أم الكتاب .

قال العلامة الشهرستاني : « اما » لفظة مركبة من « ان » الشرطية ، و « ما » الكافة عن العمل ، وعليه كفت المضارع عن الجزم ، وقرنته بنون التأكيـد الثقيلة وجردته عن الدلالة على زمان خاص بالحال والاستقبال ،كما ان الصيغ التالية لها «فمن اتقى وأصلح» ،«والذين كذبوا» تجردت أجمع عن الدلالة الخاصة بالماضي والمفهوم من المجموع قضية طبيعية عامة السير فى الامم، وهي توجه رسل الهداية الى أقوام البشر لغاية الوعظ والانذار بآيات الله وبيناته .

وان شئت قلت : ان الغاية فى الاية عبرة الانسان بتاريخ الانسان ، حتى يترك اغتراره بالحال الحاضر،وهذا لا يكون الا من درس تاريخ السلف ، ولا معنى للعبر بالمستقبل . نعم المعتبرون هو الجيل الحاضر والمستقبل ، ولكن المعتبر به حال السلف والحوادث النافعة،وأما مادة الوعظ ، أي المعتبر به ، هو القصص الماضية (دون سواها)ورسلها ورسالاتها وعواقب أمرها ومعرفة مصير المتقين ومصير المكذبين.

فبأي لفظة من الاية يستدل هؤلاء على صحة الرسالة من بعد محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ! . أبلفظ «ياتين» وقد تبين انها تجردت عن اختصاصها بالحال والاستقبال ، كما تجردت لفظة اتقى وأصلح ، عن الاختصاص بالماضي .

أم يستدلون بلفظة «الرسل»وقد تبين انهم وقصصهم وآياتهم ذكرت فى الاية، لغاية الموعظة والعبرة ، ومـثله لا بد وان يـكون من الجيل الماضي اذ لا معنـى للعبرة من المستقبل .

أم بلفظة « يا بني آدم » وانه خطاب للجيل الحاضر أو المستقبل ، نعـم ان اختصاص الخطاب والوعظ بهؤلاء شيء، وجواز تكرار الرسالة بعد عصر القرآن شيء آخر،يحتاج اثباته الى دليل غير هذه الاية ، فان أقصى ما فى هذه ، هو وعظ الجيل الاسلامي بقصص المرسلين ، ولابد ان يكون المتعظ به قبلهم،كما ان القرآن

يعظ الجيل الاسلامي ، بقصة موسى وفرعون، ولا تحدث نفس صاحبهما بأن ذلك المتعظ به ، يجب ان يتكرر فى المستقبل .

* * *

الشبهة الثانية :

استدلت الفرقة التعيسة « البهائية » على عدم اختتام الرسالة ، وعدم انتهائها بآية ثانية ، وتقولت بانها تدل على خلاف ما هو المنصوص فى غير موضع من الذكر الحكيم ، ودونك الاية :

« رفيع الدرجات ، ذوالعرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده، لينذر يوم الطلاق » (الغافر - ١٥) .

قال المستدل فى فرائده : ان قوله سبحانه : «يلقي الروح» بصيغة المضارع ينبئي عن عدم اختتام الرسالة ،وان الروح ينزل بأمره على من يشاء من عباده فى الاجيال المستقبلة (١) .

الجواب :

توضيحه يحتاج الى بيان أمرين :

١ - الظاهر من « الروح » هو الوحي (٢) فاستعير له الروح ، لانه به يحيى القلوب وفيه حياة المجتمع ، ويوضح ذلك قوله سبحانه : «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان» (الشورى - ٢٥) ومنه يعلم ان من المحتمل ان يكون الروح المسؤل عنه فى القرآن الكريم هو حقيقة الوحي

(١) الفرائد ص ٣١٣ وص ١٢٦ من الطبعة الحجرية .

(٢) وقريب منه تفسيره بالقرآن أو كل كتاب أنزله سبحانه أو جبرئيل أو النبوة ، وما اخترناه هو الاولى ، فتدبر .

حيث قال سبحانه: «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلا» (الاسرا ـ ٨٥) .

٢ ـ يوم التلاق : انما هو يوم لقاء الله، يوم يلتقي فيه العبد والمعبود ، وأهل الارض والسماء ، كما يوضحه ما بعد الاية : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» (الغافر ـ ١٦) .

والمراد من قوله « لينذر يوم الطلاق » أي ليحكم فى ذلك اليوم بين عباده فينتصف المظلوم من ظالمه ، ويجزى المحسن والمسيء ، أو لينذر عباده سبحانه عن عذاب ذلك اليوم .

اذا عرفت الامرين ، فالجواب عن الاستدلال بها واضح جداً بعد ما عرفت عند البحث عن الشبهة الاولى من أن الفعل فى تلك المواضع مجرد عن الزمان، والهدف انما هو بيان نسبة الفعل الى الفاعل واتصافه بها ، بلا نظر الى زمان النسبة ، سواء أكان الماضي ، أم الحال أم المستقبل ، كما في قوله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله سيان

وعلى هذا ، فسيقت الاية لبيان كونه سبحانه مالكاً على الاطلاق ، لا ينازعه فى ملكه ولا يناضله فى مشيئته واختياره أحد ، والوحي أحد الاشياء التي ، أمرها بيده ، يختص به من يؤثره على عباده ويختاره منهم ، وليس لاحد ان يعترض عليه ويقول: «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» (الفرقان ـ ٣٢) أو يطعن ويقول: « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ـ ٣١) . فاذا كان هدف الاية بيان هذا الامر ، وان الوحي بكمه وكيفه ومن ينزل عليه ، موكول اليه سبحانه ، فلا يتفاوت فى ابلاغ هذا الغرض ، التعبير بالماضي ، أو المضارع ، فسواء أقال : «القى الروح» أم قال «يلقي الروح» فهما فى افهام المقصود سواسية فلا يدلان على زمان الاتصاف ، والمقصد الاسنى ، اتصافه سبحانه بالاختيار التام فى انزال الوحي على أي فرد من عباده ، من دون دلالة على زمان الاتصاف .

ودونك مثالا عرفياً يقرب المقصود .

فلو نصب الملك أحد ولده ولياً للعهد وجعله وارثاً للعرش والاكليل ، وشاغلا منصة الملوكية بعده، فاذا اعترض عليه أحد وزراءه بأن ولده الاخر كان أحق بهذا المنصب ، فيجيب الملك بقوله : ان الامر بيدنا ، نقدم من نشاء ، ونؤخر من نشاء ، نرفع من نشاء ونضع من نشاء . . .

فليس لك عند ذاك ان تستظهر من عبارته،وتتهمه بأنه قد أخبر حتماً عن نصب فرد آخر فى المستقبل،متمسكاً بانه قال «نقدم» بصيغة المضارع،ولم يقل «قدمت».

لا ، ليس لك ولا لغيرك هذا ، لان المفهوم فى هذه المواضع انما هو بيان أصل الاتصاف،أي اتصاف الفاعل (الملك)بالفعل (تقديم من تعلقت ارادته بتقديمه) لا بيان زمان الاتصاف واستمراره في الجيل الاتي ، فلاحظ .

فلو تنازلنا عن كل ما قلناه حول هذه الامة وما قبلها وفرضنا ما نسجوه من الاوهام حقيقة راهنة فنقول : ان ما ذكروه كله لا يتجاوز حد الاشعار فهل يجوز فى ميزان العقل والانصاف ترك ما سردناه من البراهين الدامغة والنصوص الناصعة والضرورة والبداهة بين المسلمين عامة الدالة على كون النبي الاعظم خاتم الانبياء ، ورسالته خاتم الرسالات، لاجل هذه الامور الواهية التي لا يستحق أن يطلق عليها اسم الدلالة.

قال الشيخ المفيد : ان العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبينا (ص) ، ونسخ شرعه كما نسخ ماقبله من شرائع الانبياء وانما منع ذلك الاجماع، والعلم بأنه خلاف دين النبي (ص) من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار (١) .

قال الفاضل المقداد في أثره القيم (٢) انه (ص) مبعوث الى كافة الخلق والدليل على ذلك اخباره (ص) بذلك المعلوم تواتراً مع ثبوت نبوته ، المستلزمة لاتصافه بصفات النبوة التي من جملتها العصمة المانعة من الكذب ، الى ان قال . . . يلزم من عموم نبوته ، كونه خاتم الانبياء والا لم تكن عامة للخلق،ولقوله تعالى: وخاتم النبيين وقوله (ص) : لا نبي بعدي .

---

(١) أوائل المقالات ص ٣٩ .

(٢) اللوامع الالهية فى المباحث الكلامية ، مخطوط .

الشبهة الثالثة :

وقد تمسكت هذه الفرقة بظاهر آيتين اخريين :

الاولى قوله سبحانه : «ولكل أمة رسول فاذا جاء أجلهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون» (يونس - ٤٧) .

الثانية : قوله سبحانه : «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» (يونس - ٤) .

تقرير هذه الشبهة ان الله حدد حياة الامم بحد خاص، والامة الاسلامية احدى هذه الامم ، فلها أجل خاص ، ومدة محدودة ، ومعه كيف يدعي المسلمون دوام دينهم وبقاءه الى يوم القيامة ؟ .

وروى عن رسول الله (ص) انه سئل عن أجل الامة الاسلاميه ، فأجاب (ص) بقوله : ان صلحت أمتي فلها يوم ، وان فسدت فلها نصف يوم(١) .

الجواب :

لا أدري ماذا يريد القائل من الاستدلال بهاتين الايتين ،أما الاية الاولى ، أعني قوله سبحانه : ولكل أمة رسول ، فصريح الاية هو ان الله سبحانه يبعث الى كل امة ، مثل أمة نوح وعيسى وموسى ، رسولا يدعوهم الى دين الحق ويهديهم الى صراطه ، وأما أمد رسالة الرسول وكميتها ، فالاية غير ناظرة اليه ، لا صريحاً ولا تلويحاً لا مفهوماً ولا منطوقاً ولا مانع من ان يكون احدى هذه الرسالات غير محدودة بحد خاص ، ويكون صاحبها ، خاتم الرسل ودينه خاتم الاديان ، وقد دل القرآن على ان نبي الاسلام هو ذاك ، كما تقدمت دلائله .

ونظير ذلك قوله سبحانه : «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله ،

---

(١) الفرائد ص ١٧ الطبعة الحجرية .

واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة» (النحل ـ ٣٦) .

أتجد من نفسك ان الاية تبشر عن تجديد الشريعة بعد الاسلام ، لا ، لاتجده من نفسك ، ولا يجد ذلك أيضاً كل متحرر عن قيد العصبية .

وأما الاية الثانية،فكشف الغطاء عن محيا الحق ، يحتاج الى توضيح وتحقيق معنى « الامة » الواردة فى الكتاب والسنة ، فنقول :

قال الراغب : الامة ،كل جماعة يجمعهم أمر ما: أما دين ، أو مكان ، أو زمان، وهذا الجامع ربما يكون اختياراً وقد يكون تسخيرياً (١) .

هذه الحقيقة التي كشف عنها الراغب ، هو الظاهر من الكتاب والسنة وموارد الاستعمال وصرح بها الجهابذة من اللغويين ، ودونك توضيح ما افاده الراغب :

الجامع الديني ، كما فى قوله سبحانه « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمةلك» (البقرة ـ ١٢٨) وقوله سبحانه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف» (آل عمران ـ ١١٠) .

الجامع الزماني كقوله سبحانه «ولكل أمة أجل ،فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» (الاعراف ٣٤) وقوله سبحانه «وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله» (يوسف ـ ٤٥) .

فسرها المفسرون بلازم المعنى وقالوا : بعد حين ، أي بعد انقضاء أهل عصر، كأنهيجمعهم زمان واحد في مستوى الحياة ، ومثله قوله سبحانه : «ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ، الا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانو به يستهزؤن » (هود ـ ٨) وفسره فى الكشاف بلازم المعنى ، وقال : الى جماعة من الاوقات .

الجامع المكاني : «ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة يسقون» (القصص ـ٢٣) أي وجد حول البئر جماعة يسقون مواشيهم ، فالجهة الجامعة لعدهم أمة واحدة ، انما هي

(١) المفردات للراغب ص ٢٣ مادة «أم» وكان الاولى ان يضيف الى هذه الجوامع لفظ «أو غيره» اذ لا ينحصر الجامع بهذه الثلاثة .

اجتماعهم فى مكان واحد ، أو غيرها من الجهات التي يمكن أن تجمع شمل الافراد والاحاد .

الجامع العنصري، ومن الجهات الجامعة الوشيجة العنصرية ،والرابطة القومية كما فى قوله سبحانه :

« وقطعناهم فى الارض اثنى عشرة أسباطاً أمماً » (الاعراف ـ ١٦٠) .

وقوله قوله : « وقطعناهم فى الارض أمماً ، منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك » (الاعراف ـ ١٦٨) فبنوا اسرائيل كلهم أغصان شجرة واحدة،تجمعهم ترابط قومي ووشيجة عنصرية ، الا انه كلما ازدادت الشجرة نمواً ورشداً ازدادت أغصاناً وأفناناً ، فعد كل غصن مع مالها له من الفروع ، اصلا برأسه .

القرآن يتوسع فى استعمال الامة :

ان القرآن يتوسع فى استعمال الكلمة فيطلقها على الفرد،اذا كان ذاشأن وعظمة تنزيلا له منزلة الجماعة كقوله سبحانه : ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً (النحل ـ ١٢٠) أي قائماً مقام جماعة فى عبادة الله ، نحو قولهم فلان فى نفسه قبيلة ، وروى انه يحشر « زيد بن عمر » أمة وحده .

بل يتوسع ويستعمله فى صنوف من الدواب ، اذا كانت تجمعهم جهة خاصة ، كقوله سبحانه : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » (الانعام ـ ٣٨) .

فعد الله كل صنف من الدواب والطيور أمماً ، لما بينها من المشاكل والمشابهة حيث الخلق والخلق،فهي بين ناسجة كالعنكبوب ، وبانية كالسرفة ، ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوة وقتهما كالعصفور والحمام، الى غيرذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع (١) .

(١) المفردات للراغب ص ٢٣ .

ويمكن أن يقال : ان ما المحنا اليه من موارد الاستعمال للفظ « الامة » ليست معاني مختلفة،حتى يتصور أن اللفظ وضع عليها بأوضاع متعددة ، بل كلها مصاديق لمعنى وسيع وضع عليه اللفظ (الامة) وهو كل اجتماع من الانسان وغيره من الحيوان ، يجمعهم أمر ما من الزمان والمكان والدين والعنصر وغيرها .

الامة : الطريقة والدين :

نعم للامة معنى آخر استعملت فيها، فى الكتاب والسنة ، وهو الطريقه والدين، كقوله سبحانه « انا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (الزخرف-٢٢) وقوله سبحانه «انا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون» (الزخرف-٢٣) .

قال الجوهري فى صحاحه : الامة ، الطريقة والدين ، يقال لا أمة له ، أي لا دين وغلة ، قال الشاعر :

وهل يستوى ذوأمة وكفور . . .

قال الفيروزآبادي : الامة بالكسر الحالة والشرعة والدين ويضم .

هذه هي الامة ومعناها وقد عرفت انه لم يستعمل فى الكتاب الا فى هذين المعنيين (الجماعة والدين) وقد ذكروا لها معاني اخرى يمكن ارجاعها الى ما ذكرناه .

فلنرجع الى مفاد الامة :

اذا عرفت ما ذكرناه : فلنرجع الى مفاد الامة فنقول قوله سبحانه : « ولكل أمة أجل » يحتمل فى بادىء الامر ، أن يراد منها الطريقة والجماعة ، ولكن الاول مدفوع بما فى ذيله : فاذا جاء أجلهم . . . اذ يجب عندئذ أن يقول: فاذا جاء أجلها بافراد الضمير ، لو صح اطلاق الاجل على الدين والشريعة (١) فلا مناص من حمل

(١) سيوافيك انه لم يستعمل الاجل فى القرآن فى أمد الاديان .

الاية على المعنى الثاني . أعني الجماعة ، التي يربطهم فى الحياة أمر ما ، والمراد ان كل كتلة من الناس اذا طويت صحيفة حياتهم وانتهت مدة عيشهم لا يمهلون بعد شيئاً ، فلا يستقدمون ولا يستأخرون بل يتوفاهم ملك الموت الذي وكل بهم ، فلا امهال ولا تأخير ، فالاية ناظرة الى بيان أمر تكويني جرت عليه مشيئته سبحانه وهو ان حياة الامم فى أديم الارض محدودة الى أجل لا يمهلون بعده وليس فيها أي نظر الى توقيت الشرايع وتحديدها وتتابع الرسل ونزول الكتب .

وأما حملها على خصوص الامة الدينية أي الامة التي يجمعها دين واحد فيحتاج الى الدليل والقرينة وقد عرفت ان الامة عبارة عن الجماعة التي يجمعهم أمرما، سواء أكان ذلك الجامع زماناً أو مكاناً أو اتحاداً فى الشغل والمهنة أو ديناً ، أو عنصراً ، الى غير ذلك من عشرات الوحدات الجامعة بين المتشتتين من الناس .

وقد تكرر مضمون الاية فى الذكر الحكيم بصور مختلفه كلها تهدف الى ما ذكرناه ، وأوضحناه ، ودونك بعضها :

« وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم »(١) ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » (الحجر ٤ ـ ٥) وقوله سبحانه : «ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » (المؤمنون ـ ٤٣) .

وقريب منه قوله سبحانه : «فيقول رب لولا اخرتني الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصادقين ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون» (المنافقون ١١) ، وقوله سبحانه : «يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء ، لا يؤخركم لو كنتم تعلمون » (نوح ـ ٤) .

نظرة فى موارد استعمال الاجل فى القرآن :

ويؤيد ذلك انه لم يستعمل « الاجل » فى الذكر الحكيم من أجل الشرائع ،

(١) أى مكتوب معلوم كتب فيه اجلها .

وانتهاء أمدها ، بل قصر استعمالها على موارد اخرى ، لبيان آجال الديون ، والعقود كقوله تعالى : «اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه» (البقرة ـ ٢٨٣ » .

وقوله سبحانه«ولا تعزموا عقدةالنكاح حتى يبلغ الكتاب أجله» (البقرة ـ ٢٣٥).

أو بيان انتهاء استعداد الاشياء للبقاء كقوله سبحانه : « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده (الانعام ـ ٢) وقوله سبحانه : «سخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى» (الرعد ـ ٢) .

وأما قوله سبحانه : « وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ، لكل أجل كتاب » (الرعد ـ ٣٨) فيحتمل وجوهاً :

١ ـ ان لكل وقت حكماً خاصاً مكتوباً معيناً ، كتب وفرض فى ذلك الاجل، دون غيره لان الفرائض تختلف حسب اختلاف الاوضاع والاحوال ، فلكل وقت حكم يكتب ويفرض على العباد حسب مقتضيات المصالح .

٢ ـ ما فسر به أمين الاسلام وهو قريب مما ذكرناه ، وقال ان لكل وقت كتاب خاص ، فللتوراة وقت وللانجيل وقت وكذلك القرآن ، فالفرق بينه وبين ما ذكرناه هو انه حمل الكتاب على الكتاب المصطلح ، ونحن حملنا على الحتم والفرض .

٣ ـ ان المراد منه : ان لكل أجل مقدر كتاب اثبت فيه،فللاجال كلها كتاب كتب فيه .

٤ ـ ان لكل أمر قضاه الله ، كتاب ، كتب فيه ، وأبعد الوجوه هو الاخير ، اذ هو تفسير بالاعم ، وهو سبحانه يقول : « لكل أجل كتاب » ، ولم يقل لكل أمر كتاب ، وأقرب الوجوه هو الاول ، بقرينة قول سبحانه : « ما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ، ولكل أجل كتاب » (الرعد ـ ٣٨) فلقد كانوا يقترحون على النبي (ص) بعض الايات ، فاجابهم سبحانه بأن لكل وقت حكماً خاصاً ، كتبه الله لذلك الوقت، ولا يجري الا فيه .

وعلى أي وجه من الوجوه الاربعة ، فلا تدل الاية على أن لكل دين أجلا وأمداً ، الا على الوجه الرابع ، ودلالته عليه انما هو بالالتزام لا بالمطابقة لأنه اذا

كان لكل وقت كتاب خاص مثل التوراة والانجيل يدل بالملازمة على ان لكل وقت شريعة وديناً .

وأما على ما فسرناه به فمآله الى ان لكل وقت حكماً، والحكم ليس نفس الدين والشريعة ، بل جزء منه وتكون الاية دالة على رد من زعم امتناع وقوع النسخ فى الشريعة الواحدة .

وأما على المعنى الثالث والرابع ، فعدم دلالته على ان لكل دين أجلا، واضح لايحتاج الى البيان .

سؤال من المستدل :

وفى الختام نسئل المستدل هب ان الاية بصدد بيان آجال الشرائع وتحديدها و ان لكل دين وأمة دينية أجلا، ولكنه من أين وقف على ان الاسلام قد انتهى أمده وجاء أجله،وانه لايمتد الى يوم القيامة،اذ لنا ان نقول : ان أمد الاسلام ينتهي بانتهاء نوع الانسان ، فى أديم الارض وقيام القيامة ، وزلازل الساعة ، فلو دلت الاية على ان لدين الاسلام أو الامة الاسلامية أجلا قطعياً فنستكشف ببركة الايات الدالة على اختتام النبوة والرسالة عن امتداد تلك الرسالة الى اليوم الذي تنطوي فيه صحيفة حياة الانسان فى هذه السيارة ، وان أجله وأجلها واحد .

الاكذوبة التى نسبها الى رسول الله :

هلم نسأله ، عن مصدر الاكذوبة التي نسبها الكاتب الى رسول الله (ص) ، وقال : انه بعد مانزلت آية « ولكل أمة أجل » طفق أصحابه يسألونه عن أجل الامة الاسلامية ،فأجابه بقوله:ان صلحت أمتي فلها يوم،وان لم تصلح فلها نصف يوم (١) . فقد أعتمد الكاتب فى نقله على نقل الشعراني ، وليس فى لفظه مايدل على سؤال

(١) الفوائد صفحه ١٧ الطبعة الحجرية .

أصحابه (ص) عن أجل الامة الاسلامية بعد نزول الاية ، وانما هو ، اكذوبة نحتها الكاتب ونسبها الى رسول الله (ص) (١) .

نعم تفسير اليوم بألف عام، كما نقله الشعراني عن تقي الدين رجم بالغيب اذ كما يمكن تفسيره بألف مستنداً ، الى قوله سبحانه: «وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون» (الحج- ٤٧) يمكن تفسيره بخمسين ألف سنة ،استناداً الى قوله سبحانه: «تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» (المعارج- ٤) .

وأما مارواه العلامة المجلسى، مسنداً عن كعب الاحبار،على نحو يشعر بكون تفسير اليوم بألف عام، من الحديث، فمما لا يقام له وزن، فان كعب الاحبار وضاع كذاب مدلس ، لم تخرج اليهودية من قلبه، تزيى بزي الاسلام ، فأدخل الاسرائيليات والقصص الخرافية ، فى أحاديث المسلمين فلا يقام لحديثه وزن ولا قيمة، فلنضرب عنه صفحاً .

أضف اليه ان الرجل لم يسنده الى الرسول (ص) ولا الى الـولي ، فكيف يكون حجة؟ .

ثم انه نسأل صاحب الفرائد (٢) ومن مشى مشيه ، ونقول : ان رسول الله قال (بزعمكم) ان صلحت أمتي فلها يوم ... فهل صلحت الامة الاسلامية فى هذه القرون العشرة ومشت سبل الصلاح والسلام ، وازدهر فيهم العدل والاحسان ، أم شاع فيهم الجور والطغيان والقتل الذريع وسفك الدماء وحبس ابرياء الامة واعتقالهم ونهب

(١) ودونك نص الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر التى الفهاعام ٩٥٥ قال فى بيان ان جميع اشراط الساعة حق : انه لابد ان يقع كلها قبل قيام الساعة وذلك كخروج المهدى (ص) ثم الدجال، ثم نزول عيسى، وخروج الدابة و . . . حتى لو لم يبق من الدنيا الامقدار يوم واحد ، لوقع ذلك كله ، قال الشيخ تقى الدين بن ابى المنصور فى عقيدته : وكل ذلك تقع فى المأة الاخيرة (هذا تخرص من الرجل وتنبؤ منه،أعاذنا الله منه) من اليوم الذى وعد به رسول الله بقوله فى امته : ان صلحت امتى فلها يوم وان فسدت فلها نصف يوم ، يعنى من أيام الرب المشار اليه بقوله تعالى : «وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

(٢) ابوالفضل الجرفادقانى

أموالهم . . . وعند ذاك يلزم انتهاء أمد الاسلام بانقراض خمس مأة عام ، التي هي نصف يوم،من اليوم الرباني، لانه لم تصلح الامة بعد لحوق الرسول بالرفيق الاعلى ولكن الكاتب ، لا يرضى به لانه لا يوافق مايدعيه ويرتئيه .

وأعجب من ذلك انه جعل مبدأ ذلك اليوم الرباني (الف عام) العام الـذي تمـت فيه غيبة ولـي الله الاعظم ، الحجة بـن الحسن العسكرى (ع) لاعام بعثة الرسول (ص) أو هجرته أو وفاته،أو سنة صدور الحديث ، أو ماكانت الامة العائشة فى هذين القرنين ونصف ، من الامة الاسلامية ، سله أنا لاأدري ولا المنجم يدري، أظنك أيها القارىء الكريم لا يفوتك سر هذا الجعل ، وانه لماذا جعل مبـدأ ذلك اليوم الرباني،عام غيبة الولي، أعني عام ٢٦٠ من الهجرة النبوية ، ذلك العام الذي غاب فيه خاتم الاوصياء عن الابصار، الى الوقت الذي لا يعلمه الا هو سبحانه ، فقد عمد بذلك الى ان ينطبق مبدأ خروج الباب (١) على اختتام ألف عام (٢) .

فقد خرج « الباب » وادعى ما ادعى ، مفتتح عام ١٢٦٠ من الهجرة النبوية .

* * *

(١) المراد منه، «عليمحمد» الشيرازى الملقب بالباب، عند الفرق الضالة البابية والازلية والبهائية .

(٢) فالرجل قد وضع فكرة معينة ، ثم اراد تصيد الادلة لاثباتها، ولكن الباحث المخلص يتجرد عن كل هوى وميل شخصى، ويتابع النصوص ومفادها، فماادت اليه بعد التمحيص، تكون هى النتيجة التى ينبغى عليه أخذها حقيقة راهنة .

الشبهة الرابعة :

استدل صاحب « الفرائد » بآية رابعة، زعم دلالتها على عدم انقطاع الـوحي والرسالة بعد رسول الله (ص) وهي قوله سبحانه : «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين» (النور ـ ٢٥) .

قال : ان صيغة « يوفيهم » تبشر عن دين حق يوفيه سبحانه على من يشأ مـن عباده فى الاجيال الآتية بعد الاسلام ، وليس لك ان تحمله على الاسلام وتفسره به ، لانه قد أكمل نظامه وتمت أصوله وفروعه عام حجة الوداع بنص الذكر الحكيم ، كماقال سبحانه«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» (المائدة ـ ٣) وهو سبحانه يخبر فى هذه الآية عن وقوع الامر (توفية الدين الحق) فى الجيل الآتي (١) .

الجواب :

هذا مبلغ علم الرجل ومقياس عرفانه بالكتاب وغوره فى الادب العربي وقد كان فى وسع الرجل ان يرجع الى أحد التفاسير، أو الى ابطال العلم وفطاحل الامة وكانت بيئة مصر (٢) تجمع بينه وبين فطاحلها وأعلامها العارفين،هذا هو أمين الاسلام الطبرسي،فسره فى مجمعه بقوله:يتم الله لهم جزائهم الحق، فالدين بمعنى الجزاء (٣) وقال الزمخشري : الحق ، صفة الدين وهو الجزاء (٤) لا الطريقة والشريعة .

وليت الكاتب ، أمعن النظر فى الظرف (يوم) الوارد فى الاية المتقدمة أعني قوله سبحانه : «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ...» ففي أي يوم تشهد

(١) الفرائد صفحة ١٢٢ الطبعة الحجرية

(٢) فقد ألف «الفرائد» بمصر ، أيام اقامته هناك ، وفرغ منه عام ١٣١٥ .

(٣) مجمع البيان ج ٧ صفحه ١٣٤

(٤) الكشاف ج ٣ صفحه ٢٢٣

ألسنة المجرمين وأيديهم على أعمالهم الاجرامية ، فهل هذا اليوم ، الا يوم البعث، ففي ذلك اليوم يوفيهم الله جزاء الطغاة العصاة المفترين الكذابين المبدعين، الجزاء الحق الذي يستحقونه باعمالهم . ففي يوم واحد تشهد السنتهم وأيديهم وأرجلهم ، ويوفي الله دينه الحق والجزاء الذي يستحقونه .

على ان سياق الاية يوضح المقصود، فان الاية وردت في الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، فعاتبهم ، بالايات القوارع ، المشحونة بالوعد الشديد ، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف ، لاستعظام ما ركبوا من ذلك ، وما أقدموا عليه ، وقال سبحانه :«ان الذين يرمون المحصنات الغافلات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب أليم» ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين» (النور٢٣ ـ ٢٤) .

ترى انه سبحانه حكم على هؤلاء العصاة اللاعبين باعراض الناس وحرماتهم بأحكام ثلاثة :

١ ـ اللعن عليهم في الدنيا والاخرة . ٢ ـ شهادة اعضائهم على اعمالهم الاجرامية . ٣ ـ توفية جزائهم الحق في ذلك اليوم .

ومع ذلك كيف عمي بصر الرجل وبصيرته ، وأرخى قلمه ولسانه ، وفسر الاية برأيه الباطل ! .

* * *

الشبهة الخامسة :

قد عرفت ما لدى الكاتب ومن لف لفه من شبهات تافهة ، او تأويلات كاذبة ، اختلقوها لاغواء السذج من الناس. هلم معي نقرأ آخر شبهة للقوم ، وهو الاستدلال بالاية التالية : «يدبر الامر من السماء الى الارض ، ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» (السجدة ـ ٥) .

فقد فسر صاحب الفرائد (١) تدبير الامر بانزال الشريعة من السماء الى الارض وجعل عروجه فى يوم كان مقداره الف سنة، باندراس الشريعة تدريجاً ، طول هذه المدة بابتعاد الناس عن الدين، ورفضه فى مراحل الحياة ، وصيرورة القلوب مظلمة بالمعاصي،مدلهمة بالخطايا ، مريضة بشيوع الفساد والفوضى ، فيبعث الله عند ذلك رجلا يجدد الشريعة ويؤسسها ويذهب بظلمات القلوب. وعلى هذا فلا تدوم الشريعة أي شريعة كانت الا يوماً ربانياً ، وهو الف سنة مما تعدون (٢) .

الجواب:

ماذكره بصورة الشبهة ، لا يصح الا بعد تسليم امور ، لم يسلم واحد منها .

١ ـ ان التدبير عبارة عن نزول الوحي وبلوغ الشريعة الى النبي .

٢ ـ ان الامر فى الاية هو الشريعة والطريقة .

٣ ـ العروج هو انتهاء أمد الرسالة وانقضاء استعداد بقاء الشريعة واندراسها بشيوع الفساد والمعصية بين الامة .

وليس واحد منها صحيحاً ولا قابلا للقبول :

---

(١) الفرائد الطبعة الحجرية

(٢) ثم انه جعل مبدأ ذلك اليوم الربانى عام غيبة ولى الله الاعظم(ع) عن الابصار حتى يطابق مختتمه، مفتتح عام ظهور الباب، هذا مصداق واضح للتفسير بالرأى ، وكأنه قد قرر النتيجة اولا ثم راح يتفحص عن دليل يوصل اليها فلم يجد دليلا . الا بتحريف كلام الله وتأويله السخيف.

أما الاول : فلان التدبير في اللغة والكتاب عبارة عن الادارة على وجه توجبه المصلحة ، وتقتضيه الحكمة وأين ذاك عن نزول الشريعة من السماء الى الارض ، باحدى الطرق المقررة في محلها .

وان شئت قلت: التدبير هو التفكير في عاقبة الامور ودبرها، كما قال سبحانه: « فالمدبرات أمراً » ، أي الملائكة الموكلة بتدبير الامور .

وقوله سبحانه : «أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها» (محمد ـ ٣٤).

وقوله سبحانه : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياتـه ، وليذكر أولو الالباب» (ص ـ ٣٩) الى غير ذلك .

أوليس تفسير التدبير بالنزول عندذاك تفسيراً بالرأي الذي نهى عنه رسول الله (ص) وأوعد عليه النار وقال : من فسر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار (١) .

وأما الثاني : فلان الامر والقرآن لم يستعمل بمعنى الشريعة والاحكام الالهية من واجب وحرام ومكروه ومستحب ومباح، وسائر الاحكام الوضعية الجارية في العقود والايقاعات والسياسات .

هؤلاء هم أصحاب المعاجم واعلام اللغة، لاتجد أحداً منهم فسر الامر بالشريعة، بل يدور معانيه بين الشأن والشيء والتكليف .

سـؤال : اذا اعترفتم ان التكليف من معانيها، كما يقال امرته: اذا كلفته، فيصح تفسيره بالشريعة ، اذ الشريعة عبارة عن تكاليف يوجهها الشارع الى عباده ؟ .

الجواب: ان حمل الامر في الاية على الامر والتكليف التشريعي خلاف مساق آيات السورة ، بل خلاف صريح سائر الايات الواردة في هـذا المضمار ، فلحاظ السياق يدفعنا الى ان نحمل الامر على الامر التكويني الذي هو عبارة عن ارادته الفعلية ومشيئته التكوينية الجارية في صحيفة الكون والوجود، فان كل ما يسيطر على العالم، من نظام وسنن وقوانين ، كلها بأمر تكويني وارادة فعلية منه سبحانه ، كما يصرح به قوله سبحانه : « انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي

(١) حديث متفق عليه ، رواه الفريقان بصور مختلفة ..

بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون» (يس ٨٢ ٨٣) .

حصيلة البحث : ان هنا قرائن ثلاث لابد من البحث عنها ، كى نقرب الى الاذهان كيفية حمل لفظ الامر ، على الامر التكويني ، أعني النظم والسنن الجارية في دائرة الكون والقوانين المكتوبة على جبين الدهر ودونك هذه الشواهد :

١ ـ لفظ التدبير ،فقد عرفت انه عبارة عن الادارة على وجه تقتضيه المصلحة والحكمة ، فهو سبحانه يدبر الخلق بعامة أجزائه من السماء الى الارض، على وجه تقتضيه المصلحة ، فسبحان الذي خلق الاشياء واتقنها وأحكمها ، ودبرها على وفق الحكمة ،فلا السماء تسقط على الارض، ولا الارض تنخسف بنا، ولا الشمس تظللنا دائماً ولا الظلمة تحيط بنا سرمداً ، الى غير ذلك من سنن ونظم . .

٢ ـ سياق،ماتقدمها من الايات،فان محور البحث فى سابقها،هوخلق السماوات والارض واستوائه سبحانه على العرش ، ودونك الاية المتقدمة عليها :

« الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما فىستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ، افلا تتذكرون » . « يدبر الامر من لسماء الى الارض . . .افلا تفهم من تقارن الايتين ان اللام فى الامر اشارة الى أمر الخلقة،وان الله سبحانه خلق السماوات والارض وما بينهما فى أيام وأدوار مخصوصة ولم يكتف سبحانه بأصل الخلقة ، بل استوى على عرش ملكه ، فدبر أمرها على وجه توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة ، وانه سبحانه يدبر أمر الخلق ، أي خلق تتصور وينفذه على وجهه،حتى انه سبحانه توخياً للتوضيح شبه المقام الربوبي الذي ينزل منه التدبير ، ويصدر منه الحكم بعرش الملك البشري الذي يجلس الملك عليه فيصدر منه أوامره لتدبير امور الملك ، غير ان أوامره طلبات عرفية اعتبارية ، ولكن أوامره سبحانه ، أوامر تكوينية ، لا يقوم بوجهها شيء ، فما قال له كن ، فيكون ، بلا تراخ ولا تمرد .

٣ ـ الايات المنزلة فى هذا المضمار ، فان هذا الاية ليست فريدة فى بابها ، فقد ورد فى هذا المضمون (أي تدبير أمر الخليقة) آيات اخرى ، كلها تهدف الى

ما أوضحناه ، وهو ان تدبير الخلق بعد ايجاده من شؤونه سبحانه، من دون نظر الى الشرائع وتجديدها ، ودونك الايات :

« ان ربكم الذي خلق السماوات والارض فى ستة أيام،ثم استوى على العرش يدبر الامر ، ما من شفيع الا من بعد اذنه» (يونس – ٢) .

وقوله سبحانه : « قل من يرزقكم من السماء والارض ، أم مـن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي،ومن يدبر الامور فسيقولون الله » (يونس – ٣١) .

وقوله سبحانه . « الله الذي رفع السماوات والارض بغير عمـد ترونها ، ثم استوى على العرش ،وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الامر، يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (الرعد ٢) .

نعم هذه الايات ساكتة عن عروج الامر وصعوده فى المقـدار الذي صرح به فى هذه الاية ، ولا يوجب ذلك فرقاً جوهرياً بين أهدافها ومراميها .

ومن ذلك تقف على ان الامر فى قولـه سبحانه : « ألا له الخلق والامـر ، تبارك الله رب العالمين » (الاعراف ٥٤) هو أمر الخليقة ، أي هو الذي خلق الاشياء كلها،وهو الذي صرفها على حسب ارادته فيها،فما عن بعض اعلام العرفان والفلسفة من تسمية المادي والماديات بعالم الخلق ، والمجردات والابداعيـات بعالم الامر ، استناداً الى هذه الاية ضعيف جداً، وان كان تقسيم الموجود الى المجرد والمادي ، صحيحاً لاريب فيه .

وأما الثالثة: فلان تفسير العروج باندراس الشريعة ونسخها باطل جداً ، لان العروج عبارة عن ذهاب فى صعود كقوله سبحانه : «تعرج الملائكة والروح اليه» (المعارج ١٤)وجعله كناية عن انتهاء أمد الشريعة وبطلانها واندراسها،من الكنايات البعيدة التي يجب تنزيه القرآن عنها،اذ لامعنى لعروج الشريعة المنسوخة اليه سبحانه اذ لا يفهم من نسخها انها تعرج الى السماء ، بل كل مايستفاد ، انها تعطل عن العمل بها والسير عليها . لا انها تعرج اليه سبحانه .

أضف اليه انه لو كان مراد المولى سبحانه ، هو الاخبار عن تجديد كل شريعة بعد ألف عام ، لاقتضى ذلك ان يعبر عن مقصوده بعبارة واضحة يقف عليها كل من له المام باللغة العربية ، ولماذا جاء بكلام لم يفهم منه مراده سبحانه الا بعد حقب وأجيال الى ان وصلت النوبة لكاتب مستأجر فكشف الغطاء عن مراده سبحانه وقد خفى على الامة جمعياً، وفيها نوابغ العربية وفطاحلها، حتى تفرد هو بهذا الكشف

مشكلة المفتتح والمختم :

بقي في المقام مشكلة، وهي ابتداء تلك المدة واختتامها ، وقد حار فيها الكاتب فاختار ان مبدأها هو عام غيبة الامام المنتظر، حتى يطابق ختم ذلك اليوم الذي مقدارها ألف سنة مع ظهور الباب (١) ولما رأى ان ذلك تفسيراً منه بالرأي ، اعتذر عن ذلك بأن الاسلام لم يكتمل الا عام غيبة الامام ، حيث حوّل الامر الى الفقهاء .

وأنت خبير بأن ما اعتذر به يضاد صريح القرآن القاضي باكمال الدين بلحوق النبي بالرفيق الاعلى ، فقال سبحانه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» (المائدة ـ ٣) .

ولو قال ان الاية ناظرة الى الاكتمال من جانب الاصول وتدعيم مبادىء الاسلام وأسسه بنصب الولي ، وأما الاكتمال من جانب الفروع فقد امتد بعد لحوق النبي (ص) بالرفيق الاعلى ، الى عشرات السنين من عهود الائمة واعصارها ، الى غيبة وليه ، فينتقض كلامه من جانب آخر ، فانه فسر عروج الامر بالنسخ التدريجي للشريعة ، وجعل النسخ عبارة عن ترك العمل بها واندراسها في مراحل الحياة . وعلى ذلك يجب ان يكون مبدأ النسخ التدريجي عام فوت الرسول (ص) فان العصور التي جاءت من بعده (ص) لم تكن عصوراً ازدهر فيها الاسلام ، بل كانت عهد الجور

(١) فقد اتفقت غيبة الامام عام ٢٦٠ ، وادعى الباب ما ادعى، بعد مضى ألف سنة من ذلك حيث كان خروجه سنة ١٢٦٠ .

والعدوان ، حيث تآمرت قريش على تداول الخلافة فى قبائلها واشرأبت الى ذلك اطماعها،فتصافقوا على تجاهل النص ، وأجمعوا على صرف الخلافة من أول يومها عن وليها المنصوص الى غيرذلك من الملمات والنوازل .

ولوكان ظهورالعبثوالفساد فى المجتمع الاسلامي ورفضالشريعة فى مراحل الحياة ، ملازمة للنسخ التدريجي للشريعة ، فليكن عهد يزيد الخمور والفجور من هذه العهود التي أخذت تعربد بلسان قائله :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

أفلا تعجب من الكاتب ، انه جعل تلكم العهود المظلمة التي امتدت عشرات السنين وكانت وبالا على الاسلام من العصور الزاهرة ، مع انه أخرج عهود القسط والعدل،الموعود بخروج الامام الثاني عشر التي ترفرف فيها اعلام القسط والعدل وتخفق رايات الحق والهداية فى كل صقع ، من الاصقاع التي ينمو فيها الاسلام ، ويزدهر . كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

وأما البحث عن هدف الاية وانه سبحانه ماذا يريد من قوله «يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة» ،فله منا بحث آخر،وسوف نعطي حقه عند البحث عن المعاد فى القرآن الكريم ، فان اليوم الذي يعادل ألف سنة ، من الايام الاخروية .

* * *

هذه شبهات الخاتمية التي أختلقها القوم ولم تكـن الا شبهات سوفسطائية أو أشواكاً فى طريق الحقيقة ، وبقيت شبهات ضئيلة أخرى للقوم ، أرى التعرض لها ضياعاً للوقت الثمين .

أجل هناك أسئله حولالخاتمية جديرة بالبحث والتحليل ، فلا بد من التعرض لها وما يمكن ان يجاب به حولها،ولاجل ذلك عقدنا الفصل التاليوهو من الفصول المفيدة جداً .

أسئلة حول الخاتمية

أسئلة جديرة بالبحث ، أثارت قلقـاً واضطراباً بين بعض الاوساط، وبين كثير من البسطاء ، وقد حاول الكاتب أن يعرضها بشكل جديد يلائم الذوق العلمى الحديث، وعلى صعيد خاص يعبر عن الموضوعية فى البحث ، و البخوع بالحقيقة والاخلاص للحق ، و ـ مع ذلك ـ فهذه المحاولة تعد خطوة متواضعة فى هذا السبيل ، فان هذه الاسئلة التي تعد من النقاط الحساسة للخاتمية لجديرة بالبحث والتنقيب أكثر وأبسط مما جاء فى هذا الفصل .

ان من شيم العصر الالحادى الحاضر، كثرة السؤال والتشكيك فى كل شيىء، خصوصاً فيما يرجع الى المبدأ و المعاد ، والمعارف الغيبية أى المسائل الراجعة الى ماوراء الطبيعة ، ولم تسلم مسألة خاتمية الرسول الاعظم (ص) من هذه التشكيكات ، فقد كثر السؤال وطال الحوار والنقاش العلمى حولها . ونحن نذكر تلكم الاسئلة الدارجة فى الاذهان والافهام ونعترف بأن بعضها أو كثيراً منها جدير بالبحث والتمحيص أكثر ، مما بحثنا عنه .

السؤال الاول :

وحاصله : هب انه ختمت النبوة التشريعية ، فلماذا ختمت التبليغية منها ؟

توضيحه: أن النبي اذا بعث بشريعة جديدة وجاء بكتاب جديد، فالنبوة تشريعية وأما اذا بعث لغاية الدعوة والارشاد ، الى أحكام وقوانين سنها الله سبحانه على لسان نبيه المتقدم ، فالنبوة تبليغية .

والقسم الأول من الرسل ،قد انحصر فى خمسة ، ذكرت أسماؤهم فى القرآن والنصوص المأثورة، اما الاكثرية منهم ، فكانوا من القسم الثاني وقد بعثوا لترويج الدين النازل على أحد هؤلاء فكانت نبوتهم تبليغية (١)

حينئذ،فقد يسأل سائل ويقول: هب أن نبي الاسلام جاء بأكمل الشرايع وأتمها وأجمعها للصلاح وجاء بكل مايحتاج اليه الانسان،فى معاشه ومعاده، الى يوم القيامة ولم يبق لمصلح رأي ولمتفكر نظر ، فى اصول الاصلاح وأسسه ، لان نبينا (ص) قد أتى بصحيح الرأي وأتقنه وأصلحه فى كافة شؤون الحياة ومجالاتها ولاجل ذلك الاكتمال أوصد باب النبوة التشريعية .

ولكن لماذا أوصد باب النبوة التبليغية التي منحها الله للامم السالفة فان الشريعة

---

(١) الكلمة الدارجة لمعنى التبليغ فى البيئات العربية هى كلمة «التبشير» ولكن كلمة «التبليغ» أولى وأليق بهذا المعنى ، فهى مقتبسة من القرآن ، ومدلولها اللغوى منطبق على المقصود كل الانطباق .

مهما بلغت من الكمال والتمام لاتستغني عمن يقوم بنشرها وجلائها وتجديدها ، لكي لاتندرس ويتم ابلاغها من السلف الى الخلف بأسلوب صحيح،فلماذا أوصد الله هذا هذا الباب بعد ماكان مفتوحاً فى وجه الامم الماضية ، ولماذا منح الله سبحانه هذه النعمة على السالف‌من‌الامم وبعث‌فيهم أنبياء مبلغين ومنذرين،وحرم الخلف الصالح من الامم منها ؟ .

الجواب :

ان انفتاح باب‌النبوة التبليغية فى وجه الامم السالفة وايصاده بعد نبي الاسلام ليس معناه أن الامم السالفة استحقت هذه النعمة المعنوية،لفضيلة تفردت بها ، دون الخلف الصالح من الامم ، أو أن الامة الاسلامية حرمت لكونها أقل شـأناً وأهون مكانة من الامم الخالية ـ كلا ـ بل الوجه ان الامم السالفة كانت محتاجة اليها دون الامة الاسلامية ، فهي فى غنى عن أي نبي مبلغ يروج شريعة نبي الاسلام .

وذلك ان المجتمعات تتفاوت ادراكا ورشداً ، فرب مجتمـع يكون فى تخلفه كالفرد القاصر ، لايقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل اليه ، بل يضيعه كالطفل الذي يمزق كتابه ودفتره غير شاعر بقيمة .

ورب مجتمع بلغ‌من القيم الفكرية والاخلاقية والاجتماعية،شأواً بعيداً يحتفظ معه بتراثه الديني الواصل اليه، بل يستثمرة استثماراً جيداً فهو عند ذاك غنى عـن كل مروج يروج دينه ، أو مبلغ يذكر منسيه أو مرب يرشده الى القيم الاخلاقية ، أو معلم‌يعلمه معالم دينه ويوضح‌له ما أشكل من كتابه ، الى غير ذلك من الشؤون ، فأفراد الامم السالفة كانوا كالقصر ، غير بالغين فى العقلية الاجتماعية ، فمـا كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل اليهم ، بل كانوا يلعبون به لعب الصبي بكتابه ، بتحريفهم له وتأويله بما يتوافق مـع أهوائهـم ومشاربهم ، ولذا كان يحل بالشريعة،اندراس‌بعدمضى‌الزمان‌والاجيال ويستولي عليها الصدأ بعد حقبة من الزمان. لهذا ولذلك كان على المولى سبحانه أن يبعث فيهم نبياً، جيلا بعد جيل ، ليذكرهم

بدينهم الذي ارتضاه الله لهم،ويجدد شريعة من قبله ويروج قوله وفعله ويزيله ماعلق بها من شوائب بسبب أهواء الناس وتحريفاتهم . وأما المجتمع البشري بعد بعثة الرسول (ص) ولحوقه بالرفيق الاعلى ، فقد بلغ من المعرفة والادراك والتفتح العقلي والرشد الاجتماعي شأواً يتمكن معه من حفظ تراث نبيه وصيانة كتابه عن طوارق التحريف والضياع ، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني الى تصنيف أنواع التأليف في أحكامه وتفسيره وبلاغته ومفرداته واعرابه وقرائته، فازدهرت تحت راية القرن ضروب من العلوم والفنون .

فلاجل ذلك الرشد الفكري في المجتمع البشري،جعلت وظيفة التبليغ والانذار، على كاهل نفس الامة حتى تبوأت وظيفة الرسل من التربية والتبليغ ، واستغنت عن بعث نبي مجدد على طول الزمان يبلغ رسالة من قبله .

فاذا قدرت الامة على حفظ ماورثته عن نبيها ، ونشره بين الناس في الافاق ، ومحو كل مطمع فيه وهدم كل خرافة تحدثها يد التحريف، استغنت طبعاً عن قائم بهذا الامر سوى نفسها .

لقد ظهرت طلائع هذا التفويض من أول سورة نزلت على النبي (ص) حيث خاطبه الله سبحانه،في اليوم الذي بعثه رسولا الى الناس وهادياً لهم بقوله : «اقرأ باسم ربك الذي خلق،خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم» (العلق ١ – ٤) .

وهذا الخطاب يؤذن بأن دينه،دين التلاوة والقرائة ، دين العلم والتعليم ،دين القلم والتحرير ،وان هذا الدين سوف يربي أمة ، مفكرة ، متحضرة ، عالمة بقيمة التراث الذي يصل اليها ، قادرة على حفظ هذا الدين في ضوء العلم والفكر ، مستعدة لنشر تعاليمه في أقطار العالم وأرجاء الدنيا ، بأساليب صحيحة .

وقد بلغت عناية الاسلام بالقلم والكتابة ، الى حد أن أقسم سبحانه « بالقلم وما يسطرون وأنزل سورة باسمه ، تمجيداً له وحثاً للامة على تقديره والعناية به ، ليكون رائداً للتقدم والحضارة والمعرفة ، ويصير أحسن ذريعة الى حفظ التراث بلا حاجة الى مبلغ سماوي .

بحث وتنقيب (١)

كان النبي الاعظم والاوصياء من بعده ، يهتمون بأمر الكتابة ويحثون الناس على ضبط العلم ، يدل على ذلك صريح قوله (ص) : « قيدوا العلم بالكتابة » (٢) .

وأي علم أوثق وأصح مما أخذ عن رسول الله (ص) الذي لاينطق عن الهوى، ان هو الا وحي يوحى ، وقد روى صاحب عوالى اللئالي بأسناده ، عن عبد الله بن عمر ، قال قلت يا رسول الله أقيد العلم ؟ قال (ص) نعم . قيل : وما تقييده ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : كتابته (٣) .

أخرج ايضاً بأسناده عن عمر بن شعيب عن أبيه وجده، قال قلت يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال (ص) : نعم ، قال قلت : فى الرضا والغضب ؟ قال (ص) : نعم . فاني لاأقول فى ذلك كله الا الحق (٤) .

وقد أملى (ص) كتباً فى الشرايع والاحكام ، كان قد جهز بها رسله وعماله فى الاقطار المفتوحة ، وقد احتفظ بها المسلمون،وأوردها أصحاب السير والمعاجم وأهل الحديث والتفسير فى كتبهم ، وهذه الصحف تعرب قبل كل شيىء ، عن عناية الرسول بحفظ علوم الرسالة وذخائر النبوة وأحكام الدين ودساتيره ، ليستفيد منها القريب ، ويرجع اليها النائي .

وقد تواتر عند الفريقين ، انالنبي قد قبض وفى قراب سيفه ، أو ذوابة سيفه

---

(١) ربما يحسب القارىء تنافياً واضحاً بينما قلناه من ان الاسلام دين القرائة والكتابة وبين ما عزى الى النبى الاكرم من نهيه (ص) عن كتابة الحديث ، ولاجل اماطة الستر عن وجه الحقيقة عقدنا هذا البحث .

(٢) تحف العقول ، كما فى الذريعة ج ١ ص ٦ ، المستدرك للحاكم ج ١ ص ١٠٦ ، كنز العمال ج ٥ ص ٢٧٧ ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٦١ ، كشف الظنون ج ١ ص ٢٦ .

(٣ ـ ٤) راجع الذريعة ج ١ ص ٦ .

كتاب أو كتابان (١) .

وقد اعتمد على هذا الكتاب أئمة أهل الحديث فى مختلف الابواب والاحكام، وأكثر النقل عنه ، المحدث الحر العاملي فى جامعه الكبير ، وينتهي اسناده الى أئمة أهل البيت (٢) .

قال ابن عمر : ان قريشاً قال : انك تكتب عن رسول الله وهو بشر يغضب ، يعنون به أنه يقول عند الغضب باطلا،فعرضت كلامهم على رسول الله،قال : اكتب فاني لاأقول الا حقاً، أو أشار الى شفتيه وقال : لايخرج منهما الا حق، أكتب (٣) .

وقد أملى رسول الله كثيراً من الاحكام على أمير المؤمنين ، فدون أمالي رسول الله (ص) فى حياته ، واشتهر بكتاب على ، وقد روى عنه البخاري فى صحيحه فى باب « كتابة الحديث » وباب « اثم من تبر امن مواليه » .

وقد أكثر عنه النقل ، الامامان الباقر والصادق (ع) ورآه كثير من أصحابهما كزرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وأبي بصير ونظرائهم .

أخرج الشيخ ابو العباس النجاشي فى ترجمة « محمد بن عذافر » عن عذار الصيرفي، قال كنت مع الحكم بن عيينة ، عند أبي جعفر محمد بن على الباقر (ع) فجعل يسأله وكان أبو جعفر له مكرماً ، فاختلفا فى شيىء ، فقال أبو جعفر يا بني قم فاخرج كتاب على ، فأخرج كتاباً مدرجاً عظيماً ، ففتح وجعل ينظر حتى أخرج المسألة ، فقال أبواجعفر : هذا خط علي واملاء رسول الله (ص) وأقبل على الحكم و قال يا أبا محمد : اذهب أنت وسلمة و المقداد حيث شئتم ، يميناً وشمالا ، فوالله لاتجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل (٤) .

---

(١) صرح بذلك امام الحنابلة فى مواضع من مسنده . راجع المسند ج ١ ص ٨١ ، ١٠٠ ، ١١٩ ، ١٣٢ ١٢٦ ، صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧ ، السنن الكبرى ج ٨ ص ٣٠ .

(٢) راجع وسائل الشيعة ، كتاب القصاص ،

(٣) مستدرك الحاكم ج ١ ص ٠٤ .

(٤) فهرست النجاشى ص ٢٥٥ ط الهند .

والحديث عما كتبه علي (ع) كثير،وأخرج المشايخ الثلاثة ، روايات جمة عنه ينتهون بأسنادها الي أئمة الحديث ، لتجدها مبثوثة فى كتب الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والامر بالمعروف والتجارة والوصايا ، والطلاق والنكاح والاطعمة والاشربة والحدود والقصاص والديات والقضاء والايمان والصيد والميراث واحياء الموات (١) .

ثم أن الشيعة فى الصدر الاول اقتفوا أثر امامهم فى الكتابة والتأليف فاهتموا بجمع أحاديث الاحكام والفرائض والقضايا وأخبار المغازي ، وتراجم الرجال ، وقد جمع أسمائهم الشيخ أبو العباس النجاشي فى أول رجاله .

ثم الذين نشأوا بعد الطبقة الاولى نهجوا منهاج سلفهم ، حذو القذة بالقذة فى كل قرن وجيل (٢) .

---

(١) راجع وسائل الشيعة فى هذه الكتب ، وقد جمع زميلنا العلامة الشيخ على الاحمدى فى كتابه « مكاتيب الرسول » ج ١ ص ٧٢ ـ ٨٨ ما بثه صاحب الوسائل فى جامعه على نسق الكتب الفقهية .

(٢) نعم نجمت فى تلكم الظروف القاسية ، وبين هاتيك الكوارث والهنابث ، والسلطات الغاشمة كتب ثمينة للشيعة، جمعوا فيها شذرات الحديث وشوارد السير ، واصول الاخلاق ، ونهضوا بهذه المهمة ، بعزم راسخ لا يكهمهم الفشل ولا يفلهم الكلل ، مثابر بن على العمل ، معانين فى طريق هدفهم وضالتهم، أتعاباً وجهوداً ، هادفين فى مشروعهم الى كلء نواميس الدين وبث تعاليم الحنفية البيضاء والسعى فى سبيل نجاح الامة والاخذ بيدها الى سبل السعادة الابدية. وقد ترجم الشيخ أبو العباس النجاشى صاحب الفهرست المعروف المتوفى عام ٤٥٠ فى صدر كتابه بعض رجال الشيعة ممن يعدون من المؤلفين فى الطبقة الاولى ، ودونك أسماء عدة منهم الذين ذكرهم الشيخ أبو العباس النجاشى بهذا العنوان فى أول فهرسته .

١ ـ أبو رافع مولى رسول الله (ص) وصاحب بيت مال أمير المومنين على (ع) ، صنف كتاب السنن والاحكام والقضايا .

٢ ـ عبيد الله بن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين ، وأول من ألف فى الرجال ، ترجم من أصحاب النبى (ص) من شهد منهم حروب أمير المؤمنين (ع) الجمل وصفين والنهروان .

٣ ـ على بن أبى رافع كاتب أمير المؤمنين صنف كتاباً فى فنون من الفقة الوضوء والصلاة ـ

وقد أشاد أئمة أهل البيت بفضل الكتابة والتمسك بالكتب ، وفيه حث على كتابة الحديث وضبطه وحفظه عن طوارق الحدثان ، وقد أخرج الكليني بأسانيده عن الصادق (ع) هذه المأثورات :

١ ـ القلب يتكل على الكتابة .

٢ ـ أكتبوا فانكم لاتحفظون حتى تكتبوا .

٣ ـ احتفظوا بكتبكم فانكم سوف تحتاجون اليها .

٤ ـ اكتب وبث علمك فى اخوانك، فان مت فأورث كتبك بنيك، فانه يأتي على الناس زمان هرج لا يستأنسون الا بكتبهم (١) الى غير ذلك مما طوينا ذكره ، استغناء عنه بماذكر،وقدجمعها العلامة شيخنا الطهراني فى مقدمة كتابة، فراجع (٢) .

ـ وسائر الابواب .

٤ ـ ربيعة بن سميع ، صنف كتاب زكاة النعم على ماسمعه من أمير المؤمنين (ع) فى صدقات النعم وما يوخذ من ذلك .

٥ ـ أبو صادق سليم بن قيس الهلالى صاحب أمير المؤمنين ألف أصله المعروف المطبوع .

٦ ـ الاصبغ بن نباته المجاشعى من خيار أصحاب أمير المؤمنين ومن شرطة الخميس، له كتاب عهد أمير المؤمنين الى مالك الاشتر النخعى ووصيته الى ابنه محمد بن الحنفية .

٧ ـ أبوعبدالله سلمان الفارسى له كتاب خبر جاثليق وقدأملى الخطبة الطويلة والاحتجاجات.

٨ ـ أبوذر الغفارى له كتاب وصايا النبى وشرحه العلامة المجلسى وأسماء عين الحياة .

هذا حال الطبقة الاولى منهم وأما الذين نجموا بعدهم فالرواة منهم المعاصرون للائمة الهداة فى مجموع القرنين منذ قبض الامام أمير المؤمنين (ع) الى عصر العسكرى (ع) لم يؤثر عنهم فتور فى تدوين العلوم وضبط الحديث ، ونضد قواعد الفقه وتنسيق طبقات الرجال ، وضم حلقات التفسير،واتقان مبانى الكلام الى غيرذلك من تهالكهم فى تدوين المعقول والمنقول.

كل ذلك يشهد على مبلغ اهتمامهم فى تلقى أنواع المعارف والعلوم من معادنها فى السر والعلانية وتغنينا عن افاضة القول وسرد الشواهد ، الفهارس المؤلفة لكتب الشيعة فى القرون الاسلامية الغابرة ولاسيما ما ألفه العلامة المتتبع المغفور له شيخنا الطهرانى أعنى أثره الخالد « الذريعة الى تصانيف الشيعة » .

(١) الوافى ، الجزء الاول ص ٥٥ .

(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة ج ١ ص ٨٠٦ .

وأظن ان الموضوع لايحتاج الى ان نتوسع فيه أكثر من ذلك ، وهذا كتاب اللهسبحانه يحث فيأطول آيات كتابه (١) على كتابة مايتوصل بها الى حفظ عرض دنيوي زائل ومتاع مندثر،أفلا يسوغ لنا من هذا الحث الاكيد، استنباطلزوم الاهتمام وتأكدالطلب بالنسبة الى ماتنال بهالمقاصد العالية ويفوز به الانسان السعادة الخالدة.

وبعد ذلك كله، لا اعتبار بما نسبوه الىرسول الله من انه قال : « لاتكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتبعني غير القرآنفليمحه» (٢)أوانه لم يأذن فى كتابةالحديث على ما رواهالترمذي عن أبيسعد قال : استأذنا النبيفى الكتابة فلم يأذن لنا (٣) .

وأغرب منه مارواه الحاكم بسنده عن عائشة ، قالت : جمع أبي الحديث عن رسولالله فكانت خمسمأة حديث فبات يتقلب، قالتفغمني كثيراً،فقلت يتقلبلشكوى أو لشيىء بلغه ، فلما أصبح قال : أي بنية ، هلمى الاحاديث التي عندك ! فجئته بها فأحرقها وقال: خشيت ان أموت وهي عندك ، فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ، ولم يكن كما حدثني ، فأكون قد تقلدت ذلك (٤) .

أظن ان ما ألصق برسول الله من مختلقات الحديث ، وولائد الاحلام الباطلة، وضعها القائلأو القائلون، لاغراض وغايات سياسية .

وأظن ان الذي دفع الوضاعون الىعزو مااختلقوه الى رسول الله أحد الامرين أو كليهما :

اما لان المعتمد فى كتابة أحاديث الرسول آنذاك ، كان هو الامام علي (ع) دون سائر الصحابة،وكان ذاك يعد فضيلة رابية للامام فحاول أعداءه ومناوؤه طمسها، فاختلقوا مااختلقوا ، لكي يصبح عمل الامام فـى استقلاله بالتدوين ، أو تبرزه فى هذا الباب ، عملا غير مشروع .

---

(١) سورة البقرة ، ٢٨٢

(٢) رواه الدارمى فى مقدمة صحيحه .

(٣) صحيح الترمذى ج ٢ ص ٩١ ط الهند .

(٤) جمع الجوامع للسيوطى ج ٢ ص ١٤٧

واما لان تلك الاحاديث فيها الكثير الكثير مما قاله النبي (ص) فى فضل علي (ع)وعظم شأنه،فلو سوغت كتابة الاحاديث وأحاط به الناس وتناقلها المسلمون فى شتى الاقطار،لادت الى ظهور الامام على سائر الصحابة، وكونه الاحق فى تسنم منصب الخلافة بعد الرسول، وفى ذلك ما فيه من الخطر على من تسنموا عرشها بغير حق ودليل .

فلو كان كتابة الحديث وضبطه فى الصحائف والجلود أمراً مرغوباً عنه، فلماذا أملى النبي بنفسه كتباً فى الشرائع والاحكام،وجهز بها رسله وعماله فى الاقطار المفتوحة.

ولو كان نهى النبي بمرأى و مسمع من أصحابه وأنصاره ، فلماذا استفتى عمر أصحاب رسول الله فى ذلك فأشاروا عليه ان يكتب ، فطفق عمر يستخير الله شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ،فقال: اني كنت أريد ان أكتب السنن وانى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وانى والله لا اشوب كتاب الله بشيىء أبداً ولا ألبس كتاب الله بشيىء أبداً (١) .

والعذيرة التي جاء بها الخليفة فى كلامه تشبه بما فى كلام بعضهم فى تفسير نهي النبي عن الكتابة ، من ان نهيه (ص) عن كتابة الحديث لخوفه (ص) من اختلاط الحديث بالقرآن . ولا يخفى مافيه من الخبط والخطأ ، فان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، اذ معنى ما ذكره ابطال معجزة القرآن وهدم اصولها عن القواعد وان بلاغة القرآن والحديث والخطب المروية من باب واحد وهو باطل، والله سبحانه يقول «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» .

وقد حقق فى محله ان القرآن وحي بلفظه ومعناه ، لا يشبه كلام الانسان من حيث الصياغة والانسجام ، والحديث وحي بمعناه دون لفظه ، فهو من جهة اللفظ والصياغة ، كلام بشري يمكن مباراته .

هناك عذيرة أخرى لاتقصر فى الوهن عن الاولى، جاء بها بعض أهل العصر،

(١) رواه الكاتب المتتبع المعاصر «ابورية» عن حافظ بن عبدبه والبيهقى فى المدخل عن عروة

قال: يمكن ان تكون حكمة النهي عن كتابة الحديث ،هو ان لاتكثر أوامر التشريع ولا تتسع أدلة الاحكام وهو ماكان يتحاشاه(ص) حتى كان يكره كثرة السؤال أو يكون من أحاديث فى امور خاصة بوقتها بحيث لايصح الاستمرار فى العمل بها .

ونحن لانعلق عليها الا شيئاً طفيفاً والقارىء الكريم أعرف بحالها ، اذ أي صلة بين كتابة حديث نافع وسنة متبعة(تتصل بحياة المسلمين الفردية والاجتماعية، وتحتل مكاناً سامياً فى استنباط كثير من الاحكام التي كانوا يـواجهونها بعد عصر الرسالة ، عند ماتوسعت الحكومة الاسلامية وتلونت حياتهم بألوان حضارة جديدة، ولم يكن بها عهد في عصر النبى (ص) وبين كثرة السؤال عن أشياء لايهم السائل عرفانها .

على انماااعتذر به الكاتب فى تصحيح النهي عن تدوين السنة، يستدعى النهي عن كتابة القرآن وهمافى المقام سواسية ، لان عمق معاني القرآن وغزارة مقاصده ، تؤدي بالباحث الى كثرة التساؤل واتساع أدلة الاحكام ، وتكثر أوامر التشريع ، وبالتالي يستلزم تسلسل الاسئلة .

ولا يترددالمحقق الباحث ان ما عزوه الى النبي من مخاريق الأوهام الباطلة التي نحتوه لاغراض سياسية ولتصحيح فعل الخليفة ونهيه عن كتابة الحديث وسنة النبي الاكرم.

وما ارتكبه الخليفة ، عثرة لاتقال ـ يعلم الله ـ كم خسر الاسلام والمسلمون من جرائها ،لولا ان تدارك الخسران العظيم ، عمر بن عبد العزيز ، فكتب من الشام الى أبي بكر بن حزم وهو من كبار المحدثين بالمدينة، انظر من حديث رسول الله فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء(١) .

* * *

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٧ كتاب العلم

عود الى بدء :

ثم انه سبحانه،صرح بهذا التفويض أي تفويض أمر التبليغ الى نفس الامة فى غير موضع من كتابه ، منها قوله سبحانه : «فلو لا نفر من كل فرقة طائفة منهم ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون» (التوبة-١٢٢).

ومنها قوله سبحانه : ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (آل عمران - ١٠٤) .

«ومنها قولهسبحانه: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (آل عمران - ١٠٩) .

وفى السنن والاحاديث تصاريح بذلك ، نكتفى بما يلي :

قال الباقر (ع) ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سبيل الانبياء ، ومنهاج الصلحاء ، وفريضة بها تقام الفرائض ، و تأمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمر الارض وينتصف من الاعداء ويستقيم الامر (١) .

ولعل فى قوله (ع) « سبيل الانبياء » اشارة الى ان هـذا الامر موكول الى الامة بعد انقطاع الوحي وايصاد باب النبوة .

وقال رسول الله : اذا ظهرت البدع : فليظهر العالم علمه ، فمن لم يفعل ، فعليه لعنة الله (٢) .

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الامر بالمعروف الباب الاول الحديث ٦

(٢) المصدر نفسه الباب الاربعون الحديث ١

دور أهل البيت في اكمال الدين وختم الرسالة :

ان للشيعة الامامية ، نظراً خاصاً في كيفية استغناء الامة الاسلامية عن ضرورة استمرارية النبوة وتواصلها بعد لحقوق النبي الاكرم (ص) بالرفيق الاعلى ، وعمدة ذلك هو ثبوت نظرية الامامة التي تتبناه الشيعة الامامية في باب الولاية الالهية والخلافة بعد رسول الله .

فالامامة عندهم عبارة عن الولاية الالهية العامة على الخلق فيما يختص بشؤونهم الدينية والدنيوية وهي مستمرة بعد قبض النبي الاعظم ، لم يوصد بابها بل انه مفتوح الى ان يشاء الله ايصاده ، وانما الذي ختم بالنبي الاعظم هو باب النبوة التي هي تحمل النبأ عن الله سبحانه ، وباب الرسالة التي هي تنفيذ ما تحمله النبي عن الله سبحانه بين الامة (١) .

هذه الولاية الالهية غير النبوة والرسالة وان كانت تجامعهما تارة وتفارقهما أخرى فقد تمثلت المناصب الثلاثة في شخص ابراهيم .

اذ كان عليه السلام يمثل منصب الامامة ، كما كان يمثل منصبي النبوة والرسالة ولقد حباه الله سبحانه بمنصب الامامة ، بعد ما منحت له النبوة وأرسله رسولا ويدل على ذلك قوله سبحانه : « اني جاعلك للناس اماماً » (البقره ـ ١٢٤) (٢) .

والائمة الاثناعشر لدى الامامية يمثلون منصب الامامة ، من دون ان يكونوا

---

(١) راجع في توضيح الفرق بين النبوة والرسالة الى الفصل السادس من كتابنا هذا

(٢) روى ثقة الاسلام الكليني عن جابر عن ابي جعفر الباقر (ع) قال سمعته يقول : ان اتخذ ابراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيا واتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا واتخذه رسولا قبل ان يتخذه خليلا ، واتخذه خليلا قبل ان يتخذه اماماً ، فلما جمع له هذه الاشياء وقبض يده قال له يا ابراهيم انى جاعلك للناس اماماً فمن عظمها في عين ابراهيم قال يارب ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. اصول الكافي باب صفات الانبياء والرسل ص ٨٤ .

أنبياء أو رسلا ،فهم أئمة الدين ، واولياء الله بين الامة ، ولهم رئاسة الهية عامة دينية ودنيوية على وجه يوجب على الامة الانقياد لهم وهم حجج الله على عباده يهتدي بهم اليه سبحانه ولا تبقى الارض بغير امام حجة الله على عباده (١) .

والباعث على انفتاح باب الولاية الالهية فى وجه الامة ، بعد ختم النبوة والرسالة وايصاد بابيهما بالتحاق الرسول الكريم بالرفيق الاعلى أمور نشير الى بعضها.

١ ـ لايختلف اثنان من المسلمين بانقطاع وحي السماء عن وجه الارض بموت النبي وقبضه كما لايختلفان فى ان النبي قام بمهمة التشريع والتبليغ وتثقيف الامة الاسلامية بالثقافة الدينية وبث العقيدة الدينية فيهم وحفظ الشريعة عن شبهات المنكرين وارجاف المرجفين بأحسن الوجوه وأكملها وقال سبحانه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا . (المائدة ـ ٣) غير انه (ص) كان يراعي فى نشر الاحكام حاجة الناس ومقتضيات الظروف فكانت هناك امور مستجدة ومسائل مستحدثة ، لم تكن معهودة فى زمن الرسول ولم يأت بها نص فى الكتاب الكريم وسنته الثابتة ، ولم يتسن للنبي الاشادة بها ، اما لتأخر ظروفها أو لعدم تهيأ النفوس لها أو لغير ذلك من العلل .

وقد ظهرت بوادر هذا الامر عندما اتسع نطاق الاسلام وضرب بجرانه خارج الجزيرة العربية وطفق المسلمون يخوضون فى غمار معارك طاحنة وحروب دامية ، يفتحون البلاد ويخالطون الامم ففوجئوا بمسائل مستجدة لم يعرفوا لها حلا فى الكتاب الكريم ولا في سنة نبيهم مع ان الله سبحانه كان قد أخبر فى كتابه عن اكمال الدين واتمام النعمة وبناء على هذا فاننا نستكشف ان النبي ابقاء لغرض التشريع استودع معارفه عند من يقوم مقامه ويكون له من الصلاحيات ما تخوله للقيام بمثل هذا الامر الخطير .

والى ذلك يشير باقر العلوم بقوله مخاطباً لهشام بن عبد الملك بن مروان : انا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه(ص) فى قوله «اليوم

(١) هكذا وصف الامام باقر العلوم ، راجع الكافى باب «ان الارض لا تخلو من حجة ، ص ٨٦ .

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » والارض لا تخلو ممن يكمل هذه الامور التي يقصر غيرنا عنها (١) .

ثم ان الكتاب الكريم الذي هو أحد الثقلين فيه محكم ومتشابه وعام وخاص ومطلق ومقيد ومنسوخ وناسخ ، يجب على الامة عرفانها ، اذ الجهل بها يوجد اتجاهات مذهبية متضاربة . غير ان تفسير المتشابه من دون الاستناد الى ركن وثيق يورث اختلافاً عنيفاً بين المسلمين ، وتفسير المجمل وتفصيل المعضل وتشخيص المنسوخ عن ناسخه يحتاج الى احاطة كاملة بمفاهيم الكتاب وتشريعاته ، جليلها ودقيقها وهوليس الا النبي الاكرم ومن يتلو تلوه .

فلاجل رفع هذه المحاذير يجب عليه سبحانه حفاظاً على وحدة الامة وصيانتها عن الشرود فى متاهات الضلال ان يشفع كتابه بميزان آخر ، وهاد يدعم أمره ، ومعلم يوضح لهم أسراره ، ليرجع اليه المسلمون حتى يكتمل به غرض التشريع ويرتفع التضارب والخلاف فى الشؤون الدينية .

والى ذلك يشير قوله (ص) اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (٢) وقال (ص) : اني أوشك ان ادعى فأجيب واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي أهل بيتي وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (٣) .

---

(١) بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٠٧ .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه ج ٣ ص ١٤٨ ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) مسند أحمد ج ٣ ص ١٧ و ٢٦ . وللحديث صور كثيرة كلها تنص على وجوب التمسك بأهل بيته وعترته (ص) وطرقها عن بعض وعشرين صحابياً متضافرة ، وقد صدع بها رسول الله فى مواقف له شتى : يوم غدير خم، يوم عرفة فى حجة الوداع ، بعد انصرافه من الطائف ، على منبره فى المدينة ، وفى حجرته فى أخريات أيامه .

وقد أنهى اسناده العلامة الجليل ، السيد مير حامد حسين فى بعض أجزاء كتابه الكبير « العبقات » وطبع فى ستة أجزاء بايران وفاح أريجه بين لابتى العالم وقد اغرق نزعاً فى التحقيق ، ولم يبق فى القوس منزعاً ، وقد أغنانا كتابه عن الافاضة والبحث .

٢ ـ ليس الاسلام منهجاً فلسفياً أو فكرة علمية بحتة حتى يتحقق منه الغرض بمجرد كونه حبراً على ورق وافكاراً فى مجالات التصور والخيال كسائر المبادىء الفلسفية الاخرى التي ليس لها حظ فى التطبيق بل هو نظام عام كافل لاصلاح البشر واسعاده فى جميع المجالات الدنيوية والدينية ،يجب نشره ، وبثه فى الاقطار كلها.

ولاجل ذلك كان النبي يهتم بأمرالتبليغ ونشر الاسلام على أوسع مجال وكان يرسل بعوثاً الى الاقطار القريبةوالنائية،تحملون الفكرة الاسلاميةولم تكن عنايته(ص) بمهمة التبليغ أقل من عنايته بأمر التشريع، غير ان الرسول قد قبض ولبى دعوة ربه ولم يستوف غرضه من مهمة التبليغ ولم يتضح الدين الجديد بجميع خطوطه وتفاصيله ولم يتسرب الاسلام الى نفوس المسلمين ولم يتغلغل فى قلوبهم، ولم يجتث الرواسب الجاهلية المتأصلة فى قلوبهم ، فكان الاسلام كدعوة ناشئة لم تمزج بأفكارهم ولم تتسرب الفكرة الدينية الى مشاعرهم تماماً بعد .

ولاجل ذلك كان يلوح منهم التذبذب والرجعية مابين حين وآخر،ولقد برزت هذه الظاهرة منهم فى بعض المعارك الدامية عندما اشيع خبر قتل النبي الاكرم وانهزم بعضهم وكان سبب انهزامهم وتضعضعهم اخلال الرماة لمكانهم عن الشعب وذلك فى غزوة « احد » حيث ظهرت بوادر الردة والنكوص على الاعقاب بشكل واضح . فقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا الى عبدالله بن أبي (١) فياخذلنا أماناًمن أبي سفيان وبعضهم جلسوا وألقو بأيديهم وقال لوكان نبياً لما قتل . وقال اناس من أهل النفاق ان كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الاول (٢) .

قال ابن هشام: انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ، فى رجال من المهاجرين والانصار وقد القوا بأيديهم فقال : مايجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله (ص) قال فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات رسول الله ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل ، فأنزل الله سبحانه

(١) زعيم المنافقين بالمدينة .

(٢) مجمع البيان ج ١ ص ٥١٣ ـ ٥١٤ ط صيدا .

«وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين» (١) .

وليست بادرة الردة من بعضهم في هوازن بأقل منها فى أحد روى ابن هشام عن جابر بن عبدالله الانصاري قال لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة اجوف (٢) حطوط (٣) ، انما ننحدر فيه انحداراً قال: وفى عماية الصبح وكان القوم (العدو) قد سبقونا الى الوادي فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا فوالله مراعنا ونحن منحطون الا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر (٤) الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد وانحاز رسول الله (ص) ذات اليمين ، ثم قال : أين ايها الناس هلموا الى ،أنا رسول الله ، فانطلق الناس ، الا انه قد بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والانصار .

فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله (ص) من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب لاتنتهي هزيمتهم دون البحر وان الا زلام لمعه فى كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل : الا بطل السحر اليوم (٥) الى غير ذلك من بوادر الردة وهفوات اللسان .

كل ذلك يدل على تسرب الاسلام الى كثير منهم حيث كانوا كالهمج الرعاع يميلون بكل ريح ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق ، ولم يستضيؤا بنور الايمان .

ولاجل ذلك: لايجوز لصاحب الدعوة ان يجعل القيادة الدينية وتطبيق المخطط الاسلامي فى المجتمع، لامة ناشئة فى الدين لم تترسخ الفكرة الاسلامية فى مشاعرهم ولم يكتسبوا من القيم العقلية والدينية شأواً يحفظهم من الرجوع الى الوراء القهقرى ولم تصبح العقيدة الاسلامية، عقيدة راسخة، تؤمن بها الامة ويضحي فى سبيلها وتعتمد

(١) سيره ابن هشام ج ٢ ص ٨٣ .
(٢) أى متسع (٣) أى منحدر .
(٤) انفضوا وانهزموا .
(٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٤ .

على نفسهافى ادارة شؤونها الحياتيةعلى وفقها ، وبث تعاليمها ونشرها فى الاقطار، وتبليغها بين الامم .

فاذن لا بد لتحقيق هذه المهمة ، بعد التحاق النبي الاكرم بالرفيق الاعلى ، من امام له من الشرائط والصلاحيات ماللنبي سوى الوحي و. . . حتى يخلفه فـي تبليغ الاحكام ، وترسيخ الفكرة الاسلامية فى نفوس الامة ودفعها الى تنفيذ الشرعية فى المجالات الفردية والاجتماعيـة ، الى ان تبلغ الامة حداً تقدر معـه على تنفيذ المخططات الدينية وتضحى فى سبيلنشر دعوة الرسول بالنفس والنفيس غير عادلة عن طريق الحق والصواب .

ولبعض الاجلاء كلام فى تحليل نظرية الامامة عند الشيعة لا بأس بذكر مقتطف منه .

« لم يكن موقف الدولة الاسلامية من الناحية الاجتماعية يسمح بأن يترك النبي الحكومة الاسلامية بعده بغير رعاية وان لاينص بعده على من يتولى شؤون الحكم والسياسة الاسلامية .

فقد جاء الاسلام بمبادىء جديدة فى الفكر والسلوك والحياة والاجتماع والحكم وتوفي النبي (ص) والعقيدة الاسلامية بعد لم تترسخ فى نفوس المسلمين ، والفكرة الاسلامية بعد لم تتغلغل في أفكارهم و المبادىء الاسلامية بعد لم يؤثر تأثيرها الكامل فى القضاء على الانماط الجاهلية من الحكم والسياسة والحياة والفكر .

فهل يمكن ان يترك النبي الدين الناشيء الذي يريد ان يشق طريقه فى الحياة والذي يريد ان يقضي على رواسب الجاهلية فى الحكم والسياسة والفكر .

ان التقدير الصحيح للملابسات الاجتماعية والسياسية والدينية التي كان تعيشها الدعوة الناشئة ، ويعيشها قائد الدعوة الاول يقضي باستحالة ترك الحكم الاسلامي بعد وفاة النبي القائد لتقدير الجمهور من المسلمين .

ولا تتصل المسألة بمصالح الحكم والادارة فقط كي يمكن ان يتساهل فيه وانما تتصل المسألة من قـريب بحياة الدعوة الناشئة واستمرارها وتنفيـذها فى مجال

الحكم والسياسة .

ولا يؤمن صاحب الدعوة بأن القيادة الدينية بعده تستمر على الخط الذي رسمه وهو لم يشق بعد طريقه واضحاً فى المجتمع ما لم يخص شخصاً بالقيادة ، ويودعه أزمة الحكم بعد ان ينشأه برعايته الخاصة، ويشرف على تربيته ورعايته ويجرده عن الرواسب الجاهلية المتخلفة فى نفسه (١) .

٣ ـ لم يزل الاسلام منذ تكون ، الى يومنا هذا محطاً لاثاره الشبهات عليه من جانب اعدائه ، فلم يزل مطمحاً لارجاف المرجفين ودسائس المشركين ، وتلاعب المنافقين وقد ظهرت بوادر الغزو الفكري فى اخريات حياته (ص) الى ان وصل القمة فى أيام الخلفاء وبعدهم حيث غمرت المسلمين التيارات الالحادية لتزعزعهم من دينهم وتحجب نور الحق عن أعينهم، فلم يزل ، تزور المدينة عاصمة الاسلام، وفود من أهل الكتاب،وفيهم الاحبار والرهبان والقسيسون من النصارى،يلقون الاسئلة ويطرحون الشبهات .

فالقيام بمثل هذه المهمة من قبل من ينوب عن الرسول يتطلب احصاء واحاطة كاملة بالعقائد والمذاهب الزمنية المضادة للاسلام وما فيها من مختلف الاتجاهات الفكرية ليقوم بمهمته خير قيام ويدفع عن الاسلام سهام الاعداء ويكافح الغزو الفكري بأساليب صحيحة ، جديرة بحفظ كيان البنيان الاسلامي .

فالواجب اذن على صاحب الدعوة تعيين من هو جدير بالقيام بهذه المهمة حتى يشع للمسلمين طريقهم الواضح ، ويصون نفوسهم عن شبهات العابثين .

وغير خفي على القارىء النابه ان من يقوم بهذا الامر يجب ان تتوفر فيه كثير من الشروط والصلاحيات التي تعتبر فى نفس النبي من الاحاطة بمفاهيم الدين وحقائقه ، وما فى الاديان السالفة من وهن وريب و. . .

* * *

(١) الامامة فى التشريع الاسلامى ص ٧١ ـ ٧٣ .

فهذه الجهات الثلاث (١) التي ألمحنا اليها على وجه الاختصار ونظرنا فيها نظرة عابرة غير مسهبين ، كونت فكرة الامامة لدى الامامية ، حتى اعتقدوا لزوم امام معصوم بعد موت النبي ليقوم بهذه المهمات.

١ ـ تكميل غرض التشريع واستيفاءه .

٢ ـ نشر الاسلام والمبادىء الدينية فى الاوساط كلها .

٣ ـ الكفاح ضد الغزو الفكري وصيانة المسلمين من الانجراف مع التيارات الكافرة الالحادية، فالامام المتسنم لهذه المناصب له الولاية الالهية العامة ويجمع من الشروط والصلاحيات ما تخوله للقيام بهذه الامور من العلم الوسيع والعصمة و . . . وهو يغني عن وجود أي نبي يقوم بترويج شريعة من سبقه ويبلغ دين من تقدمه .

وعند ذاك يجب علينا أن لا ننسى دور الائمة من أهل البيت ـ ذلك الدور النابع من طبيعة الرسالة ـ فى خلود الاسلام ، واغناء الامة عن أي نبوة تشريعية ، أو تبليغية .

فالنبي الاعظم (ص) كان يقود أضخم عملية تربوية لامة ستتحمل أعباء تأدية الرسالة جيلا بعد جيل ، وطبيعي ان مثل هذه العملية الضخمة فى ابعادها ومحتواها لا تكفيها حياة انسان واحد مهما بلغت قابلياته وطاقاته ، وهذا يتطلب بقاء القيادة المعصومة ، ولو متمثلة فى شخص آخر وهو الامام .

---

(١) قال العلامة الامينى : ان ى نبىأ لم ينط عمره بمنصرم الدنيا ولا قدر له البقاء مع الابد، وللشرائع ظروف مديدة، كما أن للشريعة الخاتمة أمد لامنتهى له فاذا مات الرسول ولشريعته احدى المدتين ، وفى كل منهما أحكام لم تبلغ ، وان كانت مشرعة : وأخرى لم تأت ظروفها، كما أن فيهما نفوساً لم تكمل بعد، فليس من المعقول عندئذ أن تترك الامة سدى والحالة هذه ، فيجب عليه جلت عظمته أن يقيض لهم من يكمل شريعته ببيانه، ويزيح شبه الملحدين ببرهانه ، ويجلو ظلم الجهل بعرفانه، ويدرأ عن الدين عادية أعدائه بسيفه وسنانه، ويقيم الامت والعوج بيده ولسانة الغدير ج ٧ ص ١٣١ ط النجف .

وفى كلامه هذا اشارة الى الجهات الثلاث التى أوضحنا حالها ، وأقمنا برهانها .

وهيهنا وجه آخر، يفرض على النبي تنصيب من يتولى زمام الامور بعد لحوقه بالرفيق الاعلى ، وهو : ان من الواضحات لكل مطلع على حقيقة وضع الامة الاسلامية ُقبيل وفاة النبي(ص) ان الدولة الاسلامية كانت محاصرة من جهتي الشمال والغرب بأكبر امبراطوريتين عرفهما تاريخ تلك الفترة الزمنية ، وكانتا على جانب من القوة والمنعة والكثافة العسكرية المدربة بما لم يتوصل المسلمون الى ادنى درجة منها .

لقد كانت ايران امبراطورية ضخمة ذات حضارة متقدمة زاهرة ، وذات سلطان عريض ، فرضته على عدد كبير من المستعمرات أحقاباً طويلة من السنين ، مما أكسب شعبها روح السيادة والتسلط ، ومن العسير ان تعترف بسيادة أمة كانت تحكمهم فى العراق واليمن وهي التي لم تقر بالسيادة لاحد قروناً طويلة ، فلأجل هذه الانانية السائدة على روحها مزق الامبراطور الفارسي رسالة النبي (ص) وكتب الى عامله باليمن : ابعث الى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جادين فليأتياني به (١) .

وأما الروم فقد وقع الاشتباك المسلح وحصل أول صدام عسكري عنيف بين المسلمين والسلطات البيزنطية فى السنة الثامنة، وذلك ان النبي (ص) قد أرسل الحارث بن عمير الازدي برسالة الى الحارث بن أبي شهر الغساني ، يدعوه فيها وقومه الى الدخول فى الاسلام ، فلما وصل الى « مؤتة » عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً وضرب عنقه .

ولما كان السائد ان الرسل لا تقتل فى جميع الظروف والاحوال ، فان هذا الفعل كشف عن استهانتهم بقوة الاسلام وتعصبهم ضده وعدم اعترافهم بالكيان السياسي وهذه الجهات حملت النبي(ص) على ان يجهز فى السنة الثامنة من الهجرة جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل ، ويوجهه الى مؤتة وقد قتل فيها قادة الجيش الثلاثة (جعفر ابن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة) وأخذ اللواء بعدهم خالد بن الوليد فرجع الجيش منها منهزمين .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٥٤ .

وقد اثار اخفاق المسلمين فى هذه المعركة ، واستشهاد القادة الثلاثة لـوعة ورّنة فى نفوس المسلمين ، ولاجل ذلك توجه النبي (ص) الى تبوك فى السنـة التاسعة يقصدغزو الجيش المعادي ، ولكنه لم يلق أحداً فأقام فى تبوك أياماً وصالح أهلها على الجزية وقد حققت هذه الحملة هدفا كبيراً فى المجال السياسي، وأنست تقهقر الجيش الاسلامي المحدود فى طاقاته أمام جحافل الروم المجهزة بأحسن تجهيز ، والنبي لم يكتف بهذه الحملة وقد صار فى أخريات حياته الى بناء جيش اسلامي بقيادة أسامة بن زيد لمواجهةجيوش الروم.

وأنت أيها القارىء الكريم ماذاتقضي عند ذاك ،هل يعقل ان لا يقوم النبي(ص) بتنصيب من يقوم بحفظ كيان الامة والدولة من بعده ، ويترك الامر فوضى يعمل عمله فى تمزيق بناء الامة ، ويعرضها للاخطار ، فيصيبها الوهن والضعف والانحلال مما يؤدي الى طمع أعدائها بها ، فيتلقفونها لقمة سائغة .

أليس كل هذه المحاذير العقلائية توجب على النبي وهو الذي علىماهو عليه من الحرص على ايصال دعوته العالمية،التي بذل التضحيات الجسام لاجل ترسيخها فى نفوس المسلمين،الى سائر ارجاء العالم ، وهل يتفق ذلك مع اهماله أمر تنصيب من يتولى ويقوم بذلك من بعده ، ليقوم فى وجه العدويـن القـويين بما مُنح له وللمسلمين من حول وقوة .

خطر المنافقين :

ثم ان الدارس لحقيقة المجتمع الاسلامي أبان تلك الفترة ، ليجد،ان هذا المجتمع كان يزخر بالمنافقين ، الذين يضمرون للاسلام كل سوء ، وللمسلمين كل شر ويتحينون الفرص لضرب المسلمين بعضهم ببعض ، واثارة الفتن بينهم ، لتمزيق صفوفهم واشعال الحروب الداخلية فى ما بينهم بايقاظ النخوة الجاهلية التي طـهر الاسلام أرض الجزيرة منها .

أليس ذلك موجباً لان يعالج النبي خطر هذا القوم بتنصيب قائد للشريعة يقف في وجه هؤلاء القوم ، كما اقام علياً مقامه عند مسيره الى تبوك ، ليقف في وجه المنافقين ويدفع عن الاسلام شرهم ومؤامرتهم ، وقال (ص) أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي ، وانه لاينبغي ان اذهب وأنت خليفتي (١) فالاخطار التي كانت تحيط بالامة الاسلامية من الداخل والخارج توجب على النبي بحكم العقل ان ينصب للامة حافظاً وقائداً ودليلا وعيناً ، يجمع شتاتها ويحافظ على وحدتها ، ويرعى عقيدتها ، ويدفع عنها الاخطار التي يمكن ان تحل بها في آونة بعداخرى، ويصون معالم الدين عن طرؤ الصدأ والاندراس عليها، وبالجملة يقوم بكل أمر كان يقوم به النبي المروّج .

* * *

ان الباحث الكريم يجد بعض ماذكرنا من الجهات الاربعة لتدعيم فكرة الامامة لدى الامامية ، في المحاورات والمناظرات التي كانت تدور بين أصحاب الائمة وخريجي مدرستهم ورجال السنة في عهد الامام الصادق (ع) ونحن نورد بعض ما أثر منهم مما تشير الى الجهة الاولى التي أوضحنا حالها .

١ ـ نجد هشام بن الحكم (٢) وهو أحد رجالات الفكر والعلم الذين قادوا الحركة الفكرية الاسلامية، وتجاوب دويهم في المجتمع الذين عاشوا فيه تجاوبا كريماً ـ يناظر الشامي الذي ورد على الامام ليناظر أصحابه بقوله: يا هذا أربك انظر لخلقه أم خلقه لانفسهم ؟ فقال الشامي : بل ربي أنظر لخلقه ، قال : ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال : أقام لهم حجة ودليلا كيلا يتشتتوا ويختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم ، قال : فمن هو ؟ قال : رسول الله ، قال هشام : فبعد رسول الله ؟ قال:

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٦ تفسير الطبري ج٢١ ص ٧٤ ، مسند احمد ج ١ ص١٥٩.

(٢) توفي عام ١٧٩ راجع في ترجمته كتب الرجال لاسيما ما دبجته يراعة العلامة الحجة «عبد الله نعمة» في رسالته التي ترجم فيها «هشام بن الحكم» استاد القرن الثاني في الكلام والمناظرة ط ١٣٨٧ .

الكتاب والسنة. قال هشام : فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فى دفع الاختلافات عنا؟ قال الشامي : نعـم ، قال فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت الينا من الشام فى مخالفتنا اياك ؟ قال فسكت الشامي فقال أبو عبد الله للشامي : ما لك لا تتكلم ؟ قال الشامي: ان قلت لم نختلف، كذبت ، وان قلت ان الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف ، أبطلت لانهما يحتملان الوجوه (١) .

٢ ـ وله مناظرة أخرى دارت بينه وبين امام البصرة « عمرو بن عبيد » وقـد زاره يوم الجمعة فى المسجد فرأي فيه حلقة كبيرة فيها عمـرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف ، وشملة مرتد بها والناس يسألونه فقعد آخـر القوم على ركبيته الى انجاء دوره فىالسؤال فقال لعمرو أيها العالم انيرجل غريب تأذن لي في مسألة ؟ الى ان قال . . . قلت له : الك عين ؟ قال نعم ، قلت فما تصنع به ؟ قال أرى بها الالوان والاشخاص ، قلت : ألك أنف ؟ قال نعم ، قلت فما تصنع به ؟ قال أشم به الرائحة ، قلت ألك فم ؟ قال : نعم ، قلت فما تصنع به ؟ قـال : أذوق به الطعم ، قلت ألك اذن ؟ قال نعم ، قلت فما تصنع بها ؟ قال اسمع ، قلت ألك قلب؟ قال نعم ، قلت فما تصنع به ، قال اميز به كلما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت أوليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب ؟ فقال : لا ، قلت وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟قال ان الجوارح اذا شكت فى شيىء شمته أورأته أو ذاقته أو سمعته، ردته الى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك ، قال هشام فقلت له : فانمـا اقام الله القلب لشك الجوارح ، قال نعم ، قلت لابد من القلب والا لم يستيقن الجـوارح ؟ قال نعم ، فقلت له : يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها اماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقم لهم اماماً يردون اليه شكهم وحيرتهم ويقيم لك اماماً لجوارحك ترد اليه حيرتك وشكك ؟ قال فسكت ولم يقل لي شيئاً (٢) .

(١) اصول الكافى ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) اصول الكافى ج ١ ص ١٧٠ .

ما ذكره ذلك العبقري الفذ يصرح بما أوضحناه:انه يجب عليه سبحانه حفاظاً على وحدة الامة وصيانتها عن الشرودفى متاهات الضلال عن امام يفزع اليه الناس عند حدوث الخلاف والنزاع ويصدرون عن منهله العذب وهم راضون بحكمه .

٣ ـ هذا هو منصوربن حازم أحد الا كابر من أصحاب الامام الصادق (ع) يقص عليه ما دارت بينه وبين غيره من المناظرة بقوله : فقلت للناس : أليس تعلمون ان رسول اللهكان هو الحجة من الله على خلقه ؟ قالوا بلى ، قلت فحين مضى من كان الحجة ؟ قالوا : القرآن ، فنظرت فى القرآن فاذا هو يخاصم به المـرجي والقدرى والزنديق الذي لا يؤمن به،حتى يغلب الرجال بخصومته فعرفت ان القرآن لا يكون حجة الا بقيم . . .(١) .

وهذا هو الامام الصادق (ع) يعرف الامام ومكانته العظيمة بقوله : ان الارض لاتخلوالا وفيها امام،كيما ان زادالمؤمنون شيئاً ردهم وان نقصوا شيئاً اتمه لهم (٢) .

وأبلغ تعبير عن حقيقة الامامة عند الشيعـة ما روى عن الامام الطاهر علي بن موسى الرضا فى حديث طويل وفيها : ان الامامة منزلة الانبياء وا رث الاوصياء ، ان الامامة خلافة الله وخلافة الرسول ، ان الامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ، ان الامامة اس الاسلام النامي وفرعه السامي .

الامام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة .

وبذلك تعرف وجه غنى الامة الاسلامية بعد النبي عـن أي نبي مـروج وأية نبوة تبليغية .

وبهذا يتضح ان الاسلام فى تخطيطه المبدأي،قد فرض انه (بعد انتهاء وظيفة النبي الاعظم وقطعه اشواطاً بعيدة فى الجهات الثلاث المتقدمة)يتكفل القيادة المعصومة

(١) أصول الكافى ج ١ ص ١٦٩ و ص ١٨٩ .
(٢) أصول الكافى ج ١ ص ١٧٨ .
(٣) المصدر نفسه .

من بعده من يقوم مقامه بنصه سبحانه وتعيينه، وله من الشرائط ما للنبي سوى مايختص به على ما تبين فى محله حتى تنتهي هذه العملية الى مراحلها النهائية المفروضة .

ولا يضير الاسلام فى شيء ان تكون الامة قد انحرفت فى الخط المفروض لها من قبل الله سبحانه، وتجاوزت عن كل الضمانات التى وضعها لتنفيذ مخططه الالهي.

وفى الختام نقول : ان التاريخ ليشهد بأنه ما من امام من أئمة الشيعة الاثني عشرية الا وقد قام بأعباء المهمات الثلاث خير قيام ، وان حياة كل منهم كانت مشحونة بالعمل المتواصل فى سبيل ايصال مفاهيم الاسلام الصحيحة الى الامة ولقد عانوا فى ذلك من المشاق ولاقوا من الاهوال ما لاقاها النبي الاكرم (ص) .

فعند ذاك استغنت الامة الانسانية بشكل عام والمسلون بشكل خاص ، بتعاليمهم الدائرة حول نطاق رسالة جدهم السماوية عن استمرارية كلتا النبوتين ، وبصورة خاصة التبليغية منها .

السؤال الثانى :

«لماذا حرم الخلف من الامم ، من المكاشفة الغيبية ، والاتصال بالملأ الاعلى، واستطلاع ما هنالك من معارف وحقائق» ؟

يقول السائل : ان النبوة منصب معنوي ورقي روحي ، تقدر معه النفس على الاتصال بالملأ الاعلى، والاطلاع على ماهنا لك من معارف عقلية، والتحدث مع الوحي الالهي ، الى غير ذلك من الفيوضات المعنوية، ولكن هذا الباب قدأوصد بعد اكمال الشريعة الاسلامية وختم النبوة .

هب أن الشريعة الاسلامية ، هي أكمل الشرائع ، وان الخلف من الامم قادر على حفظ تراثه الديني، ولأجل ذلك أوصد باب النبوة التشريعية والتبليغية ، ولكن لماذا انقطعت الفتوحات الباطنية والمحادثة مع ملائكته سبحانه ، أو القاء الحقائق فى روع الانسان ، الى غير ذلك من الفيوضات السماوية ، فهذه الامور كلها من لوازم النبوة ، فلا يعقل انفتاحها مع ايصاد بابها . . .

ثم انه لماذا كان باب هذا الفيض مفتوحاً فى وجه الامم السالفة ، وحرم منها الخلف الصالح بعد النبي ؟ هل كانت الامم السالفة أولى وأجدر بهذه النعمة ؟ وهل الامة المتأخرة عنهم أقل جدارة بها واستحقاقاً لها ؟ ! .

الجواب :

ليس الاطلاع على ما احتجب عن عامة الناس من الحقائق ، من لوازم النبوة، حتى ينسد بابه بانسداد بابها ، ولا الخلف محروم من الفيض الذي كان مفتوحاً فى وجه الامم السالفة ، فان الولاية الالهية التي تلازم تلكم الفتوحات الباطنية، ليست من خصائص النبوة وتوابعها ، حتى تنقطع بانقطاعها ، بل هي كرامة الهية يرزقها

سبحانه ، المخلصين من عباده ، المتحلين بفضائل الاخلاق ، المطهرين عن درن الشرك ولوث المعاصي ، الى غير ذلك من صفات كريمة .

والنبوة باب خاص من الولاية تستتبع تحمل الوحي التشريعي أو التبليغي ، فيوصد بابه بايصاد بابها ، وأما سائر الفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والايحاءات الملكوتية ، فلم يوصد بابها قط .

وللتوضيح نحن نتساءل : ماذا أراد السائل من ايصاد باب الاتصال بالملأ الاعلى ، بختم باب النبوة ؟

فان أراد الاتصال بالله ومعرفة أسمائه وصفاته والوقوف على ما هنالك من معارف عن طريق البرهنة والاستدلال والتدبر فى آياته الافاقية ، فهذا الوجه مفتوح الى يوم القيامة فى وجه من أراد الاطلاع على حقائق الكون ورقائقه ، وما وراء الحس من عوالم ودقائق .

وقد قال سبحانه : «سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيىء شهيد ...» (حم السجدة ـ ٥٣) (١) .

وقال سبحانه : «وفى الارض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات ـ ٢١) .

ولو أراد معرفةربه وأسمائه وصفاته، وعظمته وكبريائه ، وما هناك من مقامات ودرجات ، بلا توسيط برهان ، أو تسبيب دليل ، بل مشاهدة بعين قلبه وبصر روحه ، وبعبارة أوجز : شهود الحقائق العلوية ، وانكشاف ماوراء الحس والطبيعة ، من

(١) نعم ربما تفسر الاية بوجه آخر تسقط معه دلالتها على ما نرتئيه وهو ان المراد ما يسر الله عز وجل لرسوله والمسلمين من بعده فى آفاق الدنيا وارجاء العالم من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لاحد من الجبابرة والاكاسرة وتغلب قليلهم على كثيرمن اعدائهم وتسليط ضعافهم على أقويائهم ونشردعوة الاسلام فىالاقطار المعمورة وبسط دولته فىأقاصيها. فهذه الامورالخارقة للعادة يقوى معها اليقين ويزداد بهاالايمان، ويتبين ان دين الاسلام هو دينالحق الذى لايحيد عنه الا مكابر . . . . راجع الكشاف ج ٣ ص ٧٥ .

العوالم الروحية ، والمشاعر الالهية ، ومعرفة ما يجرى عليه قلمه فى قضائه وقدره، والاتصال بالملأ الاعلى وجنوده ، وملائكته واستماع كلامهم ووحيهم وصوتهم ، الى غير ذلك من الامور ، فهذا مقام خطير، يحصل للعرفاء الشامخين المخلصين من عباده ، المطهرين من اللوث والدنس، المتحررين عن قيود الطبيعة ، الحابسين أنفسهم فى ذات الله ، الحاكمين بالكتاب،العاملين بسننه وسنن نبيه،حسب اخلاصهم وعرفانهم ، حسب استعدادهم وقابليتهم ، حسب مالهم من المقدرة والطاقة ، لتحمل عجائب الحقائق الغيبية ،ومشاهدة جلال الله وجماله،وكبريائه وعظمته ، وما لاوليائه من مقامات ودرجات ، وما لاعدائه من نار ولهيب ودركات .

ثم ان لاهل السلوك والعرفان كلاماً فى المقام ، لايخلو عن فائدة ، وخلاصته :

ان اليقين الحقيقي النوراني المنزه عن ظلمات الاوهام والشكوك ، لا يحصل من مجرد اعمال الفكر والاستدلال ، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وصقل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الاخلاق ، وازالة الصدأ عنها ، ليحصل لها التجرد التام ، والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس على صفحتها الصور المتعلقة بالموجودات الخارجية ، ولا ريب فى أن انعكاس الصور من ذواتها على المرأة، يتوقف على تمامية شكلها وصفاء جوهرها ، وحصول ما يتمكن انعكاسه عليها وارتفاع الحائل بينهما ، والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة ، كذلك يجب فى انعكاس حقايق الاشياء من العقل على النفس ، تحقق أمور :

١ ـ عدم نقصان جوهرها ، بأن لا تكون كنفس الصبي التي لا تتجلى لها المعلومات ، لنقصانها .

٢ ـ صفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة ، وخبائث المعاصي ، وهو بمنزلة الصيقل عن الخبث والصدأ .

٣ ـ توجهها التام وانصراف فكرها الى المطلوب ، بأن لا يكون غارقاً فى الامور الدنيوية ، وهو بمنزلة المحاذاة .

٤ ـ تخليتها عن التعصب والتقليد ، وهو بمنزلة ارتفاع الحجب .

٥ ـ التوصل الى المطلوب بتأليف مقدمات، مناسبة للوصول اليه على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها ، لكانت عالمة بجميع الاشياء المرتسمة فى العوالم الروحانية .

اذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق فحرمان النفس عن معرفة حقائق الموجودات انما هو لاحد الموانع .

وقد اشار سيد الرسل الى أن كدورات المعاصي وصدأها مانعة عن ذلك بقوله (ص) لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لنظروا الى ملكوت السماوات والارض .

فلو ارتفعت عن النفس ، حجب السيئات والتعصب ، وحاذت شطر الحق الاول لتجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسرها ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به، وصورة عالمي الملكوت والجبروت ، بقدر ما يتمكن منه ، بحسب مرتبته (١) .

فالعارف الشامخ فى عالم المعرفة ، اذا اتصف بما ذكرناه،« ضار سمع الله الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، ان دعاه أجابه ، وان سأله أعطاه» (٢) .

فالفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والالقاءات فى الروع، غير مسدودة بنص الكتاب العزيز :

قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » (الانفال ـ ٢٩) أي يجعل فى قلوبكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وتميزون به بين الصحيح والزائف . لا بالبرهنة والاستدلال ، بل بالشهود والمكاشفة، ونظيره قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا اتقو الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » (الحديد ـ ٢٨) .

---

(١) جامع السعادات ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) وسائل الشيعة ، كتاب الصلوة ابواب اعداد الفرائض ونوافلها ـ الباب ١٧ الحديث ٦

ان صاحب الكشاف ومن لف لفة وان فسره بقوله « ويجعل لكم يوم القيامة نوراً تمشون به » .

الان الظاهر خلافه ، وان المرادالنور الذي يمشي المؤمن في ضوئه طيلة حياته ، في معاشه ومعاده،في دينه ودنياه ، وهذا النور الذي يحيط به ويضيء قلبه، نتيجة ايمانه وتقاه .

ويوضحة قوله سبحانه : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس (الأنعام ـ ١٢٢) .

وقال سبحانه: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (العنكبوت ـ ٦٩) .

وقال تعالى : «واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم» (البقرة ـ ٢٨٢)

فان عطف الجملة الثانية على الاولى يحكي عن صلة بين التقى وتعليمه سبحانه

وقال سبحانه : «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» (التكاثر ٤ ـ ٥)

فان الظاهر ان المراد ، رؤيتها قبل يوم القيامة ، رؤية البصيرة ، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير اليه،قوله تعالى «وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » (الانعام ـ ٧٥) .

وهذه الرؤية القلبية غير محققة قبل يوم القيامة لمن الهاه التكاثر بل ممتنعة في حقه لامتناع اليقين عليهم .

والمراد من قوله «ثم لترونها عين اليقين» هو مشاهدتها يوم القيامة بقرينة قوله سبحانه : بعد ذلك « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » فالمراد بالرؤية الاولى رؤيتها قبل يوم القيامة ، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة (١) .

وقد روى الفريقان عن الرسول الاكرم (ص) انه قال : من أخلص لله أربعين صباحاً ، فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه ، على لسانه (٢) .

وقوله (ص) : لولا تمريج في قلوبكم وتكثير في كلامكم ، لرأيتم ما أرى

---

(١) الميزان ج ٢٠ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ .

(٢) سفينة البحار ، مادة «خلص» نقله عن عدة الداعي لابن فهد الحلي .

ولسمعتم ما أسمع (١) .

وقال الصادق (ع) : ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً ، الا زهده الله في الدنيا ، وبصره دائها ودوائها ، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه (٢) .

وهناك كلمة طيبة عن الامام أمير المؤمنين، يعرب عن رأي الاسلام في المقام ، قال عليه السلام :

« ان الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح الله ، عزت آلاؤه ، في البرهة بعد البرهة،وفي أزمان الفترات (٣) ،عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم (٤).

فهو عليه السلام يصرح بأن الذاكرين من عباده قد بلغ بهم المقام الى درجة يناجيهم الله في سرائر ضمائرهم ، ويكلمهم من طريق عقولهم ، فهل يوجد مقام أرفع من هذا ، أو درجة أشرف من تلك .

وقريب من ذلك مارواه الديلمي في ارشاده في خطابات له سبحانه لنبيه في ليلة المعراج بلفظ « يا أحمد ! » ، وفيه ثلاث خصال ، أعرفه : « شكراً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين ، فاذا أحبني ، احببته وافتح عين قلبه الى جلالي ، ولا أخفى عليه خاصة خلقي ، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار ، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم ، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي وألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم ، ويمشي على الارض مغفوراً له ، وأجعل قلبه داعياً وبصيراً ، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولانار ، وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة ، وما أحاسب به الاغنياء والفقراء والجهال والعلماء . . الى أن قال : يا أحمد ! اجعل همك هماً واحداً واجعل لسانك لساناً

(١) حديث مشهور .

(٢) سفينة البحار ، مادة «ربع» .

(٣) تخصيص بعد التعميم فلا يضر المطلوب لو كان المراد منه الفترة بين المسيح وبعثة الرسول (ص)

(٤) نهج البلاغة ، خطبة ٢٢٠ .

واحداً ،واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً ،من يغفل عني،لا أبالي بأي واد هلك (١) .

وهذه الرواية توقفنا على أنالمعرفة الحقيقية، التى تحيى بهانفوسنا،لا تستوفي بالسير الفكري ، ولا يقف السالك فى سبيل الحق على هذه الامور ، الا بتهذيب النفوس وتطهير القلوب والانقطاع الى الرب عن كل شيىء ، حتى يرفع دونه كل حجاب مضروب ، وكل غشاء مسدول ، فيعرف ربه وأسماءه وصفاته حق المعرفة، ويشاهده بعين القلب ويسمع كلامه وكلام ملائكته،ويرى عظمته وسرادقات كبريائه.

فهذه الفتوحات الباطنية بمراتبها ، ميسرة فى وجه الامة ، لم توصد قط .

الاسفار المعنوية الاربعة :

ثم ان للسالك من العرفاء والاولياء أسفاراً ، وهو على ما أعتبره أهل الشهود أربعة :

أحدها : السفر من الخلق الى الحق .

ثانيها : السفر من الحق الى الحق بالحق .

ثالثها : السفر من الحق الى الخلق بالحق .

رابعها : السفر من الخلق الى الخلق بالحق .

فبعض هذه الاسفار وقطع منازلها وان كان يختص بأنبيائه ورسله،الا أن السفر الاول والثاني،لا يختصان بهم ، بل يتيسران لكل سالك الهي ، لا يقصد الا الاناخة فى ساحة ربه ، والنزول على طاعته ، بلا استثناء ، ودونك توضيح ذينك السفرين: ففي السفر الاول ، أعني السفر من الخلق الى الحق ، ترفع الحجب المظلمة ، بين السالك وربه ،فيشاهد جمال الحق ويفني ذاته فيه ، ولأجل ذلك يسمى مقام الفناء.

وعندما ينتهي السفر الاول يأخذ السالك فى السفر الثاني،وهو السفر من الحق الى الحق بالحق وانما يكون بالحق لانه صار ولياً،وصار وجوده وجوداً حقانياً،فيأخذ السلوك من

(١) ارشاد القلوب للديلمى ص ٢٨٥ .

موقف الذات الى الكمالات واحداً بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم جميع أسمائه كلها ، الا ما استأثر به عنده ، فتصير ولايته تامة ، ويفنى ذاته وأفعاله وصفاته فى ذات الحق وصفاته وأفعاله، فبه يسمع، وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش، وحينئذ تتم دائرة الولاية .

ولعمري لولا خوف الاطالة ، والخروج عما هو الهدف الاسمى للرسالة ، لشرحت للقارىء الكريم، تاكم الاسفار والمواطن واحداً بعد واحد،وكفانا ماحبرته يراعة العرفاء الشامخين فى هذا الباب (١) .

وفى الامة الاسلامية رجال مخلصون، لا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم، أولئك أولياء الله فى أرضه وخلفاءه فى خلقه ، تغبطهم النبوة ، كما قال الرسول (ص) : ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ، تغبطهم النبوة (٢) .

هب أن النبوة قد أوصد بابها،الا أن باب الفيض المعنوي ، من جانب الامام، بعد مفتوح لم يوصد ، (٣) .

---

١ ـ راجع تعاليق الاسفار الاربعة ج ١ ص ١٣ ـ ١٨ للحكيم السبزوارى .

(٢) حكاه صدر المتألهين فى مفاتيح الغيب ، وقال هذا الحديث مما رواه المعتبرون من أهل الحديث ، من طريقتنا وطريقة غيرنا .

(٣) وقد دلت البراهين الكلامية على ان الارض لا تخلو عن حجة ، وانه لابد للناس فى كل دورة وكورة من امام معصوم يهدى الى الرشد ـ وتفردت به الشيعة عن سائر فرق الاسلام، وقال أمير المؤمنين : اللهم بلى لاتخلو الارض من قائم لله بحجة : اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا وأين اولئك ؟ ؟ اولئك ـ والله ـ الاقلون عدداً والاعظمون عند الله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها فى قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ،وصحبوا الدنيا بأبدان،أرواحها معلقة بالمحل الاعلى . اولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ،آه آه شوقاً الى رؤيتهم !. نهج البلاغة باب الحكم رقم ١٤٧

وقد تضافرت الاحاديث عنالعترة الطاهرة على أن الارض لاتخلو من امام وحجة وانه لولم يبق فى الارض الا اثنان لكان أحدهما الحجة . راجع أصول الكافى ج ١ ص ١٧٨ ـ ١٨٠ ـ

وقد حقق فى أبحاث الولاية الالهية ان وجه الارض والمجتمع الانساني لايخلو أبداً من انسان كامل ذي يقين ، مكشوف له عالم الملكوت ، وله ولاية علـى الناس فى أعمالهم، يهديهم الى الحق ويوصلهم الى المطلوب بأمر من الله سبحانه ، كما هو شأن الامام فى كل عصر ودور ، لقوله سبحانه :«وجعلنا منهم أئمـة يهدون بأمرنا ، لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون» (السجدة ـ ٢٤)

فهذا الفيض الالهي والعرفان المعنوي ، لم يزل يجري على المجتمع البشري بأمر منه سبحانه ، وينزل عليهم من طريق الامام ، ليهديهم سبيل الحق، ويرشدهم الى مدارج الكمال ، حسب استعداداتهم وقابلياتهم .

قال سيدنا الأستاذ دام ظله الوارف : انه سبحانه كلما تعـرض بمعنى الامامة تعرض معها للهداية ، تعرض التفسير قال تعالى فى قصة ابراهيم « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » (الانبياء ـ ٧٣) وقال سبحانه : « وجعلنا منهم أئمـة يهدون بأمرنا بما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (السجدة ـ ٢٤) .

فوصفهم بالهداية وصف تعريف ، ثم قيد هذا الوصف بالامر فبين ان الامامة ليست مطلق الهداية بل هي الهداية التي تقع بأمر الله .

فالامام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه ، فالامامـة بحسب الباطن نحو ولاية للناس فى أعمالهم وهدايتهم، ايصالهم الى الكمال بأمر الله دون مجرد ارائة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي الى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة (١) .

ـ نعم كثرت فى القرون الاخيرة، عناية طوائف من صوفية أهل السنة بمسئلة الامامة والامام ومنهم «التجانية» وقد كتب عنهم العقاد فى كتابه « بين الكتب والناس» ومنهم «السنوسية» وقد أفاض فيهم القول البستانى فى دائرة معارفه غير ان فى بعض ما ذكروه خداعاً وضلالا، وللبحث عن ما يدعونه من الكشف والعرفان مجال آخر لا يسعه المقام .

(١) الميزان ج ١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ وسيوافيك تفصيل المقال عند سادس الفصول من هذا الجزء فارتقب .

فهذا الباب من الفتوحات الغيبية والفيوض الالهية مفتوح، فى وجه الامة لم يوصد أبداً .

مثل الفضيلة والاخلاق :

قد كان لامير المؤمنين صفوة من الاصحاب يستدر بهم الغمام ، ويندر مثالهم فى الدهر ،كزيد وصعصعة ابني صوحان وأويس القرنى والاصبغ بن نباتة ، ورُشيد الهجري ، وميثم التمار ، وكميل بن زياد ، وأشباههم ، وكان هؤلاء مثلا للفضيلة وكرم الاخلاق وخزنة للعلم والاسرار منحهم أمير المؤمنين من سابغ علمه واستأمنهم على غامض أسراره مما لا يقوى على احتماله غير أمثالهم ، فجمعوا العلم ، سره وجهره ، والفضائل ، نفسية وخلقية ، ذاتية وكسبية ، والعبادة قولا وعملا وجارحة وجانحة ، فاكتسبوا من أمير المؤمنين جميع الفعال والخصال، وأخذوا عنه أسرار العلم وعلم الاسرار ، حتى زكت بهم النفوس وكادوا ان يزاحموا الملائكة المقربين فى صفوفهم وغبطهم الملأ الاعلى على ما اتصفوا به من كمال الذات والصفات ، فصاروا أهلا ، لأن يأتمنهم الامام على نفائس الاسرار وأسرار النفائس فكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجردة عن النقائص ، لا يعرفون الرذيلة ولا تعرفهم .

فهذا ميثم ، عظيم من حواري علي ، وولي من أوليائه وأحد خريجي مدرسته العالية، الذين نهجوا فى السير على هداه واتبعوه قائداً وقدوة في أمره ونهيه ، فصار مستودع أسراره وحقل علومه وخاصة حواريه .

كان رسول الله يخلو بعلي يناجيه ، وكانت أم سلمة زوج النبي (ص) تلك البرة الطاهرة ، تلتقط من المناجات دررأ ثمينة ، فمما التقطته منها ، وصاياه لابي الحسن (ع) فى ميثم ، فدخل ميثم على أم سلمة وهو يريد الحج ، فقالت له : طالما سمعت رسول الله يذكرك فى جوف الليل ويوصي بك علياً .

وكان ميثم يصحب الامام أحياناً الى الاماكن الخالية وعند خروجه فى الليل الى الصحراء، فيستمع منه الادعية والمناجاة،وكثيراً ما يجلس اليه الامام فى السوق

وافواج الناس ذاهبة وآيبة،ينظرون الامام وهو فى دكان«ميثم» يسامره ويحادثه ويلقي اليه دروسه ويميره من العرفان الالهى ، فعلمه علم المنايا والبلايا ، أي علـم الاجال وعلم الحوادث والوقائع التي يبتلى بها الناس ،حتى أخبره أنه سيصلب على باب عمرو بن حريث .

لم يكن ميثم فريداً من بين أصحاب الامام وحواريه ، وان كان أحد عظمائهم اذأنه قد أودع هذا العلم عند من كان يأتمنه عليه من أفذاذ أصحابه الاخرين ، نظراء رشيد الهجرى وأويس القرني وعمار بن ياسر وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وكميل ابن زياد ومن يشابههم فى الايمان الشامخ .

ولو لا خوف الاطالة والخروج عن الغاية ، لنقلنا كثيراً مما دار بينهم من المحادثات حول البلايا والمنايا .

فهذا ميثم نفسه ، وقد قيد على خشبة الصلب يقول للناس رافعاً صوته : أيها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبيطالب (ع) قبل أن اقتل، فوالله لاخبرنكم بعلم ما يكون الى أن تقوم الساعة ، وما يكون من الفتن (١) .

لم يكن علي (ع) نسيج وحده فى تربية هؤلاء العظماء الذين صقلت نفوسهم وتجلت اليهم صور ما فى الكون من الحقائق والموجودات ، بل سبقه سيد الرسل فأدب أناساً ، نهجو فى السير على هداه ، واتبعوه فى أمره ونهيه ، وساروا فى الطريق الذي رسمه لهم ، فكانوا مثلا أعلى للفضيـلة وكرم الاخلاق وخـزنة للعلم والاسرار ، فشاهدوا الخليقة وما فيها من حقائق غامضة ، ورأوا ملكوت السماوات والارض، وعاينوا الحقائق العلوية والعوالم الروحية،من قبل أن يخرجوا من الدنيا.

روىأبوبصيرعن أبي عبدالله (ع) أنهقال استقبل رسولالله (ص) حارثة بنمالك ابن النعمان الانصاري ، فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك ؟ فقال: يا رسولالله مؤمن حقاً ، فقال رسول الله (ص) : لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة قولك ؟ فقال :

(١) راجع فى ترجمة ميثم ، كتب الرجال ، ولا سيما «قاموس الرجال» ج ٩ ص ١٦٤ ـ ١٧١ وما دبجته يراعة الاستاذ المغفور له الشيخ محمد حسين المظفر حول حياة ميثم .

يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأني أنظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب، وكاني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة وكاني أسمع عواء أهل النار فى النار، فقال له رسول الله: عبد نور الله قلبه، أبصرت فاثبت ، فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك ، فقال : اللهم ارزق حارثة الشهادة ، فلم يلبث الا أياماً حتى بعث رسول الله سرية فبعثه فيها فقاتل ، فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل (١) .

أخرج الكليني عن اسحاق بن عمار ، قال : سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: ان رسول الله صلى بالناس الصبح، فنظر الى شاب فى المسجد فقال له رسول الله (ص) كيف أصبحت يا فلان ؟ قال أصبحت يارسول الله موقناً ، فعجب رسول الله من قوله وقال : ان لكل يقين حقيقة ، فما حقيقة يقينك ؟ فقال : ان يقيني يا رسول الله ، هو الذي حزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري ، فعزفت نفسي من الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر الى عرش ربي وقد نصب للحساب ، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم ، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتنعمون فى الجنة ويتعارفون ، وعلى الارائك متكئون ، وكاني أنظر الى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون ، وكأني الان أسمع زفير النار، يدور فى مسامعي فقال رسول الله لاصحابه هذا عبد نور الله قلبه بالايمان (٢).

هذا هو الايمان المحض والعبودية الخالصة بل انه لشأن لا يتوصل اليه بالحس والعلم .

فكم فى الامة الاسلامية من ذوي الرتب العلوية ، رجال وأبدال شملتهم العناية الالهية، فجردوا أنفسهم عن أبدانهم؛ حينما أرادوا، فعاينوا الحقائق واطلعوا على الاسرار .

وقد تضافرت الاحاديث على أن فى الامة الاسلامية مثل الامم السابقة ، رجالا مخلصين محدثين (بالفتح) يطلعون على المغيبات باحدى الطرق التي المحت اليها الروايات .

(١) الكافى ج ٢ ص ٥٤ .
(٢) الكافى ج ٢ ص ٥٣ .

والمحدث على ما تشرحه الاحاديث من تكلمه الملائكة بلا نبوة ولا رؤية صورة ، أو يلهم له ويلقي في روعه شيء من العلم على وجه الالهام والمكاشفة من المبدأ الاعلى أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره .

روى البخاري عن النبي (ص) لقد كان في من كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء (١) .

روي شيخ الطائفة باسناده عن أبي عبدالله قال كان على (ع) محدثاً وكان سلمان محدثاً قال: قلت فما آية المحدث قال: يأتيه ملك فينكت في قلبه ومن امن يخاطب (٢)

وسوف يوافيك البحث عن معنى المحدث وما ورد حوله من النصوص من الفريقين في هذا الجزء (٣) وفي الختام نلفت نظر القارىء الى ما قاله الحكيم الالهي في المقام :

«قال صدر المتألهين في الفاتحة الحادي عشر :

«اعلم ان الوحي اذا أريد به تعليم الله عباده، فهو لا ينقطع أبداً، وانما انقطع الوحي الخاص بالرسول والنبي من نزول الملك على أذنه وقلبه» (٤) .

نعم ليس كل من رمى أصاب الغرض ، وليست الحقائق رمية للنبال ، وانما يصل اليها الامثل فالامثل ، فلا يحظى بما ذكرناه من المكاشفات الغيبية والفتوحات الباطنية الا النزر القليل ممن خلص روحه وصفا قلبه ، كما كان كذلك في الامم السابقة ايضاً .

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) أمالي الطوسي ص ٢٦٠ (٣) راجع الفصل الخامس من هذا الجزء .

(٤) مفاتيح الغيب ص ١٢ .

السؤال الثالث :

«لاتجد فى الكون المادي أمراً خالداً باقياً عبر الاجيال والدهور ، أو ليس التحول ناموساً عاماً فى الفلسفة ؟ ! ، وهل فى العالم المادي أصل ثابت وموجود خالد ، فكيف يكون الاسلام أمراً ثابتاً ؟

توضيحه :

ان الاسلام قد أعلن بصوت عال أنه دين الله الخالد الى يوم القيامة ، وأن لا شريعةولا دين ولا كتاب سماوي بعده، وأن قوانينه وتشريعاته غير متغيرة عبر الاجيال والقرون وأن حلال محمد (ص) حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة.

وعند ذاك يعترض السائل ويقول : ان الكون بعامة أجزائه ، بسمائه وأرضه وما تحتويانه ، متغير متبدل ليس له أي استقرار وان الحركة والتبدل والتغير فى الكون ناموس عام فى الفلسفة الالهيه والمادية ، وليس لنا فى عالم المادة أصل ثابت أبداً ، سوى قولنا: «ليس لنا أصل ثابت » ، ومع هذا الاصل الفلسفي، كيف يدعى الاسلام بقاءه وثباته ودوامه وصونه عن طوارق التغير والتبدل ؟

الجواب :

قد خلط السائل بين الموجودات المادية والنواميس الحاكمة عليها فان المتغير انما هو الاول ، دون الثانى ، فان السماء وما فيها من الشموس والاقمار والنجوم متغيرات والارض سهلها وجبلها والبحر وما تنطوي عليه من عظائم الموجودات لا تستقر على حالة واحدة ، بل تتقلب من صورة الى اخرى ومن حالة الى ثانية ، والمادة الخارجية غير منفكة عن الفعل والانفعال فى الاحوال كلها .

هذه هى المادة ، وأما النواميس السائدة عليها فى نفس الامر فهي ثابتة أبدية

ولا تتغير ولا يصيبها التبدل ولا تقع فى مجالات الحركة والتحول، مثلا المعادلات الرياضية وقانون الجاذبية والثقل النوعي فى الموجودات وانكسار الضوء وأحكام العدسيات وسرعة النور وغيرها من القوانين الفيزياوية ، ثابتة غير متغيرة سائدة فى كل الظروف والازمنة .

على ان الاسلام السائد على المجتمع البشري طول القرون والاجيال، والباقي الى الى مدى الدهور والزمان، انما هو قوانين سماوية ونواميس الهية شرعت لاصلاح المجتمع واسعاده وليس أمراً مادياً أو ظاهرة من ظواهره حتى يعمه حكم المادة من الحركة والتحول والتبدل ، بل قوانين سماوية سنها الله سبحانه لعباده ، ليبلغهم الى مدارج الكمال ومعارج العز . . .

* * *

وربما يستدل على لزوم تطور المجتمع بـ « حتمية التاريخ » ويقال : حتمية التاريخ لها دور كبير فى الفلسفة المادية وقد أعتمد عليها ، فطاحل الماديين وغيرهم وفرعوا عليها فروعاً واستنتجوا منها مسائل كثيرة ، وملخص ما يريدون من هذا الاصل :

ان ما يحدث فى تاريخ الامم من صعود وتدهور ، ومن صلح وسلام، وحرب وكفاح، واختراع واكتشاف، وظهور انقلابات وثورات، وتقدم فى الانتاج والاقتصاد. وعلى الجملة ما شاهده تاريخ الامم، أو ما نشاهده فى الحضارة العصرية من حوادث وطوارىء وتطور فى ألوان الحياة وأشكالها كلها ، رهين عوامل فى نفس المجتمع توجب وجودها بضرورية اجتماعية ، ولا يمكن التحرز عنها أبداً ، ويساق المجتمع اليها عنفاً وجبراً بلا ارادة واختيار .

وهذه العوامل الخلاقة، لألوان الحياة وأشكالها وحوادثها وطوارئها ، لا تدوم على حالة واحدة ، بل تتبدل ويخلفها غيرها ، وهكذا . . .

فاذا كان العيش الاجتماعي متطوراً، كسائر الظواهر الطبيعية ، تطوراً ضرورياً حتمياً ، خارجاً عن ارادة المجتمع واختياره ، فكيف يخضع المجتمع المتحول المتطور ، لتشريع لا يتحول ولا يتبدل ؟

الجـواب :

وزان حتمية التاريخ عند الماديين ، وزان القضاء والقـدر عند الجبرية ، فكما أن هؤلاء يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر فى المجتمع على عاتق القضاء والقدر ، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤلية ، كذلك يفعـل الماديون ، اذ يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر فى المجتمع ،على عاتق الحتمية التاريخية،ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية .

لكن هذا الاصل انما يصح فى بعض الموارد وليس أصلا كلياً ،صادقاً فى عامة نواحي الحياة ، حتى يعود المجتمع البشري آلة صماء مسلوبة الارادة والاختيار ولا عمل له الا تحقيق ما تفرضه تلكم العوامل .

ونلاحظ ثانياً أن حتمية التاريخ لا صلة لها بتطور الاجتماع ، وان استنتاج الامر الثاني من الامر الاول غير صحيح جداً ، بل تطوره وثباته تابع لتطور عامل الاجتماع وثباته ، فان كان العامل المحرك للحياة الاجتماعية ثابتاً كان هو ثابتاً ، وان كان ذلك العامل متطوراً كان هو متطوراً .

توضيحه : ان العامل المحرك للحياة،قد يكون عاملا فطريا فيكون ثابتاً وباقياً وحاكماً،مادام للانسان موجوداً أو أفراده باقية متسلسلة،وعندئذ فمقتضى هذا العامل وأثره يبقى فى المجتمع ثابتاً لا يتغير ، ولا مجال فيه لتحوّل ولا تغير .

مثلا ، الميل الجنسى امر فطـري فى الانسان ، له اثر حتمي ودور عظيم فى العيش الاجتماعي ومقتضاه فى المجتمع هو الزواج ،وبما انه عامل فطري لا ينفك عن الانسان ، فلاُثره الخلود فى المجتمع البشري .

ودونك مثالا آخر :

التدين والتوجه الى ماوراء الطبيعة ، امر فطري فى الناس ، وطالما تجمعت الاسباب القاهرة من عنف الجبابرة ، وفتك الطغاة على ان تصرف بني الانسان عن

التدين ، فما استطاعت له قلعاً فالحياة الدينية التي هي جزء من الحياة الاجتماعية موجودة دائماً ، لان لها عاملا فطرياً لا يزول .

ونحن نعترف بأن للعوامل الداخلية التي تستمد من طبيعة المجتمع ، تأثيراً حتمياً فى تاريخ الحياة الاجتماعية للانسان لا يتخلف ، وهي أثر محتوم لها ، غير أن جعل حتمية التاريخ مساوية لتطور المجتمع وتحوله فى كل زمان غير صحيح أبداً . بل هنا مسألتان :

١ ـ تطور الاجتماع وتبدله فى كل زمان .

٢ ـ حتمية التاريخ .

وليست الاولى من نتائج الثانية ، ومن ثمراتها ، بل الاولى تابعة فى الثبات والتحول لعاملها وعلتها ، فان كان عامل الحياة فطرياً ثابتاً ، فأثره حتمي ثابت فى العيش الاجتماعي ؛ وان كان العامل المحرك ، أمراً متغيراً طارئاً غير فطرى ، فأثره المحتوم فى المجتمع يتغير ويتطور تبعاً لتغيره وتطوره .

مثلا ، استخدام الطبيعة والاستفادة منها فى سبيل الحياة ، أمر فطري للبشر ، لكن التوصل الى المقصود والاستفادة منه بادوات خاصة ، كالسهم والنصل والبعير ، ليس أمراً فطرياً ، بل هي يتطور ، وتتطور معه صور الاجتماع وأوضاعه .

فالانسان الذي كان يركب الدواب فى قطع المسافات وتأمين المواصلات ، أخذ فى هذا القرن ، يقطع المسافات ويؤمن مواصلاته بالسيارة والطائرة .

اذن فالقول بتبدل الاشكال والاوضاع الاجتماعية ، استناداً الى حتمية التاريخ باطل جداً ، وانما التبدل وعدمه متوقف على العامل المؤثر فيه ؛ فان كان العامل ثابتاً يثبت الوضع الاجتماعى المستند اليه ، وان كان متبدلا يتبدل (١) .

---

(١) عن مقال للعلامة الشريف مرتضى المطهرى .

السؤال الرابع :

لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة :

ان التطور الاجتماعى يستلزم تطوراً فى قوانين الاجتماع، والقانون الموضوع فى ظرف خاص، ربما يكون مضراً أو غير مفيد أصلا فى ظرف آخر، ومقتضيات الزمان (القوانين) تختلف باختلاف المجتمعات وألوان الحياة ، فما صح الامس ، لا يصح اليوم ، وما يصح اليوم ، لا يصح غداً .

توضيحه :

ان الهدف من تشريع القوانين والانظمة الخارجية ، فى المجتمع البشرى ليس الا تأمين الحياة الاجتماعية له، وصونها عن التصادم والجدال وحفظها عن الهلاك والبوار .

فالنظام التشريعى ليس أمراً مطلوباً بالذات، بل هو ذريعة لتأمين الحياة وحفظها عن التحطم .

وعلى هذا ، قد يُعترض بان الحياة الاجتماعية ، لو استمرت على وتيرة واحدة لساغ لأي قانون تشريعي كان سائداً فى الازمنة الغابرة، أن يسود فى جميع الظروف والاجواء، وأما اذا لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت الحياة فى المجتمع الانساني، منذ لجأ الانسان الى الحضارة والعيش الاجتماعي ، متحولة ومتغيرة ، فكيف يصح لقانون موضوع فى ظرف أن يطبق فى ظرف، مباين له .

مثلا، اذا تأمل متأمل في الدور الذي كانت وسائل النقل فيه منحصرة فى الجمال وغيرها من المواشي ، وكانت الثروات الطبيعية فيه لا تكاد تستغل باستثناء شيىء قليل فيها ، وكانت أدوات الحروب الطاحنة فيه ، لا تتجاوز السيف والسهم ، فلا يرتاب بأن الحياة الاجتماعية فى ذلك الدور ، لا تلتقي مع الدور الذي بلغت فيه حضارة الانسان حداً ، سخر معه الارض والفضاء ووضع أرض القمر تحت قدمية، واستخدم

الكهرباء والبخار، وأخذ يقطع المسافات البعيدة بالسيارة والطائرة والصاروخ، ويواجه العدو في الجبهات الحربية بالقنابل الذرية والهدروجينية، الى غير ذلك من الالات القتالة، فكيف يمكن لقانون واحد، وُضع لتأمين الحياة في مجتمع خاص، ان يسود في الدورين؟ وهل القوانين الاجتماعيه الا «ردفعل» الاوضاع الاجتماعية المتطورة، اذ كلما تغيرت الاوضاع الاجتماعية وتطورت، فلا بد وان يتبعها «رد فعل» في التغير والتبدل:

الجواب:

ان للانسان مع قطع النظر عما يحيط به من شروط العيش المختلفة، روحيات وغرائز خاصة تلازمه، ولا تنفك عنه، اذ هي في الحقيقة مشخصات تكوينية له، بها يتميز عن سائر الحيوانات وتلازم وجوده في كل عصر ولا تنفك عنه بمرور الزمان.

فهاتيك الغرائز الثابتة والروحيات الخالدة، لا تستغني عن قانون ينظم اتجاهاتها، وتشريع ينظمها، وحكم يصونها عن الافراط والتفريط، فاذا كان القانون مطابقاً لمقتضى فطرته وصالحاً لتعديلها ومقتضياً لصلاحها، ومقاوماً لفسادها، لزم خلوده بخلودها، وثبوته بثبوتها.

والسائل قد قصر النظر على ما يحيط به من شروط العيش المختلفة المتبدلة وذهل عن أن للانسان خلقاً وروحيات وغرائز، قد فطر عليها، لا تنفك عنه ما دام انساناً، وكل واحد منها يقتضي حكماً يناسبه ولا يباينه، بل يلائمه، ويدوم بدوامه ويثبت بثبوته عبر الاجيال والقرون.

ودونك نماذج من هذه الامور ليتبين لك بأن التطور لا يعم جميع نواحي الحياة، وان الثابت منها يقتضي حكماً ثابتاً لا متطوراً:

١ ـ ان الانسان بما هو موجود اجتماعي، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله الى العيش الاجتماعي والحياة، حياة عائلية، وهذان الامران من اُسس حياة الانسان، لا تفتأ تقوم عليهما في جملة ما تقوم عليه منذ بدء حياته.

وعلى هذا ، فاذا كان التشريع الموضوع لتنظيم المجتمع مبنياً على العدالة، حافظاً لحقوق أفراده،خالياً عن الظلم والجور والاعتساف، وبعبارة أخرى موضوعاً على ملاكات واقعية ، ضامناً لمصلحة الاجتماع وصائناً له عن الفساد والانهيار ، لزم بقاؤه ودوامه ، مادام مرتكزاً على العدل والانصاف .

٢ـ ان التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة، التي تريد ازالة كل تفاوت بينهما ، ولأجل ذلك ، اختلفت أحكام كل منهما عن الاخر ، اختلافاً يقتضيه طبع كل منهما، فاذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما ومسايراً لطبعهما،ظل ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان ، لثبات الموضوع ، المقتضى ثبات محموله . حسب الاصطلاح المنطقي .

٣ ـ الروابط العائلية ، كرابطة الولد بالوالدين ، والاخ بأخيه ، هي روابط طبيعية، لوجود الوحدة الروحية، والوحدة النسبية بينهم، فالاحكام المتفرقة المنسقة، لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم ، ثابتة لا تتغير بتغير الزمان .

٤ ـ التشريع الاسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والانحلال، ومما لا يشك فيه ، ان الخمر والميسر والاباحية الجنسية . . ضربة قاضية على الاخلاق،وقد عالج الاسلام تلك الناحية من حياته بتحريمها ، واجراء الحدود على مقترفيها، فالاحكام المتعلقة بها ، من الاحكام الثابتة مدى الدهور والاجيال ، لان ضررها ثابت لايتغير بتغيير الزمان،فالخمر يزيل العقل والميسر ينبت العداوة في المجتمع والاباحية الجنسية تفسد النسل والحرث دائماً ، ما دامت السموات والارض، فيتبعها أحكامها في الثبات والدوام .

هذا وأمثاله من الموضوعات الثابتة في حياة الانسان الاجتماعي وقد حددها ونظمها الاسلام بقوانين ثابتة تطابق فطرته وتكفل الفائدة للمجتمع بتنسيق الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أحسن نسق وحفظ حقوق الافراد وتنظيم الروابط العائلية.

وحصيلة البحث ان تطور الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها لايوجب أن يتغير

النظام السائد على غرار الفطرة ، ولا أن يتغير الاحكام الموضوعة على طبق ملاكات واقعية ، من مصالح ومفاسد كامنة فى موضوعاتها ، فلو تغير لون الحياة فى وسائل الركوب ، ومعدات التكتيك الحربي و . . . مثلا ، فان ذلك لا يقتضي أن تنسخ حرمة الظلم ووجوب العدل ولزوم أداء الامانات ودفع الغرامات والوفاء بالعهود والايمان و . . .

فاذا كان التشريع على غرار الفطرة الانسانية ، وكان النظام السائد ، حافظاً لحقوق المجتمع وموضوعاً على ملاكات فى نفس الامر، تلازم الموضوع فى جميع الاجيال ، فذلك التشريع والنظام يحتل مكان التشريع الدائم .

* * *

الاحكام المتطورة فى الاسلام :

ان للانسان مع هذه الصفات والمشخصات الذاتية، ظروف عيش أخرى زمانية ومكانية ، لا تزال تتغير ، ويتغير معها وضع الانسان ، من حال الى حال ، فمثل هذه الظروف الطارئة تتغير أحكامها بتغيرها .

وفى الفقه الاسلامي، يطلق على الاحكام المتعلقة بهذه الظروف عنوان «المقررات» كما يطلق على الاحكام المتعلقة بالظروف الثابتة ، عنوان «القوانين» .

وهذه المقررات ليست بمعزل عن القوانين الكلية الاسلامية، ولا تكون اعتباطاً وفوضى بل تجري فى ضوء القوانين الكلية الثابتة، بحيث لا تناقضها ولا تعطلها . وان شئت قلت: ان هنا أحكاماً وخطوطاً عريضة تمثل القاعدة المركزية فى التشريع الاسلامي وهي مصونة عن التحول والتبدل ، مهما اختلفت الاوضاع وتباينت الملابسات .

وهناك أحكام متفرعة على تلكم الخطوط، مستخرجة منها، بامعان ودراية خاصة، يستنبطها الباحث الاسلامي باستفراغ وسعه على ضوء هذه الخطوط العريضة، بشرط ان لا يصادمها وهذا القسم من الاحكام يتجدد بتجدد العهود وتباين الظروف وتعدد الملابسات واختلاف الشرائط .

فمن قواعد الدين الاسلامي ما هو خالد وثابت وهو ما يمس الفطرة الانسانية وله صلة بالكون والطبيعة وما هو متغير ومتبدل، وهو الذي لا يمس واقع العلاقات الاجتماعية والشؤون البشرية ولا يتجاوز حدود الظواهر الاجتماعية وقد منحه هذا التطور، اسباب الخلود والبقاء والمسايرة مع عامة الحضارات، بشرط ان لا يصطدم التحول على أي أساس مع أسسه ولا يتجاوز حداً من حدوده.

فالحكم الكلي الذي يعالج القضايا البشرية على غرار الفطرة، وصعيدها الكوني، ثابت وخالد في كل العصور والازمنة، وان تطورت الاوضاع الاجتماعية والسياسية واختلفت حاجات الناس فان الانظمة الاسلامية والدساتير الشرعية، تساير الفطرة الانسانية الثابتة، وتوالي الطبيعة الكونية الباقية، ولا تتخلف عنهما قدر شعرة فاذا كان التشريع معبراً عن الكون الثابت، ومبتنياً عليه، فيخلد بخلوده، ويدوم بداومه

أجل ان تقلب الاحوال وتحول الاوضاع الاجتماعية يتطلب تحولا في السنن والانظمة، وتبدلا في الاحكام والقوانين، غير انه لا يطلب، تحولا فيما يمس واقع الانسانية السائدة في جميع الاحوال ومختلف الاوضاع، كما لا يتطلب تحولا في القوانين الكونية التي اصبحت تاءبر الكون بأصوله الثابتة فلا تتغير النسب الرياضية ولا النتائج الهندسية وان تطورت الاوضاع وتبدلت الحضارات.

وانما المتغير هو المظاهر والقشور، والشكل التطبيقي لهاتيك الاحكام في مختلف الاوضاع وتطور الاجتماع، والمتأثر بالاوضاع هو القسم الثاني لا الاول، ولا ضير فيه فان الدين الاسلامي انما يستعرض القضايا التي تمس واقع البشرية، والمسائل التي لها صلة بالكون والطبيعة ويترك التطبيق بعد لنفس المكلف حسب ظروفه وأحواله.

وبذلك تقف على ان التطور والتحول، فيما كتب له التغير والتبدل جزء جوهري للدين، عنصر داخل في بناء التشريع الاسلامي كما ان الثبات والدوام، فيما فرض له ذلك، أحد عناصر الدين ومن أجزاء ذاك البناء التشريعي السامي، فتجريده من أي واحد من عنصريه يوجب انحلال المركب وفناء الدين، وتأخره عن مسايرة المواكب الحضارية.

قال سيدنا الاستاذ (١) دام ظله الوارف: هناك احكام شرعية ثابتة لايعرض عليها التغيير والاختلاف ، ولا يمكن ان يتأثر باختلاف البيئة والمحيط بشكل من الاشكال

وهناك لون آخر من المقررات الاجتماعية التي تجري باشراف من هيئة الولاية العامة ، تختلف باختلاف الظروف وتتأثر باختلاف البيئات والازمنة .

ولتوضيح الامر نستعير شاهداً من الظواهر الاجتماعية التي نعيشها فى حياتنا الخاصة .

لنفترض ان مواطناً يرأس عائلة صغيرة، ويدير أمور العائلة الداخلية فى حدود مقررات البلاد العامة . . فيأمر بعض افراد العائلة بالقيام بهذا الشأن من شؤون البيت ، ويأمر آخرين منهم بشأن آخر من شؤون العائلة ويحدد اختيارات كل واحد منهم فى البيت فى حدود مصلحة العائلة ويأمر بالانقطاع عن العمل يوماً او يومين للاستجمام ويأمر بالاستمرار فى العمل فى حدود ما تقتضيه مصلحة العائلة، وحسب ظروف البيت الخاصة . . .

وفى الوقت الذي يملك هذا الشخص كل هذه الصلاحيات الواسعة فى الادارة والسلطة لا يسمح له أن يخرج عن دائرة مقررات البلاد العامة فى شأن من الشؤون او يتجاوز حدود النظام العام بشكل من الاشكال .

ومما تقدم يتضح ان المقررات المرعية فى محيط هذه العائلة على نوعين :

نوع يتسم بطابع الثبات والبقاء .

ونوع يتعرض للاختلاف والتغيير حسب ما تقتضيه مصلحة البيت .

والنسبة ذاتها قائمة بين الشريعة الاسلامية ، التي يطبعها طابع من الثبات والبقاء ، والمقررات التي تختلف باختلاف الظروف والمصالح الاجتماعية والتي تدور فى فلك الشريعة من غير أن تتجاوزها بحال من الاحوال (٢) .

---

(١) المفكر الاسلامى الكبير آية الله السيد محمد حسين الطباطبائى ، وقد كتب فى موضوعنا هذا مقالات نشرت على صفحات مجلة «مكتب اسلام» ، فراجع العدد السادس والتاسع من السنة الثانية .

(٢) نظرية السياسة والحكم فى الاسلام ص ٣٧ ـ ٣٩

ودونك نماذج من هذا القسم، أي من الاحكام المتطورة المتغيرة بتغير الزمان:

١ ـ في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية : يجب على الدولة الاسلامية أن تراعى مصالح الاسلام والمسلمين ، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامة ، وأما كيفية تلك الرعاية، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية، فتارة تقتضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدو ؛ وأخرى تقتضي ضد ذلك .

وهكذا تختلف المقررات والاحكام الخاصة في هذا المجال، باختلاف الظروف ولكنها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي؛ هو رعاية مصالح المسلمين ، كقوله سبحانه :

«لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» (النساء ـ ١٤١) وقوله سبحانه : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، ان تبروهم ، وتقسطوا اليهم ؛ ان الله يحب المقسطين» .

«انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم، وظاهروا على اخراجكم ، ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (الممتحنة ٨ ـ ٩)

٢ ـ العلاقات الدولية التجارية: فقد تقتضي المصلحة عقد اتفاقيات اقتصادية وانشاء شركات تجارية او مؤسسات صناعية ، مشتركة بين المسلمين وغيرهم ، وقد تقتضي المصلحة غير ذلك . ومن هذا الباب حكم الامام المغفور له ، الفقيد المجدد ، السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية التي عقدت في زمانه بين ايران وانكلترا ؛ اذ كانت مجحفة بحقوق الامة المسلمة الايرانية اذ خولت لانكلترا حق احتكار التنباك الايراني .

٣ ـ الدفاع عن بيضة الاسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الاعداء ؛ هو قانون ثابت لايتغير ؛ فالمقصد الاسنى لمشرع الاسلام ، انما هو صيانة سيادته عن خطر اعدائه واضرارهم ولاجل ذلك اوجب عليهم تحصيل قوة ضاربة ضد الاعداء، واعداد جيش عارم جرار تجاه الاعداء كما يقول سبحانه : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» (الانفال ـ ٦٠) فهذا هو الاصل الثابت في الاسلام الذى يؤيده العقل والفطرة

أما كيفية الدفاع ، وتكتيكه ونوع السلاح ، او لزوم الخدمة العسكرية وعدمه ، فكلها موكولة الى مقتضيات الزمان ، تتغير بتغيره ، ولكن فى اطار القوانين العامة فليس هنا فى الاسلام أصل ثابت ، حتى مسألة لزوم التجنيد العمومي، الذي أصبح من الامور الاصلية فى غالب البلاد .

وما نرى فى الكتب الفقهية من تبويب باب، او وضع كتاب خاص ، لاحكام السبق والرماية ، وعيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة فى الازمنة الغابرة ونقل أحاديث فى ذلك الباب ، عن الرسول الاكرم (ص) وأئمة الاسلام ، فليست احكامها اصلية ثابتة فى الاسلام ، دعا اليها الشارع بصورة أساسية ثابتة ، بل كانت هي نوع تطبيق لذلك الحكم الغرض منه ، تحصيل القوة الكافية ، تجاه العدو فى تلكم العصور) وأما الاحكام التي ينبغي أن تطبق فى العصر الحاضر ، فانها تفرضها مقتضيات العصر نفسه (١) .

فعلى الحاكم الاسلامي تقوية جيشه وقواته المسلحة بالطرق التي يقدر معها على صيانة الاسلام ومعتنقيه عن الخطر ويصد كل مؤامرة عليه من جانب الاعداء حسب امكانيات الوقت .

والمقنن الذي يتوخي ثبات قانونه ودوامه وسيادة نظامه الذي جاء به، لا يجب عليه التعرض الى تفاصيل الامور وجزئياتها، بل الذي يجب عليه هو وضع الكليات والاصول ليساير قانونه جميع الازمنة بأشكالها وصورها المختلفة ، ولو سلك غير

---

(١) قال المحقق فى الشرايع ص١٥٢ وفائدة السبق والرماية: بعث النفس على الاستعداد للقتال والهداية لممارسة النضال وهى معاملة صحيحة . وقال الشهيد الثانى فى المسالك فى شرح عبارة المحقق : لاخلاف بين المسلمين فى شرعية هذا العقد ، بل أمر به النبى فى عدة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة وهى من أهم الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدد فى الجهاد لاعداء الله تعالى ، الذى هو اعظم أركان الاسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهى عن المعاملة عليهما .
فاذا كانت الغاية من تشريعهما الاستعداد للقتال والتدرب للجهاد : فلا يفرق عندئذ بين الدارج فى زمن النبى (ص) وغيره أخذاً بالملاك المتيقن .

غير هذا السبيل لصار حظه من البقاء قليلا جداً .

٤ ـ نشر العلم والثقافة،واستكمال المعارف التي تضمن سيادة المجتمع مادياً ومعنوياً من الفرائض الاسلامية، أما تحقيق ذلك وتعيين نوعه ونوع وسائله فلايتحدد بحد حاص ، بل يوكل الى نظر الحاكم الاسلامي ، واللجان المقررة لذلك من جانبه حسب الامكانيات الراهنة فى ضوء القوانين الثابتة .

وبالجملة : فقد ألزم الاسلام ، رعاة المسلمين، وولاة الامر نشر العلم بين أبناء الانسان واجتثاث مادة الجهل من بينهم ومكافحة أي لون من الامية ، وأما نوع العلم وخصوصياته، فكل ذلك موكول الى نظر الحاكم الاسلامي وهو أعلم بحوائج عصره.

فرب علم ، لم يكن لازماً ، لعدم الحاجة اليه ، فى العصور السابقة ، ولكنه أصبح اليوم فى الرعيل الاول من العلوم اللازمة التي،فيها صلاح المجتمع، كالاقتصاد والسياسة .

٥ ـ حفظ النظام وتأمين السبل والطرق، وتنظيم الامور الداخلية ورفع مستوى الاقتصاد و . . . من الضروريات ، فيتبع فيه وأمثاله ، مقتضيات الظروف ، وليس فيه للاسلام ، حكم خاص يتبع ، بل الذي يتوخاه الاسلام ، هو الوصول الى هذه الغايات ، وتحقيقها بالوسائل الممكنة، دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل وانما ذلك متروك الى امكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر ، وكلها فى ضوء القوانين العامة .

* * *

وفى ختام البحث نعطف نظر القارىء الى نكتة ، وهي : ان عنوان «مقتضى» الزمان» و«حتيمة التاريخ» وغيرهما من العناوين صار رمزاً، لكل من أراد أن يتحرر من القيم الاخلاقية ، ويعيش متحللا من كل قيد وحد ، خالعاً كل عذار ، والكثير من افراد الانسان فى العصر الحاضر ، حينما رأوا ، الاباحية الجنسية واختلاط الرجال والنساء ، واتخاذ الملاهي على انواعها وشرب المسكر واللعب بالميسر واقتراف المعاصي واخذ الربا مما راج فى البيئات الغربية بلا استنكار، وقدحرمها

الشرع ورفضتها قوانين الأخلاق الصحيحة،والفطرة السليمة ، لم يجد مبرراً لاقترافها والانصياع التام ، لشهواته الجامحة الا بأن يتمسك بأحد هذه العناوين،وليست الغاية من هذه القالة عنده ، الاقتراف السيئات والانغمار في الشهوات .

كما أن هذه العناوين قد صارت ملجأ لكل من أراد هدم الثقافة الشرقية الاصيلة وتحويرها، وسوق الشرق الى الانصياع لتوجيهات الغرب وتناسى كل ماكان له من كرامة قديمة وقطع صلته به .

ترى أن المنادين باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف الشرقية الاسلامية يتمسكون باعذار،ويستدلون بامور ، منها : كون ذلك من مقتضيات الزمان ، ونتيجة يحتمها التاريخ ، غير أن الباحث الحر،يرى للقديم ، كرامته الموروثة وللحديث نضارته الموجودة ، فيأخذ من كل منها مايليق بالاخذ ويصلح للاقتفاء ، فلا يعقد حلفاً مع كل قديم حتى الخرافات ولا يُكبّ على كل حديث وان اضر به وبكرامته وشرفه .

فعلى كل من يريد أن يحافظ على كرامة الانسان وكيانه وقيمه الاخلاقية ، أن يتوخى الاصلح من مقتضيات الزمان ويصلحه على ضوء العقل والفطرة ، لأن يطبق عمله عليه ، فليس مقتضى العصر وحياً ، أوحى الى المجتمع ، مصوناً عن الخطأ او نقياً عن الاشتباه .

على أن هؤلاء المتشدقين بأمثال هذه العبارات ، تقليداً للغرب والحضارة الغربية بلا تأمل ولا روية ، قد عزب عنهم أن «هذه الحتمية» و«اقتفاء مقتضى الزمان» التي ينادون بها ، غير معترف بها عند أعيان القوم ، ومفكري المجتمعات ، بل اكابرهم فيها ، فكم نبه علماء وحذر مفكرون من أبناء الغرب ، من عواقب السير على منهج هذه الحضارة،واستخفوا خطتها وتنبأوا بانهيارها ونادوا بوجوب نقض اسسها (١).

(١) نذكر على سبيل المثال منهم ، العلامة **«الكسيس كارل»** فارجع الى ما حرره في كتابه **«الانسان ذلك المجهول»** .

السؤال الخامس

ادعاء النقص فى التشريع الاسلامى :

«كلما تكاملت نواحي الحضارة ، وتشابكت وتعددت ألوانها، واجه المجتمع أوضاعاً وأحداثاً جديدة ، وطرحت عليه مشاكل طارئة ، لا عهد للازمنة السابقة بها ، اذ لم تتعرض تشريعاتها ، لاي هذه الاوضاع والاحداث والمشاكل ، بحكم من الاحكام اذن فحاجة المجتمع الى قوانين وتشريعات جديدة ، لاتزال تتزايد كل يوم ، تبعاً لذلك»

توضيح السوأل :

لايرتاب ذومسكة فى أنه كلما توسع نطاق الحضارة وبلغ البشر من التمدن مابلغ ،احتاج فى تنظيم حياته الى قوانين جديدة ، وتشريعات خاصة ، ازيد مماكان محتاجاً اليه فى الظـروف الغابرة ، وبما أن الحضارة الانسانية ، مازالت تتوسع وتتكامل ، ولاتقف عند حد ،فما زال الانسان تبعاً لذلك، تتوسع حاجته الى قوانين وتشريعات جديدة ،متكاملة، فكيف يمكن أن تعالج القوانين المحدودة ،الموضوعات الكثيرة ، غير المحدودة ؟ ! . (١)

ويلاحظ بأن الاسلام ، هو الذي يواجه وحده ، بهذا الاشكال مـن بين سائر

(١) الفرق بين هذا السؤال وما سبق من السؤال الرابع واضح ، اذ الرابع يرجع الى لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات ، حسب اختلاف اشكال الحياة فى الاجتماع ، وتبدلها من دون نظر الى طرؤ حوادث لم يكن منها اثر فى العهودالسابقة ، وهذا الوجه يرجع الى وجود النقص فى ناحية التشريع الاسلامى ، وعدم ايفائه بالحوادث الجديدة والوقائع الطارئة التى يوجبهاتكامل الحضارة وتشعباتها وتعددها ، ولم يكن لهااثر فى زمن الرسالة ودور نزول القرآن

الاديان ، اذليس الاسلام عبارة عن تعاليم منحصرة فى عدة أحكام عبادية واخلاقية تؤدى بصورة فردية ، بين الانسان وربه ، أو بينه وبين نفسه ، دون أن يتدخل فى تحديد المناهج الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمدنية ، وليس منحصراً فى هذه المقررات البسيطة ، حتى لايكون وافياً فى جميع الازمنة ، بالغاية التي يهدف اليها وانما هو نظام تشريعي كامل ، قد تدخل فى شؤون المجتمع كافة ، فهو ذو قوانين مدنية وقضائية وسياسية واجتماعية وعسكرية وعائلية ، كفيلة باغناء البشرية ،عن كل تشريع سوى تشريعه،وعن كل اصلاح غير اصلاحه،فهذه القوانين المحدودة كيف تغني المجتمع البشري عن سلطة التشريع فى الحوادث والموضوعات التي لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول .

وفي هذه النقطة ، تفترق المسيحية عن الاسلام، اذ هي لا تتجاوز فى تشريعها نطاق الاخلاق الفردية والتعبد لله ، بصلاة وصوم ، فى وقت معين أما مناهج الحياة الاجتماعية وتنظيمها وتنسيق معاملاتها ، ذلك ما يقره المجتمع نفسه ، ويفوضه الى السلطات الحاكمة .

ولكن الاسلام يتعرض لكل شأن من شؤون الحياة ، ويقنن ويشرع لكل أمر من أمور المجتمع المدنية والمعاشية ، بالاضافة الى تشريعاته وقوانينه الاخلاقية ، والعبادية الفردية ، ويسد باب التشريع فى ذلك على غيره . فالسلطة التشريعية بيده وحده ، وعلى المجتمع ان يختار السلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية فقط ، ضمن ما يشرعه الاسلام .

وملخص السؤال ، ان المجتمع الانساني ، واجه أوضاعاً وأحداثاً جديدة ، وطرحت تلك عليه مشاكل لاعهد للازمنة السابقة بها،فلا نجد فى التشريع الاسلامي لهذه الاوضاع والاحداث حكماًمن الاحكام،اذنفحاجة المجتمع الىقوانين وتشريعات جديدة لاتزال تتزايدكل يوم تبعاً لذلك. وبما ان نصوص الشريعة من الكتاب والسنة محدودة،وحوادث المجتمع غير محدودة،فكيف يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث الطارئة غير المتناهية ؟

الجواب :

ان خلود التشريع وبقاءه في جميع الاجيال ومسايرته للحضارات الانسانية ، واستغناءه عن كل تشريع سواه ، يتوقف على وجود أمرين فيه :

الاول : أن يكون التشريع ذا مادة حيوية خلاقة للتفاصيل بحيث يقدر معها علماء الامة والاخصائيون منهم على استنباط كل حكم يحتاج اليه المجتمع البشري في كل عصر من الاعصار .

الثاني : ان ينظر الى الكون والاجتماع بسعة وانطلاق ، مع مرونة خاصة ، تماشي جميع الازمنة والاجيال ، ويساير الحضارات الانسانية المتعاقبة .

وقد أحرز التشريع الاسلامي كلا الامرين :

أما الامر الاول ، فقد أحرزه بتنفيذ امور :

الاول : الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة :

ان من سمات التشريع الاسلامي التي بها يمتاز عن سائر التشريعات ، ادخال العقل في دائرة التشريع، والاعتراف بحجيته في الموارد التي يصلح له التدخل والقضاء فيها، فالعقل أحد الحجج الشرعية وفي مصاف المصادر الاخر للتشريع وانه يكشف عن الحكم الشرعي ويبين وجهة نظر الشارع في مورده، وان من الممتنع ان يحكم العقل بشيء ولا يحكم الشرع على وفاقه أو يحكم بخلافه ، فالملازمة بين العقل والشرع حتمية .

ولا يهمنا البحث في ان ما يدركه العقل في مورد هل هو نفس الحكم الشرعي ومن صميم التشريع الاسلامي أو انه يكشف عن نظر الشارع اذا توفرت فيه الشروط التي اعتبرها الشارع في حجية ادراكاته .

وانما المهم ان نقف على ان العقل احتل محلا خاصاً فى التشريع الاسلامي، وان كل ما يحكم به العقل فكانه ينطق عن لسان الشرع كالكتاب والسنة فعند ذاك اعتمد عليه فى تبليغ الاحكام الى الناس كما اُعتمد على القرآن والسنة .

وقد فتح هذا الاعتراف للاسلام بقاء وخلوداً ، وجعله صالحاً للانطباق مع عامة الحضارات الانسانية،وغدا التشريع الاسلامي فى ضوئه ذاسعة وانطلاق وشمول لما يتجدد من الاحداث ولما يطرأ من الاوضاع الاجتماعية الجديدة .

هذا بخلاف ما اذا اعتبرناه عنصراً غريباً فى صعيد التشريع وعزلناه عن الحكم ورفضنا كل ما يدركه من الاحكام العقلية المحضة ، فانه يؤدي الى تجميد المخطط القانوني وعدم صلاحيته للحكم والتطبيق فى البيئات والظروف الاجتماعية المختلفة.

نعم ليس معنى الاعتراف بحجية العقل،ان يطلق سراحه فى جميع المجالات حتى يتاح له (بما أوتي من امكانات ووسائل محدودة) ان يتسرع فى الحكم فى مصالح الفرد والمجتمع وشكل العلاقات والروابط الاجتماعية والعبادات والاحكام التوقيفية.

بل فسح له الحكم فى مجالات خاصة اذا توفرت فيه الشرائط التي تصونه عن الاشتباه والخطأ واقترن بالضمانات الكافية التي تحفظه عن الزلل وسوف نشير الى هذه الشرائط والضمانات .

فالقارىء الكريم اذا لاحظ كتاب الله العزيز وسنة نبيه وعترته يرى فيهما الحث البالغ الاكيد على التدبر والتفكر والتعقل بما يعسر على الانسان الاحاطة والاحصاء ولنكتف بذكر بعض ما أثر فى المقام .

قال الامام الطاهر موسى بن جعفر (ع) لتلميذه هشام :

ان الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم فى كتابه فقال : «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب».

يا هشام : ان الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالادلة فقال «ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من

ماء فأحيى به الارض بعدموتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون» (١) .

يا هشام : ثم وعظ أهل العقل ورغبهم فى الاخرة فقال «وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون» (٢) .

ياهشام : ان العقل مع العلم فقال : «وتلك الامثال نضر بها للناس وما يعقلها الا العالمون» (٣) .

ثم ذم الذين لا يعقلون فقال «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (٤) .

يا هشام:ثم ذكر اولى الالباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية فقال : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب (٥) .

يا هشام: ان الله تعالى يقول فى كتابه : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعني « عقل » .

وقال « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (٦) قال : الفهم والعقل .

يا هشام : مـا بعث الله انبيائه ورسله الى عباده الا ليعقلوا عـن الله فأحسنهم استجابة احسنهم معرفة وأعلمهم بأمر الله احسنهم عقلا،وأكملهم عقلا أرفعهم درجة فى الدنيا والاخرة .

يا هشام : ان لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والانبياء والائمة وأما الباطنة فالعقول (٧) .

---

(١) البقرة : ١٦٠
(٢) الانعام : ٣٣ .
(٣) العنكبوت : ٤٣ .
(٤) البقرة : ١٦٦ .
(٥) البقرة ٢٦٩ .
(٦) لقمان : ١٢ .
(٧) أصول الكافى ج ١ ص ١٣ ـ ١٦ ولم ننقله بطوله وانما اقتبسنا مقتطفات منه .

وقال الصادق : حجة الله على العباد ، النبي ، والحجة فى ما بين العباد وبين الله ، العقل .

هذا الحديث وماقبله وغيرهما يعرب عن نظر الاسلام السامي فى الاحكام التي يستقل بهاالعقل بشرط ان يتجردعن الرواسب اللاشعوية والغرائزالحيوانيةوالعواطف الانسانية ويحكم حكماً باتاً عقلانياً محضاً غير منبعث عن هذه الجوانب ، ويحترز عن بعض الاساليب التيمنع الشارع عن أعمالها فى طريق استنباط الحكم الشرعي كالاقيسة والاستحسانات .

نعم لا يخلص الحكم العقلي من الزلل والخطأ الا بعد ملاحظة أمور :

١ ـ «قصور الفكر الانساني وعجزه عن الاحاطة بمسائل الكون والنفس والاجتماع وضعف المدارك الحسية التي تربط الانسان بالواقع الاجتماعي والنفسي والكون الذي يعيشه .

٢ ـ تأثر الفكر الانساني بالجانب الانفعالي والحيواني من النفس كالغرائز النفسية والدوافع الحيوانية المستقرة فى النفس التي لا تخلص منها النفس والفكر الا بعد جهد شاق .

٣ ـ انطباع الفكر بالرواسب اللاشعورية والاعراف والتقاليد التي يرثها الانسان من البيئة الاجتماعية والتي تنتقل فى المجتمع مع الاجيال من دون ان تفقد تأثيرها الخاص واطارها الاجتماعي الذي يسبغ عليها جانباً قدسياً فى المجتمع .

وقدحاول الاسلام ان يحقق الضمانات الكافية التي تعصم الفكر من هذه الوجوه الثلاثة فى مجال الحكم والتشريع .

كماحاول الاسلام من جانب ان يفسح المجال للعقل فى الحكم ليحتفظ الدستور ويصلح للحكم والتطبيق فى البيأت والظروف المختلفة .

ومن جانب آخر حاول الاسلام ان يحفظ العقل مما يمكن ان يحط به الى المستويات الحيوانية واللاشعورية أو مما تقصر عنه امكاناته العلمية »(١) .

(١) المدخل الى دراسة التشريع الاسلامى ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

قال العلامة الحجة الشيخ محمد حسين الاصفهاني : ان القضايا المشهورة على أقسام :

منها ما فيه مصلحة عامة :كالعدل حسن ، والجور قبيح ، وعبر عنها بالتأديبات الصلاحية .

منها : ما ينبعث عن الاخلاق الفاضلة كالحكم بقبح كشف العورة لانبعاثه عن الحياء وهو خلق فاضل .

منها : ما ينبعث عن رقة أو حمية أو انفة أو غيرذلك واستلزام الحسن والقبح عقلا للحكم الشرعي بالمعنى المتقدم فى ما كان منشأه المصالح العمومية واضح لان الشارع يرعى المصالح العمومية وكذا ماينبعث عن الاخلاق الفاضلة لان المفروض انها ملكات فاضلة،والمفروض انبعاث الحكم بالحسن والقبح عنها وأما ما ينبعث عن انفعالات طبيعية من رقة أو حمية أو أنفة أو غير ذلك فلا موجب لاشتراك الشارع مع العقلاء .

ولذا ترى الشارع ربما يحكم لحكمة ومصلحة خاصة بما لا يلائم الرقة البشرية كالحكم بجلد الزاني والزانية غير ذات البعل مع كمال التراضي (١) .

وللشيخ الرئيس فى اشارته كلام يوقفنا على اقسام الادراكات العقلية فراجع الاشارات وشرحها للمحقيم الطوسي (١) .

* * *

فاذا توفرت فى الحكم العقلي هذه الشرائط وكان حكمه منبعثاً عن الجانب العقلي المحض،غير متاثر عن الجوانب اللاشعورية، والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية ، ، وتجنب عن الاساليب الممنوعة وحكم من صميم التدبر والتفكر بحكم بات ، يصير حجة بين الله وعبده ، وحينئذ يجب السير والسلوك على مقتضى حكمه وتنفيذ ما يقضى به تأسيساً أوتحديداً لاطلاق حكم شرعي أو تخصيصاً لعمومه

(١) نهاية الدراية ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) الاشارات ج ١ ص ٢٢٠ ط طهران .

ويصير عند ذاك أحد الأدلة التي يستنبط منها ، الحكم الشرعي ، ويدور عليها رحى الاستنباط ، ويعد قريناً للكتاب والسنة، والاجماع ولا ينفك عن قرنائه وأعداله .

والباحث النابه ، يجد الملازمة بين العقل والشرع ، أحد القواعد المسلمة عند المحققين ، من علماء الاسلام ، الذين يعتنى بقولهم ، فقد صرحوا بأن : كل ما حكم به العقل ، حكم به الشرع ، وكل ما حكم به الشرع ، حكم به العقل .

ان للعقل دوراً كبيراً فى استنباط كثير من الاحكام التي يصلح للعقل القضاء فيها ويقدر على ادراك ملاك الحكم ومناطه نظير الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته ووجوب الشيء وحرمة ضده وعدمهما وجواز اجتماع الأمر والنهي وعدمه وصحة العبادة والمعاملة وفسادهما واجزاء الأوامر الاضطرارية والظاهرية والاحكام المتفرعة على تنجيز العلم الاجمالي وما يستقل به العقل عند اليأس عن الادلة السمعية فيحكم بالبرائة أو الاشتغال أو التخيير، حسب ما اقتضاه المقام . بل له دور واسع فى باب المعاملات وغيرها .

فهذه الملازمات وغيرها ، من الاحكام العقلية، مصادر لاستنباط كثير من الاحكام واستكشاف ما هو المرضي لدى الشارع ، ويستريح اليه الفقيه فى تأسيس الحكم الشرعي أو تحديده ، وفى تشخيص الوظيفة العملية عند اليأس عن العثور على الادلة السمعية وبذلك يسد الفراغ المتوهم فى التشريع الاسلامي .

كل ذلك يرشدنا الى ان التشريع الاسلامي ، يتبنى الواقع ولا يحيد عن متطلبات الحياة، وانه ليس لتعاليمه طابع الرمز والتعبد السماوي وأن للاسلام علقة واقعية بالعقل ، لا تجد مثلها فى الاديان الاخرى ، بل لا يسوغ لغيره ، أن يدخل العقل فى مصادر تشريعه ، ويعده أحد الادلة .

الثانى: ان الاحكام تابعة للمصالح والمفاسد :

ان الاحكام الشرعية ، عند العدلية من المسلمين ، الذين يمثلون الطبقة العليا منهم، تابعة لمصالح ومفاسد فى متعلقاتها، فلا واجب الا لمصلحة فى فعله، ولا حرام

الا لمفسدة فى اقترافه،وقد تحقق عندهم ان للتشريع الاسلامي نظاماً لاتعتريه الفوضى وهذا الاصل وان خالف فيه بعض الامة ، غير أن نظرهم محجوج بكتاب الله وسنة نبيه ونصوص خلفائه ،(ع) ترى انه سبحانه يعلل حرمة الخمر والميسر بقوله :

« انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » (المائدة ـ ٩١) .

ويستدل على وجوب الصلاة بقوله سبحانه « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت ـ ٤٥) الى غير ذلك من الفرائض والمناهي التي صرح أو اشير الى ملاكات تشريعهما فى الذكر الحكيم .

وقد قال الامام الطاهر ، علي بن موسى الرضا عليه السلام ، : ان الله تبارك وتعالى ، لم يبح أكلا ولا شرباً الا لما فيه المنفعة والصلاح ، ولم يحرم الا ما فيه الضرر والتلف والفساد (١) .

وقال عليه السلام فى الدم : انه يسيىء الخلق ، ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة ولا يؤمن ان يقتل ولده ووالده (٢) .

وهذا باقر الامة وامامها،يقول: ان مدمن الخمر كعابدوثن، ويورثه الارتعاش، ويهدم مروته ويحمله على التجسر على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا (٣) . وغيرها من النصوص المتضافرة عن أئمة الدين (٤) .

فاذا كانت الاحكام تابعة لمصالح ومفاسد فى الموضوع ، فالغاية المتوخاة من تشريعها ، انما هو الوصول اليها ، أو التحرز عنها ، وبما أن المصالح والمفاسد ليست على وزان واحد ، بل رب واجب يسوغ فى طريق احرازه ، اقتراف بعض المحارم ،لاشتماله على مصلحة كبيرة لا يجوز تركها أصلا ، ورب حرام ذي مفسدة

(١) مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٧١ .

(٢) بحار الانوار ج ١٤ ص ٨٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٧١ .

(٤) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق فقد اورد فيه ماائر عن النبى (ص) والائمه (ع) فى بيان علل التشريع وفلسفته .

كبيرة ، لا يجوز اقترافه ، وان استلزم ترك الواجب أو الواجبات .

ولاجل ذلك قد عقد الفقهاء باباً خاصاً ، لتزاحم الاحكام وتصادمها في بعض الموارد ، فيقدمون « الأهم على المهم » والاكثر مصلحة على الاقل منها ، والاعظم مفسدة على الاحقر منها ، وهكذا. . . ويتوصلون في تمييز الاهم عن المهم ، بالطرق والامارات التي تورث الاطمئنان .

وقد اعان فتح هذا الباب على حل كثير من المشاكل الاجتماعية التي ربما يتوهم الجاهل أنها تعرقل خطى المسلمين في معترك الحياة ، وأنها من المعضلات التي لا تنحل أبداً ، ولنأت على ذلك بمثال ، وهو :

أنه قد أصبح تشريح بدن الانسان في المختبرات من الضروريات الحيوية التي يتوقف عليه نظام الطب الحديث، فلا يتسنى تعلم الطب الا بالتشريح والاطلاع على خفايا الامراض والادوية .

غير ان هذه المصلحة تصادمها ، مصلحة احترام المؤمن حيه وميته ، الى حد أوجب الشارع ، الاسراع في تغسيله وتكفينه وتجهيزه للدفن ، ولا يجوز نبش قبره اذا دفن ، ولا يجوز التمثيل به وتقطيع أعضائه ، بل هو من المحرمات الكبيرة التي لم يجوزها الشارع حتى بالنسبة الى الكلب العقور ، غير أن عناية الشارع بصحة العامة وتقدم العلوم جعلته يسوغ اقتراف هذا العمل لتلك الغاية ، مقدماً بدن الكافر على المسلم ، والمسلم غير المعروف ، على المعروف منه ، وهكذا . . .

الثالث : التشريع الاسلامي ذو مادة حيوية

ان التشريع الاسلامي في مختلف الابواب، مشتمل على أصول وقواعد عامة، تفي باستنباط آلاف من الفروع التي يحتاج اليها المجتمع البشري ، على امتداد القرون والاجيال ، وهذة الثروة العلمية ، التي اختصت بها الامة الاسلامية ، من بين

سائر الامم ، أغنت الشريعة الاسلامية عن التمسك بكل تشريع سواها (١) .

وهذا العلامة الحلي ، أحد فقهاء الامامية فى القرن الثامن ، قد ألف عشرات الكتب فى الفقه واصوله ، منها « تحرير الاحكام الشرعية » وقد حـوى من الاحكام والقوانين ما يربو على أربعين الف مسألة ، استنبطها من هذه الاصول الواردة فى القرآن والسنة النبوية ، والاحاديث المأثورة عن أئمة الدين ، رتبها على ترتيب كتب الفقه فى أربع قواعد : العبادات، والمعاملات ، والايقاعات، والاحكام (٢) .

وجا من بعده من الفقهاء والمجتهدين، فبحثوا عـن موضوعات وأحكام ، لم يكن لعصره بها صلة ،فأستخرجوا ما لها من الحكم الشرعي، من تلكم الاصول والقواعد بوضوح وانطلاق،ولم يجدوا التشريع الاسلامي عاجزاً فى هذه المجالات.

وهذا « صاحب الجواهر » ، ذلك الفقيه الاعظم ، من فقهاء القرن الثالث عشر الاسلامي ، قد جاء فى مشروعه الوحيد « جواهر الكلام » بأضعاف ما جاء به العلامة الحلي ، فان البأحث عند ما يقف أمام هذا الكتاب الثمين وينظر فى مباحثه ، يرى أمامه بحراً يزخر بالدرر التي تحار فى حصرها النهي والخواطر ، وتنبهر لها عيون البصائر ، فلقد حوى من الفروع والقوانين ، ما يعسر عده .

ولاجل ذلك استعارت منا الامم الغربية كثيراً من قوانينه،(بعكس ما نحن عليه

---

(١) قد تضافرت الروايات على ان جميع ما يحتاج الناس اليه الا وقدجاء فيه آية محكمة او سنة متبعة .

اخرج الكلينى باسناده عن عمر بن قيس عن ابى جعفر (ع) قال سمعته: يقول ان الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً يحتاج اليه الامة الا انزله فى كتابه وبينه لرسوله وجعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلا يدل عليه ، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً .

روى باسناده عن أبى عبد الله (ع) قال سمعته يقول : ما من شيء الا وفيه كتاب أو سنة.

أخرج عن سماعة عن أبى الحسن موسى (ع) قال قلت له : أكل شيء فى كتاب الله وسنة نبيه ، أو تقولون فيه ؟ قال : بل كل شيء فى كتاب الله وسنة نبيه .

راجع أصول الكافى « باب الرد الى الكتاب والسنة » ج ١ ص ٥٩ ـ ٦٢ ، تجد فيـه أحاديث تصرح بما ذكر، والمراد منها اصول الاحكام وجذورها لا فروعها وجزئياتها

(٢) راجع الذريعة ج ٤ ص ٣٧٨ .

الان من تبعيتنا للقوانين الاجنبية) وليس ذلك الا لاجل كون الفقه الاسلامي ، ذامادة حيوية ، وقواعد متموجة ، تستطيع أن تواجه الاحداث الطارئة طيلة القرون .

والاسلام كان قد بسط ظله على أكثر من نصف المعمورة ، حيناً من الدهر ، وان الامة الاسلامية ، كانت تتألف من شعوب مسلمة مختلفة الالوان ، لكل بيئة خواصها فى العادات والتقاليد ، وما يقع فيها من وقائع وأحداث ، وكان التشريع الاسلامي بقواعده واصوله الوافرة ، وافياً لاستخراج أحكامها ، من دون ان يمديده الى المساعدات الاجنبية .

الرابع : تشريع الاجتهاد :

وهو بذل الوسع فى استنباط الاحكام الشرعية عن مصادرها المعينة ، وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه ، لانه يحفظ غضاضة الدين وطراوته ، ويجدده ويصونه عن الاندراس،ويغني المسلمين عن موائد الاجانب ،بأعطائه كل موضوع،ما يقتضيه من حكم .

«أما لزوم فتح هذا الباب فى أعصارنا هذه فلا يحتاج الى البرهنة والدليل، اذ نحن فى زمن تتوالى فيه المخترعات والصناعات ، وتغمرنا هذه المجالات ، أمام أحد امور:

أما بذل الوسع فى استنباط أحكام الموضوعات الحديثة ، من الاصول والقواعد الاسلامية .

أو اتباع المبادىء الاوربية، من غير نظر الى مقاصد الشريعة،وأما الوقوف من غير اعطاء حكم» (١).

«وليس الاجتهاد من البدع المحدثة ، فانه كان مفتوحاً فى زمن النبوة وبين أصحابه (ص) فضلا عن غيرهم ، وفضلا عن سائر الازمنة التي بعده ، نعم غايته ان الاجتهاد يومئذ ، كان خفيف المؤونة جداً ، لقرب العهد ، وتوفر القرائن ، وامكان

(١) رسالة الاسلام ، السنة الثالثة ، العدد الثانى ، عن مقال «أحمد أمين المصرى» .

السؤال المفيد للعلم القاطع ، ثم كلما بعد العهد من زمن الرسالة وتكثرت الاراء ، والاحاديث والروايات ، ربما قد دخل فيها الدس والوضع ، وتوفرت دواعي الكذب على النبي ، أخذ الاجتهاد ، ومعرفة الحكم الشرعي ، يصعب ويحتاج الى مزيد من المؤنة ، واستفراغ الوسع» (١) .

ويرشدك الى وجوده في زمن النبي قول الرسول لامير المؤمنين عند ما بعثه الى اليمن : قال علي (ع) بعثني رسول الله الى اليمن قلت يا رسول الله تبعثني وأنا شاب ، اقضي بينهم ولاأدري ما القضاء ؟ قال . فضرب بيده في صدري وقال: «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه» فوالذي نفسي بيده ماشككت في قضاء بين اثنين (٢) .

وقال النبي (ص) لمعاذ بن جبل ، حين وجهه الى اليمن : بم تقضي ؟ قال : بما في كتاب الله ، قال فان لم تجد ؟ قال : بما في سنة رسول الله قال: فان لم تجد؟ قال : اجتهد رأيي . ولا آلو جهداً ، فسر النبي (ص) وقال : الحمد الله الذي وفق رسول رسوله بما يرضي رسوله (٣) .

* * *

«وبطبيعة الحال، ان الصحابي قد يسمع من النبي (ص) في واقعة ، حكماً ويسمع الاخر مثلها في خلافه ، وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكمين وغفل أحدهما عن الخصوصية أوالتفت اليها وغفل عن نقلها مع الحديث فيحصل التعارض في الاحاديث ظاهراً، ولا تنافي واقعاً ، ولهذه الاسباب وأضعاف أمثالها ، احتاج حتى نفس الصحابة الذين فازوا بشرف الحضور ، في معرفة الاحكام الى الاجتهاد ، والنظر في الحديث ، وضم بعضه الى بعض والالتفات الى القرائن الحالية، فقد يكون للكلام ظاهر ، ومراد النبي خلافه اعتماداً على قرينة في المقام، والحديث نقل ، والقرينة لم تنقل .

(١) أصل الشيعة وأصولها ، ص ١١٩ طبعة بيروت .

(٢) اعلام الورى ص ١٣٧ ، والبحار ج ٢١ ص ٣٦١ ، وشتان بين علمه واجتهاده (ع) وعلم الاخرين واجتهادهم .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٤٧ والاستيعاب ، لابن عبد البر ، في ترجمة «معاذ» ، واللفظ للثاني .

وكل واحد من الصحابة ،ممن كان من أهل الرأي والرواية ، تارة يروي نفس الفاظ الحديث ، للسامع من بعيد أو قريب،فهو فى هذا الحال راو ومحدث، وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات ، بحسب نظره ، فهو فى هذا الحال، مفت وصاحب رأي» (١) .

ولم يزل هذا الباب مفتوحاً عند الشيعة ، من زمن صاحب الرسالة الى يومنا هذا ، وقد تخرج منهم الاف من المجتهدين والفقهاء ، قد أحيوا الشريعة وأنقذوها من الانطماس ، وأغنوا بذلك الامة الاسلامية فى كل مصر وعصر ، عن التطلع الى موائد الغربيين ، وألفوا مختصرات ومتطولات ، لا يحصيها الا الله سبحانه .

وقد اقتدى الشيعة فى فتح هذا الباب على مصراعيه فى وجه الامة بأئمة دينهم وخلفاء رسولهم،حيث حثوا شيعتهم بأقوالهم وأفعالهم،على التفقه فى الدين والاجتهاد فيه ، وانه « من لم يتفقه ، فهو أعرابي » وأرشدوهم الى كيفية استخراج الفروع المتشابكة ، من الايات والاصول المتلقاة عنهم،بالتدبر فى الايات والاصول المتلقاة عنهم ، وأمروا أصحابهم بالتفريع (٢) ، وقد بلغت عنايتهم بذلك ما جعلهم ينصبون بعض من يعبأ بقوله ورأيه فى منصب الافتاء ، الى غير ذلك .

والاجتهاد كما عرّفناك هو بذل الجهد فى استنباط الاحكام عن أدلتها الشرعية، فلا يحتج به الا اذا بنيت أحكامه على أساس الكتاب والسنة ، وما يرجع اليها،فهو مقيد من هذه الجهة ، وان كان متحرراً من سوى ذلك ، فلا يتقيد بمذهب ولا برأي، بل هو فوق المذاهب .

غير أن أئمة أهل السنة،قد أقفلوا باب الاجتهاد، الا الاجتهاد فى مذهب خاص، كمذهب أبي حنيفة والشافعي،وبما ان الفتاوى المنقولة عنهم،مختلفة ، أخذ علماء كل مذهب يبذلون جهدهم لتشخيص ما هو رأى كل امام فى هذا الباب .

ولا أدري لماذا أقفل هذا الباب المفتوح من زمن الرسول ، وان تفلسف فى

(١) أصل الشيعة ص ١١٨ .

(٢) ستوافيك روائع نصوصهم فى هذا المضمار .

فى بيان وجهه ، بعض الكتاب من متأخريهم ، وقال : ولم يكن مجرد اغلاق باب الاجتهادباجتماع بعض العلماء واصدار قرار منهم، وانما كان حالة نفسية واجتماعية، ذلك انهم رأوا غزو التتار لبغداد وعسفهم بالمسلمين ، فخافوا على الاسلام ورأو ان اقصى ما يصبون اليه ، هو أن يصلوا الى الاحتفاظ بتراث الائمة مما وضعوه ، وأستنبطوه» (١) .

ولا يكاد يخفى على القارىء الكريم ما فى اعتذاره من الاشكال .

ولقد صدع بالحق الدكتور «حامد حفني داود» استاد الأدب العربي بكليةالالسن فى القاهرة فى ما قدمه على كتاب عقائد الامامية (٢) وقال :

ان الصورة المتوارثة عن جهابذة اهل السنة ان الاجتهاد قفل بابه بائمة الفقه الاربعة : ابي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل .

هذا اذا عنينا الاجتهاد المطلق اما ما حاوله الفقهاء بعد هؤلاء من اجتهادلايعدو ان يكون اجتهاداً فى المذهب او اجتهاداً جزئياً فى الفروع ، وان هـذا ونحـوه لايكاد يتجاوز عند أهل السنة القرن الرابع بحال من الاحوال ، اما ما جاء عن الغزالي فى القرن الخامس ، وأبى طاهر السلفي فى القرن السادس ، وعز الدين بن عبـد السلام وابن دقيق العيد فى القرن السابع ، وتقي الدين السبكي وابن تيمية فىالقرن الثامن والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي فى القرن التاسع... فان هذا ونحوه لايتجاوز ـ فى نظر المنهج العلمي الحديث ـ باب الفتوى ولايدخل فى شيء من الاجتهاد، وهو القدر الذي اوضحناه فى كتابنا «تاريخ التشريع الاسلامى فى مصر» .

اما علماء الشيعة الامامية فانهم يبيحون لانفسهم الاجتهاد فى جميعصوره التي حدثناك عنها،ويصرون عليه كل الاصرار ولا يقفلون بابه دون علمائهم فى اي قرن من القرون حتى يومنا هذا .

---

(١) رسالة الاسلام : العدد الثالث ، من السنة الثالثة عن مقال «لاحمد أمين المصرى» .

(٢) للعلامة المغفور له : الشيخ محمد رضا المظفر راجع ص ١٧-١٨ من المقدمة .

وأكثر من ذلك تراهم يفترضون بل يشترطون وجـود « المجتهد المعاصر) بين ظهرانيهم، ويوجبون على الشيعة اتباعه رأساً دون من مات من المجتهدين مادام هذا المجتهد المعاصر استمد مقومات اجتهاده ـ اصولها وفروعها ـ ممن سلفه من المجتهدين ، وورثها عن الائمة كابراً عن كابر .

وليس هذا غاية ما يلفت نظري او يستهوي فؤادي فى قولهم بالاجتهاد .

وانما الجميل والجديد فى هذه المسألة ان الاجتهاد على هـذا النحو الـذي تقرأه، عنهم يساير سنن الحياة وتطورها، ويجعل النصوص الشرعيـة حية متحركة ، نامية متطورة ، تتمشى مع نواميس الزمان والمكان،فلا تجمد ذلك الجمود الممصد الذي يباعد بين الدين والدنيااو بين، العقيدة والتطور المعلي،وهو الامر الذي نشاهده فى اكثر المذاهب التي تخالفهم . ولعل ما نلاحظه من كثرة عارمة فـى مؤلفات الامامية وتضخم مطرد فى مكتبة التشيع راجع ـ فى نظرنا ـ الى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه».

هذا هو الاجتهاد، وهذا دوره فى خلود الدين وصلوحه للظروف والبيآت ولم يكن اغلاقه الا جهلا بأهميته او ابتغاء للفتنة، أو تزلفاً الى ابناء الدنيا ، اوجبناً عن النطق بالصواب ، وعلى اي تقدير فقد تنبه بعض الجدد (١) من اهل النظر بلزوم فتحه ، وانمائه ، وان الاجتهاد احد مصادر الشريعة التي تسع كل تطور تشريعي ، قال فى مقال له حول الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية بمصر واثبات ما عليه القـواعد الشرعية من سمو وشمول ودقة واحكام مع اتسامها دائماً بالجدة،وملائمة احكامها لكل حضارة ولكل بيئة ولكل زمان ، «النصوص الشرعية للاحكام التي وردت فى الكتاب والسنة قليلةاذاما قيست بمواد القانون فى أية شريعة وضعية،اذ الايات القرآنية التي تضمنت اصول الاحكام على ما احصاها ابن قيم الجوزية لا تعدو مائة وعشرين آية من نيف وستة آلاف آية ، اما الاحاديث فخمسمائة من اربعة آلاف حديث ولقد اراد الله بذلك ان يهيىء للنـاس فرصة الاجتهاد فى الفروع دون الاصـول ، فجعل

(١) الاستاذ على على منصور المصرى مستشار مجلس الدولة لمحكمة القضاء الادارى .

النصوص الاصلية لقواعد الشريعة عامة،دون التعمق فى التفاصيل ليتسع لها عقل من نزل فيهم القرآن،وليترك للقوى الانسانية التي اودعها مخلوقاته، فرصة العمل والتفكير والتدبير واستنباط الاحكام فيما لا نص فيه من كتاب او سنة، لما يجدّ ويعرض لهم فى حياتهم من مشاكل واقضية تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهذا هو الاجتهاد، وهو احد مصادر الشريعة المحمدية .

ومشروعية هذا المصدر ثابتة من حديث معاذ بن جبل اذ أنه لما بعثه الرسول(ص) الى اليمن قال له : بم تقضى يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله . قال الرسول (ص) فان لم تجد ؟ قال: فبسنة رسول الله . قال : وان لم تجد ؟ قال : اجتهد برأيي فأقره على ذلك » وما كان يمكن ان ينزل الكتاب والسنة على غير هذا الاجمال والتعميم، لان هذه الشريعة انما نزلت لكل زمان و كل مكان «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً).

ولو ان صاحب الشريعة عني بالتفاصيل والجزئيات لوجب ان يقدر ما سيكون عليه العالم من نظم مختلفة واختراعات مستحدثة فى جميع الامكنة والازمنة فيضع لها ، ولما تفرغ عنها التفاصيل، ولو انه فعل ذلك لما اتسع وقت الرسالة لهذا كله، بل لأعرض الناس عن هذه الدعوة لتعقدها ، ولأنها تضمنت احكاماً عن جزئيات ومخترعات لا تقع تحت حسهم،ويصعب عليهم تصورها ،لانها لم تعرف فى زمانهم، ولنضرب لذلك مثلا فقد نزلت فى القرآن آية تضمنت الحكم العام لاداب التلاوة وجرت على نسق مختصر «واذا قرأ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون» ، وحدث بعد نزولها بنيف وألف وثلثمائة عام ان اخترع المذياع (الراديو والتلفزيون) ، ولما بدىء باذاعة آيات الذكر الحكيم به، بدء التسائل عن حكم الشرع والدين فى ذلك احلال أم هو حرام؟ وهل يصح اذاعته فى منتدى ترتكب فيه الاثام والموبقات وتدار كؤس الخمر ؟

لا بدع فى ان حكم هذه الجزئية لم يرد بنص صريح فى الكتاب ، وان ذلك ترك للاجتهاد على هدى الحكم العام الوارد بالاية الشريفة ، لا بدع فى ذلك ، اذ لو اريد للشريعة ان تتضمن الاحكام المفصلة لجميع الفروع والجزئيات لوجب اولا

افهام الذين نزل عليهم الدين وقت الرسالة ما هو الراديو وما هو التلفزيون ، ولو حاول الرسول ذلك وقال لهم ان مخترعات البشر باذن الله ستجيء للعالم بعد الف وثلثمائه عام بآلة يستطيع بها الواحدان يسمع ويرى صورة المحدث وهو على بعد آلاف الفراسخ والاميال، لما صدقوة لعدم امكانهم تصوره ولجادلوه فأكثر واجد اله فى كنه تلك الالة ، ولما لزمتهم حجته فى ان الذي يقوله ليس من عنده وانما هو من عند الله لان الحجة لا تلزمها صفة الاقناع الامتى دخلت مناط العقل ، اما اذا كانت فوق ادراك المرسل اليهم فهي داحضة . . .

والاجتهاد هو الباب الذي دخلت منه الى حظيرة الشريعة الاسلامية كل الحضارات بمافيها من مشاكل قانونية ومالية واجتماعية فوسعها جميعاً وبسط عليها من محكم آياته وسديد قواعده ما اصاب المحجة، فكان للشريعة الاسلامية فى ذلك تراث ضخم تسامى على كل الشرائع واحاط بكل صغيرة وكبيرة من امور الدين والدنيا . . .

افبعد ذلك يصح فى الافهام ان تتهم الشريعة الاسلامية بالقصور، أو بأنها نزلت لعرب الجزيرة لتعالج امورهم فى حقبة من الزمان انقضى عهدها ، او انها تضيق عن ان تجد الحلول لمشاكل الحضارات الحديثة، ارجعوا اليها والى تراثها الضخم تجدوا انها عالجت الجليل والخطير والصغير والكبير من امور الدين والدنيا فيها ذكر ما مضى، وفيها ذكر الحاضر، وفيها ذكر المستقبل وسيظل العلم الحديث يكشف عما فيها من كنوز وستترى المشاكل على العالم جيلا بعد جيل ، ويضطرب العالم فى محاولة الحلول لها دون جدوى الا اذا رجع الى احكام هذا الدين وهذه الشريعة المحكمة السمحة ، حيث الدواء الشافي والعلاج الحاسم لكل ما يصيب العالم فى حاضره وفى مستقبلة (١) .

(١) مجلة رسالة الاسلام لجماعة دار التقريب العدد الاول من السنة الخامسة

الحقيقة بنت البحث :

كلمة موجزة ومثل سائر ، يهدف الى أوضح الحقائق وأنصعها ويفيد أن الوقوف على الحقيقة واماطة الستر عن وجهها وليدللنقاش العلمي ووليد المحادثة، وهذا مما لايرتاب فيه احد ويدركه كل من له حظ من الفكر والنظر .

وفى الحقيقة التقاء افكار ذوي الاراء كالتقاء الاسلاك الكهربائية ، فكما ان الاشعة الكهربائية، تتفجر من اتصالها سلباً وايجاباً ، فكذلك نور الحقيقة يشع أمامنا بتبادل الفكرتين وتعارضهما بالنفي والايجاب .

اذ طالما يتخيل الانسان أنه صائب فى فكره ونظره ، فاذا عرضه للبحث والنقاش وتوارد عليه النفى والاثبات ربما ظهر وهنه وضعفه .

نعم يجب على الباحث عن الحقيقة أن يعرض آراءه وأفكاره للجو الهادىء ، المتحرر عن التعصب لفئة غابرة ، او فكرة حاضرة، الشاخص امام كل رأي فارغ عن الدليل والبرهنة، فالاجتهاد بهذا النحو رمز كشف الحقيقة ، رمز خلود الاسلام وبقائه،رمز كونه غضاً طرياً فى كل عصر وجيل .

نعم ربما يجد الناشىء الجديد فى نفسه حرجاً عند وقوفه على اختلاف اصحاب الاراء والمذاهب فى اصول الاسلام وفروعه ، ويتخيله حاجزاً يعرقل خطاه عن الوصول الى الواقع، ويتمنى رفع الخلاف الفكري فى المسائل من رأس بتأسيس مؤتمرات علمية من ذوي الافكار .

بل ربما نسمع من بعض الشباب سؤالايوجهه الى الهيئات العلمية الاسلامية ، ويقول كان فى وسع النبي(ص) ان يجمع اصول الاسلام وفروعه وكل ما يرجع اليه فى كتاب،ويتركه بين الامة حتى يسد بذلك باب النقول من بعده على المتقولين، فلماذا لم يفعل ذلك ؟ !

لكنه رأي غير ناضج ، اذ لو جمعها النبي فى كتاب وسلمه الى الامة ، لاستولى الركود الفكري والتدهور العقلي على عقلية الامة ، وانحسر كثير من المفاهيم والقيم

الاسلامية عن ذهنيتها ، واوجب ضياع العلم وتطرق التحريف الى اصوله وفروعه حتى الى الكتاب الذي كتب فيه كل صغير وكبير .

فلم تقم للاسلام دعامة ، ولا حفظ كيانه ونظامه ، الا على ضوء هذه البحوث العلمية والنقاشات الدارجة بين العلماء،ورد صاحب فكرعلى ذي فكر آخر بلامحاباة

نعم لم تندرس تعاليم الكليم ولم تتحرف معالم المسيح ، الا بشل حركة البحث حول تعاليمهما، ووقف البحث عن الكتاب المقدس وما فيه .

وقد حكى شيخنا العلامة المتضلع شيخ الشريعة الاصفهانى (١) فى مقدمة كتابه (٢) عن بعض الاعلام كلاماً يعرب مما قلناه ، قال : ان عدم محاباة العلماء بعضهم لبعض من اعظم مزايا هذه الامة التي اعظم الله بها عليهم النعمة،حيث حفظهم عن وصمة محاباة اهل الكتابين،المؤدية الى تحريف ما فيهما،واندراس تينك الملتين، فلم يتركوا لقائل قولا فيه ادنى دخل الا بينوه، ولفاعل فيه تحريف،الا قوموه ، حتى اتضحت الاراء وانعدمت الاهواء ودامت الشريعة البيضاء على ملء الافاق بأضوائها وشفاء القلوب بها من أدوائها ، مأمونة عن التحريف ، ومصونة عن التصحيف .

شبهة حول الاجتهاد الدارج فى عصرنا :

ربما يختلج فى اذهان بعض القصر من الناس عدم مشروعية الاجتهاد الدارج في اعصارنا هذه مستنداً بأن الفقه فى هذه الاعصارأخذت لنفسه صورة فنية ،وجاءت على طراز سائرالعلوم العقلية الفكرية بعدماكان فى اعصارالمتقدمين من العلوم الساذجة المبنية على سماع الاحكام من النبي والائمة وبثها بين الناس ، من دون ان يجتهد الراوي فى تشخيص حكم الله ويرجح دليلا على الاخر، أو يقيده أو يخصص واحداً بالاخر ، الى غير ذلك من الاصول الدارجة فى زماننا .

(١) فقيه متضلع ، اصولى بارع ، خبير باسرار الحديث والتفسير فهوممن يضن بهم الدهر الا فى فترات يسيرة ، كان رحمه الله آية فى الذكاء والحفظ ، اثنى عليه كل من ادركه وقرأ عليه . توفى عام ١٣٣٩ هجرية قمرية فى النجف الاشرف ودفن فى الصحن الحيدرى .

(٢) ابانة المختار ، مخطوط نحتفظ بنسخة منه.

الجواب عن الشبهة :

ان ذلك اشبه شيء بالشبهة ويمكن الجواب عنه بوجهين :

الاول : ان الاجتهاد بالمعنى الوسيع واعمال النظر فى الروايات ، والتدقيق فى دلالتها ، وترجيح بعضها على بعض ، كان موجوداً فى اعصارهم ، دارجة بين اصحابهم فان الاجتهاد وان توسع نطاقه فى اعصارنا وبلغ مبلغاً عظيماً ، الا ان اصل الاجتهاد بالمعنى الجامع بين عامة مراتبه كان دارجاً فى تلكم الاعصار وان الائمة ارجعوا شيعتهم الى فقهاء اعصارهم ، وكانت سيرة الناس الرجوع اليهم من دون تزلزل اما ما يدل على وجود الاجتهار بهذا المعنى فى اعصارهم فعدة روايات .

١ ـ ما رواه ابن ادريس فى «مستطرفات السرائر» نقلا عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : انما علينا القاء الاصول وعليكم ان تفرعوا (١) .

٢ـ ما روى عن كتاب احمد بن محمد بن ابى نصر عن الرضا (ع) «قال علينا القاء الاصول وعليكم التفريع» فان التفريع الذي هو استخراج الفروع عن الاصول الكلية الملقاة ، وتطبيقها على مواردها وصغرياتها ، انما هو شأن المجتهد وما هو الا الاجتهاد، نعم التفريع والاجتهاد يتفاوت صعوبة ، كما يتفاوت نطاقه حسب مرور الزمان ، فاذا قال (ع) لا تنقض اليقين بالشك او روى عن النبي (ص) لا ضرر ولا ضرار، كان على المخاطبين وعلى علماء الاعصار المستقبلة استفراغ الوسع فى تشخيص صغرياتها وما يصلح ان يكون مصداقاً له او لا يصلح، فهذا ما نسميه الاجتهاد.

٣ ـ ما رواه الصدوق فى معانى الاخبار عن داود بن فرقد : قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول أنتم أفقه الناس اذا عرفتم معاني كلا منا ان الحكمة لتنصرف على وجوه ولو شاء انسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب (٢) .

فان عرفان معاني الكلام ليس الا تشخيص ما هو الأظهر بين المحتملات ،

(١) وسائل الشيعه كتاب القضاء الباب السادس الحديث ٢٥

(٢) الوسائل كتاب القضاء الباب التاسع الحديث ٣

بالفحص عن القرائن الحافة بالكلام وبعرض اخبارهم على الكتاب والسنة الى غير ذلك مما يتضح به المراد ، ويتعين ما هو المفاد ، وليس هذا الا الاجتهاد .

٤ ـ ما رواه الصدوق فى عيونه بأسناده عن الرضا (ع) قال :من رد متشابه القرآن الى محكمه فقد هدى الى صراط مستقيم ، ثم قال : ان فى اخبارنا محكما كمحكم القرآن ومتشابهاً كمتشابه القرآن فردوا متشابهها الى محكمها، ولا تتبعوا متشابههادون محكمها فتضلوا (١) فان رد المتشابه الى محكمه بجعل أحدهما قرينة على الاخر ، لا يتحقق بدون الاجتهاد .

٥ ـ الروايات الواردة فى تعليم أصحابهم كيفية استفادة الاحكام والفروع عن الذكر الحكيم . مثل قول الامام الباقر (ع) بعد ما سأله زرارة بقوله : الا تخبرني من أين علمت ان المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين فضحك وقال:يا زرارة قاله رسول الله (ص) ونزل به الكتاب عن الله عز وجل قال فاغسلوا وجوهكم فعرفنا ان الوجه، كله ينبغي ان يغسل ثم قال وأيديكم الى المرافق فوصل اليدين الى المرافق بالوجه فعرفناانه ينبغي لهما ان يغسلا الى المرفقين،ثم فصل بين الكلام فقال وامسحوا برؤوسكم ، فعرفنا حين قال:برؤوسكم ان المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال وأرجلكم الى الكعبين فعرفناحين وصلهما بالرأس ان المسح على بعضها ثم فسر ذلك رسول الله (ص) فضيعوه (٢) .

٦ ـ ما فى رواية عبد الاعلى مولى آل سام بعد ما سأل عن الامام عن حكم المسح على المرارة . قال:هذا واشباهه يعرف من كتاب الله عزوجل قال الله تعالى: ما جعل عليكم فى الدين من حرج، امسح على المرارة ، فقد أوضح على السائل كيفية الاستنباط ، ورد الفروع على اصولها . ونظير ما تقدم بل اقوى منه ما فى مرسلة (٣) يونس الطويلة الواردة فى أحكام الحائض والمستحاضة ، فان فيها

(١) الوسائل كتاب القضاء الباب التاسع الحديث ٢٥
(٢) الوسائل ابواب الوضوء الباب ٢٣ الحديث ١
(٣) وسائل الشيعة ابواب الحائض الباب ٣ الحديث ٤

موارد يرشدنا الى طريق الاجتهاد الى غير ذلك من الروايات المرشدة الى دلالة الكتاب وكيفيه الاستدلال ، وهي منبثة فى طيات أبواب الفقه فراجع :

٧ ـ قول الباقر (ع) لزرارة ومحمد بن مسلم حيث سألا عن أبي جعفر الباقر (ع) وقالا له ما تقول فى الصلاة فى السفر كيف هى وكم هي فقال ان الله عز وجل يقول « واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة» (النساء ـ ١٠٢) فصار التقصير فى السفر واجباً كوجوب التمام فى الحضر قالا قلنا انما قال الله عزوجل « فليس عليكم جناح » ولم يقل « افعلوا » فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام فى الحضر ؟ فقال (ع) أوليس قد قال الله عز وجل «ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما» (البقرة ـ ١٥٣) الا ترون ان الطواف بهماواجب مفروض لأن الله عزوجل ذكره فى كتابه وصنعه نبيه وكذلك التقصير شيء صنعه النبي وذكره الله فى كتابه (١) .

٨ ـ مقبولة عمر بن حنظلة ورواه المشايخ العظام فى جوامعهم وتلقاها الاصحاب بالقبول ، بل عليها المدار فى كتاب القضاء وهي تصرح بوجود الاجتهاد بالمعنى الدارج فى زماننا فى عصر الصادق (ع) ودونك متنها: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة فى دين أوميراث فتحاكما الى السلطان أو الى القضاة ، ايحل ذلك ؟ قال : من تحاكم اليهم فى حق أو باطل فانما تحاكم الى الطاغوت وما يحكم له فانما يأخذه سحتا وان كان حقه ثابتاً ، لانه أخذ بحكم الطاغوت ـ الى ان قال ـ قلت : كيف يصنعان ؟ قال : ينظر ان الى من كان منكم ممن قدروى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف احكامنا فليرضوا به حكماً فاني جعلته عليكم حاكماً ومن رده فانما بحكم الله استخف ، وعلينا قد رد والراد علينا كالراد على الله وهو على حد الشرك بالله قلت : فان كان كل رجل يختار رجلا من اصحابنا فرضيا ان يكونا ناظرين فاختلفا فيما حكما وكلاهما اختلفا فى حديثكم ، قال : الحكم ما حكم به اعدلهما وافقهما واصدقهما فى الحديث وأورعهما ولا

(١) الوسائل ابواب صلاة المسافر الباب ٢٢ الحديث ٢

يلتفت الى ما يحكم به الاخر . ، قال قلت فانهما عدلان مرضيان عند اصحابنا لا يفضل واحد منهما على صاحبه قال : فقال ينظر الى ما كان من رواياتهما عنا فى ذلك الذي حكما به المجمع عليه عند اصحابك فيؤخذ به من حكمنا ويترك الشاذ الذى ليس بمشهور عند اصحابك، فان المجمع عليه لا ريب فيه الى آخر ما افاده وفيه ارشاد الى كيفية استنباط الحكم عن الكتاب والسنة، وعلاج الخبرين المتعارضين بعرضهما عليهما (١) .

الخامس : حقوق الحاكم الاسلامى

من الاسباب الباعثة على بقاء الدين وكونه ذا مادة حيوية صالحة لحل المشاكل والمعضلات الطارئة، كون الحاكم الاسلامي بعد النبى ممثلا لقيادته الحكيمة فى امور الدين والدنيا ، التي من شأنها ان توجه المجتمع البشري الى ارقى المستويات الحضارية الصحيحة ، فقد منح مثل هذا الحاكم بنص الشريعة الاسلامية ، كافة الصلاحيات المؤدية الى حق التصرف **المطلق** فى كل ما يراه ذا صلاحية للامة ، لانه يتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والامام من النفوذ المطلق، الا ما يعد من خصائصهما.

والى ذلك يشير شيخ الامة الميرزا النائيني فى اثره الخالد «تنبيه الامة وتنزيه الملة» ويقول : « فوض الى الحاكم الاسلامي وضع ما يراه لازماً من المقررات ، لمصلحة الجماعة وسد احتياجاتها ، فى اطار القوانين الاسلامية» (٢) .

مثلا اذا راى الحاكم ، ان المصلحة تقتضى فتح طريق او شارع، فقد فوض اليه ذلك الامر ، فله ان يقرر وينفذ ما يحقق هذه الغاية ،فى ضوء العدل والانصاف، كاجبار اصحاب الاراضي التي يمر بها الطريق على بيع اراضيهم ووضع ضريبة على صنف خاص من الشعب ، او كله لتأمين هذه الغاية .

---

(١) الوسائل كتاب القضاء ابواب صفات القاضى وما يقضى به الباب ٩ الحديث ١ .

(٢) تنبيه الامة وتنزيه الملة ص ٩٧ .

ولهان يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير ، متوخياً فى ذلك ، سلامة النفوس وسهولة الذهاب والاياب ، كل ذلك فى اطار القوانين العامة الاسلامية .

وهذه الحقوق كانت ثابتة فى الدرجة الاولى ، للنبي الاعظم ، لقوله تعالى : «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم»(الاحزاب ـ٣٣) ، وبعده لخلفائه المعصومين، ائمة الدين،وفوضت من بعدهم،الى علماء الامة وفقهائهم الذين القيت على كواهلهم امور تدبير حياة الامة ، وصيانة الشريعة ، بالادلة القطعية المقررة فى محلها (١) .

ان الحاكم الاسلامي اذا نجح فى تأسيس حكومة اسلامية فى ثغر من ثغور الاسلام او فى مناطقه كلهاوتوفرت فيه الشرائط والصلاحياتاللازمة واخص بالذكر العلم الوسيع والعدل ، يجب على المسلمين اطاعته ، وله من الحقوق والمناصب والولاية ، ما للنبي الاكرم من اعداد القوات العسكرية ودعمها بالتجنيد وتعيين الولاة واخذ الضرائب وصرفها فى محالها الى غير ذلك . . .

وليس معنى ذلك ان الفقهاء والحكام الاسلاميين مثل النبي والائمة فى جميع الشؤون والمقامات حتى فى الفضائل النفسانية والدرجات المعنوية فان ذلك راي نافة لا يركن اليه،اذان البحث انما هو فى الوظائف المحولة الى الحاكم الاسلامي والموضوعةعلىعاتقة لا فىالمقامات المعنوية والفضائلالنفسانية ، فانهم(ص) فىهذا المضمار فىدرجة لايدرك شأوهم ولايشق غبارهم حسبروائع نصوصهم وكلماتهم.

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائرالمحكومين بل هي من وجهة النظر الاسلامية مسؤلية اجتماعية كبرى امام الله سبحانه أولا وامام المسلمين ثانياً والجهة الجامعة ما بين الحاكم والامام فىادارة دفة الحكم وسياسةالعباد ليس لها اي ارتباط بالمثل الخلقية والصفات النفسانية (٢) .

---

(١) راجع بحث ولاية الفقيه من مكاسب الشيخ الاعظم وغيرها مما ألف بعده فى هذا الموضوع .

(٢) ولاية الفقيه للاستاذ الاكبردام ظله الوارف ص ٦٣ ـ ٦٦ .

وهذه الوجوه التي مرت عليك بالاجمال أوجبت خلود الشريعة ، وبقائها وصلاحها لادارة المجتمع فى الاعصار كلها ، مع اختلافها فى الحضارة والتقدم .

* * *

الامر الثانى مرونة أحكامه :

من الاسباب الدافعة الى صلوح الاسلام للبقاء والخلود ، مرونة أحكامه التي تمكنه من أن يماشي جميع الازمنة والحضارات ، وقد تمثلت هذه المرونة بتنفيذ امور :

١ ـ الاسلام دين جامع ، والامة الاسلامية أمة وسط :

ان من الاسباب التي أوجبت ، خلود الدين الاسلامي ، وأعطته الصلاحية للبقاء مع اختلاف الظروف وتعاقب الاجيال ، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة الى المادة والدعوة الى الروح ديناً وسطاً بين المادية البحتة والروحية المحضة ، فقد ألف بتعاليمه القيمة بينهما ، مؤالفة تفي بحق كل منهما ، بحيث يحق للانسان أن يأخذ قسطه من كل منهما بقدر ما تقتضيه المصلحة .

وذلك أن المسيحية غالت فى التوجه الى الناحية الروحية ، حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى ، فدعت الى الرهبانية والتعزب وترك ملاذ الحياة ، والانغزال عن المجتمع ، والعيش فى الأديرة وقلل الجبال ، وتحمل الظلم والرفق مع المعتدين ، كما غالت اليهودية فى الانكباب على المادة حتى نسيت كل قيمة روحية ، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت ، المقصد الاسنى ، ودعت الى القومية الغاشمة والطائفية الممقوتة .

وهذه المبادىء سواء أصحت عن الكليم والمسيح (ع) أم لم تصح (ولن تصح) لا تتماشى مع الحضارات الانسانية التقدمية ولا تسعدها فى معترك الحياة ، ولا تتلائم مع حكم العقل ولا الفطرة السليمة .

لكن الاسلام جاء اينظر الى واقع الانسان ، بما هو كائن ، لا غنى له عن المادة ، ولا عن الحياة الروحية ، فأوليهما عنايته ، فدعا الى المادة والالتذاذ بها ، بشكل

لا يؤثر معه على الحياة الروحية ، كما دعا الى الـروحية بشكل لا يصادم مـع فطرته وطبيعته .

وحصيلة البحث : انه لم يعطل الفطرة في تشريعه وتقنينه ، بل جعـلها مقياساً لحكمه بالوجوب والتحريم ، فاذا كان الحكم مطابقاً لطبع من شرعت له الاحكام ، حافظاً لكيانه ، لا يتعارض مع ما يحتاج اليه جسمه وروحه ،كان ماضياً ونافذاً حسب بقاء الفطرة ودوامها .

وأما تفصيل الايات التي تمثل راى الاسلام فى الدعوة الى الدين والدنيا ، الى الروح والجسم ، الى المادة والمعنى ، فليرجع فيـه الى الكتب المعـدة لبيان ذلك .

ونختم البحث بكلمة قيمة عن امير المؤمنين (ع) قال : للمؤمن ثلاث ساعات ، ساعـة يناجي فيها ربه ، وساعـة يرم فيها معاشه ، وساعة يخلى بين نفسه ولذاتها (١) .

فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس ، بحيث جعل الجميع فى مستوى واحد ، فندب الى عبادة الله ، كما ندب الى طلب المعاش ، وتوخي اللذة بحكم واحد بلا مفاضلة .

فلو كان اداء الصلاة والصوم والقيام بالحج وظيفة دينية ، فشق الطريق لطلب الرزق والمعاش والقيام بنزهة بين الرياض او سباحـة فى البحـر والعمل الرياضي البدني ، وظيفة دينية للمؤمن ، كما نص الامام عليه السلام .

وهذا من الاسس التي تنسجم مع الاسلام وتحول بينه وبين التصادم مع الحضارات المتواصلة ، الى عصرنا هذا ، فاذا كان المنهج ،منهجاً متوسطاً بين المادية والروحية، مطابقاً لفطرة الانسان انقادت له مقاليد الحضارات الانسانية الصاعدة وارتفع التصادم.

(١) نهج البلاغة ، باب الحكم ، رقم ٣٩٠ .

٢ ـ النظر الى المعانى ، لا المظاهر :

ان الاسلام ، ينظر الى المعاني والحقائق ، لا المظاهر والقشور ، ولذلك لا تجد فى الاسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة ، له من القداسة ما يمنع تغييره ، ويوجب حفظه الى الابد بشكله الخاص ، ولاجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه مع التقدم العلمي الهائل فى مظاهره ، واشكاله الخارجي ، وتفصيل الكلام فى ذلك موكول الى محله .

٣ ـ الاحكام التى لها دور التحديد :

من الاسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وانطباقه لجميع الحضارات الانسانية تشريعه للقوانين الخاصة التى لها دور التحديد والرقابة بالنسبة الى عامه تشريعاته ، وقد اصطلح عليها الفقهاء ، بالادلة الحاكمة، لاجل حكومتها وتقدمها على كل حكم ثبت لموضوع بما هو هو .فهذه القوانين الحاكمة ، تعطى لهذا الدين مرونة يماشي بها كل حضارة انسانية ، مثلا : قوله سبحانه :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (الحج ـ ٧٨) حاكم على كل تشريع استلزم العمل به حرجاً ، لا يتحمل عادة ، للمكلف ، فهو مرفوع ، فى الظروف الحرجية ، ومثلا قوله : « ص » لا ضرر ولا ضرار » فكل حكم استتبع العمل به ضرراً شديداً،فهو مرفوع فى تلك الشرائط،وقس عليهماغيرهمامن القوانين الحاكمة.

نعم تشخيص الحاكم عن المحكوم ، وما يرجع الى العمل بالحاكم من الشرائط ، يحتاج الى الدقة والامعان والتفقه والاجتهاد . ومن رأينا ان الموضوع يحتاج الى التبسط أكثر من هذا ، فالى اللقاءأيها القارىء المنف الكريم .

خاتمة المطاف :

هذه هي الخاتمية ، ودلائلها المشرقة ، وشبهاتها الصئيلة ، وأسئلتها الهامة ، وأجوبتها الرصينة عرضناها للبحث والتنقيب ، فلم يكن رائدنا الا تبني الحقيقة ، وكشف الغطاء عن وجهها ، متحررين من كل رأي سابق لا دليل عليه(١) .

ان بعض الكتاب من الجدد طرح سؤالا فى المقام وجاء بجواب مبهم أوجد قلقاً واستياء فى الاوساط العلمية ونحن ننقله بتعريب منا :

س : انكم تذهبون الى ضرورة التكامل حتى فى وجود شخص النبى، وأثبتم ان كل موجود يحتاج الى السير التكاملى . اذن لماذا كان النبى محمد يقول : انا خاتم النبيين .

ج ـ لقد أجاب على قسم من هذا السؤال الفيلسوف الاسلامى الكبير «محمد اقبال» وأضيف أنا الجواب على بقيته،وهو ما أذهب اليه وأنا مسؤول عنه ، فأقول : عند ما يقول النبى «أناخاتم الانبياء» لا يريد أن يقول «ان التشريعات التى أتيت بها تكفى البشرية الى الابد» بل الخاتمية تريد أن تقول: كان الانسان يحتاج حتى الان ـ لاستمرار حياته الى الهداية بماوراء مايستمده من عقله وما توحيه تربيته البشرية ، والان فى هذا العصر (القرن السابع الميلادى) وبعد أن أوجدت المدنية اليونانية وحضارة روما والتمدن الاسلامى ، وبعد أن أنزل القرآن والانجيل والتوراة ، بلغت التربية المذهبية الى حد الذى كان لابد منه . وبعد هذا العصر ـ وعلى ضوء هذا القسم من التربية ـ بامكان الانسان أن يحيى ويتكامل من دون حاجة الى وحى ونبوة جديدة وعلى هذا ختمت النبوة فشقوا الطريق بأنفسكم .

ولم يظهر لنا ماذا قصد من هذا الجواب ودونك بعض احتمالاته :

١ ـ ان يقصد من قوله «لا يريد ان يقول ان التشريعات التى اتيت بها تكفى البشرية الى الابد» ما أوضحناه عند البحث عن السؤال الخامس، من انه يجب على علماء الامة وفقهائهم عندما يحدث شىء من المشكلات والازمات فى جميع مجالات الحياة من الحوادث التى لم تكن معهودة فى عصر صاحب الرسالة ، استفراغ الوسع فى استنباط أحكامها فى ضوء الكتاب والسنة واطار سائر المصادر الشرعية، فلو أراد هذا فهو حق لا اشكال فيه غير أن تلك النظرية لاتختص به ولا بالفيلسوف الاسلامى «محمداقبال»،حتى يكون هو المسؤل فى ما ذهب اليه واختار ، بل كل مسلم يؤمن بأن الاسلام شريعة الله الخالدة الدائمة النامية الكاملة لحل جميع امور الحياة ومشاكلها من اصولها الى فروعها .

٢ ـ أن يكون المقصود منه الاعلام بختم النبوة والرسالة دون ختم التشريع فهو مفتوح لم يوصد بعد ، فعلى الامة ان تشرع من القوانين حسب ما تحتاج اليه فى عبر الزمان . غير ان تلك فكرة عليها مسحة مسيحية محجوجة بما دلت الضرورة والادلة على ان التشريع من حقوق الله سبحانه على عباده لم يفوضه لاحد من افراد الامة .

(٣)

النبى الامى فى الذكر الحكيم

عرض وتحليل للايات الدالة على أن النبي الاعظم كان امياً نشأ بين الاميين. وفيه دحض للرأي الموروث عن رجال التبشير ، وقد صاغه بعض مقلدة الدور الاخير فى الشرق في قالب خاص .

لم يختلف اثنان من الامة الاسلامية فى أن نبي الاسلام (ص) كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته، لمصلحة صرح الله بها فى الكتاب العزيز وسوف يوافيك بيانها . وصحائف حياته البيضاء أوضح دليل على ذلك ، وقد أجمع أهل السير والتاريخ على أنه (ص) لم يدخل مدرسة ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلم الكتابة، بل هو منذ نعومة أظفاره، يوم كان فى أحضان جده وعمه الى ان بلغ الاربعين، لم يحم حول هذه الامور وقد تواترت على ذلك كلمات العلماء الابرار والفطاحل من أئمة الاسلام. وقد اقتفوا فى ذلك كتاب الله العزيز ودونك نصوصه من مواضع مختلفة .

النص الاول قوله سبحانه :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » (العنكبوت ـ ٤٨) سبحان الله ما أصرح كلامه وأوضح دلالته .

هل تجد من نفسك ريبا فى أنه بصدد نفي تلاوة أي كتاب عن نبيه الاكرم قبل نزول الوحي عليه ، وكتابة أي صحيفة عنه ، أوليس من القواعد الدارجة بين أئمة الادب، ان النكرة فى سياق النفي تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها وتعطى شمول السلب ، كقوله سبحانه : « ومن يهن الله فماله من مكرم » (الحج – ١٨) وقد قال سبحانه : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب» فأدخل النفى على النكرة وجعلها فى سياقه ، فاذن المراد من التلاوة المنفية، تلاوة مطلق الكتاب كما أن المراد من الخط المنفي عنه ، تسطير أي كتاب وترسيم أي صحيفة تقع فى ذهن السامع ، فالضمير المتصل بالفعل (لا تخطه) عائد الى « كتاب » وكانه جل شأنه قال وما كنت تخط كتاباً. وقد وافاك أن مثل هذا الكلام لوقوع النكرة فى سياق النفي تفيد عموم النفي

فالله سبحانه نفى عن نبيه ، مطلق التلاوة والكتابة قبل بعثته .

ثم انه عز اسمه ، علل سلب هذا الامر عن نبيه بمصلحة أولى وألزم ، وهي نفي ريب المبطلين وشك المشككين، اذ لو كان الرسول (ص) فى برهة من عمره تالياً للكتب ، وممارساً للصحف،لساغ للبسطاء من أمته والمعاندين منهم أن يرتابوا فى رسالته وقرآنه،ويلوكوا فى أشداقهم بان ما جاء به من الصحف والزبر والسور والايات ، انما تلقاها من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها فى قوالب فصيحة ، تهتز منها النفوس وترتاح اليه القلوب ، فليست لما يدعيه من نزول الوحي على قلبه ، مسحة حق أو لمسة صدق .

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين فقال سبحانه:«وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» (الفرقان ٤ ـ ٥) فالله سبحانه لقلع جذور الشك عن قلوب السذج من الامة ، والمبطلين منهم ، صرفه عن تعلم الكتابة حتى يصح لنبيه أن يتلو على رؤوس الاشهاد قوله سبحانه «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون» ، (يونس ـ ١٦) .

يعني يا معشر العرب:أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتي فاني تربيت بين ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الاربعين ، فهل رأيتموني اتلو كتاباً أو اخط صحيفة ، فكيف ترمونني بالافك الشائن : بأنه أساطير الاولين التي اكتتبتها ، ثم افتريتها على الله ، واعانني على ذلك قوم آخرون . فلو لم يكن النبي أميـاً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان قارئاً وكاتباً وممارساً لهما على رؤوس الاشهاد ، لما أمكن له أن يتحدى الامة العربية وفى مقدمهم صناديد قريش بقوله : «قل أنزله الذي يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفوراً رحيماً» (الفرقان ـ ٦) فلاجل تحقيق هذه المصلحة المهمة ، نشأ النبي بين أحضان قومه ، وشب وترعرع الى أن ناهز الاربعين وهو أمي لا يحسن القراءة والكتابة .

و جاء المفسرون فى المقام بكلمات درية وجمل موضحة للمراد فقال أمين الاسلام فى تفسير الاية:«اللام» فى قوله ـ اذاً لارتاب المبطلون ـ للقسم وفى الكلام حذف، تقديره : ولو خطته بيمينك أو تلوت قبله كتاباً اذاً والله لارتابوا،والمعنى لو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً الى ايجاد الشك فى أمرك والقاء الريبة لضعفة الناس فى نبوتك ولقالوا:انما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الاولين فلما ساويتهم فى المولد والمنشأ ثم أتيت بماعجزوا عنه وجب أن يعملوا انه من عند الله تعالى وليس من عندك،اذ لم تجر العادة أن ينشأ الانسان بين قوم يشاهدون أحواله من عند صغره الى كبره ، ويرونه فى سفره وحضره ، لا يتعلم شيئاً من غيره ، ثم ياتي من عنده بشيء يعجز الكل عنه وعن بعضه ويقرأ عليهم أقاصيص الاولين (١) .

ثم ان للدكتور عبد اللطيف الهندي المعاصر ـ فى مقال خاص له حول أمية النبي الاعظم ـ رأياشاذاًوقد ألقي مقاله هذا باللغةالانكليزية فى المؤتمر الاسلامي المنعقدفى حيدر آبادعام(١٩٦٤)فخرق الاجماع المسلم بين طوائف المسلمين على أنه(ص) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وخالف الرأي العام وقال انه (ص) لم يكن أمياً لايحسن القراءة والكتابة بل كان يقرأ ويكتب فى حداثة سنه الى اخريات أيامه (٢) ولما رأى أن تلك النظرية تخالف النص الصريح فى القرآن الكريم جاء يتأول ظاهر الاية تأويلا بارداً وقال ما هذا حاصله :

المراد من الكتاب فى قوله :«وما كنت تتلو من قبله من كتاب»،انما هو الكتب السماوية نظائر التوراة والانجيل النازلة بغير اللغة العربية فلم يكن النبي عارفاً بتلكم اللغات ولا قادراً على تلاوتها وهو غير القول بأنه (ص) لم يكن قارئاً ولا كاتباً حتى باللغة العربية التي هي لسان قومه وبيته .

ولا أدري ماذا حمل الكاتب على هذا التأويل اذ لو كان المراد نفي معرفته

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٨٧ .

(٢) وقد تأثر فى نظره عن رجال الكنيسة والتبشير قال الحداد فى كتابه القرآن والكتاب ص ٤١٠ محمد لم يكن امياً بل تاجراً دولياً ومثقفاً مطلعاً وبحاثة دينياً ...

بهذه الكتب المعينة ، لما صح له أن يقول «من كتاب» بل كان عليه أن يقول ما كنت تتلو من قبله من الكتاب أو من الكتب مشيراً باللام الى الكتاب أو الكتب المعهودة وقد أتى باللام فيما قصد نفي العرفان بالكتب السماوية عنه فقال تعالى «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم» (الشورى ـ ٥٢) .

وقال عز شأنه : «وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون» (العنكبوت ـ ٤٦) .

ترى انه سبحانه عندما رام ان يشير الى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام اشارة الى معهوديتها .

أضف اليه أن الهدف الاسمي للاية من نفي التلاوة والكتابة عنه (ص) هو قلع جذور الريب والشك من قلوب المبطلين ، ولا يتحصل ذلك الا بكونه أمياً غير قارىء ولا كاتب قط ، ولا يحسن القراءة والكتابة أصلا . ولو صح ما يرتئيه الدكتور لما نهضت الاية لرفع آثار الشك وغبار الريب بل كان باب اكتساب الشك فى أمره (ص) والقاء الريب فى قلوب ضعفاء الناس بنبوته مفتوحاً بمصراعيه . اذ كان للجاحد المبطل أن يقول أنه (ص) بمزاولته للصحف والكتب العربية ، وقف على أحوال الماضين وأقاصيص الاولين ، فأودع نتائج أفكاره وما أستحصل عليه منها بعد سبره لغورها ، فى هذه الصحائف وفى ضمنها من هذه السور والايات التي افتراها على الله ، وقد رماه بهذه الفرية الشائنة رؤوس الكفر والعناد فيما حكاه عز وجل: «وقالوا أساطير الاولين اكتسبتها فهي عليه بكرة وأصيلا» (الفرقان ـ ٥) .

وفى نفس الاية دليل بارز على أن الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه (ص) حيث عطف على الجملة الاولى « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب » قوله (ولا تخطه بيمينك) .

بيانه : لو كان المراد من الاية سلب القدرة عن النبي (ص) فى خصوص مايتعلق بتلاوة الكتب الدينية النازلة باللغة العبرانية أو غيرها من اللغات غير الدارجة في الجزيرة

العربية ، لكان له تعالى أن يقتصر على الجملة الاولى، ولا يرد فها بقوله «ولا تخطه» لوضوح الملازمة بين السلبين . فاذا كان الرجل لا يقدر على قرائة كتاب ألف بلغة خاصة ،فهولا يقدر على خطها وترسيمها بتاتاً فعلي ذلك لماذا جيىء بالمعطوف مع امكان الاستغناء عنه بما تقدم عليها .

ولكن لو كان العرض هو التنبيه على أمية النبي بأوضح العبارات ، والاجهار بها باصح الاساليب ، وأنه (ص) قبل بعثته لم يكن قارئاً ولا كاتباً بتاتاً ، بل كان بعيداً عن ذلك كل البعد، لصح عطفها على ماتقدم عليها،لان العرف اذا حاول توصيف الرجل بالامية يقول في حقه : انه لا يعرف القراءة والكتابة ، أو أنه ليست بينه وبين التلاوة والكتابة أية صلة ، ولا يقتصر على نفي الاولى بل يرد فها بنفي الاخرى أيضاً ، توضيحاً للمراد . والله سبحانه لما أراد التركيز على أمية النبي وأنه طيلة عمره كان بعيداً عن مجالات العلم والدراسة ، أتى بما هو الدارج فى لسان العرب ، اذا أرادوا توصيف الشخص بالامية .

والشاهد على ما ذكرنا: انك لو القيت هذه الاية على أي عربي عريق فى لغته ولسانه ، يقضى بأن المقصد الاسني منها نفي معرفته (ص) التلاوة والكتابة على الاطلاق.نعم الاية خاصة بما قبل البعثة،لا تعم ما بعدها ولنا عودة الى هذا الموضوع فى الابحاث الاتية فانتظر .

النص الثانى من القرآن على كونه أمياً

يدل على ذلك قوله سبحانه :

«الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون» .

« فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (الاعراف ١٥٧-١٥٨) .

قد وصف سبحانه نبيه فى هذه الاية بخصال عشر وهي : أنه رسول ، نبي ، أمي ، مكتوب اسمه فى التوراة والانجيل ومنعوت فيهما بأنه ، يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، يحل لهم الطيبات، يحرم عليهم الخبائث ، يضع عنهم الاصر ، ويرفع عنهم الاغلال .

وهذه الصفات التي تضمنتها الاية فى حق النبي الاكرم واضحة حتى الوصف الذي هو موضوع البحث (الامي) اذ الامي حسب تنصيص الكتاب المبين هو من لايقدر على القرائةولايحسن الكتابة كما يقول سبحانه «ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون» (البقرة ـ٧٨) .

قوله سبحانه : «لا يعلمون الكتاب» توضيح لقوله أميون أي منهم أمة منقطعون عن كتابهم لايعلمون منه الا أوهاماً وظنوناً يتلوها عليهم علماؤهم ، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها ، ويحسب هؤلاء السذج أنه الكتاب المنزل اليهم من ربهم. ولذلك قال سبحانه فى الاية التاليه : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (البقرة ـ ٧٩) فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قرائته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرفين ، ولميزوا الصحيح من الزائف ، غير أن اميتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أمنيتهم .

قال الرازى : انه تعالى وصف محمداً فى هذه الاية بصفات تسع (١) الى ان قال ـ الصفة الثالثة كونه امياً ، قال الزجاج : معنى الامى الذي هو على صفة امة العرب ، قال عليه الصلاة والسلام : انا امة امية لا نكتب ولانحسب (٢) فالعرب اكثرهم ماكانوا يكتبون ولا يقرؤن ، والنبي كان كذلك ، فلهذا السبب وصفه بكونه امياً (٣) .

(١) لا ، بل عشر ، كما عرفت .

(٢) ايعاز الى ما رواه البخارى فى صحيحه ج ١ ص ٣٢٧ عن النبى (ص) انه قال : أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا أو هكذا ، مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين .

(٣) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٠٩ .

وقال البيضاوي : الامي لايكتب ولا يقرء ، وصفه به تنبيهاً على انكمال علمه مع حاله احدى معجزاته (١) .

هذا وقد وقد أصفقت على ماذكرنا من المعنى للامية معاجم اللغة المؤلفة في العصور الزاهرة بأيدي الخبراء الاساطين وفى مقدمهم : ابوالحسين احمد بن فارس بن زكريا المتوفى فى عام ٣٩٥ صاحب «مقاييس اللغة» وغيرها من الكتب الممتعة (٢) ودونك كلامه :

«أم» لهاصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب وهي الاصل، والمرجع، والجماعة، والدين قال الخليل : كل شيىء تضم اليه ما سواه مما يليه ، فان العرب تسمى ذلك أما ومن ذلك أم الرأس وهو الدماغ ، أم التنائف أشدها وأبعدها ، أم القرى مكة وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى، وأم القرآن فاتحة الكتاب، وأم الكتاب ما فى اللوح المحفوظ، وأم الرمح لواءه ومالف عليه ، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها أم مثوى، وأم كلبة الحمى، وأم النجوم السماء، وأم النجوم المجره ... الى ان عد كثيراً من هذه التراكيب فقال : الامي فى اللغة المنسوب الى ما عليه جبلة الناس لا يكتب ، فهو فى انه لا يكتب على ما ولد عليه (٣) .

ومحصل كلامه انه ليس للام الامادة واحدة وهي الاصل لغيرها ومنه يتفرع غيرها فام الانسان أم لانها أصله وعرقه وهكذا . . .

وهذا الزمخشري امام اللغة والبلاغة فسر قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون » بأنهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها (٤) .

---

(١) انوار التنزيل واسرار التاويل ج ٣ ص ٢٣٠ مع شرحه لاسماعيل القنوى .

(٢) بلغ ابن فارس الغاية فى الحذق باللغة ، وكنه أسرارها ، وفهم اصولها، وقد حاول فى تأليف هذا المعجم أن يوحد المعانى المتعددة المفهومة من لفظ واحد وذلك بارجاعها الى أصل واحد تفرعت عنه تلك المعانى فى الاستعمال ـ وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف ولم يسبقه الى مثله أحد ، ولم يخلفه غيره .

(٣) المقاييس ج ١ ص ٢١ ـ ٢٨ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٢٤ .

وقال أمين الاسلام فى مجمع البيان ، ذكرو اللامي معاني .

أولها : انه الذي لا يكتب ولا يقرأ .

ثانيها : أنه منسوب للامة والمعنى انه على جبلة الامة قبل استفادة الكتاب .

ثالثها : أنه منسوب الى الام والمعنى أنه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة.

قلت : هذه المعاني متقاربة تهدف الى مفهوم واحد . وانما الاختـلاف فى انتسابه الى الام أو الامة وقد جمع ابن فارس فى كلامه كلا الاحتمالين .

هذه نصوص بعض أئمة اللغة وأساطين التفسير ، اذا شئت فلاحظ كلمات الباقين منهم .

* * *

الاراء الشاذة فى تفسير الامى:

ربما يجد القارىء فى طيات بعض التفاسير معاني آخر للامي لا تتفق مع ما أصفقت عليه أئمة اللغة والتفسير فلا بأس بذكرها ودحضها .

١ ـ الامي منسوب الى أم القرى وهي علم من اعلام مكة كما يدل عليه قوله سبحانه «وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم‌القرى ومن حولها» (الشورى ـ ٧) وعلى ذلك فالمراد من الامي أنه مكى .

وفيه مواقع للنظر والنقد:

أولا : ان أم القرى ليست‌من أعلام مكة ـ وان كان يطلق عليها ـ غير أن الاطلاق لا يدل على كونه من أعلامها ، بل هو موضوع على معنى كلي وهي أحد مصاديقه ولا تنس ما ذكره ابن فارس بقوله : « كل مدينة هي أم ما حولها من القرى » فيعلم من ذلك ان أم القرى مفهوم كلي يصح اطلاقه على أية بلدة تتصل بها قرى كثيرة بالتبعية،وهذه القرى تعتمد عليها فى أمور حياتها ، ويعاضد ما ذكرنا (كون أم القرى كلياً)قوله عزوجل:«وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى‌أمها رسولا» (القصص ـ ٥٩) فالاية (بحكم رجوع الضمير فى أمها الى القرى) صريحة فى أنها ليست‌علماً

لموضع خاص،لان مشيئته تعم الامم فى هذا الامر (أهلاك الامم وابادتهم بعد أنذارهم ببعث الرسل) ولا تختص بأمة دون أخرى ـ أو نقطة دون نقطة ـ وعلى هذا ـ فمفاد الاية ان الله سبحانه يمهل أهل القرى من دون فرق بين قرية وقرية،حتى يبعث فى مركزها الذي هو مركز الثقل بالنسبة اليها ، والمجتمع لاكثر الناس ، وملتقى أفكارهم ، رسولا يبشرهم وينذرهم ، فاذا ضربوا عنه صفحاً وهجروا مناهجه،يبيدهم ويهلكهم بألوان العذاب وهذه مشيئة الله وعادته فى الامم السالفة البائدة جميعاً مكية كانت أم غيرها .

وثانياً: لو صح كونه من اعلام مكة فالصحيح عند النسبة اليها هو القروي لا الامي،هذا ابن مالك يقول فى ألفيته :

وانسب لصدر جملة وصدر ما ركب مزجا ولثان تتما
اضافة مبدوة بابن وأب أو ماله التعريف بالثاني وجب
فيما سوى هذا انسبن للاول ما لم يخف للبس كعبد الاشهل

قال ابن عقيل فى شرحه:اذا نسب الى الاسم المركب فان كان مركباً تركيب جملة أو تركيب مزج،حذف عجزه وألحق صدره ياء النسبة فتقول فى تأبط شراً : تأبطي ، وفى بعلبك ، بعلى . وان كان مركباً اضافة ، فان كان صدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه ، حذف صدره والحق عجزه ياء النسبة ، فتقول فى ابن الزبير،زبيري وفي أبي بكر،بكرى وفي غلام زيد،زيدي وان لم يكن كذلك... (١) .

والاقتصار على الابن والاب من باب المثال والحكم يعم الام والابنة والاخ والاخت،لاشتراك الجميع معهما فى المناط والملاك ـ وهو كونها مركبة تركيب اضافة وحصول الالتباس لو ألحقت بصدرها .

وثالثاً : ان الله وصف نبيه فى الاية بصفات تناسب موضوع النبوة ـ فلو كان الامي فيها بالمعنى الذي أوضحناه، لتلائم الكلام، وتكون تلك الصفة هادفة الى آية نبوته وبرهان رسالته،لانه مع كونه أمياً لايقرأ ولا يكتب ، أتى بشريعة كافلة لسعادة

(١) شرح ابن عقيل ج ٢ ص ٣٩١ .

الناس وسيادتهم وجاء بكتاب فيه هدى ونور، وتضمن من الحقائق والمعارف مالايقف عليها حتى الأوحدي من الناس فضلا عمن لم يقرأ ولم يكتب، وهذا برهان رسالته ودليل صلته بالله وكونه مبعوثاً ومؤيداً منه تعالى .

ولو كان المراد منه ما زعمه القائل من كونه مكياً وانه وليد ذلك البلد ، لكان الاتيان به فى ثنايا تلك الأوصاف والخصال اقحاماً بلا وجه واقتضاباً بلاجهة .

وان شئت قلت : لو كان المراد من الأمي ما ذكرناه لكان فيه اشارة الى ان النبي (ص) مع كونه باقياً على الحالة التي ولد عليها ، قد أتى بكتاب عجز الناس عن تحديه ، وكل البلغاء عن معارضته، وخرس الفصحاء لديه ، مضافاً الى ما فيه من المعارف الالهية والحقايق العلمية والدساتير والقوانين الاجتماعيه والاقتصادية فى شئون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة، وهذا دليل على صدق دعوته ، وأنه مبعوث من عنده تعالى، وهذه النكتة تفوتنا اذا فسرناه بأنه مكى ووليد الحرم والبلد الامين اذ ليس فى كونه مكياً أي امتياز حتى ينوه به .

والى ما ذكرنا يشير قوله عزوجل: «هو الذي بعث فى الاميين رسولامنهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (الجمعة ـ ٢) .

فان توصيف النبي (ص) بأنه منهم (أي من الاميين) للاشارة الى انه مع كونه أمياً مثلهم يعلمهم الكتاب والحكمة ـ وما ذلك الا لكونه مؤيداً منه تعالى بروح تعاضده وموجهاً بتوجيهه لارتقاء تلكم المدارج ، فالاية من قبيل اتيان الشيء ببينته وبرهانه ،

نعم ورد فى بعض المأثورات حول تفسير الأمي انتسابه الى أم القرى ، وسوف نرجع الى هذه الروايات بالايراد والمناقشة في أسنادها ومضامينها .

* * *

الرأى الثانى :

٢ ـ ما أختاره الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقاله المومأ اليه فقال:الامي من لم يعرف المتون العتيقة السامية، ولم ينتحل الى ملة أو كتاب من الكتب السماوية والشاهد عليه ان الله جعل الامي فى الكتاب العزيز ، مقابل أهل الكتاب فيستظهر منه ان المراد منه هي الأمة العربية الجاهلة بما فى زبر الاولين من التوراة والانجيل غير منتحلة الى دين أو ملة لا من لا يقدر على التلاوة والكتابة .

أقول : ما ذكره الدكتور زلة وعثرة لا تستقال فان اطلاق الاميين على العرب المشركين ليس بسبب جهلهم بالمتون السامية ، وان كانوا عارفين بلسان قومهم ، قادرين على تلاوته وكتابته كما حسبه الدكتور، بل بسبب جهلهم بقرائة لغتهم وكتابتها لان الثقافة العربية بمعنى قرائة اللغة العربية وكتابتها ، كانت متدهورة فى العصر الجاهلي وكانت الامية هي السائدة ولا يسودهم فى تلكم الظروف شيىء غيرها وكانت القدرة على القرائة والكتابة محصورة فى ثلة قليله لا يتجاوز أفرادها عدد الاصابع .

فهذا الامام البلاذري أتى فى فتوح بلد انه بأسماء الذين كانوا عارفين بالقرائة والكتابة فى العهد الجاهلي فما تجاوزت عدتهم عن سبعة عشر رجلا فى «مكة»، وعن أحد عشر نفراً فى « يثرب » وقال : اجتمع ثلاثة نفر من طي ببقة وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة،وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية ، على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الانبار ثم تعلمه أهل الحيرة من اهل الانبار وكان بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبد الجن الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل،يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلم «بشر» الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة فى بعض شانه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه ان يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم اراهما الخط فكتبا ثم ان بشراً وسفيان وأباقيس أتوا الطائف فى تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فيعلم الخط منهم وفارقهم بشر ، ومضى ديار مضر،فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة

بن أعدس فسمى عمرو الكاتب ثم أتى بشر ، الشام فتعلم الخط منه ناس وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب ، فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بهاوعلم الخطقوماً منأهلها الى ان قال فدخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب،عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.. (١) .

هذا ابن خلدون يحكى فى مقدمته ، ان عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول فقد تعرفوا عليها قبيل ظهور الاسلام حيث قال فى الفصل الذي عقده لبيان ان الخط والكتابة منعداد الصنايع الانسانية:

كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخطالحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان فيها دولة آل المنذر بسبأ التبابعة الى ان قال ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر،يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى انهم تعلموها من اياد أهل العراق وهو قول بعيد . لان اياداً وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة،والخط من الصنايع الحضرية فالقول بأن أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير ، هو الاليق من الاقوال (٢) .

فاذا كان هذا مبدأ تعرفهم بالكتابة والقرائة وكان هذا مقياس ثقافتهم وتعرفهم عليها فى المنطقتين (مكة ومدينة) فما ظنك بهم فى المناطق الاخرى ، نعم كانت الربوع المختصة باليهود والنصارى ، تزدهم بأحبارهم وحفاظ كتبهم فكانت القراءة والكتابة رائجتين بينهم،لمسيس حاجتهم الى معرفة كتابهم ومافيه من الطقوس والسنن.

فاذا ألممت أيها الباحث ولو الماما عابرة بروح ذلك العصر ، ووقفت على ما كان يسود فى تلكم الظروف والبيئات ، لقضيت بأن المراد من الامي حتى فى ما استعمل عند أهل الكتاب هو العاجز عن القرائة والكتابة بقول مطلق كقوله سبحانه «قل

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩ - ٩٤٨ .

للذين اوتو الكتاب والاميين أأسلمتم » (آل عمران ـ ٧٥) ويوضح ما ذكرنا قوله سبحانه : «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون» (١) (البقرة ـ ٧٨) فالاية بحكم رجوع الضمير (ومنهم) الى اليهود ، تقسم اليهود الى طائفتين، طائفة يعلمون الكتاب ، وأخرى طائفة أمية لا تعلم من الكتاب شيئاً بل تتخيله أمانياً فقد أطلق الامي فى هذه الاية على بعض أهل الكتاب بملاك جهلـه بكتابه ، قـراءة وكتابة ، ولكن الجهل بالكتاب الذي نزل بلسانه ولسان قومه يلازم الجهل بسائـر اللغات طبعاً .

فهذا الكتابي بما أنه لايحسن القراءةوالكتابة قط، أمي كالعربي الامي بلاتفاوت.

وقصارى ما يمكن ان يقال : انه ليس للامي الا مفهوم واحد وضع له وضعـاً واحداً ، غير أن مفهومه يختلف حسب اختلاف الظروف والبيئات،حسب اختلاف الاضافات والنسب ، فالامي فى أجواء الكتابيين عبارة عمن لا يعرف لغة كتابه فلو قيل : ذلك الكتابي أمي فالمقصود منه بقرينة لفظ «الكتابي» كونه أمياً بالنسبة الى كتابه الذي ينتحل اليه،كما ان الامي في البيئات العربية عبارة عمن لا يحسن العربية قراءة وكتابة وهكذا . . .

وبناء على ذلك فالاميون فى قوله سبحانه : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني»عبارة عن الطائفة الجاهلة بالمتون السامية من أهـل الكتاب ، لا يحسنون تلاوتها ولا كتابتها ، الا ان ذلك الاطلاق لا يثبت كون الامي موضوعاً على من لا يعرف اللغة السامية كما حسبه الدكتور . بل لما كان محور البحث فى الاية أهـل الكتاب وأنقسامهم الى طائفة عالمة بما في كتابهم ، وطائفة جاهلة به ، أمية لا تعلم من الكتاب شيئاً ، صار ذلك كالقرينة على أن المقصود من الاميين فيها ، هي الطائفة الجاهلة بالمتون السامية واللغة التي أنزلت بها كتبهم .

وهذا الوجه لا يشمل «الامي» فى غير هذه الاية ولا على الموارد العارية عن هذه القرينة

(١) هذه الاية بما أنها تقسم أهل الكتاب والمنتحلين اليه الى طائفتين أمية وغير أمية ، تبطل ما ادعاه الدكتور من ان الامى عبارة عمن لم ينتحل الى دين ولم ينسب الى ملة .

ولا يثبت كونه موضوعاً لمن يكون جاهلا بالمتون السامية ، كما أدعاه القائل .

اذا وقفت على ما ذكرناه وقوف المستشف للحقيقة ، لاذعنت انه ليس للامي الا مفاد واحد وهو الباقي على الحالة التي ولد عليها. ولو اطلق في مورد أو موارد على من لا يعرف المتون السامية، فلاجل قرينة دلت عليه ، فهو من باب تطبيق الكلي على فرده الخاص لا أنه موضوع على ذلك الخاص .

بحث وتنقيب :

لقد بان الحق بأجلى مظاهره بحيث لم يبق لمجادل شبهة في دلالة الذكر الحكيم على ان النبي (ص) كان أمياً لا يقرء ولا يكتب قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار ، وظهر ما هو الحق الصراح في معنى الامي الذي وصف الله به نبيه الاكرم . نعم روى عن بعض أئمة أهل البيت في تفسير الامي ما يترائي منه خلاف ما أوضحناه وحققناه ودونك ما روى عنهم في هذا الباب (١) .

١ـ أخرج الصدوق في علل الشرايع ومعاني الاخبار عن أبيه عن سعد (٢) عن ابن عيسى (٣) عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال سئلت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا (ع) فقلت يابن رسول الله لم سمى النبي الامي فقال : ما يقول الناس قلت : يزعمون انه سمى الامي لانه لا يحسن ان يكتب فقال كذبوا عليهم لعنة الله في ذلك ، والله يقول في محكم كتابه : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فكيف كان يعلمهم مالايحسن والله لقد كان رسول الله (ص) يقرء ويكتب باثنين وسبعين أو قال بثلاثة وسبعين لساناً وانما سمى الامي لانه كان من أهل مكة ومكة من أمهات القرى وذلك قول

---

(١) سوف نرجع في آخر البحث الى تحقيق القول في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت وغيرهم في المقام والغرض هنا عرض ما يرجع الى تفسير لفظ الامي فقط .

(٢) سعد بن عبد الله القمي ترجمه شيخ الطائفة في باب أصحاب العسكري (ع) .

(٣) أحمد بن محمد بن عيسى الاشعري ، ثقة جليل .

الله عز وجل : «لتنذر القرى ومن حولها»(١) .

وأخرج الشيخ الاقدم محمد بن الحسن الصفار المتوفي عام ٢٩٠ فى بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي مثله .

ونقله الشيخ المفيد معلم الامة فى «اختصاصه» بهذا السند أيضاً .

والحديث على كل تقدير ينتهي الى محمد البرقي وهو مختلف فيه جداً لاستناده الى المراسيل والضعاف ، وهو يروي عن جعفر بن محمد الصوفي الذي أهمله أصحاب المعاجم فالحديث ساقط عن الحجية .

أضف اليه ما في متنه من الشذوذ وفيه جهات من النظر :

اولا : قوله ان النبي يقرء ويكتب باثنين وسبعين لساناً يعطي انه(ص)كان مزاولا قراءتها والكتابة بها فى عامة حياته او ايام رسالته فقط، وحمله على الامكان والتعليق وانه (ص) كان قادراً عليهما باثنين وسبعين لسانا لو شاء واراد ، ولكنه لم يشاء ولم يقرأ ولم يكتب بها اصلا، خلاف الظاهر،وعلى ما استظهرناه فالرواية تخالف ماهو المتواتر من حياة النبي (ص) .

اذ لو كان النبي (ص) على النحو الذي تصفه الرواية لذاع ذكره وطار صيته بهذا الوصف ولا يكاد يخفي على الناس امره . على انه (ص) فى البيئة العربية الامية كان فى منتأى عن سماع الالسنة اورؤية اصحابها فلم يكن فى موطنه ولا دار هجرته من يعرفها او يتكلم بها فكيف يتكلم بهذه اللغات ، وهو لايجد من يشافهه بها ، ولم تكن تحضره صحيفه او صحائف كتبت بغير اللغة العربية .

ثانياً : ان تفسير الامي بكونه منسوباً الى أم القرى ، يخالف ما اتفقت عليه أئمة الادب ، وجهابذة اللغة ، وأعلام التفسير بل يخالف القرآن الكريم حيث فسر سبحانه بغير ذلك وقال «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب» فلا يصح الركون فى هذه

(١) علل الشرايع ص ٥٣ ومعانى الاخبار ص ٢٠ .

المسئلة الى حديث ينتهي الى من اختلف فى وثاقته ، الى من أهمله علماء الرجال فى كتبهم .

ولسنا من الفئة التي تعرض القرآن والحديث الصحيح على القواعد العربية المدونة بعد أجيال من نزول القرآن ونشر الحديث ، بيد علماء الادب ، فان تلك الفئة ضالة مضلة مستحقة للرد والطعن . اذ الصحيح عرض القواعد على القرآن والحديث دون العكس ، فان المقياس الوحيد لتمييز الصحيح عن غيره ، انما هو كلام أهل اللسان والاساليب الدارجة بينهم . لا القواعد المدونة اذا لم ترجع الى مصدر وثيق .

وعلى هذا فلو وجدنا القاعدة الادبية الملتقطة من تتبع بعض الموارد ومن كلام العرب ، مخالفة للقرآن الكريم أو الحديث الثابت عنهم ، أو الكلام الصادر عن عربي صميم ، وجب علينا هدم القاعدة ، ورميها بالخطأ والغلط ، لا تأويل الذكر الحكيم والحديث الصحيح ، والكلام المنقول عن أهل اللسان . اذ القرآن سواء اقلنا انه كلام الهي اوحى الى نبينا الاكرم أم قلنا انه من منشأته ومبدعاته (وأجل النبي عن هذه الفرية الشائنة) كلام صحيح ، صادر اما عن الله سبحانه او عن عربي صميم شب وترعرع بين الامة العربية وقضى عمره وحياته بين ظهرانيهم .

وعلى أي تقدير فهو الحجة فى تدوين القاعدة وتأسيسها دون العكس ومثله الاثار المنقولة عنه (ص) .

ونحن مع هذا الاعتراف الصريح لانقر بما جاء فى الحديث حول تفسير الامي وانه منسوب الى ام القرى ولا نرمى ائمة الادب بالخطاء والاشتباه، اذ الحديث قاصر سنداً وينتهي الى من اختلف فيه كلمة اهل الجرح والتعديل، الى من لم يتضح حاله ووثاقته ، ولو ثبت صدوره عن ائمة اهل البيت ، لهدمنا القاعدة النحوية فى باب النسب واخذنا بما فيه .

ثالثاً : أن الحديث لا ينسجم مع مضمون ما سيوافيك من الحديثين (١) ،

(١) راجع البحث الاتى تحت عنوان «عرض و تحقيق» والمقصود من الصحيحين ما رواه هشام بن سالم والحسن الصيقل عن الصادق (ع) .

فان مفادهما هو كون النبي يقرأ ولا يكتب اصلا،وهـذا يثبت له القـراءة والكتابة باثنين وسبعين لسانا ، فلا مناص فى مقام الترجيح عن الاخذ بهما وطرح ذاك ،لقوة اسنادهما وصحتهما على ماعرفت .

٢ـ اخرج الصدوق فى معاني الاخبار عن ابن الوليد عن سعد عن الخشاب،عن علي بن الحسان وعلي بن اسباط وغيره رفعه الى ابي جعفر (ع) قال قلت : ان الناس يزعمون ان رسول الله (ص) لم يكتب ولم يقرء فقال كذبوا لعنهم الله أنى يكون ذلك وقال الله عز وجل : «هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانـوا من قبل لفى ضلال مبـين» ، فيكون يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن ان يقرأ او يكتب به ؟ قال : قلت فلم سمي النبي الامى ؟ قال نسب الى مكة وذلك قول الله عز وجل : « ولتنذر أم القرى ومن حولها» فأم القرى مكة فقيل امي لذلك (١) .

ونقله صاحب البصائر عن عبد الله بن محمد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن اسباط وغيره رفعه الى ابي جعفر (٢) .

ويأسفنا ان الحديث مع ما في متنه من العلات ، غير متصل السند الى الامام ، فالراوية مرفوعه وهو نوع من المرسل الذي لا يعتمد عليه .

وهذا المقال يلمس القاريء حقيقة ناصعة هي من اجلى الحقائق الدينية ألا وهي مغزى كون النبي لايحسن القراءة والكتابة قبل أن يختارة الله تعالى للتبشير والانذار

امر النبى (ص) بعد البعثة :

قد اهتدينا بهدى القرآن وساقتنا الادلة الى القول بأنـه (ص) كان قبـل البعثة امياً لايقرء ولا يكتب ولم يسجل التاريخ له (ص) فى ذلك العهد قراءة لوح او كتابة

(١) علل الشرايع ص ٥٤٢ . (٢) بصائر الدرجات ص ٦٢ ، بحار الانوار ج ١٦ ص ١٣٣ .

صحيفة ، ولم يكـن ذلك اختلاقاً تواطأ عليه المسلمـون لهـدف خاص كما حسبه الدكتور فى مقاله (١) بل كان تقريراً للواقع وقد قابلنا التفكير السطحي الخاطىء بالرد والنقد .

غير اننا طلباً لوضوح الحقيقة ، واكمالا للبحث ، نردف المقال بالبحث عن وضع النبي (ص) بعد بزوغ دعوته وبعثته الى الناس ، وانه هل بقي على ما كان عليهمن الامية،لنفس المصلحة التي اوجبت أميته قبل ان يبعث الى هداية الناس، أو لم يبق عليه،بل كشط الحجاب عن ضميره الحي وعقله الواعي،وقلبه الواسع عند ما بزغت دعوته وبعث رسولا الى الناس ولا يمكن القضاء البات الا بعد الوقوف على ما ذكره الفطاحل من رواة الحديث واعلام التفسير .

وقد اختارت ثلة جليلة من المحققين القول الثاني أي تمكن النبي (ص) باذنه سبحانه من القرائة والكتابةبعد مانزل عليه الوحي واستدلواعلى ذلك بوجوه لاتخلو من مناقشات واشكالات ، ونحن نذكر تلـكم الوجوه ، ثم نردفها بما هو المختار عندنا :

١ ـ الوجوه التى اعتمد عليها شيخنا المفيد :

هذا هو الشيخ المفيد استدل بأدلة ووجوه لعتقد انها الحجج الكافية لاثبات ما يرتئيه من ان النبي كان عارفاً بالقرائة والكتابة بعد بعثته ودونك ما افاده برمته :

١ ـ ان الله تعالى لما جعل نبيه (ص) جامعاً لخصال الكمال كلها ، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصح له الكمال ، ويجتمع فيه الفضل ، والكتابة فضيلة من منحها،فضل ومن حرمها نقص .

(١) زعم الدكتور فى مقاله ان امية النبى (ص) فكرة حديثه بين المسلمين ، لصيانةالقران عن التحريف وحفظه عن حدوث الزيادة والنقيصة عليه من جانب النبى (ص) فانالامى يعكس كل ما القى عليه بلا تغيير وتحريف ، ولا يقدر على تحويره بخلاف غيرهفانظر ما اجرأ هذا الرجل على تحريف الكلم عن مواضعه .

٢ ـ ان الله تعالى جعل النبي (ص) حاكماً بين الخلق فى جميع ما اختلفوا فيه ، فلا بد ان يعلمه الحكم فى ذلك ، وقد ثبت ان امور الخلق قد يتعلق أكثرها بالكتابة فتثبت بها الحقوق ، وتبرىء بها الذمم ، وتقوم بها البينات ، وتحفظ بها الديون ، وتحاط به الانساب ، وانها فضل تشرف المتحلى به على العاطل منه، واذا صح ان الله جل اسمه قد جعل نبيه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت انه كان عالماً بالكتابة ، محسناً لها .

٣ ـ أن النبي لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً فى فهم ماتضمنته الكتب من الحقوق وغير ذلك الى بعض رعيته ، ولو جاز ان يحوجه الله فى بعض ما كلفه الحكم فيه الى بعض رعيته لجاز ان يحوجه فى جميع ما كلفه الحكم فيه الى سواه ، وذلك مناف لصفاته ومضار لحكمة باعثة ، فثبت انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يحسن الكتابة .

٤ ـ ان الله سبحانه يقول: «هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، (سورة الجمعة ـ ٢) ، ومحال ان يعلمهم الكتاب وهو لا يحسنه ، كما يستحيل ان يعلمهم الكتاب والحكمة وهو لا يعرفهما ، ولا معنى لقول من قال ان الكتاب هو القرآن خاصة ، اذ اللفظ عام والعموم لا ينصرف عنه الا بدليل ، لا سيما على قول المعتزلة وأكثر أصحاب الحديث .

٥ ـ يدل على ذلك ايضاً قوله تعالى : «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » (سورة العنكبوت ـ ٤٨) فنفى عنه احسان الكتابة وخطه قبل النبوة خاصة، فأوجب احسانه بذلك لها بعد النبوة، ولو لا ان ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يعقل ، ولو كان حاله (ص) فى فقد العلم بالكتابة بعد النبوة، كحاله قبلها لوجب اذا أراد نفي ذلك عنه ان ينفيه بلفظ يفيده لا يتضمن خلافه فيقول له وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذ ذاك ولا فى الحال ، أو يقول لست تحسن الكتابة ولا يتاتى منك، على كل حال، كما انه لما اعدمه الشعر

ومنعه منه نفاه عنه بلفظ يعم الاوقات فقال الله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (يسن - ٦٩) واذا كان الامر على ما بيناه ثبت انه صلى الله عليه وآله كان يحسن الكتابة بعد ان نبأه الله تعالى على ما وصفناه، وهذا مذهب جماعة من الامامية ويخالف فيه باقيهم وسائر اهل المذاهب والفرق يدفعونه وينكرونه (١) .

وفي ما ذكره رحمه الله مناقشات نشير اليها :

اولا : ان الكتابة وان كانت من الكمالات «ومن منحها له سبحانه فضل ومن حرمها نقص» غير أن ذلك يعد للعاديين الذين ينحصر طريق اكتسابهم للمعارف بها وحدها وأمامن لايحتاج اليها بل له طريق آخر لدرك الحقائق واكتساب المعارف كما هو الحال بالنسبة الى نبينا (ص) فلايعد التمكن من الكتابة والقرائة فضيلة اليه حتى يكون عدمهما نقصاً في حقه، كيف وهو (ص) قد عرف الواجب جل اسمه وصفاته وأفعاله ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو اوثق وأسد الطرق الممكنة، لايخطأ ولا يشتبه وعند ذاك لاحاجة له الى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه.

اضف اليه لو فرضنا ان بقاء النبي على ماكان عليه من الامية كان يرفع الشك عن قلوب السذج من الناس ويؤكد ايمانهم واذعانهم بنبوته وبما جاء به من الشريعة والكتاب وجب على المولى سبحانه ابقاءه على ما كان عليه من الصفات والنعوت ، طلباً للغاية التي بعثه لاجل احرازها وتحققها، فاذاكان هو الملاك في اميته قبل بزوغ دعوته فليكن هو الملاك في بقائه عليها فلاوجه لعد احدهما نقصاً في حقه (ص) دون الاخر

ثانياً : ان ما ذكره «ان الكتابة فضل تشرف المتحلي به على العاطل منه واذ صح ان الله قد جعل نبيه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت انه كان عالماً بالكتابة محسناً لها» صحيح جداً وقد فضل الله سبحانه نبينا على جميع الانبياء والرسل ومنحه من الفضائل ما لم يمنحه لغيره غير انه لما كانت هناك مصلحة اولى واهم كما صرح الله بها سبحانه في كتابه وهي طرد الريب عن القلوب الضعيفة صرفه الله سبحانه عن تعلم القرائة والكتابة طيلة عمره ، ولم يمكنه منها طلباً لهذه الغاية المهمة وترك

(١) أوائل المقالات ص ١١١ - ١١٣ ط تبريز .

المهم توخياً للاهم لا يعد نقصاً لو لم يعد كمالا .

والى ذلك يشير الفاضل القنوي فى تعليقه على «أنوار التزيل» بقوله : ولذلك صارت الامية شرفاً وفخراً فى شأنه (ص) وصفة نقص فى حق غيره .

وبذلك نجيب عن ما افاده رحمه الله :

«لو كان لايحسن الكتابة ولايعرفها لكان محتاجاً فى فهم ما تضمنته الكتب من الحقوق وغيرذلك الى بعض رعيته، ولوجاز ان يحوجه الله فى بعض ما كلفه الحكم فيه الى بعض رعيته لجاز ان يحوجه فى جميع ما كلفه الحكم فيه الى سواه وذلك مناف بصفاته ومضاد لحكمته» لانه اذا جاز احتياج النبي الاعظم فى مورد خاص الى بعض رعيته توخياً لبعض المصالح المهمة، لايستلزم جواز احتياجه فى الموارد الخالية عنها فان الاول لا يعد نقصاً عند العقلاء ولاجل ذلك يرجحون الاهم على المهم عند التزاحم، بخلاف الثاني .

وثالثاً : ان قوله سبحانه «ويعلمهم الكتاب والحكمة» لايدل على ما رامه اما اذا قلنا ان المراد من الكتاب هو القرآن كما هو الظاهر المتبادر الى الذهن ، فان تلاوة الاية لاتفتقر الى معرفة الكتابة اذا تلقى التالي محفوظاته من وحي او تلقين، ومن الناس من يتعلم القرآن من الصدور لا السطور ويتلوه كما حفظ بدون توقف على معرفة الخط وأما اذا قلنا ان المقصود منه الكتابة وان كان بعيداً جداً فليس معناه تعليم النبي (ص) لقومه الكتابة مباشرة اذ لم يعهد ولم يرو بأسانيد صحيحة انه (ص) جلس مع افراد امته يعلمهم نقوش الحروف الهجائية وتراكيبها الابجدية قطعاً، وانما المراد انه قام بأمر تعليم الامة مهمة الكتابة ، فقد تواتر عنه (ص) اتخاذه الاسرى يشترط عليهم ان يعلموا اهل مدينته الخط والكتابة (١)، فكان الاسير اذا علم الكتابة عشرة من المسلمين اطلق النبي سراحه مكافأة لعمله وبهذه الوسيلة البسيطة عمم فى اتباعه صناعة

(١) قال الاستاذ عمر ابو النصر فى كتابه « العرب ص ٢٣ : وكان فداء الاسرى الذين يعرفون القرائة والكتابة تلقين عشرة من صبيان المدينة الكتابة ، وكذلك أصبح مقر الاسرى مدرسة يتعلم فيها صبيان المدينة .

الخط وأخرجهم من ظلمة الامية (١) ، وأصبح مقر الاسراء مدرسة يتعلم فيها صبيان المدينة ما يحتاجون اليه من علوم ذلك العهد .

وأما ما تمسك به من مفهوم الاية وان لفظة «من قبله» يفهم انه كان قارئاً وكاتباً بعد الوحي اليه ، فيوافيك نقده فى البحث التالي .

٢ ـ الاستدلال بمفهوم الاية :

نقل شيخ الطائفة استدلال القوم على أمية النبي الاعظم بقوله سبحانه: «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » (العنكبوت ـ ٤٨) ثم اعترض عليهم ما هذا ملخصه :

«ان الاية لا تدل على ان النبي كان أمياً بل فيها انه لم يكن يكتب الكتاب، وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه . . . » .

«ولو دلت الاية على انه لم يكن يحسن الكتابة قبل الايحاء اليه، لدلت بالمفهوم على انه كان يحسنها بعد الايحاء اليه، حتى يكون فرقاً بين الحالتين ولا يكون الاتيان بالقيد ـ قبله ـ لغواً » (٢) .

وفى ما افاده مواقع للنظر :

أولا : ففرق واضح بين من يحسن الكتابة ويتركها ، ومن لا يحسنها أصلا، فان من يحسن الكتابة ، لا يتركها دائماً ، بل يتركها موقتاً بسبب ظروف تلم بـه ، ولا يصح الاستدلال بتركه موقتاً ، على انه لا يحسنها ولا يستكشف حاله منه ،

(١) راجـع مجلة المرشد البغدادية لسنتها الـرابعة ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ما افاده العلامة الحجة السيد هبة الدين الشهرستانى .

(٢) التبيان ج ٨ ص ٢١٦ ط لبنان .

وأما من لم يكتب منذ نعومة اظفاره الى ان بلغ الاربعين بل ناهز الخمسين كما هـو الحال بالنسبة الى نبينا (ص) ، فيعد ذلك دليلا عند العرف على انـه لا يحسنها أصلا وبتاتاً .

فالاية حسب ما يفهم منها عرفاً ، تدل على انه (ص) كان أميـاً لا يقدر على الكتابة ، وقوله سبحانه: «ما كنت تتلوامن قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون» بالنظر الىذيله وهو رفع الشك عن قلوب المبطلين، كنايةعن كونه (ص) كان أمياً لا يحسن شيئاً من القرائة،لا انه كان عارفاًبها ولكنه تركها لمصلحة أوغيرها.

وثانياً : ان استفادة المفهوم من الاية ودلالة القيد ـ من قبله ـ عليه مشكلة جداً وان قلنا بدلالته على المفهوم فى مقام آخر.وذلك ان دلالة القيد عليه انما هو اذا كان بقاء الحكم وعدمه عند ارتفاع القيد سواسية،فعند ذلك يستدل بأخذ القيد فى موضوع الحكم على دخله فى الغرض وفي الحكم المذكور فى القضية،ويكون مرجعه الى ارتفاع الحكم السابق بارتفاع القيد كما اذا قيل : اكل زيد قبل طلوع الشمس وأما اذاكان بقاء الحكم عند ارتفاع القيد أولى فى نظر السامع كما في المقام فلا يستنبط منه المفهوم فان من بقى على اميته حتى ناهز الاربعين بل الخمسين اولى بأن يبقى على تلك الحالة فى ما بقى من عمره، فان الرجل اذا لم يحصل ملكة الكتابة الى ان ورد فى العقد الخامس من عمره لا يحتمل فى حقه عادة ان يعود الى تحصيلها بعد هذه المراحل الطويلة وعلى ذلك فلايمكن الاستدلال على رفع الحكم المستفاد من قوله « ما كنت تتلوا من قبله » وقوله «ولا تخطه» عند ارتفاع القيد،اي لايدل على انه كان قارئاً وكاتباً بعد بعثته كما هو المقصود .

خلاصة القول:ان الايةغير دالة على وضع النبى بعدبزوغدعوته ولايدل على شيء من الطرفين والتمسك بمفهوم القيد ـ من قبله ـ انمايصح اذا سيق الكلام لاجل افادته والايماء الى اختلاف حاله فى المقامين واما اذا سيق الكلام لغير هذه الغاية فلا يدل على ما أستظهره من المفهوم، فان الغاية من الاتيان بالقيد هو الاستدلال بأميته قبل نزول الوحي عليه،على صدق مقاله ودعوته فان الامي اذا اتى بكتاب اخرس بفصاحته

فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان بل ادهش بقوانينه اساطين القانون والنظام،يعد كتابه هذا بهذه الاوصاف والنعوت آية على كونه وحياً الهياً خارجاً عن طوق القدرة البشرية واما انه هل بقى على الامية بعد ما صار نبياً يوحى اليه أو لا فخارج عن هدف هذه الاية وليست له صلة بمرماها ومقصدها وعلى ذلك نظائر فى اللغة والعرف .

ولقد أحسن المرتضى ، فلم يجعل الاية دليلا على تغير حاله بعد بعثته، وسلك مسلكا متوسطاً غيرما سلكه استاذه الشيخ المفيد وما قصده تلميذه شيخ الطائفة الطوسي ودونك نقل كلامه » .

هذه الاية «ما كنت تتلو من قبله من كتاب» تدل على ان النبي ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما ما بعدها فالذي نعتقده فى ذلك التجويز لكونه عالماً بالقرائة والكتابة،والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على احد الامرين وظاهر الاية يقتضى ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها ، ولان التعليل فى الاية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة (١) لان المبطلين انما يرتابون فى نبوته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما مابعدها فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز ان يكون تعلمها من جبرئيل بعد النبوة (٢) .

وكلامه هذا يعرب عن توقفه فى المسئلة كما هوصريح قوله «من غير قطع بأحد الامرين» وما ذكره «ظاهر الاية يقتضى ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها» صحيح لو اراد بذلك نفي دلالة الاية على احد الامرين وأما لو اراد به دلالتها على كونه قارئاً وكاتباً بعدها فموهون بما اوضحناه عند البحث عن كلام تلميذه الجليل شيخ الطائفة رحمه الله ، مع انه بعيد عن ظاهر كلامه .

---

(١) اختصاص التعليل بما قبل النبوة غير ظاهر بل لو تظاهر النبى بالقرائة والكتابة بعد نبوته ، فهو وان كان يعد معجزة ومفخرة له عند من خلصت نيته ، وطهر قلبه ، لكنه يوجب تسلل الشك الى أميته قبل نبوته عند المبطلين والمشككين فيضلون ويضلون ، وينشرون الاوهام والاراجيف حول دعوته ورسالته، نعم لو كان عارفاً بها غير متظاهر لصح اختصاص التعليل بما قبل النبوة.

(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٢٨٧ ، مناقب آل أبى طالب ج ١ ص ١٦١ .

وأما ما افاده «ان المبطلين انما يرتابون في نبوته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فاما ما بعدها فلا تعلق له بالريبة والتهمة» غير ثابت ولا ظاهر بل يمكن ان يتطرق الشك الى نبوته لوكان يحسنها بعد النبوة اذا تظاهر بها فيمرآى ومسمع من الناس، فلاحظ التعليقة السابقة.

٣ ـ الاستدلال بقوله سبحانه «يتلو صحفاً مطهرة»

استدل الدكتور عبد اللطيف الهندي بقوله سبحانه : «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة» (البينة ٢ ـ ٣) قال «انه يدل على تحقق التلاوة منه (ص) ايام رسالته وفي رحاب دعوته» .

لكنه لايدل على ما رامه فان التلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب، تصدق على التلاوة عن ظهر القلب ، ويؤيده انه لم يرو عن النبي (ص) في ايام رسالته انه تلا القرآن عن غير ظهر قلبه. أضف اليه ما ذكره المفسرون في «صحف مطهرة» من الاحتمالات التي تخرجها عن محيط هذه، الصحف المادية التي يرومها المستدل ومن شاء الاحاطة بها فليرجع الى التفاسير .

ونظير ذلك قوله سبحانه : « سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى » (الاعلى ٧ ـ ٨) اذ معناه : سنقرء عليك القرآن فلا تنساه ونجعلك قارئاً باذن منه فلا تنسى ما تتلقاه من أمين الوحي، الا بمشيئة منه فان الاقراء والانساء كليهما بيده سبحانه ، فلا يدل الاعلى تلاوة القرآن وقرائته عن ظهر القلب فقط كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما اوحي اليه ، وهو غير ما يرومه الدكتور وأمثاله.

قال الزمخشري : بشر الله تعالى باعطاء آية بينه وهي ان يقرء عليه جبرئيل ما يقرء عليه من الوحي و هو أمي لا يكتب ولا يقرء فيحفظه ولا ينساه .

وأما الاستثناء فلا يدل على تحقق الانساء منه سبحانه بالنسبة الى الرسول (ص)، بل هو للتنبيه على ان الامر كله بيده ، وان منحت كرامة الحفظ اليه (ص) فليس بمعنى تفويض الامر اليه وخروجه عن يد الله سبحانه ، بل الامره في كلا الحالين ،

بيده ، فالله الذي جعله قارئاً لا ينسى ، قادر على ان يصيره ناسياً لا يحفظ شيئاً ، ولا يخطر على روعه شيىء . فوزان الاستثناء في هذه الاية وزان الاستثناء في قوله سبحانه : «وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ» (هود - ١٠٨) .

فلا يدل على تحقق المشيئة في المستقبل منه سبحانه حتى ينافي خلود المؤمنين في الجنة .

٤ ـ الاستدلال بقوله سبحانه: «اكتتبها»

استدل بعض الاعلام بقوله سبحانه : «وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» (الفرقان ـ ٥) وفسره في الكشاف بقوله: اكتتبها: اكتتبها لنفسه وأخذها كما تقول : استكب الماء واصطبه: اذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه (١) وكأنه يريد ان يفهم ان زيادة التاء في «اكتتبها» للدلالة على ان كتابته كانت لنفسه بخلاف المجرد عنها كقولنا «كتب فلان» فانه أعم من ان يكون ذلك لنفسه أو لغيره .

وقال الشيخ الطوسي «اكتتبها هو وانتسخها فهي تملى عليه حتى ينسخها (٢) وجه الاستدلال : ان المشركين قالوا : ان القرآن اساطير كتبها محمد لا من تلقاء نفسه بل بالاملاء عليه من غيره . فقولهم : يكتب الاساطير باملاء الغير عليه ، صريح في انه بعد الايحاء اليه كان كاتباً يكتب القرآن وبما ان الكتابة صفة كمال لا يتنسبها اليه خصومه كذباً وافتراء فلا بد ان يكون ثابتة له في تلك الحال (٣) .

ولكن ما اقامه من الدليل موهون جداً فان الكتابة وان كانت صفة كمال ، الا ان شهادة الخصم انما تدل على اتصافه بها ، اذا كانت الشهادة صادرة عن خلوص وصفاء وأما اذا جعلها ذريعة لانكار نبوته ، فلا يعدرميه بها دليلا على صدق النسبة ،

(١) الكشاف ج ٢ ص٤٠٠
(٢) التبيان ج ٧ ص ٤٧٢
(٣) تفسير الايات المتشابهات ص ٤٧ ـ ٤٨ .

فان القوم لما عجزوا عن الوقيعة في قرآنه ولم يتمكنوا من معارضته ومباراته دخلوا من باب آخر ، حتى يفتحوا بذلك باب الريب على نبوته وكتابه وقالوا ان هنا من يملي عليه القرآن بكرة وأصيلا ، وهو يكتب ما يملى عليه ولا هدف لهم من تلك الفرية الا التشكيك في نبوته ونزول الوحي عليه ولولا ذلك لما وصفوه بها ولا بغيرها من الصفات ، فان التوصيف ، بأدنى مراتب الكمال ، يخالف ما يرمون اليه من انتقاصه .

على ان هنا في لفظة «اكتتبها» احتمالا آخر وهو انه أمر بالكتابة والاستنساخ احتمله الرازي بل اختاره وقال معنى « اكتتب » ههنا ، انه أمر أن يكتب له كما يقال « احتجم » و « افتصد » اذا أمر بذلك (١) .

الى هنا تم ما وقفنا عليه من الأدلة القرآنية التي أقامها القائلون على ان النبي كان قارئاً وكاتباً بعد نزول الوحي عليه ، وقد عرفناك وهن الجميع ، ووقفت على ما فيها من المناقشات .

نعم هنا وجوه عقلية واستحسانات ، اعتمد عليها بعض من اختار هذا النظر ، ونحن ناتي بها .

٥ ـ الاستدلال بالاولوية :

استدل بها المجلسي وقال انه (ص) كان قادراً على التلاوة والكتابة بالاعجاز وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الاولين والاخرين ، ان هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف، ومن كان قادراً باذن الله على شق القمر وأكبر منه ، كيف لا يقدر على نقش الحروف والكلمات على الصحائف والالواح والله تعالى يعلم (٢) .

وما ذكره لا يخرج عن حدود الاستحسان اذ من الممكن ان لا يمكنه الله من القرائة والكتابة لمصلحة هو أعلم بها ، أو لاجل رفع الريب والشك عن جانب

(١) مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٣٥٣ .
(٢) بحار الانوار ج ١٦ ص ١٣٦ .

نبوته كما هو غير بعيد حتى بالنسبة الى ما بعد النبوة، اذ تظاهر بالقرائة والكتابة .

٦ـ التجارة تتوقف على الكتابة :

قال بعض من عاصرناه : « ان المشركين رموه بالكذب والسحر والجنون والفرية ولم ينسبوه الى الامية مع كونها صفة نقص لا سيما للتجار ذوي رحلة الشتاء والصيف ، فاذا لم يعيبوه بالامية كان ذلك دليلا على انه كان بعد النبوة قارئاً وكاتباً) (١) .

ونناقش ما افاده :

أولا : ان عدم رميه (ص) بالامية ، فلعدم كونها عيباً عندهم ، كيف والقوم كانوا أمة عربية أمية وكانت تلك الصفة هي السائدة عليهم، وكان الرامي بها والمرمى اليها فى هذا الوصف سواسية .

ثانياً : ان التجارة وان كانت تتوقف على القرائة والكتابة فى الاوساط المدنية غير ان الدارج فى البيأت البعيدة عن الحضارات كان غير ذلك ، خصوصاً قريش الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف ، فكانوا يبيعون أو يشترون ، ويرجعون ، من دون ان يبقى لهم أو عليهم شيء .

هذا ما لدى القائلين من الادلة على كونه (ص) قارئاً وكاتباً بعد بزوغ نبوته ، هلم معي ندرس بعض ما وقفنا لهم فى المقام من كلمات تؤكد ما نقلناه عنهم .

قال الشيخ «ان الحاكم يجب ان يكون عالماً بالكتابة والنبي عليه وآله السلام كان يحسن الكتابة بعد النبوة وانما لم يحسنها قبل البعثة (٢) .

وتبعه ابن ادريس الحلي فى باب سماع البينات من كتاب القضاء وجاء بعين ما نقلناه عن الشيخ (٣) .

---

(١) تفسير الايات المتشابهات ص ٥٠ .

(٢) المبسوط: كتاب القضاء والمطبوع منه بايران غير مرقم .

(٣) السرائر: باب سماع البينات من كتاب القضاء وهو ايضاً غير مرقم .

واختاره العلامة الحلي فى كتاب النكاح عن تذكرته عند البحث عن مختصات النبي الاكرم حيث قال: كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى «ولا تخطه بيمينك» وقال تعالى «وما علمناه الشعر» (١) .

وقد اختلف فى انه هل كان يحسنها أولا ، وأصح قولي الشافعي الثانى وانما يتجه التحريم على الاول (٢) أي على القول بأنه كان يحسن الكتابة اذ على فرض عدم عرفانه بها ، فالتحريم يكون لغواً وتحصيلا للحاصل .

غير ان دلالة الاية على حرمة الكتابة عليه ، مبني على كون «لا» في قوله : « ولا تخطه » ناهية وهو خلاف الظاهر ، خصوصاً بملاحظة سياق الاية أي قوله تعالى : « ما كنت تتلو من قبله من كتاب » فانه جملة خبرية وهو يقتضي ان تكون الجملة التالية لها أيضاً خبرية لا انشائية .

وقد اقتفى فى ذلك قول الشيخ فى مبسوطه حيث قال : « وقد خص الله نبيه محمداً بأشياء وميزه بها عن خلقه وهي أربعة : واجب، ومحظور، ومباح وكراهة الى ان قال ـ وأما المحظورات فحظرت عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه (١) .

(١) يسن ـ ٦٩

(٢) تذكرة الفقهاء ج ٢ والمطبوع منها غير مرقم

(٣) راجع المبسوط أوائل كتاب النكاح .

الامية فى الاحاديث :

لقد بان الحق وظهرت الحقيقة من هذا البحث الضافي حول هـذه الايات ، فلم نجد آية تدل على انه (ص) بعد بزوغ دعوته ، صار قارئاً أو كاتباً .

نعم وردت أحاديث وروايات ، رواها الفريقان ، يمكن الركون الى بعضها ، والاستدلال به على تمكنه من القرائة والكتابة بعد بعثته ، باعجاز منه سبحانه .

منها : حديث بدء الوحى :

روى أصحاب السير والتفسير :

كان رسول الله (ص) يجاور فى حراء من كل سنة شهراً حتى اذا كان الشهر الذي بعثه الله سبحانه فيه خرج رسول الله (ص) الى حراء حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبرئيل بأمر الله. ولنترك وصف ذلك الى ما ورد عن رسول الله (ص) بقوله :

فجاءني جبرئيل وأنا نائم بنمط من ديباج، فيه كتاب فقال اقرء قلت ما أقرء؟ «فغتني به» (١) حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني فقال اقرء قال قلت ما أقرء ؟ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرء ، قال قلت : ما ذا أقرء ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرء ، قال قلت ماذا أقرأ ما أقول ذلك الا افتداءاً منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقال : «اقرء باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق، اقرء وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم»، قال فقرأتها ثم انتهى ، فانصرف،وصببت من نومى ، فكانما كتبت فى قلبي قال فخرجت حتى اذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يامحمد أنت رسول

---

(١) حبس النفس ، وفى صحيح البخارى «غطنى» أى كبسنى وعصرنى شديداً .

الله وأنا جبرئيل قال فرفعت رأسى الى السماء انظر فاذا بجبـرئيل فى صورة رجل صف قدميه فى افق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل (١) .

ونقله البخاري (١) فى صحيحه . ويظهر منه انجبرئيل نزل بسورة العلق حين ما كان النبي يقظاً لا نائماً،وانه تحمل بدء الوحي فى حال اليقظة حيث قال : فجاءه الملك فقال اقرء قال ما أنا بقارىء (٣) ، قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال اقرء قلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرء ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثـة ، ثم ارسلنى فقال «اقرء باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق» ، وشهرة الروايـة واتقان

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ . تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦ والحديث ينتهى الى ام المؤمنين عائشة ، وقد تفردت هى بنقله ، كما تشهد بذلك اسناد الحديث فىالجوامع ، ولو لا ذلك فهو الحجة الكافية فى المقام . نعم رواه ابن هشام بسند ينتهى الى «عبيد بن عمير ابن قتادة الليثى ، وقد ترجمه ابن الاثير فى اسد الغابه ج ٣ ص ٣٥٣ وقال : ذكر البخارى انه رأى النبى وذكر مسلم انه ولد على عهد النبى وهو معدود فى كبار التابعين يروى عن عمر وغيره من الصحابة .

ورواه الطبرى فى تاريخه بسند ينتهى«الى عبدالله شداد»وقد ولد هو على عهد النبى روى«عن ابيه ، وعن عمر وعلى . اسد الغابة ج ٤ ص ١٨٣ .

وعلى ذلك فمن البعيد ان يروى «عبيد بن عمير» او «عبد الله بن شداد» عن النبى نفسه ، غير ان شهرة الحديث بين الفريقين اغنتنا عن التدقيقفى اسناده ومن ينتهى اليه .

نعم روى فى التفسير المنسوب الى الامام العسكرى : هبط اليه وأخذ بعنبعه وهزه وقال : يا محمد اقرأ قال وما اقرء قال : يا محد «اقرء باسم ربك الذى خلق»راجع البحار ج ١٨ ص ٢٠٦ غير ان كون هذا التفسير من املاء الامام العسكرى ، فيه كل الريب والشك .

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ٣ ورواه بصورة قريبة منه فى ج ٣ كتاب التفسير ص ٢١٨ ونقله من اعلام الطائفه ابن شهرآشوب فى مناقبه ونقله العلامة المجلسى عنه فى البحار فراجع ج ١٨ ص ١٩٦ من الطبعة الجديدة .

(٣) وهذا شاهد على ان الملك لم يرد ان يلقنه الايات ليتابعه فى القرائة فان ذلك امر مقدور للقارىء ، والامى ولو اراد هذا كان المناسب ان يقول ماذا اقرأ بل اراد ان يقرأه النبى بنفسه بلا متابعة .

متنها تغنينا عن الامعان فى سندها ، وقد أخرجها البخاري فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ونقلها ابن هشام عن غيرها فلاحظ التعليقة .

* * *

جولتنا حول الرواية :

اننا مهما جهلنا بشيىء من الاشياء، فلا يمكن ان نجهل بأن النبوة منصب الهي لا يتحملة الا الامثل فالامثل من الناس ، ولا يقوم بأعبائها الامن عمر قلبه بالايمان ، وزود بالخلوص والصفاء، وغمره الطهر والقداسة،واعطى مقدرة روحية عظيمة لا يتهيب حين ما يتمثل له رسول ربه وأمين وحيه ، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه،وتلك المقدرةلاتفاض من الله على عبد الابعد معدات ومقدمات.

منها : شموخ اصلاب آبائه وطهارة أرحام أمهاته، حتى ينتقل من صلب شامخ الى صلب آخر مثله ومن رحم طيبة الى أخرى مثلها .

منها : البخوع للعبادة ، والعكوف على المجاهدات النفسانية والرياضات التي لا تنازع الفطرة ، بل تعدل الميول والغرائز وتهديها سبيل الرشاد والسلام .

منها : التفكير فى آثار صنعه وعجائب خلقه وبدايع كونه بتعمق وتدبر حتى يهديه التفكير فى جمال الطبيعة الى معرفة بارئها معرفة تامة تليق بحال نبيه .

منها : ان يكون فى رعاية أكبر ملك يهديه الى طرق المكارم ومحاسن الاخلاق كما اشار اليه مولانا أمير المؤمنين فى الخطبة القاصعة : « لقد قرن به (ص) من لدن ان كان فطيماً ، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاس اخلاق العالم ليله ونهار، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثرامه ، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري . ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة،وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة فقال هذا الشيطان آيس من عبادته

انك تسمع ما اسمع ، وترى ما أرى ، الا انك لست بنبي ولـكنك وزير ، وانك لعلى خير (١) .

هذا البيان الضافي من أمير الاسلام والبيان (ع) يومي الى كثير مما ذكرناه من المقدمات،ويرسم لنا صورة اجمالية من حياة النبي الاكرم قبل بعثته وانه (ص) منذ نعومة أظفاره،منذ فطم من الرضاع، وقع تحت كفالة أكبر ملك يسلك به الى طريق المكارم،ويرشده الى معالم الهداية ومدارج الكمال ، ويصونه طيلة حياته من طفولته الى شبابه والى كهولته من كل سوء .

هذا البيان يفيدنا بأن نفس أي انسان لا تستعد لقبول الوحي الا بعد اقتحام عقبات وطي مراحل ، وان الملك الاكبر لم يزل يواصل نبي الاسلام ليله ونهاره، حتى استعدت نفسه لقبول الوحي ، وتمثل أمينه بين يديه ، والقاء كلام ربه اليه ، ووعيه له منه، بانطباعه فى لوح نفسه ، واذا اقتحم تلكم العقبات وتحققت تلكم المقدمات والمعدات وتم الاستعداد ، ارتقت نفسه الى ذلك الحد الاسمى فانحسرت عن قلبه الاغطية وارتفعت عنه الحجب ، حيث أخذ يعاين الاشياء على ما هي عليه، ويقف على الحقايق على النحو الذي يليق به ويقدر على تلاوة ما لم يكن قادراً عليها .

وقد تحققت تلك الغاية وبلغت نفسه الشريفة الى ذلك الحد فى الشهر الذي اختاره الله تعالى فيه رسولا الى الناس،فجاءه أمين الوحي بلوح برزخي يحتوي على آيات من القرآن الكريم فعرضه على النبي وطلب منه ان يقرءه فابى وتجافى عـن قرائته قائلا بأنه أمي لا يقرء ولا يكتب،وانه ما قرء وما كتب طيلة عمره فغطه الامين ثلاث مرات فاذا به يقرء .

نحن لانعلم كنه هذا الغط ولانستطيع ادراكه، وليس هو الاأثر آماديألامر معنوي كاماطة الستر عن روحه وقلبه ، وهذا أمر طبيعي فى مثل هذا الموقف العظيم الجليل الذي تنوء به اجسام وأرواح البشر، فان لكل عمل روحي ولا سيما لمثل كشف الغطاء

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصعة ص ٣٧٤ طبع عبده .

أثراً خاصاً فى ابداننا،والاثر البارز المادي لكشف الغطاء عن قلب النبي ونفسه،هو الغط الذي احسه فى ذلك الحين، والا فالغط المادي لا مدخلية له فى القدرة على القرائة والتلاوة .

هكذا كانت هذه اللحظة الحاسمة من حياته (ص) منعطفاً رائعاً الى مرحلة جديدة ، فكشف عنه الغطاء آن الغط،فقدر على قرائة ما لم يقدر عليه فعرف الحروف والنقوش، بل الحقائق فصار اكمل انسان يطأ الارض بقدميه، ويعيش فى اديمها ويتظلل بسمائها.

وهذا البيان منضماً الى مـا سمعته من حديث بدء الوحي يدفعنا الى القـول بأنه (ص) قد انقلبت حاله بعد البعثة باعجاز من الله سبحانه واقدار منه تعالى .

منها : حديث طلبه القلم والدواة :

أخرجه أصحاب الصحاح والسنن ونقلها أهل السير والاخبار كافة ويكفيك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال لما حضر رسول الله وفى البيت رجال منهم عمر بن الخطاب قال النبي (ص) هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فقال عمر ان النبي (ص) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا منهم من يقول : قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ماقال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (ص) قال لهم رسول الله (ص) قوموا فكان ابن عباس يقول:ان الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين ان يكتب لهـم ذلك الكتاب من اختلافهم (١) .

اخذ المستدل بظاهر الحديث وقال النبي (ص) طلب ان يكتب كتـاباً ، وظاهره كون الكاتب نفسه لا غير، لكنه نسي أو تناسى ان فى الاسناد مجازاً و انه من باب كتب الامير،أو كتب الملك وليس معناه انه كتب بنفسه ، بل السيرة على

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٢ كتاب العلم واخرجه مسلم فى آخر الوصايا فى صحيحه ج ٢ ص ١٤ واحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٢٥ وغيرهم من اعلام الامة .

ان الملك أو الامير يمليان والكاتب يكتب وينفذانه بخاتمهما وكان رسول الله (ص) يملي والكاتب يكتب ولا يكتب بيده وهكذا كانت سيرة الخلفاء من بعده ، ما كانوا يكتبون الا فى مواقف خاصة .

منها قصة الحديبية :

ملخصه : لما اعتمر النبي (ص) فى ذي قعدة فابى أهل مكة ان يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على ان يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (ص) قالوا لا نقر بهذا لـو نعلم انك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله فقال أنا رسول الله وأنا محمـد بن عبد الله ثـم قال لعلي (ع) امح رسول الله قال علي لا والله لا امحوك أبداً فأخذ رسول الله (ص) الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله (ص) لا يدخل مكة السلاح الا السيف فى القراب الخ (١) .

وقدتمسك بظاهر الرواية «أبو الوليدالباجي» فادعى ان النبي (ص) كتب بيده بعد ان لم يكن يكتب، فشنع عليه علماء الاندلس فى زمانه ورموه بالزندقة وان الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم :

برئت ممن شـرى دنيا بآخرة وقال ان رسول الله قد كتبا

فجمعهم الامير فاستظهر «الباجي» عليهم بما لديه من المعرفة وقال للامير : هذا لا ينافي القرآن بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لانه قيد النفي بما قبل ورود القرآن فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » وبعد ان تحققت امنيته وتقررت بذلك معجزته ، وأمن الارتياب فى ذلك ، لا مانع

(١) صحيح البخارى ج ٥ باب عمرة القضاء ص ١٤١، الكامل ج ٢ ص ١٣٨، مسند احمد ج ٤ ص ٢٩٨ ولفظه هكذا : فكتب مكان رسول الله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الايدخل مكة السلاح الا فى القراب .

من ان يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أخرى .

وذكر «ابن دحية» ان جماعة من العلماء وافقوا الباجى فى ذلك منهم شيخه ابن أبي شيبة وعمر بن شبة من طريق مجاهد ، عن عون بن عبد الله قال : ما مات رسول الله (ص) حتى كتب وقرأ، قال مجاهد فذكرته للشعبي فقال صدق قد سمعت من يذكر ذلك (١) .

الجواب عن الاستدلال بالرواية :

ان ما رواه البخاري ومن جنح اليه على خلاف ما يرتئيه المستدل أدل ، فان قوله : « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » أصدق شاهد على اميته .

أضف الى ذلك ما ورد في بعض الروايات قول النبي الأعظم (ص) لعلي : « أرني اياها » ، أو قوله : « فضع يدي عليها » فهو شاهد صدق على بقائه على ما كان عليه من الامية .

ولاعلام الحديث والتاريخ كلمات ضافية حول الرواية تميط الستر عن وجه الحقيقة ، فلنأت بما وقفنا عليه .

١ـ قال ابن حجر : ان النكتة فى قوله « فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » هو بيان قوله «أرنى اياها» فانه ما احتاج الى ان يريه موضع الكلمة التي امتنع علي (ع) من محوها، الا لكونه لا يحسن الكتابة .

على ان قوله بعد ذلك « فكتب» فيه حذف تقدير، اي فمحاها لعلي فكتب وبهذا جزم ابن التين وأطلق « كتب » بمعنى أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله كتب الى قيصر وكتب الى كسرى .

وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف فى ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة، ان يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أمياً فان كثيراً ممن لا يحسن الكتابة ، يعرف تصور بعض الكلمات ، ويحسن وضعها بيده وخصوصاً الاسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً .

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٤ .

واحتمل ان يكون المراد: جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها فخرج الكتاب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى فى ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه امياً وبهذا اجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمة الاصول من الاشاعرة وتبعه «ابن الجوزي» وتعقب ذلك السهيلي وغيره بأن هذا وان كان ممكناً ويكون آية أخرى لكنه يناقض كونه أمياً لا يكتب وهي الاية التي قامت بها الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة فلو جاز ان يصير يكتب بعد ذلك، لعادت الشبهة، وقال السهيلي والمعجزات يستحيل ان يدفع بعضها بعضاً، والحق ان معنى قوله فكتب: أي أمر علياً ان يكتب (١).

٢ـ قال الحلبي: تمسك بعضهم بظاهر الحديث وقال ان النبي كتب بيده يوم الحديبية معجزة له، مع انه لا يقرء ولا يكتب وجرى على ذلك أبو الوليد الباجي المالكي فشنع عليه علماء الاندلس فى زمانه وقالوا هذا مخالف للقرآن.

ـ الى ان قال ـ والجمهور على ان الروايات التي فيها «انه أخذ الكتاب بيده فكتب»، محمول على المجاز أي أمر ان يكتب الكاتب (٢).

أقول: ان لفظة «بيده»، ليست فى نسخ صحيح البخاري ونص على ذلك الحلبي أيضاً وقوله: «ليس يحسن ان يكتب» الوارد فى صحيحه وغيره من المصادر الاصلية (٣) دال على ما نرتئيه فى هذا المقال.

نعم رواه البخاري فى كتاب الصلح بصورة أخرى قال «فلما كتبوا الكتاب كتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (ص) فقالوا لا نقر بها فلو نعلم انك رسول ما منعناك ـ الى قال ـ ثم قال لعلي امح رسول الله (ص) قال لا والله لا أمحوك أبداً فأخذ رسول الله (ص) الكتاب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح الا فى القراب (٤).

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٥.
(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٤ وسيرة زينى دحلان فى هامش السيرة ج ٢ ص ٢١٤.
(٣) راجع جامع الاصول ص ١٥٨ ونقله عنه المجلسى فى بحاره ج ٢٠ ص ٣٧١.
(٤) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٥. فحذف قوله وليس...

بل ان تلك الواقعة قد رويت بصورتين اخريين،رواهما اعلام السير والتاريخ.

الاولى : ان رسول الله (ص) أمر علياً ان يمحو لفظ « رسول الله » فامتنع علي من محوه فقال رسول الله أرنيه فأراه علي فمحاه بيده الشريفة ، ثم أمر علياً ان يكتبه ودونك لفظ الرواية : أمر رسول الله (ص) علياً ان يكتب :هذا ما صالح عليه محمد رسول الله (ص) سهيل بن عمرو فقال فعلى م نقاتل؟ أكتب اسمك واسم أبيك فقال : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فأمر بمحوها فعند ذلك كثر الضجيج واللغط وأشاروا الى السيوف فقال علي (ع) ما أنا بالذي امحوه فقال رسول الله(ص) ستدعى الى هذا وأنت مضطهد مقهور (١) الى ان قال وضج المسلمون وارتفعت الاصوات وجعلوا يقولون لا نعطي هذه الدنية وجعل رسول الله يخفضهم ويومى بيده اليهم ان اسكتوا ثم قال : أرنيه فأراه علي (ع) فمحاه بيده الشريفة ثم أمر علياً ان يكتبه .

نعم يظهر من البخاري ان النبي محاه من دون ان يريه علي(ع) وربما يستدل به على تمكنه من القرائة فروى فى كتاب الصلح : لما صالح رسول الله أهل الحديبية ـ الى ان قال ـ فقال لعلى امحه فقال على ما أنا بالذي امحاه فمحاه رسول الله بيده وصالحهم على ان يدخل . . . (٢) ويحتمل انه تركه للاختصار ، اعتماداً على ما نقله فى كتاب «الجزية والموادعة مع أهل الحرب» وقد نقل القصة فيه عن «البراء» هكذا . . فقالوا لو علمنا انك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك ولكن اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ـ الى ان قال ـ فقال لعلي امح رسول

---

(١) هذا من اعلام النبوة فلاقى على امير المؤمنين يوم صفين عندما رضوا بالحكمين مالاقاه رسول الله فى هذا اليوم روى اهل السير والتاريخ ان علياً امر لكاتبه ان يكتب هذا ما اصطلح عليه امير المؤمنين على بن ابى طالب (ع) ومعاوية بن ابى سفيان فقال عمرو بن العاص لو علمنا انك امير المؤمنين ما حاربناك ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه على بن ابى طالب فقال امير المؤمنين (ع) صدق الله وصدق رسوله اخبرنى رسول الله (ص) بذلك ثم كتب الكتاب راجع السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الصلح ج ٣ ص ١٨٤ .

الله فقال علي لا امحاه أبداً قال فأرنيه قال فأراه اياه فمحاه النبي (ص) بيده (١) .

ومع هذا التصريح لا يعبأ بما نقله من دون هذه الزيادة .

وروى الشيخ الاكبر المفيد ان رسول الله (ص) قال لعلى فضع يدى عليها فمحاه رسول الله (ص) بيده وقال لامير المؤمنين (ع) ستدعى الى مثلها فتجيب وأنت على مضض ثم تمم أمير المؤمنين (ع) الكتاب (٢) .

وفى اعلام الورى : قال النبي (ص) امحها يا علي فقال له : يا رسول الله ان يدى لا تنطلق لمحو اسمك من النبوة . قال فضع يدى عليها فمحاها رسول الله بيده وقال لعلي ستدعى الى مثلها فتجيب وأنت على مضض (٣) .

روى أمين الاسلام الطبرسي القصة بطولها وقال : ثم قال رسول الله (ص) امح رسول الله فقال يا رسول الله ان يدى لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذ رسول الله (ص) فمحاه ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله (٤) .

وعلى هذه الصورة من الرواية : ان رسول الله نفسه محا لفظة رسول الله، لكن علياً كتب الكتاب بأمره دون رسول الله .

الثانية : وهي تشترك مع الاولى فى التصريح بأن الكتاب كتبه على (ع) من بدئه الى ختمه بأمر رسول الله واملاء منه وتفترق عنها بأنه ليس فيها عن محو لفظة رسول الله عين ولا أثر .

خلاصتها : انه عند ما احس الهدوء وانخفضت الاسماء بايماء منه (ص) أمر رسول الله علياً ان يكتب هذا ما صالح أو قاضى عليه محمد بن الله . . . فكتب على حسب ما املاه عليه رسول الله (ص) ودونك نقل ما رواه الطبري فى تاريخه.

قال سهيل لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجزية ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٤ وسيرة زينى دحلان ج ٢ ص ٢١٢ ، والارشاد ص ٦٠ واللفظ الاخير .

(٣) اعلام الورى ص ١٠٦ .

(٤) مجمع البيان ج ٩ ص ١١٨ راجع تفسير القمى ص ٦٣٤ .

أبيك قال فقال رسول الله (ص) اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله (ص) وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب (١) وقريب منه مـا رواه البخاري نفسه فى موضع آخر (٢) واليعقوبي فى تاريخه (٣) والواقدي في مغازيه (٤) وابن هشام فى سيرته (٥) وغيرهم من اساطين التاريخ والحديث (٦) ويقرب منهم ما رواه الكلينى فى روضته حيث قال : قال رسول الله لعلي اكتب هذا ماقاضى رسول الله وسهيل بن عمرو . فقال سهيل فعلىم نقاتلك يا محمد ؟ فقال (ص) أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله . فقال له الناس أنت رسول الله قال ، اكتب فكتب هذا مـا قاضى عليه محمد بن عبد الله فقال له الناس : أنت رسول الله (٧) .

فبعد هذا الاتفـاق والاصفاق من أعلام التاريخ والحـديث والتفسير على ان الكتاب كتبه علي باملاء من النبي (ص) من أوله الى آخره فهل يصح الركون الى ما تفرد به البخاري وأحمد واعتمد عليهما الجزري فى كامله، مع ان البخاري نقض ما نقله فى باب «عمرة القضاء» فى كتاب الصلح على ما عرفناك .

على ان التضارب الصريح الذي نشاهده فى نقل البخاري فى المقام يمنع النفس عن الركون اليه ، فقد اضطرب نقله وكلامه من وجوه .

١ ـ تراه انه نقل القصة فى موضع هكذا «أخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب ، فكتب هذا مـا قاضى محمد بن عبد الله » (٨) ، وفي الوقت نفسه ساقها في موضع آخر من كتابه بنفس اللفظ السابق ، ولكنه حذف قوله : « وليس يحسن

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٨١ .
(٢) صحيح البخارى كتاب الصلح ج ٣ ص ١٩٥ .
(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥ .
(٤) المغازى ج ٢ ص ٦١٠ .
(٥) السيرة ج ٢ ص ٣١٧ .
(٦) راجع صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٤ .
(٧) الروضة للكافى ص ٣٢٦ .
(٨) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٤١ .

يكتب » (١) .

٢ ـ تراه انه يصرح بأن النبي امحا لقبه بارائة علي (ع) حيث يقـول « فقال لعلي امحه فقال علي (ع) لا امحاه أبداً، قال : فأرنيه قال فأراه اياه فمحاه النبي بيده (٢) ومع ذلك تراه ينقل امحاء النبي ، من دون ان يشير بانه كان بارائة من علي حيث قال « فقال لعلي امح رسول الله فقال ما أنا بالذي امحـاه فمحـاه رسول الله بيده (٣) .

٣ ـ يظهرمنه فى موضع ان علياً هوالذى كتب اسم النبي بعد امحائه ما امحاه حيث قال « فقال النبي (ص) والله انى لرسول الله وان كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله (٤) .

منها كتاب النبى الى العذار :

روى البخاري عن العذار بن خالد قال كتب لي النبي (ص) : هذا ما اشترى محمد رسول الله من العذار بن خالد بيع المسلم المسلم لا داء ولا خبـيثة ولا غائلة (٥) .

ودلالته على انه (ص) ، كتب الكتاب بنفسه ضعيفة ، لا يمكن الركون اليه فى هذه المسئلة اذ كثيراً مايسند الفعل الى الامراء والملوك ويراد منه التسبيب لا المباشرة.

* * *

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ١٨٥ .
(٢) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥ .
(٤) راجع المرجع السابق ج ٣ ص ١٩٥ .
(٥) صحيح البخارى ج ٣ ص ٧ .

فذلكة البحث :

ما سردناه اليك من الاحاديث فى هذه الصحائف ، قد رواه الجمهور فى صحاحهم ، وقد وافاك عدم دلالة كثير منها على ما نرتيئه ، غير حديث بدء الوحي، و لو صح سنده واعتمدنا على ما تفردت بنقله ، «عائشة» فانما يدل على انه سبحانه مكن عبده من قرائة اللوح الذي كان بيد أمين الوحي ، ولم يكن ذاك اللوح ، لوحاً ماديا وصحيفة جسمانية بل كان لوحاً برزخياً ، ومن قدر على قرائة نقوش ذاك اللوح وحروفه وجمله ، يقدر على قرائة ما كتب فى الالواح والصحائف المادية .

* * *

بقيت فى المقام روايات ضعاف ومراسيل ، نقله بعض المتأخرين ، ولا يمكن الاستدلال بها فى مثل هذه المسئلة، ودونك ما نقلوه:

قال القاضي الحافظ أبو الفضل بن عياض بن موسى بن عياص : انه (ص) كان لا يكتب ولكنه اوتي علم كل شيىء حتى قد وردت آثار بمعرفته بالخط وحسن تصويرها، كقوله لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم (١) رواه ابن شعبان (٢) من طريق ابن عباس .

وقوله فى الحديث الاخر الذي يروى عن معاوية انه كان يكتب بين يديه (ص) فقال له الق الدواة (٣) وحرف القلم (٤) وأقم الباء (٥) وفرق السين (٦) الى آخر ما نقله . . . (٧) والمظنون ان الحديث من ولائد النزعات الباطلة تزلفاً للامويين .

---

(١) قال القارىء فى شرحه: اى مد سينه من غير تبين روى الدارمى عن زيد بن السن اذا كتبت فبين السين .

(٢) هو ابو اسحاق العسرى المالكى له ترجمة فى الميزان ماتسنة خمس وستين وثلاثمأة

(٣) امر من الاق الدواة اذا جعل لها ليقة واصلح لها مدادها .

(٤) اى اجعل شقه الايمن ازيد من الطرف الاخر قليلا لانه اسرع فى الكتابة وابدع فى اللطافة .

(٥) اى طولها .

(٦) اسنانها .

(٧) راجع فتح البارى ج ٩ ص ٤٤ ، شرح الشفاء ج ١ ص ٧٢٦ - ٧٢٧ .

عرض و تحقيق :

لا بأس باكمال البحث بما وصل الينا من الروايات مـن أئمة أهل البيت مع ترجمة رجال أسنادها وتوضيح مضامينها على وجه الاجمال وقد نقل كثيراً منها المجلسي فى بحاره فى الباب السادس من الجزء السادس المختص بحياة نبينا (ص) (١) .

١ ـ اخرج الصدوق فى علل الشرايع عن ابن الوليد عن سعد (٢) عن ابن عيسى (٣) عن الحسين بن سعيد ومحمد البرقي عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (ع) قال : كان النبي يقرء الكتاب ولا يكتب (٤) .

والحديث صحيح رجاله كلهم ثقاة بالاتفاق ولكنه ظاهر، اومحمول على عهد الرسالة لما عرفت من تنصيص الكتاب العزيز على كونه أمياً قبل البعثة .

٢ ـ اخرج الصدوق فى علله عن سعد (٥) عن ابن عيسى عن البزنطي عـن ابان عن الحسن الصيقل قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : كان ممـا من الله على نبيه (ص) انه كان أمياً لا يكتب ويقرء الكتاب (٦) والسند صحيح الى البزنطي نعم اختلفت كلماتهم فى أبان ورموه بالناووسية والنسبة غير محققة، والرجل من أصحاب الاجماع . وحسن الصيقل مهمل فى كتب للرجال لم يوصف بالوثاقة ولم يرد فيه طعن ، والحديث وان لم يكن صحيحاً لكنه معتبر خصوصاً لنقل «أبان» الذي هو أحد أصحاب الاجماع عنه والحديث نظير ما تقدم عليه فى الحمل والظهور بل أظهر من سابقه فى كونه راجعاً الى أيام نبوته وعهد رسالته (ص) بقرينة قوله : كان مما مـن الله عز وجل به على نبيه».

---

(١) بحار الانوار ج ٦ ص ١٣١ ـ ١٣٥ .
(٢) المراد سعد بن عبد الله .
(٣) احمد بن محمد بن عيسى الاشعرى القمى .
(٤) علل الشرايع ص ٥٣ .
(٥) قد اوضحنا المراد منه ومن بعده فى الحديث المتقدم .
(٦) علل الشرائع ص ٥٣ ومعانى الاخبار ص ٢٠ .

٣ ـ أخرج الصدوق في علل الشرايع عن أبيه عن سعد عن معاوية بن الحكم عن البزنطي عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله (ع) قال كان مما من الله عزوجل على رسول الله (ص) انه كان يقرء ولا يكتب فلما توجه أبو سفيان الى «أحد» كتب العباس الى النبي فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه وامرهم ان يدخلو المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم (١) والخبر صحيح الى البزنطي وهو من أصحاب الاجماع ورجاله كلهم ثقاة غير ان في آخره اجمالا وأهمالا، يلحقه بالمراسيل نعم لابأس بمضمونه فهويؤيد ماقدمناه من الصحيحين، وان النبي (ص) كان يقرء احياناً في عهد الرسالة لكن نقله زيني دحلان في سيرته بصورة أخرى ودونك نصه : كتب العباس للنبي (ص) وأخبره بجمعهم وخروجهم وراودوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشيىء من المال فجاء كتابه للنبي وهو بقبا وكان العباس ارسل الكتاب مع رجل من بني غفار استأجره وشرط عليه انيأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليهافعل ذلكفلماجاء الكتاب فك ختمه ودفعه لابي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أبياً ثم نزل (ص) على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس (٢) .

٤ ـ أخرج الشيخ الاقدم محمد بن الحسن الصفار عن الحسن بن علي عن أحمد بن هلال عن خلف بن حماد عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قال أبو عبد الله (ع) ان النبي كان يقرء ويكتب ويقرء ما لم يكتب (٣) ويكفي في ضعف الحديث انه مروي عن أحمد بن هلال الذي خرج التوقيع عن الناحية المقدسة في لعنه ونقل الصدوق عن شيخه ابن الوليد عن سعد انه قال ما سمعنا ورأينا بمتشيع رجع عن تشيعه الى النصب الا أحمد بن هلال .

أضف اليه انه مخالف لما قدمناه من الصحيحين من انه (ص) كان يقرء ولا

---

(١) علل الشرايع ص ٥٣ .

(٢) سيرة زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) بصائر الدرجات ص ٦٢ .

يكتب (١) .

فاتضح انما يصح من هذه المأثورات انما هو الحديث الاول والثاني ويؤيدهما الثالث وهي بمجموعها تهدف الى ان النبي (ص) كان يقرء ولا يكتب أيام رسالته ورحاب دعوته ولا ضير فى الالتزام به خصوصاً اذا كان غير متظاهر بالقرائة ، مكتفياً بقدر الضرورة ، ويؤيدها حديث بدء الرسالة.

٥ ـ اخرج الكليني فى كتاب الحجة بأسناده عن الحسن بن العباس الحريش عن أبي جعفر الثاني (ع) عن أبي عبد الله قال :

كان علي (ع) كثيراً ما يقول : ما اجتمع التيمي والعدوي عند رسول الله(ص) وهو يقرأ : «انا أنزلناه» بتخشع وبكاء فيقولان : ما اشد رقتك لهذه السورة ؟ فيقول رسول الله لما رأت عيني ووعا قلبي ، ولما يرى قلب هذا من بعدي فيقولان : وما الذي رأيت وما الذي يرى قال : فيكتب لهما فى التراب « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » قال : ثم يقول : هل بقى شيىء بعد قوله عزوجل : « كل أمر » فيقولان : لا فيقول : هل تعلمان من المنزل اليه بذلك ؟ فيقولان : أنت يا رسول الله فيقول : نعم فيقول : هل تكون ليلة القدر من بعدي ؟ فيقولان : نعم قال : فيقول فهل ينزل ذلك الامر فيها ؟ فيقولان نعم ، قال : فيقول الى من ؟ فيقولان لا ندري،فيأخذ براسي ويقول : ان لم تدريا فادريا هو هذا من بعدي قال : فان كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله (ص) من شدة ما يداخلهما من الرعب (٢) .

وجه الدلالة : ان قوله (ع) : « فيكتب لهما فى التراب » بصيغة المعلوم دال على ان النبي كان يكتب هذه الايات فى التراب .

ويؤسفنا ان الحديث ضعيف للغاية :

لاجل الحسن بن العباس بن الحريش، قال النجاشي :«أبو علي روى عن أبي

(١) راجع الحديث الاول والثانى .

(٢) اصول الكافى كتاب الحجة باب «انا انزلناه فى ليلة القدر» وتفسيرها ص ٢٤٩ ، طبع الصدوق .

جعفر الثاني ضعيف جداً له كتاب « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وهـو كتاب ردي الحديث ، مضطرب الالفاظ (١) .

وقال الغضائري « أبو محمد ضعيف جداً يروى عـن أبي جعفر الثاني فضـل « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وله كتاب مصنف فاسد الالفاظ ، تشهد مخائله على انه موضوع وهذا الرجل لا يلتفت اليه ولا يكتب من حديثه .

قال المحقق التستري « ان أردت ان تقف على صحة مـا قـاله النجاشي والغضائري فى حق الرجل فراجع باب « فضل انا أنزلناه » من الكافي تجد صحة كلامهما فترى انه روى فى ذاك الباب تسعة أخبار بسند واحد كلها عن الحسن بن عباس بن الحريش عن الجواد (ع) فلفظها فاسد ومعناها كاسد وهكـذا راجع تفسير القمي فى أول سورة محمد (ص) (٢) .

ثم نقل بعض أحاديثه، ونقده نقداً نزيهاً .

حصيلة الكلام فى امية النبى (ص) :

قدأصبحت أمية النبي الاعظم (ص) قبل ان يختاره الله لابلاغ رسالته أمراً واضحاً كوضوح شمس الضحى ، لايشك فيها ذومسكة ومن له أدنى المام بتاريخ الجزيرة وحياة الامة العربية ، العائشة فيها وأما حديثها بعد البعثة فالامعان فى ما نقلناه من حديث بدء الرسالة والصحيحين المرويين عن الامام الصادق (ع) ، يعطى أنـه كان يقرء ولا يكتب ، فلوجاز الركون فى مثل المقام الى هذه النقول المـروية بصورة الاحاد من الاخبار ، فنحكم بمفادها ، والا فالحكم ببقائه على ما كان عليه من الامية قبل البعثة أوثق وأسد،ويؤيد الاخير ما نقلناه فى قصة الحديبيـة فى بعض صورها التي عرفناك ، والتعليل الوارد فى الاية الكريمة أعني قوله سبحانه : « اذاً لارتاب

(١) فهرست النجاشى ص ٤٥ ط الهند .

(٢) قاموس الرجال ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ ، راجع تنقيح المقال ج ١ ص ٢٨٦ .

المبطلون » خصوصاً لو كان مراد القائل تظاهره (ص) بصناعة القرائة والكتابة على أظهر الناس، ورؤوس الاشهاد ، فانه يجر الشك الى ما قبل الرسالة كما لا يخفي .

نحن وقساوسة الغرب والمستغربة :

هذه هي الامية ، وأدلتها الناصعة ، وآياتها الباهرة ، وليس شيىء حول النبي العربي أوضح من تاريخ حياته ، ولا ناحية من تاريخه أوضح من أميته ، ولـم تك صناعة القرائة والكتابة مسلوبة عن شخصه فقط ، بل كان علية القوم والسواد الاعظم فى « أم القرى » وما حولها ، محرومين من هذا الكمال ، وقد نص بذلك سبحانه بقوله : « هو الذي بعث فى الاميين رسولا » (الجمعة ـ ٢) .

« وبما ان أهل مكة اذ ذاك لم يكونوا أهل عناية بتعلم القـرائة والكتابة ولا بتعليم أولادهم وأفلاذ اكبادهم ، لندرة وجود الكتاب والكتاب ، ونـدرة الحاجة الى ضبط الحساب، لقلة المعاملات وكثرة الحفظ وقوة الذاكرة فيهم، نشأ محمد(ص) كآبائه واقربائه بعيداً عن الكتاب والدارسة » (١) .

بالرغم من شهادة تاريخ الحجاز فى دوره الجاهلي ، ومحيطه البدوي على أمية النبي وعشيرته واقربائه ، نجد مغالطات وتشكيكات اثارتها قساوسة الغرب حول أميته (ص) وتبعهم بعض المستغربة فى الشـرق ، الذين يتطفلون على موائد الغربيين فى كل شيىء، حتى فيما يرجع الى الاسلام والمسلمين ، والشرق والشرقي، غير واقفين على نواياهم وما تكنه صدورهم وضمائرهم ، مـن القضاء علـى الاسلام والمسلمين ، والحقد والعداء للنبي الاعظم ورسالته ، وما يستهدفون مـن بث هـذه التشكيكات والمغالطات، التي لها طابع التحقيق ، حول الرسول الاكرم وأميته .

وفى الوقت نفسه ، لا مصدر لهم فى انكار أميته الا مراسيل عـن مجاهيل ، أو انتحالات أعداء الديـن ، نظراء ابن أبي العوجاء و . . . كل ذلك لبث الريب فى قلوب البسطاء من المسلمين بالنسبة الى رسالته،ودينه ، وكتابه ، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لانكار رسالته الالهية واتصاله بالعوالم الروحية حتى يصوروا لهـم ، ان النبي كان قارئاً وكاتباً وان مـا جاء به من المعارف والاحكام هي انتاج عبقريته الفـذة

(١) المعجزة الخالدة ص ٤٦ .

وشخصيته اللامعة ، وسبره فى الكتب وغوره فيها ، شأن كل باحث متتبع .

غير ان جهلهم أوتجاهلهم بالحقيقة ودعاياتهم الواسعة لا يؤثر شيئاً فى قلوب المثقفين من الامـة ، وكيف وقد تسالمت عليها الامة منـذ ألف وقرون لم ينبس أحد ببنت شفة على خلافـه ، حتى جعل صاحب المنار وغيره « أمية » النبي أحد وجوه اعجاز القرآن وقالوا ان الضمير فى قوله سبحانه : « فأتوا بسورة من مثله » يعود الى ـ المبلغ ـ بكسر اللام أي الـرسول نفسه لا الى القرآن وقال فى تفسير الاية : « فان خفى عليكم الحق بذاته فهذه آية من أظهر آياته ، وهي عجزكم عن الاتيان بسورة من مثل سور القرآن ، من رجل أمي مثل الذي جاءكم به ، وهو عبدنا ورسولنامحمد وان عجزتم عن الاتيان بسورة من مثله،تساويسورة فى هدايتها وتضارعها فى اسلوبهاو بلاغتها،وأنتم فرسان البلاغة وعصركم ارقى عصور الفصاحة فاعلموا ان ما جاء به ، بعـد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن الا بـوحي الهي وامداد سماوي (١) .

وما ذكره من رجوع الضمير الى النبي وان كان خلاف ظاهر الاية ، خصوصاً فى قوله سبحانه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (الاسراء ـ ٧٨) وفى قوله سبحانه : «فاتوا بعشر سور مثله مفتريات» (هود ـ ١٣) الا انه احد وجوه اعجازه .

قال العلامة الشهرستاني : «ان من وجوه اعجاز القرآن والاعجاب به صدوره من مثل محمد الامي ، ربيب البادية، البعيد عن حضاير الفنون ، البعيدعن حواضر الحكماء ومحاضر العلماء ـ الىان اوضح مقاله بمثال وقال: «الشعب الواثق بانسفيره لايقرأ ولا يكتب ولايخون ، ولايكذب ولم يعهد منه الشعر،ففى وضع راهن كهذا ، لو يفاجئهم سفيرهم بكتاب فذ فى الكتابة والانشاء والاملاء . . . وادعى انه مرسل به من ناحية السلطان . . . فان الشعب ضرورى ايمانه واذعانه له،وعدم اتهامه بأنهالمباشر لهذه الفرية .

هكذا شان القرآن ومبلغه الامي الامين عليه وآله صلوات الله وسلامه .

(١) المنار ج ١ ص ١٩١ .

(٤)

سيرة النبـى الاعظم ، وصفاتـه وأسماءه
فى القرآن الـكريم

قد استقصينا الكلام حول أمية النبي الاكرم ، ولم تكن شخصيته منحـصرة فى هذه الصفة ، وانما كان تتجلى بصفاة كثيرة، تتجسد فيها مكارم الاخلاق ومحاسن الانسان الكامل،وقد عرفه سبحانه فى كتابه العزيز بأوصاف مدهشة للعقول، ومثيرة للاعجاب ، وقد عقدنا هذا الفصل لدراسة حياته ونفسياته وصفاته العليا ، على ضوء القرآن المجيد . كل ذلك على وجه الاختصارفان استقصاء البحث حولها يحوجنا الى تأليف مفرد .

وركزنا بشكل خاص ، الكلام حول أحد أسمائه ـ أحمد ـ وفندنا دعوى بعض المغفلين من اتباع المشعوذ المتنبى « أحمد القادياني » حيث ادعى استلهاماً من قائده ، انه الموعود والمبشربه فى الانجيل والقرآن ، وقـد أظهـرنا الحقيقة وأخذنا اللثام عن وجهها بما لا يدع مجالا لمعاند .

بالرغم من أن جوانب حياة النبي (ص) واسعة المدى ، فسيحة الارجاء ، متعددة الجهات ، مختلفة النواحي ، فقد عنى المسلمون منذ فجر الاسلام وانبثاق الدعوة الالهية في ربوع العالم ، بضبط ما يرجع الى حياته (ص) مما دق وجل ، من قول ولفظ ، وفعل وعمل ، وما في تاريخه من نوادر وطرائف وملح ، فما صدر منه كلام الا نقلوه ، أو فعل الا ضبطوه ، أو سنة الا سجلوها ، وقد بلغوا الغاية في ذلك حتى دونوا حياة أصحابه وتابعيه وما ينسب اليه واليهم بأدنى مناسبة . فترى في غضون المعاجم والسير كثيراً مما يرجع اليه (ص) من الامور التي قلما تخطر على بال بشر ان يصفها أو يسجلها كتوصيف نعله، وخفه ،وسواكه، ومشطه،ومكحلته ومرآته ، وقدحه ، وسيوفه ، ودروعه ، وتروسه ، ورماحه ، وسوطه ، ورايته ، ومغفره ، واعلام خيوله ، وابله ، وبغلته ، وحماره، ومنايحه من الخدم،ومواليه ، وحجر ازواجه ، وفسطاطه ، وقصعته ، وقعبه ، وعمامته ، وخاتمه ، وأصناف لباسه ، وطولها ، وعرضها ، وشعره ، وشيبه ، وكيفية خضابه ، ونومه ، ومأكله ، والطعام الذي يعجبه ، حتى سجلوا الابار التي شرب منها، والخمرة التي كان يصلي عليها،الى غير ذلك من نوادر الامور التي لا يهتم بذكرها وضبطها بالنسبة الى البشر العاديين .

كل ذلك دليل على شدة ما كان يتمتع به النبي من ود وحب عريق ، الى حد قيض همة ثلة جليلة من فطاحل المسلمين وأكابرهم لضبط وتسجيل كل ما يرجع اليه كبيراً أو صغيراً ، شرعياً أو عرفياً (١) .

فألفوا في كل ناحية من نواحي حياته كتباً زاخرة ورسائل طافحة أو عقدوا لها فصولا في كتب السير والتاريخ،ولقد زخرت المكتبة الاسلامية في آثار هذا النشاط بل زخرت مكتبات أخرى في لغات وأمم أخرى بكتب ورسائل في هذا المضمار الى حد يقف العقل امامها حائراً مشدوهاً يخالجه مزيج من الاعجاب والمهابة .

---

(١) راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٦٠ وتاريخ الطبري ج ١ ص ٤١٧-٤٢٨ وبحار الانوار ج ١٦ ص ٨٢ - ٢٢٩ وغير ذلك من المجاميع التاريخية والحديثية .

والعجب ان الركب بعد سائر لم يقف ، ولم يفتر ، وهذه الكتب مع كثرتها لم تشبع نهمهم،وما قضت وطرهم فى تحليل حياة النبي ، حتى اننا نرى الاكابر من العلماء فى كل عصر وجيل الى عصرنا هذا،يكتبون كتباً زاخرة فى حياة النبي ويؤلفون رسائل طافحة بالتحقيق والتحليل ، حتى يغنوا بذلك الناشىء الجديد عن أساطير التاريخ وأفانين الرواية ورسائل المستشرقين ويقدمون لهما يسد جوعته ويجعل المسلم الحر،يرتشف من المنهل العذب .

وعلى ضوء هذه الكتب والجهود الجبارة التي تحملها لفيف من علماء المسلين بل فئة كبيرة منهم،لم يتركوا فى حياة النبي مبهمة الا وقد كشفوا أستارها ورفعوا النقاب عن وجهها ، أو ضلعاً مجهولا الا حددوه وعينوه بأدق وجه وأنصع بيان .

عناية القرآن ببيان صفات النبى (ص) :

ليست عناية القرآن ببيان نواح من حياة النبي الجليلة وشؤنه الدقيقة بأقل من عناية المسلمين ضبطاً وتسجيلا ،فان القارىء يجد فى مختلف السور والايات ، صوراً واضحة رائعة من صفات النبي وفضائل أخلاقه وكرائم نعوته الى حد يقف الانسان على روحياته ونفسياته ومختلف أقواله وأفعاله،ويقدر مع التدبر التام فيما نزل فى حقه من الايات،على الاحاطة بمراحل حياته منذ بعث بل من نعومة أظفاره الى ان فارقها الى الرفيق الاعلى ، ولعلنا نرجع الى ذلك فى مستقبل الايام (١) .

فالرجوع الى نفس القرآن واستخراج سيرة النبي وصفاته ونفسياته وأفعاله عن خلال آياته الكريمة ،أوثق وأسد الطرق لدراسة شخصية النبي الاعظم، فالتدبر فى هذا القسم من الايات ،يعطى لنا صورة واضحة عن حياة النبي وشخصيته الفذة،

(١) وقد وقفنا بعد ما كتبنا هذا الفصل على ما الفه محمد عزة دروزة فى هذا المضمار وأسماه «سيرة الرسول» وهى صورة مقتبسة من القرآن الكريم وذكر فى مقدمة الكتاب الحوافز التى دفعته الى تأليف كتابه وقد طبع فى مطبعة الاستقامة بالقاهرة فى جزئين وقد راجعنا هذا الكتاب بعض المراجعة عند تقديم هذا الفصل الى الطبع .

وعبقريته النادرة ، وما اودعه الله فيها من مواهب وقوى خلقية ونفسية وعقلية، بلغت الذروة والروعة والعظمة،ويغنينا عن المبالغات التي يعمد اليها بعض الفرق المسلمين من غير سند وثيق .

ان تلكم الايات تصلح ان تكون رداً حاسما وقوياً على الموقف المنكر الذي يقفه المغرضون من المبشرين والمستشرقين من أخلاق النبي وفضائله ، اذ يتجاهلون أو يغفلون عن ما فى القرآن من نصوص،ويتمسكون دونها بالروايات التي ربما تكون مخترعة أو مدسوسة ومزورة ، فينسبون الى ساحة النبي الاكرم ما هو بريء منه ، فى حين ان فى القرآن من الايات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه النبي من الرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق فى الله والتحلي بالمثل العليا واعطاء القدوة الحسنى لذلك كله .

فقد اشار سبحانه الى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه : وانه لا يصلح دعاءه كدعاء بعضنا بعضاً بقوله سبحانه «يا ايها الذين آمنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون» (الحجرات ـ ٢) وبقوله سبحانه «لا تجعلو دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً»(النور ـ ٦٢) . والى حرمة التسرع فى ابداع الرأي والبدء فى العمل بقوله عزوجل: «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقو الله ان الله سميع عليم » (الحجرات ـ ١) .

والى تأثره وغمه وهمه وحزنه من عدم استجابة قومه لدعوته واهتدائهم بهديها بقوله سبحانه : « ولعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» (الكهف ـ ٦) وبقوله «لعلك باخع نفسك الا يكونوا لمؤمنين» (الشعراء ـ ٣) والى تحمسه وثباته فى المعارك الطاحنة وما فيه من شجاعة وثبات جنان فى مواقف الشدة وميادين الكفاح.والى موقفه امام العدو حين مادارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وتفرق كثير من أعيانهم وأبطالهم، ووقف النبي وثبت فى ميدان المعركة، ومعه من لا يتجاوز عدد الاصابع بقوله سبحانه : « اذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول

يدعوكم فى اخريكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم والله خبير بما تعملون» (آل عمران ـ ١٥٣) .

فكان النبي قطب الرحى فى هذا الموقف العصيب اذ ثبت ثبات الجبال، رابط الجأش ، مطمئن النفس ، فصار اسوة حسنة للمؤمنين .

والى انه بلغ من الكمال الى حد ، صار اماماً وقدوة للمؤمنين يتأسون به فى قيمه الروحية ومثله العليا بقوله « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوالله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً » (الاحزاب ـ ٢١) .

والى انه قد رزق الكوثر والخير الكثير من كل جوانب الحياة ومظاهرها فرزقه الله من بنت واحدة ، ما ملأ الخافقين بقوله « انا أعطيناك الكوثر (الكوثر ـ١) وغيرها من الخيرات التي لا تعد ولاتحصى فلما رماه خصمه بأنه الابتر،فرمى شانئه بأنه اولى بذلك لانبي العظمة .

وقد بلغ من العظمة موقفاً حتى أصبح ان الله وملائكته يصلون عليه ، فأمر الله سبحانه المؤمنين ان يصلوا عليه ويسلموا تسليماً (١) وقال سبحانه «ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلمو تسليماً» (الاحزاب ـ ٦٥) .

والى انه وصل الى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس

---

(١) روى الشافعى فى مسنده ج ٢ ص ٩٧ عن ابى هريرة انه قال لرسول الله كيف نصلى عليك قال تقولون : (اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم ثم تسلمون على .

روى ابن حجر فى صواعقه ص ١٤٤ قال صح عن كعب بن عجرة قال لما نزلت هذه الاية قلنا يا رسول الله قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال : قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد ـ الى ان قال ـ وروى عنه (ص) انه قال : لاتصلوا على الصلاة البتراء فقالوا وما الصلاة البتراء؟ قال تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون ، بل قولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد (ص) .

وقد نسب الزرقانى فى شرح المواهب ص ٧ هذين البيتين الى الامام الشافعى :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن انزله

كفاكم من عظيم القدر انكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

ورجاحة العقل بقوله «انك لعلى خلق عظيم» (القلم – ٤) (١) .

والى دماثة خلقه وحسن معاشرته ورأفته وعطفه على أعدائه ، وتنزهه عن فظاظة الخلق ، وغلظ القلب بقوله « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم» (آل عمران – ١٥٩) .

والى ما رزق من قلب نقي وسريرة طيبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم بقوله: «ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل هو اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةللذين آمنوا منكم» (التوبة – ٦١)

والى حيائه وصبره على ما يؤذي نفسه من أصحابه وتجنبه من كسر قلوبهم وجرح عواطفهم بقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين انه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيى منكم والله لا يستحيي من الحق» (الاحزاب – ٥٣) .

والى ما فطر من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه وشعوره بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق ، وما يلقى من جهد وعنت في سبيل ازالة آلامهم وتخفيف ما يشق عليهم،واشتياقه الى ارشاد الناس وهدايتهم واشفاقه ورأفته بالمؤمنين وعطفه عليهم بقوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» (التوبة – ١٢٨) .

والى غزارة علمه بقوله سبحانه : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عظيماً» (الاحزاب ٦) .

---

(١) غير ان من المحتمل ان يكون «الخلق» بمعنى الدين اى انك على دين عظيم كما عليه قوله سبحانه «ان هذا الا خلق الاولين» (الشعراء – ١٣٧) فالمقصود اكبار الدين الذى بعث النبى لبيانه وابلاغه ، ويؤيده قوله سبحانه بعده : فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون اى يا محمد ويرى الذين رموك بالجنون أيكم المفتون اى ايكم المجنون الذى فتن بالجنون أأنت ام هم، وحيث انك على دين عظيم يؤيدك الله وينصرك عليهم . راجع مجمع البيان ج ٥ ص ٢٣٣ .

والى طهارة روحه وأهل بيته من الرجس ودرن الشرك والمعاصي بقوله سبحانه « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الاحزاب ـ ٣٣) .

والى عكوفه على عبادة ربه وتهجده فى الليل وسهره فى طريق طاعة الله بقوله سبحانه : «ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » (المزمل ـ ٢٠) .

والى انه رسول الله وخاتم النبيين بقوله : «وماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيئاً عليماً» (الاحزاب ـ ٤٠) .

والى انه مصدق لما بين يديه من الكتب بقوله : «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم» (البقرة ـ ١٠١) .

والى صبره فى طريق هداية الامة بقوله : « وأصبرو مـا صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون» (النحل ـ ١٢٧) .

والى اجره عند الله سبحانه بقوله : «وان لك لاجراً غير ممنون» (القلم ـ ٣)

والى قربه منه سبحانه ، وتأثير استغفاره فى حق الامة ، وانهم لو طلبوا منه ان يستغفر لهم، لوجدوا الله تواباً وغافراً لذنوبهم بقوله سبحانه : «ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (النساء ـ ٦٤) .

الى ان عاد القرآن فأشار الى عظمة قدره وجلالة شأنه بتوصيفه بأنه : رسول نبي ، أمي ، مكتوب اسمه فى التوراة والانجيل ، يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم الاصر ، ويرفع عنهم الاغلال حيث قال سبحانه : «الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عـن المنكر ، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم » (الاعراف ـ ١٥٧) .

كما وصفه بأنه (ص) ، شاهد ، مبشر ، نذير ، داع الى الله ، سراج منير ، ورحمة للعالمين ، وأنه أحد الامانين في الارض وأنه سبحانه لايعذب الناس وهو فيهم تجد كل هاتيك الصفاة والثناء في الآيات التالية :

« انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً » (الاحزاب ٣٣ - ٣٤) .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء - ١٠٧) « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (الانفال - ٣٣) .

وفي الوقت نفسه لايقتصر القرآن على بيان روحياته ونفسياته فقط بل يطري النبي ويصفه كوصف محب متجلد فيوجه نظره السامي الى تسمية أعضاءه الظاهرة الخطيرة .

فيصف بصره بقوله : «ما زاغ البصر وما طغى» (النجم - ١٧) .

ووجهه بقوله : «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبله ترضيها» (البقرة - ١٤٤) .

وقلبه بقوله: «من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله» (البقرة - ٩٧)

وفؤاده بقوله «ما كذب الفؤاد ما رأى» (النجم - ١١) .

وصدره بقوله «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك» (الانشراح - ١ و ٢) .

وصوته بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » (النساء - ٨٤) .

الى أن يعود القرآن فيحلف بعمره ويقول «لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون» (الحجر - ٧٢) .

ويصف سيره وعروجه في الليل الى المسجد الاقصى ومنه الى السموات العلى بقوله : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا» (الاسراء - ١٧) (١) .

(١) راجع في قصة المعراج الى سورة النجم الاية السادسة الى الثمانية عشر .

اسماءه في القرآن :

ان القرآن يتفنن في توصيف النبي وذكره بل في تسميته والايماء اليه ، فتارة يشير اليه باحدى الصفاة العامة الشاملة لكل انسان كما في قوله :«فأوحى الى عبده ما اوحى » (النجم ـ ١٠) غير ان في اضافة العبد الى نفسه الماعاً الى تكريمه وتقربه منه سبحانه: وأخرى يخاطبة بالالقاب الخاصة بأنبياءه ورسله ويقول: « يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال » (الانفال ـ ٦٥) « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك» (المائدة ـ ٦٧) (١) .

وثالثة يخصه باسميه اللذين كان يدعى بهما في الاسلام أعني محمداً وأحمد أما الاول فقد جاء في مواضع أربعة من القرآن :

١ ـ«ماكان محمد أبا أحدمن رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (الاحزاب ـ ٤٠) .

٢ ـ « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » (آل عمران ـ ١٤٣) .

٣ ـ «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بمانزل على محمد» (محمد ـ ٢).

٤ ـ « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح ـ ٢٩) .

وأما الثاني فقد جاء في موضع واحد حيث يقول سبحانه : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (الصف ـ ٢) .

وليس الرسول (ص) بدعا من بين الرسل في كونه ذا اسمين فقد سبقه في ذلك ثلة من الانبياء كيوشع بن نون وهو ذوالكفل في القرآن ويعقوب بن اسحق وهو

(١) نعم جاء في بعض الوثائق التاريخية والمجاميع الحديثيه ان اسماءه س ، يس ، طه ن ، غيرانه لم يتحقق ذلك اذمن المحتمل جدا ان تكون من الحروف المقطعة كما عليه اعلام التفسير

اسرائيل ويونس وهو ذو النون وعيسى وهو المسيح (١) .

وقد اتفقت الامة الاسلامية على أن اسمه (ص) فى الانجيل هو أحمد آخذة بصريح كتابها: «مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد» (الصف ـ ٦) ويظهر من الروايات المتظافرة ان اسمه في السماء أحمد فقد جاء نفر من اليهود الى رسول الله (ص) ومما سأله انه لم سميت محمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً فقال النبي أما محمد فاني محمود فى الارض وأما أحمد فاني محمود فى السماء (٢) ولعل المراد من السماء عالم الوحي ويطابق مضمونه ما تعطيه آية الصف من تبشير المسيح بمجيىء نبي اسمه أحمد . وروى أهل السير والتاريخ عن الباقر (ع) ان «آمنة» أم النبي أمرت فى المنام وهي حامل برسول الله أن تسميه أحمد وسماه جده محمداً بالهام من الله تفاؤلا بأن يكثر حمد الخلق لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها والى ذلك يشير حسان بقوله :

فشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وفى الخصائص الصغرى :« أحمد» ولم يسم به أحد قبله (٣) فان العرب كانوا مأنوسين بلفظ « محمد » لان من سمى به فى زمن النبي وقد عد بعضهم من سمى بمحمد ستة عشر ونظمهم بقوله :

ان الذين سموا باسم محمد من قبل خير الخلق ضعف ثمان

وأما أحمد فلم يسم به أحد قبله بل منع الله بحكمته ان يتسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي خلال حياته الشريفة حتى لايدخل لبس أو شك على ضعيف القلب وأول من سمى بأحمد فى الاسلام ولد جعفر بن أبي طالب. وكذلك محمداً

(١) سئل الشامى امير المؤمنين (ع) عن ستة من الانبياء لهم اسمان فاجاب بما ذكرناه واضاف الخضر وهو حلقيا ومحمد ص وهو احمد صلوات الله عليهم . عيون اخبار الرضا ص ١٣٦ ، بحار الانوار ج ١٦ ص ٩٠ .

(٢) امالى الصدوق ص ١١٢ ، علل الشرائع ص ٥٣ ، معانى الاخبار ١٩، بحار الانوار ج ١٦ ص ٩٤

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ٩٣ .

أيضاً لم يسم به أحد قبل وجوده (ص) وميلاده ولم يتحقق ذلك الا بعد أن شاع أن نبياً يبعث فى الحجاز اسمه محمد وقد قرب زمنه فسمى بعضهم حينئذ أبناءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء من أن يدعى أحد النبوة أويدعيها أحدله أو يظهر عليه شيء من سماتها الى ان تحققت دعوة النبي (١) .

لا ريب ان أحمد أحد أسمائه المعروفة ولا يتردد فى تسميته بهذا الاسم من له أدنى تتبع فى سيرته وتاريخ حياته،وما قيل فى حقه من المدائح فى الاسلام وقبله يوضح انه كان يدعى بهذا الاسم منذ نعومة أظفاره .

وهذا أبو طالب شيخ الاباطح حامي النبي وكفيله يذكره فى أشعاره بهذا الاسم ويسميه به ومثله حسان بن ثابت شاعر الرسول فى عهد الرسالة ، ومادحه ، وغيرهما من الشعراء المخضرمين، تراهم أصفقوا على تسميته بأحمد من دون تردد ولا ريب كل ذلك يدل على أن البيت الذي ولد ونشأ فيه النبي(ص) قد أسماه بهذا، والبيئة التي شب وترعرع فيها،كانت تعرفه به .

شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة :

ان الغرب بعد ان اتم غزوه لبلاد الشرق واحتلها بالحديد والنار ، طفق يغزو الافكار ويبث الشبهات وقد بعث رجال التبشير الى هذه البلاد لتحوير أفكار شباب الاسلام منه ثم توجيههم الى المسيحية أولا واللادينية ثانياً حتى يسهل اصطيادهم وسحق حقوقهم ونهب منابعهم وأموالهم . ومن الشبهات التافهة التي نشرها بعض رجال الكنيسه فى بلادنا قولهم :

ان المسيح بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد غير أنه لا ينطبق على نبي الاسلام فان اسمه «محمد» بنص القرآن الكريم واتفاق المسلمين وغيرهم،والذي بشر به المسيح انما هو أحمد وحينئذ فان ما بشر به هو غير ذاك ونحن نتربص بفارغ

(١) المصدر نفسه ص ٩٥ - ٩٧ بتلخيص منا .

الصبر ، مجيىء نبي آخر اسمه أحمد ، يكون خاتم الانبياء والمرسلين .

تلك شبهة لا تحتاج الى الجواب ، ولا غرو من مبدعها فان من يعمد الى تغيير الشرايع بالتحريف،لا يتعفف عن تحويل الاسماء عن مسمياتها الى غيرها،مما يرشده اليه هواه . اذ من الضروري أن أحمد أحد أسماء نبينا وكانت الحجاز والحرم والبيت ومن يعيش فيها ، تعرفه بهذا الاسم كما كانت تعرفه باسمه الاخر .

أضف الى ذلك : انه لما نزل قوله سبحانه « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » لم يتعرض على النبي أحد من المسيحيين ولا من غيرهم . بل لم ينبس أحد ببنت شفة ، بأن من بشر بمجيئه المسيح انما هو أحمد ، وأي صلة بينك وبين هذه البشارة ، بل سكتوا عنه وتلقوه أمراً مسلماً وهذا دليل على أنه (ص) كان معروفاً بهذا الاسم يوم ذاك بل منذ ولادته ونعومة أظفاره (١) .

ودونك نماذج مما وقفت عليه من شعر عمه وغيره ممن ذكروا النبي في أشعاره بهذا الاسم وسموه به ونكتفي من الكثير بالقليل ، حذراً من الاطالة .

قال أبو طالب رحمة الله عليه :

الا ان خير الناس نفساً ووالداً اذا عد سادات البرية أحمد (٢)

وقال :

ان يكن ما أتى به أحمد اليوم سناء وكان في الحشر دينا (٣)

وقال :

وقوله لاحمد أنت امرء خلوف الحديث ضعيف النسب

وان كان أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب (٤)

وقال :

---

(١) والاوهن من تلك الشبهة ما حسبه بعض المغفلين من ان الاية اخبار عن نبوة غلام احمد القادياني ذلك المتنبي المشعوذ الذي خدم الاستعمار البريطاني عند احتلال الهند .

(٢) ديوان ابي طالب ص ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٥ .

تنالون أحمد أو تصطلو ظباة الرماح وحد القضيب (١)

وقال :

أرادوا قتل أحمد ظالموه وليس بقتلهم فيهم زعيم (٢)

وقال :

فلسنا وبيت الله نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب (٣)

وقال :

لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد (٤)

قال الديار بكري : انشأ أبو طالب في مدح النبي ابياتاً منها هذا البيت .

وشق له من اسمه ليجله . . . . .

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا فقال :

ألم تر ان الله أرسل عبده بآياته والله أعلى وأمجد

وشق له من اسمه ليجله . . . . . .

قال ابن هشام : ولما خشي أبو طالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيىء أبداً حتى يهلك دونه . ومن تلك القصيدة قوله :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠ وتجد بعض تلكم السجدية مبثوثه فى طيات الكتب والمعاجم ونرى المقام غنيا عن الاشارة لمصادرها غير انا اخذناها من ديوانه المطبوع بالنجف الاشرف فى المطبعة الحيدرية وجامع ديوانه هو عبد الله بن مهزم البصرى كما صرح به النجاشى فى فهرسته ص ١٥١ وذكر طريق روايته اليه وذكره شيخنا فى الذريعة ج ١٤ ص ١٩٥ .

(٤) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ٢٦٦ ، الاصابه ج ٤ ص ١١٥ ، تاريخ الخميس ج ١ ص ٢٥٤ .

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد واحببته حب الحبيب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالا لاهلها وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فأصبح فينا أحمد فـى أرومة تقصر عنه سورة المتطاول (١)

روى ابن الاثير : أن أبا طالب رأى النبي وعلياً يصليان، وعلي على يمينه فقال لجعفر رضي الله تعالى عنه صل جناح ابن عمك وصل على يساره وكان اسلام جعفر بعد اسلام أخيه على بقليل وقال أبو طالب :

فصبراً أبا يعلي على دين أحمد وكن مظهراً للدين وفقت صابراً
وبـاد قـريشاً بالـذي اتـيـة جهاراً وقل ماكان أحمد ساحراً (٢)

روى شيخنا أبو الفتوح الرازي في تفسيره :

زعمت قريش أحمد ساحر كذبوا ورب الراقصات الى الحرم (٣)

الى غير ذلك مما نقل وأثر منه سلام الله عليه ولو استقصينا ما نقل عنه من الشعر في هذا الباب لخرجنا عن المقصود وقد نقل السيد الفخار عنه هذين البيتين فى ضمن أبيات .

وانصروا أحمداً فان من الله رداء عـلـيه غـير مـدال
فخير بني هاشم أحمد رسول الاله على فترة (٤)

وقال :

يا شاهد الله علي فاشهد انـي على دين النبي أحمد (٥)

وقد أثر عن أمير المؤمنين علي (ع) انه قد أمره والده أبو طالب بالصبر في

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ٢٧٢ شرح النهج ج ١٤ ص ٧٩ .
(٢) اسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧، كما فى الغدير ج ٧ ص ٣٥٨ بحار الانوار ج ١٨ ص ٢٢١ ، مجمع البيان ج ٢ ص ٢٨٧ .
(٣) تفسير ابى الفتوح ج ٤ ص ٢١٢ ونقله ابو على شمس الدين السيد فخار بن معد المسوى المتوفى ٦٣٠ صاحب كتاب الحجة على الذاهب الى تكفير ابى طالب ص ٧٢ .
(٤) كتاب الحجة ص ٧٤ .
(٥) شرح النهج ج ١٤ ص ٧٨ وقال وقد يروى لعلى فى ديوانه ، ولكنه موجود فى ديوان أبى طالب ص ٧٥ ولم نذكر فى عداد ما نقلناه عن ديوانه لمكان هذا الترديد .

الدفاع عن النبى بقوله :

أصبرن يا بني فالصبر أحجى كـل حـي بصبره مشعـوب

فاجاب علي عليه السلام بقوله :

أتامرني بالصبر في دين أحمد ووالله ما قلت الذي قلت جازعاً

ساسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلا ويافعاً (١)

وأما ما نقل عن غير أبي طالب متضمناً تسمية النبي بأحمد، فكثير جداً تصعب الاحاطة به ويطول الكلام بنقل ما وقفنا عليه في مجاميع التاريخ والادب ولنكتفي بما يلي :

قال حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في رثاه :

مفجعة قد شفها فقـد أحمد فظلت لآلاء الرسول تعدد

اطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد (٢)

وقال أيضاً في رثاه (ص) :

صلى الا له ومن يحق بعرشه والطيبون على المبارك أحمد (٣)

وقال :

فمن كان أو يكون كاحمد نظام الحق أو نكال لملحد

* * *

وقال في رثاء جعفر الطيار :

بهاليل منهم وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير

وقال يرثى زيد بن حارثة :

ذاكم أحمد الذي لا سواه ذاك حزني معاله وسروري (٤)

---

(١) شرح النهج الحيدرى ج ١٤ ص ٦٤ .

(٢) و (٣) نقلها ابن هشام فى سيرته ج ٢ ص ٦٦٧ و ٦٦٩ ونقل الثانى منهما ابن سعد فى طبقاته ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٤) أخذنا ما نقلناه الى هنا من شاعر عهد الرسالة من مواضع مختلفة من ديوانه راجع ص ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ط بيروت تحقيق محمد عزت نصر الله مضافاً الى المصادر الاخرى التى أوعزنا اليها .

وقال في غزوة الاحزاب عندما قتل عمرو بسيف علي (ع) :

بسيف بن عبدالله أحمد في الوغى بكف علي نلتم ذاك فاقصروا (١)

وقال :

فمن كف أحمد قد فجرت عيون من الماء يوم الظمأ (٣)

وقال :

فهذا نبي الله أحمد سبحت صغار الحصى في كفه بالترنم (٤)

* * *

قالت عاتكة بنت عبد المطلب وهي ترثي النبي :

با عين جودي ما بقيت ، بعبرة سحاً على خير البرية أحمد (٢)

وقد نقل عن ورقة بن نوفل انه بعد ما اطلع على أمر النبي وأنه ينزل عليه الناموس الاكبر الذي كان ينزل على موسى وعيسى أنشأ يقول :

فان يك حقاً يا خديجة فاعلمي حديثك ايانا فأحمد مرسل (٥)

وقال :

بأن أحمد يأتيه فيخبره جبريل انك مبعوث الى البشر (٦)

وقال :

وان ابن عبد الله أحمد مرسل الى كل من ضمت عليه الاباطح (٧)

وقال حمزة عندما اسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادي الى الاسلام والدين الحنيف

رسائل جاء أحمد من هداها بآيات مبينة الحروف (٨)

---

(١) بحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٥٩ .

(٢) الطبقات ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣ - ٤) بحار الانوار ج ١٦ ص ٤١٣ - ٤١٥

(٥ - ٦) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٧) بحار الانوار ج ١٨ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٨) تعاليق سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ .

ونقل المجلسي عن الخرائج : ان تبع بن حسان سار الى يثرب وقتل من اليهود ثلاث مأة وخمسين رجلا بالسبر وأراد خرابها ، فقام اليه رجل من اليهود وقال انك لا تستطيع ان تخرب هذه القرية قال ولم ؟ قال لانه يخرج منها من ولد اسماعيل نبي يظهر من هذه البنية يعني البيت الحرام فكف «تبع» ومضى يريد مكة ومعه اليهود وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باريء النسم (١)

وقالت صفية في تزويجه (ص) :

تم السعود لاحمد والسعد عنه ما برح
بخديجة بنت الكمال وبحر انامله طفح (٢)

وقال العباس في تزويجه (ص) أيضاً خديجة اجتمع سادة القريش وأكابرها في اليوم السادس كعادتهم :

شاع في الناس فضلكم وعلا في المراتب
قد فخرتم بأحمد زين كل الاطائب
أحمد سيد الورى خير ماش وراكب (٣)

وقال بعض المسلمين عند اجلاء بني النضير وربما ينسب الى علي بن أبي طالب (ع)

رسائل تدرس في المؤمنين بهن اصطفى أحمد المصطفي

الى ان قال :

وقلن لاحمد ذرنا قليلا فانا من النوح لم نشتف (٤)

* * *

(١) بحار الانوار ج ١٥ ص ٢١٤ .
(٢) بحار الانوار ج ١٦ ص ٧٥ .
(٣) بحار الانوار ج ١٦ ص ٧٢ .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٧ .

خاتمة المطاف :

ولنختم البحث بذكر ما ورد حول أسمائه فان صريح الاحاديث أن أسماءه في القرآن أكثر من هذين فقد روى الصدوق في خصاله(١) ان لرسول الله عشرة أسماء : خمسة منها في القرآن ، وخمسة ليست في القرآن ، فأما التي في القرآن : محمد ، أحمد ، عبد الله ، يس ، ن ، وأما التي ليست في القرآن : فالفاتح الخاتم ، الكاف ، المقفى ، الحاشر .

روى الشيخ الاكبر عن الكلبي(٢) عن أبي عبد الله (ع) قال : قال لي كم لمحمد اسم في القرآن قال قلت اسمان أو ثلاثة ، فقال يا كلبي له عشرة أسماء « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » « وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » « يس والقرآن الحكيم » « ن والقلم وما يسطرون » « يا أيها المزمل» «يا أيها المدثر» «قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولا يتلو عليكم آيات الله» فالذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر فسل يا كلبي عما بدالك .

ومفهوم الحديثين واضح فان المراد من الاسم فيها أعم من الصريح والمؤل ومن العلم والوصف فان بعض ماعد اسماله (ص) لا يعدو عن كونه وصفاله كالمدثر والمزمل كما أن عد الحروف المقطعة علماً له انما هو بالتأويل المخصوص علمه لهم (ع) ، فلاحظ .

---

(١) الخصال ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) بصائر الدرجات ص ١٥٠ .

هذه سيرة النبي الاكرم وهذه صفاته ونعوته وأسماءه ، ومـا قدمناه خطـوة رائدة للتعرف على نفسياته وسيرته من أفق القرآن المبين ، أو نواة طيبة يمكن البناء عليها ، وهو باجماله ، يمثل شخصيته اللامعة ، ومكانته المرموقة ، التي قرن الله طاعته بطاعته وقال سبحانه «من يطع الرسول فقد اطاع الله» (النساء ـ ٨٠) ومحبته بمحبته وقال سبحانه : «ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (آل عمران ـ ٣١) .

وبيعته ببيعته وقال : «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله» (الفتح ـ ١٠) الى غير ذلك .

وما أردت ان المح على جميع ما ورد في حقه (ص) في القرآن المجيد فان استخراجه عمل ضخم دونه طاقة انسان واحد .

وانما الذي استهدفت ان اشير الى نماذج حتى يكون فتحاً للباب واستنهاضاً للهمم وتقديماً للاسوة « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً » .

علم الغيب في الكتاب العزيز

« قد استعرضنا في هذا الفصل «علم الغيب» الذى هو أحد المفاهيم والموضوعات القرآنية الواردة فى الكتاب العزيز ، فى مختلف سوره وشتى آياته، وركزنا البحث بشكل خاص على التحدث عن الغيب المختص بالله سبحانه الذي لا يشاركه فيه سواه ، ولا يباريه أحد، بل هو وصف خاص له سبحانه لا يتعدى الى غيره، كسائر اوصافه من حياته وقدرته ـ وغير المختص به سبحانه الذي يمكن ان يطلع عليه غيره من نبي أو ولي أو غيرهما باذن منه سبحانه .

وفندنا فى هذا الفصل ، بفضل نصوص الايات ومحكماتها، مزعمة مقلدة الدور الاخير ، من امتناع اطلاع غيره سبحانه على الغيب وتعرفه عليه « لاستلزامه اشتراك الممكن مع الواجب ، والمخلوق مع الخالق فى بعض صفاته ، اولانه مخالف لنصوص القرآن الدالة على أنه لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله »

وتظهر جلية الامر للقارىء الكريم فيما يأتي :

أظنك أيها القارىء الكريم فى غنى عن بيان معنى « الغيب » ومفاده ، لغة وعرفاً ، فان للغيب « أصلا صحيحاً يدل على تستر الشيىء عن العيون ، ثم يقاس من ذلك الغيب ما غاب مما لا يعلمه الا الله .

«ويقال غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً. وغاب الرجل عن بلده . وأغاب المرأة فهي مغيبة ، اذا غاب بعلها ، ووقعنا فى غيبة وغيابة أى هبطة من الارض يغاب فيها . قال الله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : « وألقوه في غيابة الجب » والغابة : الاجمة والجمع غابات وغاب . وسميت لانه يغاب فيها »(١) .

وقال الراغب « الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها اذا استترت عن العين ، يقال : غاب عن كذا ، قال تعالى : « أم كان من الغائبين » واستعمل فى كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الانسان بمعنى الغائب قال : «وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين» ويقال : للشيىء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فانه لا يغيب عنه شيىء كما لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الارض وقوله « عالم الغيب والشهادة » أى ما يغيب عنكم وما تشهدونه والغيب فى « يؤمنون بالغيب » ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وانما يعلم بخبر الانبياء (ع)(٢) .

توضيحه : فان الغيب يقابل الشهود ، فما غاب عن حواسنا وخرج عن حدودها ، فهو غيب ، سواء كان أمراً مادياً ، قابلا للادراك بالحواس ، كالحوادث الواقعة فى غابر الزمان ، والمتكونة حالياً الغائبة عن حواس المخبر او بعد لاى من الدهر ، أم كان مما يمتنع ادراكه بالحس أو وقوعه فى أفقه ، كذاته تعالى ،

---

(١) مقاييس اللغة ج ٤ ص ٤٠٣

(٢) مفردات الرغب ص ٣٦٧-٣٦٦

وحقيقة البعث والنشور ، والحساب ، ونفخ الصور ، والميزان ، وملائكة الله ، وجنته ، وناره ، ولقائه ، وحقيقة الحياة ، فى النشأة الاخرى ، والوحي ، والنبوة الى آخر ما يجب الايمان به وتصديقه ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

«الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبالاخرة هم يؤقنون» (البقرة ـ ٣) .

وقد أوضحة بعض الاعلام ، بقوله :

الغيب ، فى العرف العربي اسم لمعنى يقابل الحضور وضد الشهود ، كما فى القرآن ، «عالم الغيب والشهادة» وفى الحديث النبوي « الا فليبلغن الشاهد الغائب » وفى كلام الامام علي (ع) « **شهود كالغيب** » .

والشهود، كناية عن اتصال الحواس بالحاضر لديها وهو المراد من الحضور أيضاً فالغيب كالغائب ، مالا يتصل به الحس ، وبه سمي المسافر غائباً ، وخلافه حاضراً ، فالنبأ الغيبي ، بناء على ما عرفت ، هو النبأ الذي لا يتصل بالمحسوس لديك فعلا ، وان كان أصله محسوساً من قبل ، ثم غاب كالمسافر أو بالعكس ، كالمولود الذي كان فى غيابة الرحم ، محجوباً عن الحواس ثم ولد بعد ، فصار محسوساً بين الناس ،

ورب أمم دوخت **الاقيال** والاجيال فى سالف الدهر ، كجرهم وأياد ، ثم بادت ، وهم اليوم غيب ، وأنباؤهم الخطيرة تعد فى زوايا التاريخ من الغيوب ، ورب جراثيم الامراض كانت محجوبة ، أو لا تزال محجوبة عن الحواس ، ثم في مستقبل الاجيال ، تقوي الالات على استكشافها ، فتصير محسوسة مشهودة ، ورب طعام يقصر عن شمه حس الانسان والحيوان ، الا النمل الذي فاق حسه على غيره، فيهتدى اليه ولا يغيب عنه ، أو كحبة خردل لا تغيب عن الغراب ، لحدة بصره ، بينما هي غائبة عن غيره،أو صوت متحرك فى دياجير الظلام ، لا يغيب عن احساس الفرس ، لقوة سمعه بينما يغيب عن غيره . . . (١) .

(١) المعجزة الخالدة ص ٧١ ـ ٧٢

وهذا البيان الضافي يوقفنا على أن الغيب على قسمين : مطلق واضافي ، فالمطلق منه ما لا يقع فى أفق الحس أبداً ويمتنع ادراكه بالالات والادوات المادية كذاته سبحانه وصفاته وغيرهما مما عددناه ، والاضافي ما يتفاوت بحسب الظروف والاشخاص ، فربما يكون غيباً فى ظرف دون ظرف ، فجرثومة السل كانت غيباً فى غابر الزمان ، قبل أن يقف عليها مكتشفيها ، ويراها تحت مجهره الى أن عادت أمراً محسوساً فى هذه الظروف التي كثرت فيها الادوات العلمية ، وسهل الوقوف على صغار الموجودات التي لا يدركها الطرف مجرداً عن الالات الحديثة . . .

والى ذلك يشير **العلامة الطباطبائى** بقوله : الاشياء المجهولة ، أى غير الواقعة تحت الحواس ، غيب ، ومن الحري أن نسميها عندئذ غيباً نسبياً ، لان هذا الوصف الطارىء عليها ، وصف نسبي يختلف بالنسب والاضافات ، كما ان ما فى الدار مثلا ، من الشهادة بالنسبة، الى من فيها ، ومن قبيل الغيب بالنسبة الى من هو فيخارجها، وكذا الاضواء والالوان المحسوسة بحاسة البصر ، من الشهادة بالنسبة الى البصر ، ومن الغيب بالنسبة الىحاسة السمع، والمسموعات التي ينالها السمع، شهادة بالنسبة اليه ، وغيب بالنسبة الى البصر ، ومحسوساتهما جميعاً من الشهادة بالنسبة الىالانسان الذي يملكهما فى بدنه ومن الغيب بالنسبةالى غيرهمن الاناس (١) وبذلك يصح لنا ان نصطلح ونعبر عن الغيب البحت (٢) بـ « الغيب عن العالم المادي » وعن الغيب النسبي بـ « الغيب فى العالم » .

بما أن الغيب البحت ، لا يخرج عن تحت الخباء ، فلا يتفاوت حاله بحسب الظروف والاحوال ، فالواجب على الانسان ، الايمان به،اذا قام الدليل على وجوده لامتناع شهودها ، والتعرف على حقيقتها ما لم يخرق الانسان الحجبالمادية ، ولم يلق الستار عن مشاعره ، حتى يتعرف عليها كتعرفه على المحسوسات ولا يحصل

(١) الميزان ج ٧ ص ١٢٨

(٢) ما أسميناه غيباً بحتاً فانما هو مجرد اصطلاح ليحصل الفرق بين القسمين ، والافانما هو غيب بحت بالنسبة الى العالم المادى ، وأما بالنسبة الى نفسه أو ما يسانخه منالموجودات أو الواجب سبحانه فليس غيباً أصلا .

ذلك الا بالموت ، والتحلل من الجسد ، والتحرر من المادة حتى يصدق عليه قوله سبحانه :

«وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد» (ق ـ ١٩) .

أنواع المغيبات فى القرآن :

ان المغيبات الواردة فى القرآن لا تزيد أصولها على أقسام ثلاثة :

الاول :

الخبر عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته ، والخبر عن الروح والروحانيات وملائكته وتدبيره العوالم الارضية ، والسماوية ، وشؤون الاحياء بعد الموت في البرزخ وحالة الارواح قبل المعاد وبعده من نعيم أو جحيم ، والقرآن يموج بهذه المعاني الغيبية المطلقةالتي لا يتعرف عليها الحس ولا تقع فى أفقه فى هذا الظرف.

الثانى :

الاخبار عن أمم قد خلت من قبل وطويت حياتها ، فأصبحوا مما لا يرى حتى مساكنهم ومواطنهم ، من دون أن يرجع الى كتب السير والتاريخ والكهنة والربانيين أو يطالع كتاباً أو باباً خاصاً فى هذا الموضوع. ومثله الخبر عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره وأطواره ، والاشعار بملاحم وفتن وأحداث فى مستقبل الزمن ، كاخباره عن أن أبا لهب وامرأته يموتان كافرين ، فى قوله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد» ، المسد (١ ـ ٥) وأخباره عن غلبة الروم ، بعد بضع سنين ، فى قوله سبحانه : «الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين» . (الروم ـ ١)

وتلحق بذلك الامور التي قيل اختص علمها به سبحانه، كوقت الساعة، والمستور فى ظلمات الارحام و . . . الواردة فى قوله سبحانه: «ان الله عنده علم الساعة وينزل

الغيث ، ويعلم مـا فى الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت، ان الله عليم خبير» (لقمان ـ ٣٠) .

وسوف نرجع الى البحث عن هذه الاية ونقف على نظرنا فيها .

الثالث :

الاخبار عن بعض المـوجودات أو النواميس السائدة فى الكون ، وقد كان مغيباً عند نزول الوحي عن ادراك الحواس المجردة عن الادوات المخترعة فى هذا الزمان ، كاخباره سبحانه عن زوجية الاشياء عامة بقوله : « ومـن كـل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » (الذاريات ـ ٤٩) .

ووجود الدابة فى السماوات ؟ بقوله «ومن آياته خلق السماوات والارض وما بث فيهما من دابة، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير» (الشورى ـ ٢٩) .

الى غير ذلك من اخباراته عن الحقائق العلمية والنواميس المطردة فى الكون.

ثم ان الزرقاني ارجع اصول أنباء الغيب الواردة في القرآن الى امور ثلاثة على وجه يقرب مما ذكرناه قال : من ذلك قصص عن الماضي البعيد ، المتغلغل في احشاء القدم ، وقصص عن الحاضر الذي لاسبيل لمحمد الى رؤيته ومعرفته ، فضلا عن التحدث به وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الاسباب ؛ وقصرت عن ادراكه الفراسة والالمعية والذكاء الى ان قال ـ اما غيوب الماضي فكثيرة تتمثل فى تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنزيل ولم يكن لمحمد بها من سبيل كقصة نوح ، وموسى ؛ ومريم واما غيب الحاضر فنريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك مما لم يكن للرسول (ص) سبيل الى رؤيته ولا العلم به فضلا عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح .

ومن غيب الحاضر او الماضي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادىء لم يكشف عنها الا العلم الحديث وأما غيب المستقبل فهو تنبأ بحوادث وقعت كما

اخبر . . . (١) .

نعم ارجع العلامة الشهرستاني انواع المغيبات الى ثمانية اقسام (٢) ويرجع اصولها الى الوجوه الثلاثه التي اوضحناها .

ثم ان هذا التقسيم ، انما هو بالنسبة الى البشر المحدود ، الذي تغيب الاشياء عنه ، وأما بالنسبة اليه سبحانه فالاشياء كلها حاضرة لديه ، بأعيانها الخارجية فالماضي والحال والمستقبل عنده سواسية ، : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء » فهو المحيط بكل ما دق وجل ، ولا يشذ عن محيط علمه خبر خطير ولا صغير . . . الا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير .

الاخبار عن الغيب أحد وجوه اعجازه :

ثم ان المغيبات التي أشرنا اليها اجمالا ،دلت قبل كل شيىء على كون القرآن كتاباً سماوياً ، أوحاه سبحانه الى أحد سفرائه ، فان الاخبار عن المغيبات الكونية ، والنواميس السائدة فى الوجود،أو الاخبار عن الامم البائدة على النحو الذي ذكرناه أو الاخبار عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره،والايماء الى الملاحم والفتن،والتي لايدل عليها ولا يرشد اليها الحس ، أمر خارج عن طوق البشر ، فلا مصدر لها الا كونها وحياً أو الهاماً ، من خالقه الى مخلوقه ، ورسوله الذي ارتضاه فهو عالم الغيب والشهادة فلا يطلع على غيبه أحداً الا من ارتضاه من رسوله ، فمستند النبي فى مثل هذه المغيبات هو الله علام الغيوب .

وقد عرفت ، ان الاخبار عن الغيب بأقسامه الثلاثة كثير فى القرآن المجيد ، وان استقصاء الموضوع بعامة نواحيه ، يحوج الباحث الى تأليف مفرد . وقد قامت عدة من الفضلاء فى عصرنا بجمع الايات التي أخبرت عن النواميس السائدة على الكون من أسرار الخلقة ونواميس الطبيعة ، مما كانت مختفية فى عصر نزول

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) المعجزة الخالدة ص ٧٢ .

القرآن ، ولم يكن سبيل الى استكشافها الامن طريق الوحي ففسروها وأوضحوا مداليلها (١) وبذلك أغنونا عن افاضة القول في هذا القسم من الغيب وأما غير هذا القسم من أقسام المغيبات التي جاءت في القرآن فمجمل القول فيه :

ان المتفحص في ما اخبر القرآن من أحوال الامم والحوادث الماضية ، يجد من نفسه ان المصدر الوحيد لبيان تلك الحوادث هو الوحي الالهي ليس غير ، وان النبي الاعظم لم يتلقها من مثقفي عصره ولا من الكتب الدارجة في عهده ، التي تنسب الى الوحي وتعزى الى الانبياء ، اذ لو فرضنا انه أخذ ما أتى من القصص من أحبار اليهود واساقفة النصارى وقسيسيهم وكهنة العرب والكتب الدينية الرائجة من التوراة والانجيل ، لوجب ان تنعكس على كتابه ظلال مصادر علمه ، ومأخذ نقله ، ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدين في جميع النواحي عامة وفي ناحية القصص خاصة .

ان القرآن اشترك في بعض القصص مع التوراة الرائجة التي اتفق اليهود والنصارى على انها كتاب الله المنزل على رسوله « موسى » (ع) فأوردت التوراة الدارجة تلك القصص مملوءة بالخرافات وجاء في بيانها بجمل تشابه كلام المبتلى بالهذيان .

غير ان القرآن الكريم لما كان كلام الله القدوس، ووحيه ، قد نقل كثيراً من قصص الامم وتواريخها ، بأبلغ العبارات وأحسنها ، وأنصع الجمل وأسدها نزيهة عما يمس كرامة الله سبحانه وكرامة أنبيائه ورسله ، ولو صح ما ذكر ، من اختلاق النبي الاكرم القرآن من جانب نفسه يجب ان يتأثر بمصادر نقلها وامتنع حسب العادة أن لا يذكر شيئاً من محتوياتها مع ما فيها من القعقعة التاريخية والناقل لقصص العهدين يستحيل ان لا ينعكس على أفكاره وكلامه ، ما يجده فيهما .

يجب على علماء المسلمين ولا سيما الاخصائيين منهم في علم السير والتاريخ،

(١) راجع كتاب العلوم الطبيعية والقرآن ، والقرآن والعلوم الحديثة وغيرهما .

القيام بتأليف موسوعة كبيرة (١) تتضمن عرض ما جاء في العهدين من القصص والحوادث على ما جاء في القرآن ثم القضاء الصحيح بين النقلين حتى يتبين ان ما يحتوى عليه القرآن من سمو المعارف ورصانة التعليم ، لا يمكن ان يعزى الا الى الوحي السماوي وان ما تشتمل عليه كتب العهدين من قصص الخرافة وأباطيل الاحاديث لا تلتئم مع البرهان ، ولا تتمشى مع المنطق الصحيح ، وان هذه الكتب قد دست وزورت وتطرق اليها التحريف بيد أناس لاخلاق لهم من الدين ولا الشرف الانساني .

بقى من أقسام الغيب الوارد من الكتاب العزيز أمران .

١ ـ ما يرجع الى الاخبار عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته والعوالم الروحية وغيرها التي يموج بها القرآن ، فقد خصصنا لبيان هذه المعارف القسم الاول من كتابنا هذا فنشرح عليك هذه المعارف وما فيها من سمو ورصانة واحداً بعد واحد ، حسب الترتيب الذي وقفت عليه في مقدمة الكتاب .

٢ ـ ما يرجع الى الخبر عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره وأطواره وما يلم به من ملاحم وفتن فهذا هو الذي نبحث عنه في المقام على وجه الاختصار فنقول :

ان القرآن قد اخبر عن الحوادث التي كان التكهن والفراسة يقتضيان خلافه من حيث النظر الى الحال الحاضر وطغيان الشرك وضعف الدعوة الاسلامية ، وما يجري من النكال والتشريد ، والجفاء علي ملبيها ، مع أنه صار صادقاً فى جميع ما اخبر به لم يخالف الواقع في شيء منها ، ولاشك انه لم يكن له طريق في الاخبار

(١) نعم قد قام لفيف من الفطاحل الاعلام فألفوا فى هذا المضمار كتباً ورسائل تسدجوع القارىء بعض السد فعالجوا بعض النواحى من هذه الاطروحة شكر الله مساعيهم فراجع الى «الهدى الى دين المصطفى» و «الرحلة المدرسية» للعلامة الحجة البلاغى و «نفحات الاعجاز» و «البيان فى تفسير القرآن» لايةالله الخوئى و «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٣ تأليف المفكر الاسلامى الكبير السيد محمد حسين الطباطبائى ثم حكم عقلك ووجدانك هل ترى ان النبى الاعظم اخذ معارف كتابه واقتبس معارف قرآنه وقصصه من هذه الكتب السخيفة .

بهذه المغيبات الا الوحي . هب انه تكهن او تفرس في بعض اخباراته ـ وأجل نبي العظمة عن هذه الفرية الشائنة ـ فهل يمكن القول بانه تفرس في جميع ما اخبر به ، وانه تنبأ بها معتمداً على علائم وامارات كانت ترشده اليها ، مع ان المفروض ان الاحوال الحاضرة فى بعض اخباراته كانت تقتضى خلاف ما اخبر به كما سيوافيك بيانه ونحن نأتي فى المقام بكثير من الايات التي تتضمن الاخبار عن الحوادث المستقبلة التى تحققت بعد اخبارها فى زمن الرسول (ص) او بعد لحوقه بالرفيق الاعلى بيسير . وأما الاستقصاء فى ذلك فلنتركه الى من اراد الغور اكثر من ذلك .

نقول هناك مغيبات عن ملامح أحـداث وفتن اخبر عنها القرآن وظهر صدقها فى عصر الرسول (ص) او بعده بقليل ، فهذه الاخبار تدل قبل كل شيء على صحة نبوته وان القرآن منزل من عنده سبحانه ، ولايمكن حملها على ما يحدث بالمصادفة ، او القرائن احياناً من اقوال الكهنة او العرافين والمنجمين فان كذب هؤلاء اكثر من صدقهم والناس لا يحصون عليهم اقوالهم ، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم، وانما يذكرون بعض ذلك اذا اقتضته الحال ، كتشنيع ابى تمام على المنجمين في زعمهم ان عمورية لاتفتح الا عند نضج التين والعنب في قصيدته المعروفة التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

الى ان يقول :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

على ان دأب المنجمين ان يعبروا عما يتوقعون من احداث المستقبل بآرائهم وبقرائن الاحوال واخبار الصحف الدورية ، برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع باهوائهم واما ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم ولا من علم الغيب في شيء (١) .

(١) راجع المنار ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

مغيبات القرآن واخباره الغيبية :

١ ـ تنبوء القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله :

لقد تحدى القرآن في مواضع من آيات سوره تحديا يثير روح المنافسة على اشدها في نفوس من يتحداهم ، وتحققت نبوءة القرآن ولاتزال متحققة حيث انقرضت طبقة المخاطبين ومضت اجيال من عرب واعجام، وكلهم اعترفوا بالعجز عن المعارضة مع كثرة من تتطاول اعناقهم الى هدم بناء الدين ، وابطال معجزة الاسلام الخالدة . ان المتأخرين من الناقدين لايعيبهم فى العادة ان يستدركوا على السابقين ، اما نقصاً يعالجوه بالكمال او كمالا يعالجونه بما هو اكمل منه ، واذا فرضنا ان واحداً قد عجز عن هذا ، فمن البعيد ان تعجز عنه جماعة واذا عجزت جماعة ، فمن البعيد ان تعجز امة ، واذا عجزت امة فمن البعيد ان يعجز جيل، واذا عجز جيل فمن البعيد ان تعجز اجيال ، فكيف يصدر اذن مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول فضلا عن رجل عظيم ، فضلا عن رسول كريم فضلا عن محمد افضل المرسلين ؟ وهل يمكن ان يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض ، الا بانه استمداد من وحي السماء واستناد الى من يملك السمع والابصار وحديث عن من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه (١) .

وقد نص بذلك التحدي في موارد من آيات سوره

منها قوله سبحانه :

«وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين» (البقرة ٢٣ ـ ٢٤) .

---

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٨ .

اخبر القرآن فى بداية امر النبي بمكة عن عجز البشر عن مباراة القرآن ومعارضته الى يوم القيامة، وان الناس لايسعهم الاتيان بمثل هذا القرآن، مهما تظاهروا وتناصروا وحتى اليوم تنقضي على هذا التحدي والتنبوء قرون وهو صادق في وعده وعهده وسيبقى التحدي قائماً ما دام القرآن ويستمر عجز البشر عن مجابهة هذا التحدي .

قال الطبرسي : «ولن» في قوله «لن تفعلوا» تنفي على التأبيد في المستقبل وفيه دلالة على صحة نبوة نبينا (ص) لانه يتضمن الاخبار عن حالهم في مستقبل الاوقات بأنهم لا ياتون بمثله، فوافق المخبر عنه الخبر» (١) .

وتليها فى التنبوء بعجز البشر والجن عن معارضة القرآن ، قوله سبحانه :

«قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» (الاسراء - ٨٨) .

وقد بلغ في تحديه الى ان اكتفى من المتحدي باتيان عشر سور مثله ، بل سورة واحدة من سوره .

قال سبحانه : «ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» (هود - ١٣) وقال سبحانه : «ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» يونس - ٣٨) .

ترى في هذه الايات من التنبؤ الواثق بعجز الانس والجن عن معارضة القرآن ولكن المستقبل كما يقال «غيب» لايملكه النبي ولا الوصي ولا أي شخص سواهما غير ان النبي صار صادقا في تنبؤه هذا ، ولا يزال صادقا فى الحال فعلى اي مصدر اعتمد هو فى هذا التحدى الطويل العريض ، غير الايحاء اليه الذي لم يزل يصدر عنه فى اخباره وتشريعه .

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٦٣ .

٢ ـ التنبؤ بانتصار الرومان على الفرس :

قال سبحانه : «الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لايخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لايعلمون» (الروم ـ ١ ـ ٦)

وقد وقع ما اخبرت به الاية باقل من عشر سنين ، فغلب الروم ودخل جيشهم مملكة الفرس، باجماع من اهل التاريخ، ودونك اجماله: ان دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت امام دولة الفرس وهي وثنية بعد حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون بسبب انها هزيمة لدولة متدينة امام دولة وثنية ، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين بشماتة ان الروم يشهدون انهم اهل كتاب ، وقد غلبهم المجوس ، وانتم تزعمون انكم ستغلبوننا بالكتاب الذي انزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم. فنزلت الاية الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع ، ولم يك مظنونا وقت هذه البشارة، ان الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة بل كانت المقدمات والاسباب تأبى ذلك عليها، لان الحروب الطاحنة انهكتها حتى غزيت في عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم «في ادنى الارض» ولان دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الاخير قوة ومنعة ، ولكن الله تعالى انجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة .

واحتمل «الزرقاني» ان الاية الثانية حملت نبوءة اخرى وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في الوقت الذي ينصر فيه الروم، ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك ، وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعا في الظرف الذي ظفر الرومان ، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد ، مع تقطع الاسباب

في انتصار الروم ، كما علمت،ومع تقطع الاسباب ايضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ، لانهم كانوا ايامئذ في مكة في قلة وذلة يضطهدهم المشركون ولايرقبون فيهم الاً ولاذمة ولكن على رغم هذا الاستبعاد أوهذه الاستحالة العادية ، نزلت الايات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تناءى بهما عن التكهنات والتخرصات (١) .

غير ان من المحتمل ان يكون فرح المؤمنين لاجل انتصار الرومان على الفرس تفؤلا بذلك حيث كان التدين بالله سبحانه وشرائعه السماوية يجمعهما في امرواحد لا لاجل انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى .

نعم الاية محتملة لكل من الوجهين وان اصر الكاتب على استفادة المعنى الاول منها .

٣ ـ اخباره عن صيانة النبى عن اذى الناس

قال سبحانه « يا ايها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين» (المائدة ـ ٦٨) اصفقت صحاح القوم واحاديث الشيعة المتواترة ، على ان الاية نزلت يوم الغدير ، حين ما أمره سبحانه ان ينصب علياً(ع)اماماً للناس ، وكان النبي على حذر من الناس فى تنصيب علي للخلافة ، فاخبره الله سبحانه بانه سيعصمه من اذى الناس وشرهم ، ولا يصلون اليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال شخصه الشريف وتحققت نبوة القرآن وصدق الخبر الخبر .

ولو رفضنا صحاح القوم ولم نعتنق بما اثبته المتواتر من الروايات ، وقلنا ان المراد من الناس هم المشركون واعداء الاسلام ، الذين اضمروا فى انفسهم عداء لقائده ، فالاية متضمنة للتنبؤ بالغيب ايضا ، اذ لم يتمكن احد من اعداء الاسلام ان يقتله ، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ، وكانوا يتربصون به الدوائر ، ويتحينون

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٦

به الفرص، للايقاع به، والقضاء عليه ، وعلى دعوته وهو اضعف منهم استعداداً واقل جنوداً ، فمن الذي يملك هذا الوعد اذن ، الا الله الذي يغلب ولا يغلب .

وقال سبحانه «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الهاً آخر فسوف يعلمون» (الحجر ٩٤-٩٦) اخبر سبحانه عن انه يكفيه عن اذى المستهزئين ومؤامرتهم ، وقد كفاه الله اشرف كفاية لم تكن تتعلق بها الآمال بحسب العادة ، وقد بان للمشركين وعلموا ما في قوله سبحانه في اخر الاية «فسوف تعلمون» .

روي البزاز والطبراني عن انس بن مالك انها نزلت عند مرور النبي (ص) على اناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ، ويقولون هذا الذي يزعم انه نبي ومعه جبرئيل (١) فأخبرت الاية عن ظهور دعوة النبي ، وانتصاره على اعدائه ، وخذلانه للمشركين الذين ناووه واستهزأوا بنبوته واستخفوا بأمره، وكان هذا الاخبار في زمان لم يخطر فيه على بال احد من الناس ، اندحار قريش ، وانكسار شوكتهم وظهور النبي عليهم .

٤ ـ تنبؤه بما يقوله المنافقون والمخلفون من الاعراب

تجد في سورتي التوبة والفتح نماذج من هذا القسم ، يقول سبحانه : « فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ، ولن تقاتلوا معي عدواً ، انكم رضيتم بالقعود اول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين» (التوبة ـ ٨٣) فأخبر عن قعودهم، وعدم خروجهم مع النبي ، فقوله سبحانه «فقل لن تخرجوا معي ابدا» معناه لن يكون لكم شرف صحبة الايمان، بالخروج معي الى الجهاد في سبيل الله ، ولا الى غيره من النسك ابدا مابقيت «ولن تقاتلوا معي عدوا» من الاعداء لا بالخروج والسفر اليهم ، ولا بغير ذلك .

(١) لباب النقول ص ١٣٣

ويتلوه ما جاء فيه من التنبؤ بما يحلف به المنافقون كقوله سبحانه «لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون» (التوبة ـ ٤٢)

فاخبر عن حلفهم في المستقبل القريب ، وعن كذبهم في حلفهم هذا . قال : الطبرسي وفي هذه دلالة على صحة نبوة نبينا اذ أخبر انهم سيحلفون قبل وقوعه ، فحلفوا وكان خبره على ما أخبر به (١) .

ومثله قوله سبحانه «سيحلفون بالله لكم، اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون» (التوبة ـ ٩٥) وفي هذه السورة شيء كثير من هذا الضرب من التنبؤ، فتدبر في آياتها ومضامينها تجدها مملوءة من الاخبارات الغيبية وقد نزلت في حق المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك .

ونظير تلكم الايات ما ورد في سورة الفتح من التنبؤ حول الاعراب الذين تخلفوا عن النبي في الخروج الى الحديبية ودونك الايات «اذ سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» (الفتح ـ ١١) وقوله سبحانه «سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون الا قليلا» (الفتح ـ ١٥) .

وفي هاتين الايتين اخبارات غيبية وتنبؤات عن كثير مما تفوه به المخلفون وعن مايضمرون في انفسهم ، وما يصيبهم في المستقبل ، يظهر ذلك لكل من امعن النظر في مفاد الايتين ودونك تفسيرهما :

لما اراد النبي المسير الى مكة عام «الحديبية» معتمراً وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، استنفر من ، حول المدينة الى الخروج معه ، وهم «غفار» «واسلم» «ومزينه» «وجهينة» «واشجع» «والدئل» ، حذرا من قريش ان يتعرضوا له بحرب او بصد وهو احرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس انه لايريد حربا ،

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٣٣

فتثاقل عنه كثير من الاعراب ، فتخلفوا عنه، واعتلوا بالشغل ، فأخبر سبحانه عن العذيرة التي سوف يتشبثون به ، عند رجوع النبي واصحابه عن الحديبية بقوله «شغلتنا اموالنا واهلونا» كما اخبر عن انهم سوف يطلبون من النبي ان يستغفر لهم والحال انهم كاذبون فى معذرتهم التي تمسكوا بها، وفى مايطلبون من النبي الاكرم من الاستغفار لهم ، وهم لايبالون استغفر لهم النبي ام لم يستغفر .

ثم اخبر سبحانه عن ان النبي بعد منصرفه عن الحديبية بالصلح ، سوف يتوجه الى «خيبر» ويأخذ من اهلها مغانم ، وان هولاء المتخلفين يطلبون عن النبي ان يتبعوه حتى يشاركوا المسلمين فى ما يأخذون من المغانم ، وان النبي يجيبهم بأنهم « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل» ولاجل ذلك خص النبي مغانم «خيبر» لمن شهد الحديبية .

ويظهر من قوله سبحانه «كذلكم قال الله» ان الله سبحانه كان قد اخبر نبيه عن تخلفهم فى الحديبية ، ايضاً كما اخبره عن تخلفهم فى غزوة خيبر .

ونظير ما سبق قوله سبحانه : « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون فان تطيعوا يؤتكم اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليما » (الفتح ـ ١٧) ، فاخبر المتخلفين عن غزوة الحديبيه بأنهم سيدعون الى معركة عنيفة تدور بينهم وبين قوم اولي باس شديد فدعاهم النبي بعد سنتين الى المقاتلة مع قبائل هوازن وحنين وثقيف ، وكانوا اقواما ذوي نجدة وشدة حسب ما نقرأه في السير والتاريخ ثم اخبره سبحانه عن انهم ياخذون مغانم كثيره بقوله : «ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما ، وعدكم الله مغانم كثيره تاخذوها فجعل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما» (الفتح ١٩ ـ ٢٠) .

فقد اخذوا بعد غنائم خيبر ـ التي اشار اليها بقوله « فعجل لكم هذه » غنائم كثيرة في محاربة قبائل حنين وهوازن

٥ ـ الاخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة

قال سبحانه : «واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (الانفال ـ ٧ ـ ٨) .

الايـة نزلت في وقعة « بدر » ؛ وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوهم ؛ ويقطع دابرهم والمؤمنون على ماهم عليه من قلة العدد والعدة حتى ان الفارس فيهم كان المقداد او هو والزبير بن العوام والكافرون هم الكثيرون الشديدون في القوة وقد وصفتهم الاية بأنهم ذو شوكة وان المؤمنين اشفقوا من قتالهم، ولكن الله يريد ان يحق الحق بكلماته ؛ وقد وفى للمؤمنين بوعده ؛ فنصرهم على اعدائهم وقطع دابر الكافرين .

«قال رسول الله سيروا على بركة الله فان الله عز وجل قد وعدني «احدى الطائفتين» ولن يخلف الله وعده ، والله لكأني انظر الى مصرع ابي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعه وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان ، وامر رسول الله بالرحيل وخرج الى بدر» (١) .

فأخبر سبحانه بقوله : «ويقطع دابر الكافرين» عن هزيمة المشركين وقتل اعوانهم واستئصال شأفتهم ومحق قوتهم، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ولن يصل اليه الهلاك الا بهلاك من قبله من الجيش وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر لما بعدها الى ان قطع الله دابر المشركين بفتح مكة (٢) .

وليس تنبؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركة بدر منحصرة بهذه الاية بل تنبأ بذلك في آية أخرى وهي قوله سبحانه : «ام يقولون نحن جميع منتصر

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٥٢٢ .
(٢) المنار ج ٩ ص ٦٠١ .

سيهزم الجمع ويولون الدبر» (القمر ٢٤ ـ ٤٥) فاخبر عن انهزام جمع الكفار وتفرقهم وقمع شوكتهم، وقد وقع هذا في يوم «بدر» ايضا حين ضرب ابوجهل فرسه وتقدم نحو الصف الاول قائلا : نحن ننتصر اليوم من محمد واصحابه فأباده الله وجمعه وأنار الحق ورفع مناره ، واعلى كلمتـه فانهزم الكافرون وظفر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتوهم احد بان ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا ليس لهم عدة يظفرون فيها بجمع كبير تام العدة وافر العدد ، وكيف يستفحل امر اولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير ، حتى تذهب شوكته كرماد اشتدت به الريح (١) .

٦ ـ التنبؤ بصيانة القرآن عن التحريف :

تنبأ القرآن بأنه سيبقى مصوناً عن التحريف بعامة معانيه ، فمع ان القرآن بل التاريخ يقصان علينا تحريف الكثير من كتب الله ووحي السماء ومع ان المستقبل مليء بشتيت الحوادث المرة والليالي حبالى مثقلات جاء القرآن يخبر بوضوح بأن الايدي الجائرة لاتتمكن من التلاعب فيـه حيث قال «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (الحجر ـ ٩) ، والمراد من «الذكر» بقرينة قوله سبحانه «وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون» (الحجر ـ ٦) هو القرآن لا النبي كما احتمله بعضهم ، وبما ان النبي(ص) لم يكن من الذين يطلبون المجد عـن طريـق الاحلام المكذوبة والآمال المعسولة و يسيرون على الاوهام ويطيرون على الخيال، فلا مناص الا ان تكون الاية صادرة عن وحي سماوي معبرة عن راي من يملك الارض والسماء والماضي والمستقبل .

نعم نوقش في دلالة الاية على صيانة القرآن عن التحريف بوجوه زائفة لاقيمة لها في ميزان الانصاف (٢) .

---

(١) البيان ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) راجع في الوقوف على تلكم الشبهات واجوبتها ، تفسير البيان ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .

٧ ـ الاخبار عن نجاح الاسلام والرسول :

قال سبحانه : «هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (التوبة ـ ٣٢) فاظهره على الدين اعز اظهار ، ارغمت به آناف المشركين ، وقبض ولحق بالرفيق الاعلى ولم يبق في الجزيرة العربية وثن ولا وثني ولاعلام النفسير حول الاية كلمات تفسر الاية بغير ما ذكرناه .

قال صاحب المنار بعد ما حقق وفصل ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لان يكون عالميا ، ويظهر على الدين كله ، وانه صح عن النبي (ص) «ان الله زوى لي الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها» قال ومن العلماء من يقول ان بعض البشارات هذه لايتم الا في آخر الزمان عند ظهور المهدي وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء واقامته لدين الاسلام (١) .

وفسر الطبرسي «الظهور» بالغلبة بالحجة والقهر معاً،وقال اي ليظهر دين الاسلام على جميع الاديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لايبقى على وجه الارض دين الا مغلوبا،ولا يغلب احد الاسلام بالحجة واهل الاسلام يغلبون اهل سائر الاديان بالحجة واما الظهور بالغلبة فهو ان كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي اهل الشرك ولحقهم قهر من جهتها .

وقيل اراد عند نزول عيسى بن مريم فانه لايبقى اهل دين الا اسلم او ادى الجزية وقال ابو جعفر (ع) ان ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلايبقى احد الا اقر بمحمد (ص) ،وقال المقداد بن الاسود سمعت رسول الله يقول لايبقى على ظهر الارض بيت مدر ولا وبر الا ادخله الله كلمة الاسلام اما بعز عزيز واما بذل ذليل . . . . (٢) .

---

(١) المنار ج ١٠ ص ٤٦٠ .
(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٥ .

نعم يمكن ان يقال : المراد من الظهور معناه الجامع العام اي الظهور والغلبة اعم من الغلبة بالبرهان والحجة والغلبة بالقدرة والسيطرة، ثم الظهور أعم من الظهور على الشرك والوثنية السائدة فى الجزيرة العربية يوم نزول الاية ، والظهور على الاديان كلها ، فى مشارق الارض ومغاربها ، فللظهور مراتب ودرجات تحقق بعضها فى عصر الرسول والبعض الاخر بعده (ص) والدرجة العليا منها انما تتحقق بظهور المهدي من آل محمد «عجل الله تعالى فرجه» .

على ان هنا آيات تنبأت عن مستقبل الاسلام ونجاحه نجاحا باهراً مثل قوله سبحانه : «كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاءاً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال» (الرعد ـ ١٧) .

فتنبأ بأن الاسلام سيخلد ويبقى ، وان الباطل والوثنية سيذهب جفاء ، اخبر بذلك فى الوقت الذي كان المسلمون فى مكة مضطهدين مستضعفين يخافون ان يتحظفهم الناس وقريب منه قوله سبحانه «الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون» (الحجر ٢٤ ـ ٢٥) فالمراد من الكلمة الطيبة ، هي كلمة التوحيد وما يتفرع منها من احكام وفروع ، فالاعتقاد بالله سبحانه ووحدانيته هو الاصل الثابت والمحفوظ من كل تغير و زوال ، ومن طرؤ اي بطلان عليه ، وتتفرع عليها احكام ونسك واخلاق زاكية واعمال صالحة يحيى بها الانسان ،ويعمر بها المجتمع ، ويعطى اكلها وثمارها التي هي عبارة عن صلاح المجتمع الانساني وتكامله كل حين .

فالايه تشير الى ان العقائد الحقه وما يتفرع عليها من الاحكام ، كشجرة طيبة فكما هي تضرب عروقها فى الارض وتعلو اغصانها الى السماء ، ويتظلل بها الناس، ويستفيد من ثمارها القريب والبعيد ،فهكذا الدين الحق والكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد والاسلام،سوف تستقر فى قلوب الناس ، وتضرب عروقها فى ضمائرهم وقلوبهم ، وترفع اغصانها فى مظاهر حياتهم ، يتظلل بها العرب والعجم ، ويستفيد

من آثارها الداني والقاصي وبها يستقر السلام العام وتأمن سعادة الناس وبها يتكامل المجتمع البشري فى مراحل الحياة ومظاهرها ، فتبقى دائمة على مر الليالى والايام.

فهذه الاية تنبىء عن مستقبل الاسلام ونجاحه نجاحاً باهرا فى وقت لم يكن من بواسم الآمال مايلقى ضوءاً على نجاح هذا الدين،ولم يكن عند النبي من العوامل مايجعله يثق بهذا النجاح ، وليس النبى بشهاده تاريخ حياته ورجاحة عقله واتزانه ودقته ، من الذين يرمون القول على عواهنه غير متريث بما يقول ، بل كان يتثبت فى كلامه ، ويتحرى فى مقاله حتى اشتهر بالصدق والامانة ومع ذلك فقد اخبر بلغة الواثق فيما يقول عن نجاح دينه فى المستقبل وانه سوف يضرب بجرانه خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية الى آقاصى الدنيا .

واعطف على ذلك تنبؤ القرآن بكل وعود تدل على نجاح الرسل والمؤمنين فى ميادين الحياه ومعارك التنازع ، كقوله سبحانه : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون» الصافات (١٧١ - ١٧٣) وقوله سبحانه «انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد» (الغافر-٥١) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى ، لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون» (النور - ٥٥) (١) .

فهذه الوعود المؤكدة الكريمة وان وردت بصورة عامة ، لكنها تعم النبي الاكرم والذين آمنوا به ، فقد نصر النبى وجنده وغلبهم على مخالفيهم وأعدائهم ، ومكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى ارضه واستخلفهم فيها ، وبدل خوفهم أمنا حتى استطاعوا ان يعبدوه آمنين غير خائفين الى يومنا هذا .

«ان الاسلام لقى من ضروب العنت مرارا وتكرراً في ازمان متطاولة وعهود

(١) راجع الى ماسلفناه حول الاية المتقدمة من عمومية المعنى واوسعيته وكونه ذات مراتب فلا ينافى تأويلها بخروج الامام المنتظر .

مختلفة ، ما ،كان بعضه كافياً في محوه وزواله ولكنه على رغم انف هذه الاعاصير العاتية بقى ثابتاً ، يسامى الجبال شامخا يطاول السماءعلى حين ان سجلات التاريخ لاتزال تحفظ بين طياتها ، ما يشيب الوليد من الوان الاضطهاد والاذى الذي أصاب الرسول واتباعه في مكة والمدينة وقد رمتهم العرب بقوس واحدة ، عندما نزلوا المدينة وكانوا لايبيتون الا بالسلاح ولا يصبحون الافيه وقد وعدهم بالنصر والغلبة وهم يضطهدون ، وما اعجل تحقق هذا الوعد الالهي ، رغم هذه الاحوال ، المنافية فى العادة لما وعد ،فدالت الدولة لهم ،واستخلفهم فى اقطار الارض واورثهم ملك كسرى وقيصر ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وابدلهم بعد خوفهم امناءيا لها نبوءة تأبى عادة ان يتحدث بها الا من يملك تحقيقها ويخرق ان شاء عادات الكون ونواميسه من اجلها ، «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ولينصرن الله من نصره ان الله لقوي عزيز» (١) .

كيف وهو لم يكتف بهذا بل تنبأ فى الوقت الذي لم يكن فيه من بواسم الامان ، ما يوجب اطمئنانه بنجاحه ونجاح دينه بانه سيعود الى معاده وموطنه فى حين ان المسلمين كانوا بمكة فياذى وغلبة من اهلهاوكانهو بالجحفة اثناء هجرته الى المدينة وقال سبحانه « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » (القصص - ٨٥) فاخبر عن رجوعه الى معاده من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقا للخبر .

وانك لتجد في سبرك الذكر الحكيم آيات أخرىغير ما ذكرناه تبشر عن نجاح الاسلام والمسلمين ، تعبر عن غلبتهم على أعدائهم وهذه الايات الكثيرة الواردة في هذا القسم من المغيبات ، قد تحققت كلها ولم تتخلف منها واحدة ولو تخلفت منها واحدة لزمر وطبل على تلك السقطة اعداؤه وطفقوا يرقصون فرحاً بالخلاف الذي وجدوه فى كتابه الذي به تحداهم فهدم كيانهم وسفه احلامهم

ولابأس بذكر بعض ما يناسب المقام من الايات التي تنبأت بانتصار الرسول والمسلمين

---

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ، ٢١ - ٢٧١ بتصرف .

على اعدائهم وانهم سوف يدخلون مكة بل يفتحونها .

قال سبحانه:«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً »(الفتح ـ ٢٧) روى أهل السير والتاريخ « ان الله تعالى أرى نبيه في المنام بالمدينة قبل ان يخرج الى الحديبية ، ان المسلمين دخلوا المسجد الحرام فاخبر بذلك اصحابه وانهم سوف يدخلون مكة فلما خرجوا من المدينة وبلغوا الحديبية خرج منها رسول الله (ص) في عدد من أصحابه حتى اذا كانوا بذى الحليفة بعث النبي (ص) عيناً ، وجاء فأخبره بأن كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، قد جمعوا لك الاحابيش طليعة ، وبعد محادثات جرت بين المسلمين وقريش اصطلحوا على ان يضعوا الحرب عشر سنين وان يرجع رسول الله ومن معه من اصحابه في عامه هذا فلا يدخل مكة الامن العام القابل. فيقيم بها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب والسيوف في القرب ، ولا يدخلها بغيره ، فلما انصرف رسول الله ومن معه من اصحابه ، قال المنافقون ما حلقنا ولاقصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام فأنزل الله هذه الاية واخبر انه ارى رسوله الصدق في المنام ، لا الباطل وانهم يدخلونه وأقسم على ذلك وقال لتدخلن المسجد الحرام ، أي العام القابل وكان بين نزول الاية والدخول مدة سنة ولعل التقييد بالمشيئة لعلمه سبحانه بأن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها فأدخل الاستثناء لان لا يقع في الخبر خلف (١) .

ونختم هذا القسم بتنبؤ القرآن بانتصاره على أعدائه من قريش وفتحه عاصمة الوثنيين ودخول الناس في دين الاسلام فوجاً بعد فوج قال سبحانه « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً» (النصر ١ ـ ٤) فأظفره الله على أعدائه وفتح مكة ودخل الناس في دين الاسلام زمرة بعد زمرة ولاجل ذاك النصر العظيم أمره سبحانه بتنزيه الله عما لا يليق به ، وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تنبأ فيها القرآن الكريم بفتح مكة ، بل تنبأ بفتح مكة

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ غزوة الحديبية ، مجمع البيان ج ٥ ص ١٢٦ .

مرة أخرى وهو قوله سبحانه « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » (الفتح-١) فقد روى ان المسلمين رجعوا عن غزوة الحديبية وقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة اذ انزل الله عز وجل « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فأدرك الرسول السرور والفرح ، ماشاء الله ، ففتحت مكة بعد عامين، من نزول السورة ومعنى قوله « انا فتحنا » انا قضينا لك بالفتح(١) .

٨ ـ التنبؤ بأحداث جزئية :

ومن غرائب التنبؤات الاخبار عن احداث جزئية ، تحققت بعد الاخبار كما اخبر ، فأخبر بأن أبا لهب وامرأته يموتان على الكفر ، ولا يحضيان بسعادة الاسلام ، الذي يكفر عنهما آثام الشرك ، ويحط أوزارهما ، فماتا على الكفر ، كما اخبر به أخباراً حتمياً وذلك في قوله سبحانه :

«تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد» (اللهب ١ ـ ٥) فأخبر بأنه يدخل ناراً عنيفة الاشتعال تلتهب عليه ، وهي نار جهنم وجاء المخبر كما اخبر .

كما اخبر عن الوليد بن المغيرة ومصير أمره وعاقبة حياته، وانه يموت على الكفر ، وانه سبحانه يدخله فى عذاب لا راحة فيه ، وذلك عند ما اتهم النبي بانه ساحر فانزل الله فيه سبحانه الآيات التالية « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان ازيد كلا انه كان لاياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً أنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستبكر ، فقال ان هذا الاسحر يؤثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر ، وما أدريك ما سقر لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر عليها تسعة عشر » (المدثر ١١ ـ ٣٠) .

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

روى ان قريشاً اجتمعت في دار الندوة فقال الوليد لهم انكم ذووا احساب وذووا أحـلام ، وان العـرب يأتوكم ، فتنطلقون من عند كم على أمر مختلف ، فاجمعوا أمركم على شيىء واحد ما تقولون في هذا الرجل ، قالوا انه شاعر فعبس ، وقال : قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر ، فقالوا : انه كاهن ، قال : اذا تأتونه فلاتجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة قالوا: انه لمجنون فقال: اذا تأتونه فلاتجدونه مجنوناً ، قالوا انه ساحر قال : وما الساحر ، فقالوا بشر يحبب بين المتباغضين ويبغض بين المتحابين ، قال : فهو ساحر فخرجوا فكان لا يلاقى أحد منهم النبي الا قال . يا ساحر يا ساحر واشتد ذلك فأنزل اليه هذه الايات (١) .

وهـذا التنبؤ صدر عنه (ص) فى مكة وكان فى وسع الرجل ان يقلب حـاله ويصلح باله ولكنه بقي على ما كان عليه من كفره وعدائه للنبي والاسلام .

وقد تنبأ القرآن عنه بصورة أخرى وهو انه سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها، حيث قال سبحانه « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد اثيم، عتل بعد ذلك زنيم، ان كان ذامال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين ، سنسمه على الخرطوم » (القلم ١٠ ـ ١٦) وقد حضر الرجل فى معركة بدر الكبـرى خطم انفه بالسيف ، وبقي اثر هذه الضربة سمة وعلامة له كما هـو أحد الوجوه فى تفسير قوله « سنسمه على الخرطوم » (٢) .

كل ذلك دليل على انه لامصدر لهذه التنبأت والاخبارات الغيبية الا الله سبحانه علام الغيوب .

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٨٩ ، مجمع البيان ج ١ ص ٣٣٥ .

٩ ـ تنبؤ القرآن في مكة بما سيصيب كفار قريش :

تنبأ القرآن بالمستقبل الاسود الذي كان ينتظر قريشاً ، وذلك عندما دعا النبي على قومه لما كذبوه بقوله:اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف فأجدبت الارض، فاصابت قريشاً المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع ، يرى بينه وبين السماء كالدخان ، وأكلوا الميتة والعظام ثم جاؤوا الى النبي وقالوا : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم ، وقومك قد هلكو فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة ، فكشف عنهم ثم عادوا الى الكفر (١) والى ذلك يشير قوله سبحانه :

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم ، ربنا اكشف عنا العذاب انـا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين ، ثـم تولوا عنه وقالو معلم مجنون ، انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » (الدخان ١٠ ـ ١٧) .

فقد تنبأ في هذه الايات الثمانية عن عدة مغيبات .

١ الاخبار عن القحط الذي يحوق بهم ، وشدة الجوع التي تغشاهم ، الى حد يتصور الرجل السماء كالدخان ، لما به من شدة الجوع ، حيث قال سبحانه : « وارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » .

٢ ـ الاخبار بابتهالهم وتضرعهم الى الله سبحانه ، عندما تلم به هـذه الازمة ويحل بهم الجوع والغلاء ، قال سبحانه : «ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون» .

٣ ـ الاخبار برفع العذاب وكشفه عنهم قليلا قال سبحانه : « انا كاشفوا العذاب قليلا.»

٤ ـ الاخبار بعودهم الى ما كانوا عليه من الكفر والانكار قال سبحانه : « انكم عائدون » .

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٦٣ ، البرهان ص ١٦٠ .

٥ ـ الاخبار بان الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى ، وهو يوم بدر الكبرى ، حيث انتقم منهم وقتل من صناديد قريش، سبعون رجلا وأسر منهم مثله وتولى الاخرون.

وهذه الكثرة الوافرة من الانباء الغيبية لم تتخلف واحدة منها ، بل تحققت كما اخبر بها، ولولم يتحقق، لنقل لتوفر الدواعي على نقله وتواتره .

نعم قيل ان الدخان الوارد في الاية من اشراط الساعة وهو بعد لم يأت وانما يأتي قبل يوم الساعة، وتكون الارض كلها كبيت اوقد فيه ليس فيه خصاص ويستمر ذلك اربعين يوماً ، ولايخفى ان المعنى الاول اظهر وانسب لقوله سبحانه «انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون» اذ لو كان الدخان الوارد في الاية من اشراط الساعة لغشى الناس جميعاً ، ولم يختص بكفار قريش وعند ذاك لايصح لوم الجميع بقوله «انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولواوقالوا معلم مجنون» فان كثيراً من المحشورين في يوم القيامة ، ليسوا من امة نبينا «محمد» ولم يتولوا عنه ولم يتهموه بأنه معلم مجنون .

١٠ ـ التنبؤ حول اليهود والنصارى :

من عجائب التنبؤآت القرآنية وغرائبها، تحديه اليهود بابسط الاشياء واسهلها ومطالبته اياهم بما هو ميسور لهم في كل وقت وحين ، وفي متناول قدرتهم ، ودائرة استطاعتهم في كل زمان ، ومع ذلك عجزوا عن تكذيبه وانصرفوا عن مخالفته وهذا يدل قبل كل شيء على ان القرآن كلام من بيده القلوب والضمائر .

قال سبحانه : «قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولن يتمنوه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم احرص الناس على حيوة ومن الذين اشركوا ، يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر، والله بصير بما يعملون» (البقرة ـ ٩٤ ـ ٩٦) .

لما زعم اليهود انهم الشعب المختار عند الله ، وان الدار الاخرة خالصة لهم كما تحكى عنه الاية ويدل عليه ايضاً قوله سبحانه «وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة» (البقرة ـ ٨٠) .

عرض عليهم سبحانه ، رداً على مقالهم (ان نعيم الاخرة وقف على الشعب المختار ، وان الدار الاخرة خالصة لهم) أن يتمنوا الموت جنانا ولساناً وعملا ، فان الانسان بفطرته اذا خير بين العيش الخالص عن التعب والالم ، والعيش الممزوج بالوان العذاب والكد ، يختار الاول،ولا ريب ان عيش الاخرة هو العيش الخالص عن شائبة التعب ، فلو انهم يزعمون انهم صادقون في ما يقولون بالسنتهم من ان لهم الدار الاخره،وانهم الامة المختارة من بين شعوب الناس بالحياة الدنيا ، يجب أن لا يكونوا أحرص الناس بالحياة الدنيا، بل يلزم عليهم تمنى الموت تمنياً صادقاً،تظهر آثاره في حياتهم وتقلبهم بين الناس .

غير ان التاريخ والحس يقضيان على خلاف ما يدعونه ، وانهم احرص الناس على الحياة وكل واحد منهم يود لويعمر الف سنة، وما تمنى ولن يتمنى احد منهم الموت ابداً تمنيا تلوح عليه آثار الصدق ، لا اقول انهم ما تمنوا تلفظاً ولقلقة باللسان ، بل تمنياً من صميم الروح ، تظهر آثاره على الجوارح والافعال ، ولذلك قال سبحانه :

«قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين، ولايتمنونه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين»(الجمعة٦-٧)

نعم ان الزرقاني فسر الاية على وجه يشمل التمني باللسان وقال : «ولقد كان بمقدور اليهود في العادة ان يقولوا ولـو بالسنتهم نحن نتمنى الموت كي تنهض حجتهم على محمد ويسكتوه ، لكنهم صرفوا فلم يقولوا ولم يستطع احد ان يقول : اني اتمنى الموت (١) غير ان ما ذكره خلاف ظاهر الاية فان التمني حالة نفسانية للنفس واللفظ الدال عليه معبر عما في الضمير ، ولا يطلب القرآن منهم التمني الكاذب ولا يدعوهم اليه بل التمنى الصادق الكاشف عـن الارادة الجدية والطلب

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٧٦ .

الحقيقي له،مع ظهور آثاره في حياة المتمني وسلوكه . . . .

ثم ان في القرآن تنبؤآت بالمستقبل المظلم الاسودالذي لم يزل يواكب بعضها اليهود طيلة اربعة عشر قرناً من نزول القرآن الى يومنا هذا ، لم ينخرم واحد منها ابداً ، وذلك قوله سبحانه : «لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لاينصرون ، ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (آل عمران ١١١ – ١١٢) .

وفي هاتين الايتين تنبآت :

١ ـ ان هذا الشعب الماكر اللئيم ، لايمكنه القيام بحرب مواجهة مع مقابلة الند للند و انما يقع ضررهم على المسلمين عن طريق الغدر والمكر .

٢ ـ ولو قاتلوا المسلمين ، لولوهم الادبار .

٣ ـ ضرب عليهم الذل كضرب السكة على الدينار والخيمة على الانسان نعم كتب عليهم الذل والهوان الا اذا تمسكوا بحبل من الله ودخلوا في عهد منه أوعهد من الناس يستعينون بهم ويستظلوا بظلالهم .

٤ ـ ضربت عليهم المسكنة وهي زي الفقر والخوف منه وفيهم من يملك آلاف الالوف وليس فيه غنى النفس فهم أشد الشعوب خـوفاً من الفقر ، وأشـدها طمعاً وشرها في جمع الدنيا ، لا يعرفون القناعة وان غرقوا في المال ، ولا يتورعون عن الجري وراء الدنايا ، بأحط الوسائل .

٥ ـ حلول غضب الله عليهم كما يعطيه قوله «وباءوا بغضب من الله» .

والمراد من الضمير المتصل من قوله «لا يضروكم» وان كان هو أهل الكتاب، الوارد في الآية المتقدمة، غير ان المقصود منه هم اليهود بلاكلام لما في ذيل الآية التالية من تعليل ضرب الذل والمسكنة عليهم بقتلهم الانبياء وهو من فعل اليهود .

ويؤيده قوله سبحانه ، في شأن اليهود : (اهبطوا مصراً فان لكم مـا سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك

بما عصوا وكانو يعتدون » (البقره ـ ٦١) ، وبذلك يظهر ان ما يقال من عمومية الاية ، لمطلق أهل الكتاب ، أخذاً بمفاد الضمير المتصل، الراجع الى أهل الكتاب، المذكور في الآية السابقة ، ليس بسديد .

وقد تنبأ سبحانه بقوله : «لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار» بما جرى بين المسلمين وطوائف من اليهود من «بني نضير وقريظة وقينقاع» فحاربوا المسلمين ولم يثبتوا بل استسلموا ، وهو تنبوء صادق شهد به التاريخ الصحيح بل يمكن ان يكون تنبؤاً بعامة ما جرى بينه وبين اليهود أيام حياته (ص) فهو قد طهر الجزيرة العربية من هذه العناصر الماكرة ، أعداء الله وأعداء الانسانية ، في مدة قليلة ولم ينصروا بعد قط .

والمراد من الاستثناء في قوله سبحانه : «لن يضروكم الا أذى» هو الضرر اليسير الذي ليس فيه كبير تاثير من سب باللسان وخوض في النبي وقد تحقق المخبر به كما اخبر، في تطهير أرض المدينة وما حولها من الطوائف الثلاث الذي اسميناهم فلم ينالوا من المسلمين الا « سباً باللسان أو ضرراً قليلا كما هو الحال في غزوة خيبر على ما هو مسطور في السير والتاريخ ومفاد الاية راجع الى عصر الرسالة فقط كما أوضحنا ويفيده التدبر في الاية وفي الضمائر الواردة فيها من قوله «لن يضروكم و.....

وأما الاية الثانية المتضمنة لضرب الذلة والمسكنة عليهم فربما يحتمل اختصاص مفادها بعصر الرسالة غير أنه محجوج بأمرين .

الاول : ان المتبادر من قوله سبحانه « ضربت عليهم الذلة في كلتا الايتين هو العموم والشمول وكأنه يريد أن يقول عجنت طينتهم بالذل والهوان والمسكنة ، ولا تنفك عن تلكم الطائفة في أي جيل وزمان .

الثاني : انه سبحانه علل ضرب الهوان والذل والمسكنة عليهم بأمرين أحدهما: الكفر بآيات الله وهو مشترك بين الجميع وثانيهما : يرجع الى اسلافهم وأجدادهم، من قتل الانبياء ولكن اليهود المعاصرين لعصر الرسالة لما رضوا بفعالهم وعملهم الشنيع ، صاروا مثلهم «فان من رضى بفعل قوم فهو منهم » فاسند سبحانه الفعل اليهم

ايضاً ، فضرب الذلة على جميعهم من اولهم الى آخرهم . ولو كان هذا هو الملاك لضرب الذل على يهود عهد الرسالة فهو بعينه موجود في العايشين بعده الى زماننا هذا ، ولا وجه لاختصاص الذل والمسكنة ببعضهم دون بعض ، اذ ليس الهوان أو المسكنة ، الا جزاءاً ونكالا من الله سبحانه بالنسبة الى هذه الطائفة،فهم بين مقترف لاشد المعاصي واهولها ، وبين راض بما ارتكبه قومه من الجنايات الموبقة،فكل من الطائفتين يعاقب ويؤخذ بجزاء عمله ، كما قال سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » . (آل عمران ١٨١ – ١٨٢) .

وقد اثبتت القرون والاجيال صدق ما تنبأ به القرآن من لدن نزوله الى عصرنا ولكيما نتحقق من ذلك لابد من الرجوع الى التاريخ فخرب « بخت نصر » أورشليم وقاد أكثر أهلها اسرى وكان ذلك عام ٥٨٧ ق. م . وفي سنة ٣٠٢ . ق . م انقل ملوك سوريا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم .

وأما اضطهادهم بعد الاسلام فكثير،فقد اجلى النبي «بني قينقاع» و بني النضير» وقتل «بني قريظة» لما تآمروا عليه كما هاجمتهم جميع الامم المسيحية فلم يجدوا ملجأ الا الاندلس حيث احاطهم امراء الاسلام بعطف خاص لكن عندما احتل النصارى الاندلس اخذوا بتشريد اليهود وطردهم واجبارهم على مغادرة البلاد الاسبانية وقد وقع كثيرون منهم في أيدي القراصنة الذين انتشروا حول الشواطىء فجردوهم من اموالهم واتخذوهم عبيداً ارقاء . هذا ماعدا الذين ماتوا جوعاً او اصيبوا بالطاعون فأهلكهم ثم لجأ ثمانون الفاً الى البرتغال ارتكاناً الى وعد ملكها لكن القساوسة الاسبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد ، وعمدوا الى اقناع ملك البرتغال بعدم ايوائهم فأصدر امراً يقضي بابعاد جميع اليهود البالغين اما الاولاد الذين لاتتجاوز سنهم اربعة عشر عاماً فقد انتزعوا من احضان امهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي.

لم يقتصر الغربيون على طرد اليهود من اسبانيا والبرتغال فقط بل طردوا ،

وشردوا من انجلترا ، فرنسا، بلجيكا ، هولندا ايطاليا المانيا روسيا و . . . (١) .

اي ذل وهوان اوضح من هذا الذي صادفوه طيلة القرون الغابرة الى يومنا هذا ، كل ذلك مضافاً الى تنفر الناس عن كل يهودي ماكـر ، واسرائيلي لئيـم ، وابتعادهم عنهم في حلهم وترحالهم ، لماهم عليه من الغدر والمكر والشره والطمع وعدم اندماجهم مع غيرهم وعدم وفائهم للذين استضافوهم وآزروهـم ، لما يظنون انهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها ، وانهم يحق لهم اغتصاب حقوق الغير اخذاً بتعاليم التلمود حيث يعبر عن املاك غير اليهود « بأنه كالمـال المتروك الذي يحق لليهودي ان يملكه» .

هذا وذاك اوجب بان يعلن القرآن منذ اربعة عشر قرنا بانه سبحانه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيامة حيث قال سبحانه « واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم» (الاعراف ـ ٦٨) فقضى الله سبحانه انه ليسلطن على بني اسرائيل الى يـوم القيامة من يذيقهم اشد العذاب ، جزاء لهم على اعمالهم ونكالا منهم فكما هو سبحانه سريع الصفح عن ذنب التائب،فهو ايضاً سريع العقاب .

الى هنا يكون قد تبينت صحة تنبوء القرآن حول اليهود، وانه ماتخلف طيلة اربعة عشر قرنا ، قدر شعرة غير ان هنا سؤالا ، يوجهه الشباب حول الاية وهو انه كيف وصفهم الله بضرب الذل والهوان عليه مع انه استقر لهم السيادة في الاراضي المحتلة فجمعوا من العدة والعدد ماأوجب نجاحهم في هذه المعارك الرهيبة لاسيما في نكسة الخامس من حزيران .

غير ان الجواب عن هذا السؤال سهل بعد ملاحظه مايلي :ان مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تجري على وفق القوانين والسنن الكونية لا تختلف باختلاف الامم فالعارف بفن السباحة ـ مثلا ـ يعوم ويصل الى شاطىء الأمان،والجاهل بها يرسب ويكون عرضة للهلاك ، ومن زرع حصد ، ومن لم يزرع لم يحصـد ، والايمـان

(١) راجع في تفصيل ذلك ،كتاب «اليهود في القرآن» ص ٩٦ ـ ٩٧ .

لاينبت قمحا والكفر لاينبت شوكاً في هذه الحياة ، وكذلك من اعد العدة لعدوه واحتاط له ، ظفر به وان كان ملحداً ، اذا لم يكن الاخر على حذر واستعداد ، ومن تقاعس وأهمل خسر ، وان كان من الاولياء والصديقين قال : تعالى مخاطباً اصحاب الرسول (ص) بالاية ٤٨ من الانقال « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين» وقال الامام علي (ع) «ان هولاء ـ يشير الى اصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم وخذلتم ـ الخطاب لاصحابه ـ بتفرقكم عن حقكم ، اذن الحق لاينتصر لمجرد انه حق،والباطل لايخذل لمجرد انه باطل ، بل هناك سنن في هذه الحياة تسير المجتمع،وتتحكم به والله سبحانه لايسقطها ولايعطل سيرها ، تماما كما هو شانه في سنن الطبيعة،ان الله سبحانه قد خلق الحياة وجعل لها قوانين تحكمها ، وتأبى هذه القوانين ان تمطر السماء على غير العاملين له .

وعليه فلاعجب ان تغتال الصهيونية جزءاً من أرضنا بمعونة الاستعمار ما دمنا في غفلة عنها وعن مقاصد اعوانها منقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب والعربية » (١) .

ان للسعادة والشقاء والحضارة والتقدم والتدهور والانحطاط ، قوانين وسننا لا تنفك عنها آثارها ومسبباتها ومن دق باباً ولج ولج،من غير فرق بين أمة وأمة أو طائفة دون أخرى ، ان نكسة خامس حزيران والاحتلال الصهيوني للاراضي المقدسة الاسلامية ، نتيجة عمل طويل وأعداد متواصل من قبل اليهودية العالمية التي تلاقت أهدافها مع مصالح الاستعمار في الشرق الاوسط من جانب ، ومع الفساد السياسي الاجتماعي الشامل الذي كان المسلمون يعيشون فيه من جانب آخر ، فالعدو تمسك بأقوى وسائل القهر والغلبة ، وأعد نفسه للتقابل مع المسلمين في معارك صعبة قرابة قرن ، وتحمل في طريقه جهوداً وبذل من نفسه وماله الكثير ، وأما المسلمون ففي القرن الذي كان العدو يجمع العدة والعدد ، ويتجهز بالعلم والصنعة وتربية الخبراء ومهرة الفن ـ كانوا يعيشون في فرقة ونفاق ، يضطهد بعضهم بعضاً ، مضافاً

(١) من هنا وهناك ص ٢٤ ـ ٤٣ .

الى ما يعانون من ميوعة وخيانة وانحلال في الاخلاق ، والمشي على المخططات التي رسمتها لهم الاعداء بطابع الود والاحسان .

وعلى ذلك فلاغروفي ان يحتل العدو الغاشم جزءاً كبيراً من أرضنا ويترصد لاخذ جزء آخر واذن . . فالظهور والغلبة لهم والنكبة والنكسة للعرب جاءت على وفق القوانين والسنن التي تحكم على الحياة .

اذا عرفت ما ذكر فالجواب عن السؤال واضح بعد الامعان في الاية التالية : « ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله، وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » (آل عمران ـ ١١٦) .

ترى انه سبحانه حكم بضرب الذل والهوان عليهم ثم استثنى عنه بقوله : «الا بحبل من الله وحبل من الناس » ، وفي الوقت نفسه حكم بضرب المسكنة عليهم بلا استثناء .

وبعبارة أخرى ترى أنه سبحانه استثنى من احاطة الذل والهوان صورتين : اذا تمسكوا بحبل من الله، واذا تمسكوا بحبل من الناس وبهذين السببين يمكن ان يدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان ، والمراد من الحبل هو العهد (١) فلو دخلوا في عهد الله وهو الاسلام ودفعوا الجزية وعملوا بشرائط الذمة وتركوا الغدر والحيلة مع المسلمين فسيعود لهم العز كسائر الذميين ، ويعاملون بالمساواة وتصان دمائهم واعراضهم وأموالهم، ويذاد عنهم كما يذاد عن غيرهم، ولو تمسكوا بحبل من الناس واستعانوا باحدى الامم ممن له منعة وقدرة يتيسر لهم بواسطتها ان يطردوا عن أنفسهم الذل والهوان، ويستحصلوا على العز والقدرة ما داموا كذلك .

ولا شك ان امة اليهود ما احتلت ارضاً ، وما كسبت سلطاناً ، وما أدركت عزاً الا بحبل من الناس ومساعدة من الامم الكبرى ممن توافقت أهدافهم العالمية مع مصالح العدو الطريد .

«ان اسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الاسلحة الحديثة ، اقامتها

(١) سمي حبلا لانه يعقد به الامان كما يعقد الشيء بالحبل .

الولايات المتحدة،لحماية مصالحها في بلاد العرب ، وأهمها شركات البترول التي يحتاج بقاؤهـا والاحتفاظ بها ، الى نصف ميليون جنـدي امريكي لولا وجود اسرائيل...فليس من المعقول ان تكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان ولا يكون الى جانبها قاعدة حربية أو حلف عسكري يحميها من الثورات والحركات الوطنية وقد وجدت في اسرائيل غنى عن القواعد والاحلاف »(١) .

أضف الى ذلك ان اسرائيل وان اسست باسم الدين وصبغت بالصبغة الشرعية الا ان كثيراً منهم لا يمتون الى الدين بشيىء ، ولا صلة بينهم وبين دين اليهود فحكومتهم حكومة ذات نزعة عنصرية طائفية،مدفوعة بكونهم من اولاد اسرائيل واخلافهم سواء أكانوا مؤمنين بدينه أم كافرين به ، ملتزمين بأحـكام التوراة ام لاو ما تنبأ به القرآن انما هو راجع الى اليهود الذين آمنوا بشريعة اسرائيل وما بعده الى موسى والتزموا باصول دينهم،وفروعه ووقفوا في وجوه سائر الاديان ، متمسكين بدينهم ومتنسكين بشريعته ، وليست اسرائيل ومن يعيش في أرضها ، يمثلون هؤلاء فهي دولة مادية صبغت باسم الدين وطابعه كما هو واضح لمن لاحظ كتبهم وجرائدهم ومجلاتهم ، وعلى كل حال فخذلان بني اسرائيل التي يحتمها القرآن انما تكون حتميـة فيما لو وقف تجاه المسلمين بمـا هم يدينون بدين اليهود ، لا بما انهـم يتعصبون الى يهوديتهم تعصباً عنصرياً اعمى ، من غير تدين .

الجواب الثانى :

ربما يجاب عن الاشكال بوجه آخر وهو ان المراد من ضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم ، والدليل على ذلك قوله «اين ماثقفوا» فان ظاهر معناه اين ماوجدهم المؤمنون تسلطوا عليهم ، وهو يناسب الذلة التشريعية التي من آثارهـا الجزية فيؤول معنى الاية الى انهم اذلاء ، بحسب حكم الشـرع الاسلامى الا ان

(١) من هنا وهناك ص ٩٩ .

يدخلوا تحت الذمة او امان من الناس بنحو من الانحاء (١) .

غير ان هذا الجواب لايلائم ظهور الاية فان القضاء التشريعي بذلتهم لايختص بتلكم الطائفه بل يعم اهل الكتاب جميعاً وقد اوضحنا ان الاية مختصه باليهود .

الجواب الثالث

ان القرآن وان تنبأ بضرب الذلة والمسكنه على اليهود ، غير انه تنبأ ايضا بعود القدرة والمنعة اليهم فى فترة من الزمن،مرتين فيفسدون فى الارض،الى ان يقيض الله رجالا اولى باس شديد ، ينتقم منهم.ودونك الايات فى سورة الاسراء:

«وقضينا الى بني اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علواً كبيرا» (- ٤) .

«فاذا جاء وعد اوليهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولى باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداًمفعولا» (- ٥) «ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيراً» (- ٦) .

«ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها . فاذا جاء وعد الاخرة ليسؤا وجوهكم وليدخلوا المسجدكما دخلوه اول مرة وليتبروا ماعلو تتبيرا» (- ٧)

«عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلناجهنم للكافرين حصيرا»(الاسراء ٤-٨)

فان الايات تعرب عن افساد الطائفه المذكورة فى الارض مرتين وانتقام الله سبحانه منها بعد كل فساد تقوم به،ويدل على الفساد الاول قوله سبحانه«فاذا جاء وعد اوليهما» وعلى الفساد الثاني قوله عزوجل «فاذا جاء وعد الاخرة» .

اما الانتقام الاول فيدل عليه قوله سبحانه«بعثنا عليكم عباداً لنا اولى باس شديد فجاسوا خلال الديار .

أما الانتقام الثاني فيدل عليه قوله تعالى «ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد

---

(١) الميزان ج ٣ ص ٤٢٣ .

كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علو تتبيرا» (١).

ثم ان المفسرين مالوا يميناً وشمالا في تفسيرهذه الايات ولم يأتوا بأمر مقنع تطمئن اليه النفس ودونك بعض ماذكروه من الوجوه .

١ ـ المراد من الفساد الاول قتل يحيى بن زكريا ومن الانتقام غلبة بخت نصر مع النبطيين على بني اسرائيل ، والمراد من الفساد الثاني غلبة بني اسرائيل على النبطيين مرة ثانية ولم يذكروا المراد من الانتقام الثاني .

٢ ـ الفساد الاول هو قتل زكريا والثاني قتل يحيى بن زكريا ، والانتقام الاول تسلط «سابور» ذي الاكتاف ، والانتقام الثاني هجوم «بخت نصر» على اليهود .

٣ ـ المراد من الفساد الاول قتل زكريا وغيره من الانبياء وبالانتقام الاول تسلط «بخت نصر» على اليهود ، والمراد من الفساد الثاني طغيان اليهود بعد اخذ استقلالهم على يد كوروش، ومن الانتقام الثاني ماوقع بيد «انطياخوس» ملك الروم (٢)

وهذه الوجوه واضرابها مما يحصل من تركيب بعضها ببعض لايمكن الركون اليها فانها منقولة عن اناس كانوا يأخذون ما يقولونه عن احبار اليهود وعلمائهم فهي قصص اسرائيلية يجب تنزيه القرآن عنها .

اضف الى ذلك ان لفظي «بعثنا وعباداً لنا» يعرب عن مكانة المنتقمين عند الله وانهم مبعوثون من جانبه سبحانه وهم عباد ممدوحون له ، وهل يمكن عد نظراء بخت نصر ، ذلك الكافر السفاك الاثيم الذي اقترف من الجرائم مالا يعد ولا يحصى او سابور ذي الاكتاف ذلك الرجل القاسي المجرم الذي فعل مع العرب ما فعل ، او انطياخوس واضرابه ،من العباد الممدوحين وانهم كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه

ويليه في الضعف ما يقال ان المراد من الفساد الاول قتلهم أشعيا النبي والانتقام الاول تسلط جالوت على بني اسرائيل، ومن الفساد الثاني هو غلبة بني اسرائيل على جالوت.

أو ما يقال من ان المراد من أحد الانتقامين ما جرى بيد ادلف هتلر من الامور

---

(١) الضمائر كلها ترجع الى «عباد اولى باس شديد» المحاربين مع اليهود .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٣٨ ، ومجلة الهادى العدد الثانى .

القاسية ، كما اختاره سيد قطب في ظلال القرآن .

اذ كيف يمكن ان يقال ان جالوت وعملاق المانيا أو غيرهم من الجبابرة كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه فقد حارب جالوت داود ومن معه من صالحي بني اسرائيل وكما حارب طالوت الذي بعثه الله ملكا وأما عملاق المانيا فحدث عن جرائمه ولا حرج .

وما يقال انه لماكان تسلط بخت نصر وقهره لهم جزاء لهم على أعمالهم السيئة فأسنده سبحانه لنفسه وقال بعثنا عليكم عباداً لنا (١) توجيه لا تركن اليه النفس . ونضيف الى ما ذكر ان كل هذه الوجوه لايلائم ظاهر الاية لاستلزامها التفكيك بين مراجع الضمائر اذ الظاهر ان الضمائر الغائبة في «ثم رددنا لكم الكرة عليهم» وفي «ليسوءوا» و « ليدخلوا » و « دخلوا » « وليتبروا » يرجع الى من وصفهم الله بقوله ثم « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » ولازم ذلك اتحاد الفئة التي تحارب اليهود في المرة الاولى مع الفئة المتغلبة عليهم في المرة الثانية وان هناك حربين تقعان بين اليهود وجماعة خاصة ، لا ان كل واحد من الحربين تقع مع جماعة غير الجماعة الاخرى.

وهذا الامر غير موجود في الوجوه التي ذكروها اذ لم يقع أي اشتباك مجدد بين اليهود وبخت نصر ، أو بينهم وبين سابور ، ولم تصدر كرة منهم عليهم مجدداً أضف الى ذلك ان ظاهر قوله سبحانه وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ان المحاربين لليهود يدخلون المسجد مرتين ويتسلطون على المسجد الاقصى كما يستفاد من تعريفه باللام ، مرة بعد مرة مع ان بخت نصر وسابور لم يتسلطا على المسجد أزيد من مرة ، وما دخلوه أكثر منها .

وعلى الجملة : ان هذه الوجوه لا تلائم ظاهر الاية ويحتمل ان تكون الايات مشيرة الى الاحداث الجارية في الاراضي المحتلة ويعلم الله سبحانه أن أي واحد من الوعدين تحقق وان الوضع الحاضر يمثل أياً منهما ولا شك انهم مزودون بالاموال والبنين مضافاً الى دعم الدول العالمية الكبرى لهم ، وبعد ذلك كله فما ذكرناه أحد

(١) الميزان ج ١ ص ٤٠ .

الانظار المذكورة حول الاية ولسنا حاكمين بواحد من هذه الوجوه ، والله سبحانه هو العالم .

وعلى أي حال فالتوفيق سهل بين ضرب الذلة والهوان عليهم ، وبين ما ترى فيهم من القوة والمنعة ، والاول من هذه الوجوه هو الاولى .

ختامه مسك :

فلنختم البحث بتنبؤات وردت في آية واحدة وهي قوله سبحانه « قالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا . . » .

١ ـ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة .

٢ ـ كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله .

٣ ـ ويسعون في الارض فساداً والله لايحب المفسدين (المائدة ـ ٦٤)ودونك بيانها على وجه الاجمال .

١ـالظاهران الضمير في«بينهم»راجع الى اليهودالمذكورين في صدر الايةومافي المنار(١) من رجوعه الى اليهود والنصارى المذكورين فى الاية الحادية والخمسين بعيد جداً بل كان الاولى له عندئذ ان يقول انه راجع الى اهل الكتاب الوارد ذكرهم فى الاية التاسعة والخمسين، أي قوله : «قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله ...» فالاية حاكية عن تضارب اليهود بعضهم ببعض واختلافهم فى المذهب الى يوم القيامة ، ويفسره قوله سبحانه : «ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» (الجاثية ـ ١٦/١٧) .

(١) ج ٦ ص ٤٥٧٦ .

والفرق بين العداوة والبغضاء ان الاولى عبارة عن البغض الذي يظهر اثره فى الخارج واما البغضاء فهو مطلق المنافرة وان لم يستعقب شيئاً من العمل .

هذا اذا قلنا برجوع الضمير الى اليهود فقط . وأمااذا قلنا بمقالة المنار من رجوعه الى اليهود والنصارى فالعداوة بينهم غير منقطعه واوضحه صاحب المنار بقوله «العداوة على أشدها في بلاد روسية على أقلها في انكلتره وفرنسه والمانية واليهود أغنى أهلها والمديرون لأرحية أعظم الاعمال المالية فيها وهم على مكانتهم هذه مبغوضون في جماهير النصارى فكم الفت كتب في فرنسة وغيرها في التحريض عليهم قال : قد اخبرني الماني من المستشرقين انهم لا يعدون اليهودي من بلاده منهم بل يقولون هذا يهودي وهذا الماني» (١) .

نعم تنبأ القرآن في آية أخرى باغراء الله سبحانه العداوة والبغضاء بين النصارى الى يوم القيامة قال سبحانه « ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يعملون» (المائدة ـ ١٤) والعداوة بين فرق النصارى أشد وأوضح لمن زاولهم وطالع كتبهم .

وفي الوقت نفسه فان الايتان تنبأن عن بقاء دينهم الى يوم القيامة وهو تنبؤ آخر تضمنته الايتان فلاحظ .

٢ـ قوله سبحانه «كلما أوقدوا ناراً للحرب ..» فالحرب ضد السلم وهو أعم من القتال يصدق بالاخلال بالامن والنهب والسلب وتهييج الفتن والاغراء بالقتال ، وقد اغرى اليهود ، المشركين بالنبي والمؤمنين وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله ، حتى قدموا على قريش مكة وقالوا « انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش يا معشر يهود ، انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا ، نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه (٢)

---

(١) المنار ج ٦ ص ٤٥٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٤ و ص ٥٤ و ٥٥ .

بل منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين يؤي أعداءهم ويساعدهم ككعب الاشرف .

ويمكن ان تكون الاية ناظرة الى الاعمال الاجرامية التي كانوا يرتكبونها قبل الميلاد وبعده ثم ضد المسلمين .

والمراد من الاطفاء خذلانهم فى كل ما يكيدون لرسوله وللمؤمنين، اما بخيبتهم فى ما يسعون اليه من الاغراء والتحريض ، وأما بنصر الله رسوله والمؤمنين وعلى أي تقدير ، المراد خيبة مساعيهم في الحروب التي يوجهونها على دين الله ورسوله والمؤمنين ، بما هم متدينون ومؤمنون بالله وآياته وأما الحروب والنيران التي يوقدونها لا لمحق الدين بل لاغراض سياسية ، أو تغلب جنسي ، فهي خارجة عن مساق الاية .

٣ ـ قوله سبحانه: « ويسعون فى الارض فساداً » فليس الهدف من تقلبهم فى البلاد ؛ السعي وراء صالح الاعمال والاخلاق ، أو اصلاح شؤون الاجتماع ، بل لا يستهدفون الا منع خروج المسلمين من الامية الى العلم ، ومن الوثنية الى التوحيد، وهم يحسدونهم فى ذلك حباً فى دوام امتيازهم عليهم .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً غير انا نحسها فى يومنا هذا بوضوح فان من مخططاتهم تقويض الاخلاق عند الغير ، لاضعافه والسيطرة عليه ، وهل الاباحية والخلاعة الا أحد مخططاتهم التى تتجلى فى الافلام السينمائية والمرابع والحانات وحتى في الساحات العامة .

وفسره سبحانه فى آية أخرى وقال «ترى كثيراً منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون» (المائدة ـ ٦٢) .

ملاحظة :

هذه هي الاخبار الغيبية الواردة فى القرآن ولم نتعرضها على وجه التفصيل والاستقصاء وانما جئنا بها على وجه الاجمال وفى ما ذكرنا غنى وكفاية .

قل لي بربك هل انخرم واحد من تلكم الاخبار او تخلف ، أو كلها غيب تحققت في المستقبل كما ان ما سألوا عنه حول اصحاب الكهف وذي القرنين والروح غيب اما تحقق في الماضي أو جارفيه وفي الحال كماهو الحال في السؤال عن الروح وقد اجابهم عن ما سألوه ولم يكن عنده شيىء يستند اليه سوى الوحي ولم يكذبوه في ما حدثهم .

وكل واحدة من هذه الانباء معجزة كبرى ولو عددت كل ما ورد في الكتاب من الانباء الغيبية على اقسامها، تبين لك عدد تلكم المعجزات وبزيدك اعجاباً بها اذا وقفت على ان المتحدث بها أمي ربيب البادية لم يحضر على احد في شيئي من تلكم الاخبار والمغيبات .

وبزيدك اعجاباً اكثر ان انجيل «متى» تنبأ بامر واحد حول المسيح وهو انه يبقى مدفونا في قلب الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال ، ولكن مابرح «انجيل» «متى» ان كذب في اواخره هذا الاخبار فوافق الاناجيل الثلاثة الاخر على ان المسيح في مساء ليلة السبت طلب بعض الناس جثته من بيلاطس فأنزلها عن الصليب وكفنها ودفنها وقبل الفجر من يوم الاحد قام المسيح من الموت ، وخرج من قبره وعلى ذلك لا يكون المسيح بقي في القبر الا ليلة السبت ونهاره وليلة الاحد وذلك نهار وليلتان(١).

«ان في ذلك لايات لاولي النهى» .

(١) مقدمة آلاء الرحمن للعلامة البلاغي .

اختصاص علم الغيب بالله سبحانه :

قد ورد لفظ الغيب فى الذكر الحكيم، مع بعض مشتقاته ما يقارب الستين مرة وقد عرفت بما اسلفناه ما هو المراد من الغيب ، غير انا نريد فى المقام ان نتحدث عن ناحية اخرى لها تعلق به ، وهي انه هل الغيب مختص بالله سبحانه ، لايعدو غيره او غير مختص به ويتصف به سواه ؟ ؟ ! .

والقول الفصل فى المقام هو ان العلم بالغيب على ضربين :

احدهما : ما هو مختص بالله سبحانه لايشاركه فيه غيره ، ولا يتجاوز الى سواه وان ما جاء فى الذكر الحكيم من الاشارة الى علم الغيب ، لا يراد منه الا هذا فقوله سبحانه : «قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله» (النمل ـ ٦٥) لايراد منه الا هذا المعنى المختص به تعالى كسائر اوصافه ونعوته .

ثانيهما : ما يتصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يظهره على غيبه وهذا لايصح اطلاقه على الله سبحانه، وهذا الانقسام كما يجري فى علم الغيب كذلك يجري في سائر نعوته وصفاته من قدرته وحياته و.. فما يجري منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه،ولا يصح اطلاقه عليه ، وما يجري على من سواه لا يصح اطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق الا على غيره من المخلوقين ، فلنذكر مايدل على اختصاص العلم بالغيب بالمعنى الاول والذي يمكننا استفادته منه وجوه :

١ ـ قصره على الله سبحانه فى بعض الايات :

فمن الايات الدالة على الحصر به قوله سبحانه « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو » ، وقوله تعالى : « قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله » .
وأما قوله سبحانه : « فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين » .
(يونس ـ ٢٠)

وقوله تعالى: «ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر وهو أقرب» (النحل - ٧٧) وقوله سبحانه: «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله» (هود - ١٢٣). فلا تدل على مانحن بصدده

اذ المقصود من قوله: «انما الغيب لله»، هي الايات الباهرات والمعجزات التي يستدل بها على نبوة المدعي وصلته به سبحانه، وذلك ظاهر لمن امعن النظر في سياق الايات. وأما قوله سبحانه: «ولله غيب السماوات والارض» فالمراد منه: ان الحكومة المطلقة في السماوات والارض غيبهماوشهادتهما، باطنهما وظاهرهما، لله سبحانه، وانه تعالى يملك غيب السماوات والارض ملكا لا حدود له، وله ان يتصرف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتهما وكيف لا وغيب الشيء لايفارق شهادته وهو موجود ثابت معه، وله الخلق والامر؟!!

«ويؤيده ذيل الاية، وهو قوله: «وما أمر الساعة الا كلمح البصر أوأقرب» والمعنى ان الساعة الموجودة، ليست بأمر محال حتى لا تتعلق بها قدرة، بل هي من غيب السماوات والارض، وحقيقتهما المستورة عن الافهام، في هذا الزمان، فهي مما استقر عليه ملكه تعالى، وله ان يتصرف فيه بالاخفاء تارةو بالاظهارأخرى، وليست بصعبة عليه تعالى فانما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لان الله على كل شيء قدير.

ومن ذلك يظهر المقصود من قوله سبحانه: «ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله» فان الايتين متقاربتان في المعنى والمقصدومفادصدرالاية: يعني كونه سبحانه مالكا لغيب السماوات، علة لذيلها اعني: قوله سبحانه «واليه يرجع الامر كله» ورجوع الكل اليه، من غيب السماوات والارض، ومن يملك غيبهما قادر على ارجاع الامور اليه.

ونظيره قوله سبحانه: «قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض» والمعنى اذا كان سبحانه مالكا لغيب السماوات والارض بحقيقة معنى الملك، وله كمال البصر والسمع، فهو اعلم بما لبثوا!!

٢ ـ ما يستفاد منه الحصر بمعونة القرائن :

وهناك آيات يستفاد منها الحصر بمعونة القرائن وهي كثيرة مثل قوله فى بدء الخليقة عند تفنيد مزعم الملائكه «الم اقل لكم أني أعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما تكتمون» (البقره ـ ٣٣) فالاية بصدد تنزيهه سبحانه عن الجهل وترفيعه على من سواه ، بصفة تختص به سبحانه ولا يشاركه فيه غيره. وقوله سبحانه «ان الله عالم غيب السماوات والارض وانه عليم بذات الصدور» (الفاطر ـ ٣٨) وقوله سبحانه : «يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب» والصيغة في المقام للتكثير لا للمبالغة نظير قوله سبحانه : « ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (آل عمران ـ ١٨٢) والمراد من اللفظين فى كلا الموردين هو الانتساب الى المبدء عن الغيب والظلم فيؤل المعنى الى انه المنسوب الى علم الغيب فقط دون غيره ، أو انه لاصلة بينه وبين الظلم .

كقول امرء القيس :

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذى سيف وليس بنبال

أي وليس بصاحب نبل ، ولا صلة ونسبة بينه وبين النبل أبداً .

وقد وردتوصيفه سبحانه بهذا اللفظ في الذكر الحكيم أربع مرأت ووزان هذا القسم من الآيات ، وزان قوله سبحانه «عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير» (الانعام ـ ٧٣) وقوله : « ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة » التوبة ـ ٩٤) وقوله : «وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة ـ ١٠٥) الى غير ذلك مما يبلغ توصيفه في الذكر بهذا النحو تسع مرأت ، فان الظاهر من هذا التوصيف بهذه الكثرة هو اختصاصه سبحانه بالعلم بالغيب والشهادة، على نحو لا يشاركه غيره .

٣ـ سلب العلم بالغيب عن غيره

هذا القسم من الآيات يدل بالملازمة العرفية على اختصاصه بـه سبحانه ، مثل قوله سبحانه « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون (الاعراف ـ ١٨٨) « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب» (هود ـ ٣١)

ومن هذه الوجوه الثلاثة يستفاد اختصاص العلم بالغيب به سبحانه وانـه لا يشاركه فيه غيره ، غير ان اختصاصه به سبحانه على الوجه اللائق بساحته لا ينافي امكان اطلاع الغير على الغيب باذن منه سبحانه .

توضيحـه : ان ما يجرى على الله سبحانه من صفات ونعوت تختلف عما يجري على غيره سبحانه لا بمعنى ان للعلم معنيين مختلفين بأحدهما يجري على الواجب وبالمعنى الاخـر يجري على الممكن فان ذلك باطـل بالضرورة اذ ليس للعلم ولا لسائر أوصافه فى اللغة والعرف الا معنى واحد وهو في العلـم انكشاف المعلوم لدى العالم بطريق من الطرق ، وكذا الحياة والقدرة والسمع والبصر ، بل المراد اختلاف المحمول عند انجري على الواجب والممكن من جانب آخر . وهو الاختلاف فى كيفية الجرى والاتصاف فان العلم : منه واجب ، ومـنه ممكن ، منه ذاتي ومنه اكتسابي ، منه مطلق ومرسل عن القيود ومنه مقيد محدود ، منه ما هـو عين الذات بلاتعدد بين الوصف والموصوف،ومنه زائد على الذات وعارض عليه ، وهكذا واللائق من هذه الاقسام بساحته هو القسم الاول .

كما ان الصحيح عند الحمل على الممكن هو الثاني لما تحقق وثبت بالبراهين العلميـة ان علمه سبحانه مطلقاً بذاته أو غيره ، ذاتي له لاعرضي ، مطلق لامقيد ، مرسل لامحدود .

وعلى ذلك ـ فعلمه سبحانـه بكل شيىء ، عين ذاته ، لاعارض عليه ، فالذات

هو نفس العلم والعلم هو عين الذات بلاتعدد ولا اثنينية بين الذات وعلمه ونظير المقام اطلاق علمه ، فعلمه سبحانه مطلق عن القيود ، مرسل عن الحدود ، فلا يحدده كيف ولا يقيده اين ، مجرد عن الامكان واحكامه ، منزه عن التجزئة والمقدار وآثاره ، الى غير ذلك من احكام الممكنات ولوازمها .

فهذه الايات الدالة على اختصاص العلم بالغيب له سبحانه لاتهدف الا الى ما يناسب ساحته وهو العلم الواجب الذاتي المرسل المطلق عن الحدود ، الذي لايشاركه غيره، لا مايمكن ان ينعت به الممكن ويتصف به غير الواجب واتصاف الغير بالعلم الامكاني الكسبي منه سبحانه ، المحدود بالزمان والمكان وغيرها من الحدود ، الزائد على ذات الموصوف، والعارض عليه ،لايعد نقضاً للحصر، بل لايستلزم استثناء عن الحكم استثناء حقيقياً متصلا ولا يستلزم مشاركة الواجب والممكن في هـذا الوصف ، كاتصاف سائر الموجودات بالحياة والقدرة ، والسمع والبصر وغيرهما من الصفات الثبوتية .

فالغيب المختص به سبحانه انما هو هذا النوع من العلم الذي لا يشاركه فيه شيء ، بل يمتنع ان يشاركه فيه أحد لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب .

وعليه يحمل كلما دل على أن علم الغيب مختص به سبحانه ، فالعلم بالغيب الذي هو عين ذاته سبحانه الذي لا يحده شيء ، ولا يقيده قيد ، مخصوص به تعالى ، لا يشاركه فى هذا العلم أحد من خلقه، بل العلم بالشهادة على هذا الوجه أيضاً مختص به ، كما قال سبحانه : «عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير» (الانعام ـ ٧٣) الى غير ذلك مما يلمح الى انحصار كلا العلمين فيه سبحانه :

وهذه قرينة واضحة على أن المقصود من الآيات الدالة على اختصاص علم الغيب به سبحانه، هو ما يليق بساحة الواجب الذي لا يشاركه فيه أحد،والا فالعلم بالشهادة على غير الوجه الذاتي ، وغير المطلق المرسل عـن القيود ، بأن يكون محدوداً ومقيداً وعرضياً ، فغير مختص به،بل يوجد عند كل من أعطى له الادراك والشعور، وقدرة الاتصال بالخارج،فما دل على انحصار كلا العلمين (العلم بالغيب والشهادة)

فيه سبحانه انما يراد منه ما يليق بساحته عز وجل .

* * *

ما هو مفاد الايات النافية لعلم الغيب عن النبي

اذا عرفت ذلك ، تقف على مغزى الآيات التي تهدف الى نفي التعرف على الغيب عن النبي الاكرم ، ودونك هذه الآيات ، مع توضيحها وتفسيرها :

١ ـ «قل ماكنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي وما انا الا نذير مبين» (الاحقاف ـ ٩) .

أمره سبحانه بان يقول : ما كنت مبدعاً في أقوالي وأفعالي ، ولست أخالف الرسل في صورة أو سيرة ، في قول أو فعل ، بل انا بشر مثلهم ، لا يفترق سبيلي في الحياة عن سبيلهم ، فهم كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ، كما آكل وأمشي .

وفي هذه الجملة ، رد لاعتراضهم ، بقولهم ـ كما حكاه الله سبحانه ـ : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، لولا أنزل اليه ملك ، فيكون معه نذيراً ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها» (الفرقان ـ ٨) .

وأما قوله سبحانه : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم»، فهو نفي للعلم بما يفعل به وبهم ، من الحوادث التي يواجهونها ، أو النوازل التي ، تحيق بهم ، وفيه رد لمزعمة أخرى ، للمشركين ، وهي أنهم كانوا يزعمون ، أن المتلبس بالنبوة ، يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذاقدرة مطلقة غيبية، كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن ، فأمر (ص) بردهم بانه لا يعلم من نفسه ما يرد عليه وعليهم ، من النوازل والملمات، وانما يتبع في ذلك ما يوحى اليه . فقوله سبحانه :«ان أتبع الاما يوحى الي» أقوى دليل على ان المنفي من الغيب (ص) في الجملة المتقدمة هو العلم الذاتي غير المستند الى الوحي ، وأما الكسبي منه ، المستند اليه فخارج عن مرمى الاية .

٢ ـ «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، الا ما شاءالله ، ولو كنت أعلم الغيب،

لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، ان أنا الا نذير وبشير ، لقوم يؤمنون» (الاعراف ص ١٨٨) . الظاهر من قولـه : « ولو كنت أعـلم الغيب لاستكثرت من الخير » بقرينة صدره « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله » .

هو التعرف على الغيب من جانب نفسه ، واذا استشهد عليه بأنه لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً وانه لو كان محيطاً بالغيب من ناحية نفسه لما مسه السوء ، واستكثرمن الخير . وان شئت قلت لما كان المنفي فى صدر الاية الانفة الذكر : «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا الا ما شاء الله» هو القدرة المطلقة على جر النفع ودفع الضر ، من دون الاعتماد على قدرته سبحانه ، لا الذي كان معتمداً عليها ، بقرينة انه استثنى عنهما ما كان مستنداً الى مشيئته ، صار المقصود من الجملة التالية أعني «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » هو نفي العلم المحيط بكل خير وسوء، الذي لا يعزب عنه شيىء ولا يحتاج في ادراكه الى شيىء ، لا ما كان باعلام واطلاع منه سبحانه بالنسبة الى نبيه ، ونفي هـذا القسم المخصـوص به سبحانه ، عن النبي ، لا يضر باطلاعه على الغيب من ناحيته سبحانه .

ونظيره قوله فى سورة اخرى حيث يقول «ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول اني ملك » (هود ـ ٣١) وقوله سبحانه « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الى» (الانعام ـ ٥٠) فهاتان الايتان مع ماتقدمهما لا ينافى جواز اطلاعه (ص) على الغيب من جانب الوحي، كيف وقد صرح القرآن ، باطلاعه على الغيب من طريق الوحي كثيراً . . . كقوله سبحانه : « ذلك من أنباء الغيب ، نوحيها اليك » (آل عمران ـ ٤٤) ، وقوله تعالى «تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك» (هود ٢٩) وفي نفس الاية الاخيرة شاهد صدق على ما ذكرنا ، فان النبي بعد ما نفي عن نفسه العلم بالغيب وقال « ولا أعلم الغيب » استعقبه بقوله « ان اتبع الا ما يوحى الي » والوحي أحد الانباء الغيبية على ما عرفت ، فهو في الوقت الذي سلب عن نفسه علم الغيب اثبت

لنفسه ، علماً به ، والتوفيق بينهما بالنحو الذي أوضحناه .

٣ ـ قوله سبحانه « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين» (يونس ـ ٢٠) المراد من الغيب في هذه الاية هي الايات المعجزات بقرينه قوله « لولا أنزل عليه آية من ربه » أي معجزه من ربه لتكون دليلا على نبوته وصلته به سبحانه : وفي سؤالهم هذا استهزاء وتحقير لامر القرآن واستخاف به لعدم عدهم القرآن معجزة الهية فأمره سبحانه ان يرد عليهم بقوله «انما الغيب لله » أي انهم يقترحون عليك آية أخرى ولا يكتفون بالقرآن فقل لهم انما المعجزات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا اني معكم من المنتظرين ولا يمكنني الاتيان الا بما أمرت به .

واطلاق الغيب على المعجزة لاجل وقوعها ما وراء المحسوس فان اسبابها وعللها ومبادىء تكونها وتحققها بعيدة عن محيط الاحساس .

فالاية ترمي الى نفي القدرة المطلقة غير المحدودة عن النبي ، بان يتصرف فى الكون على اي نحو شاء وعلى اى نحو اقترح عليه ، فان القدرة على الغيب على هذا النحو من خصائصه سبحانه وهذا لاينافي تمكنه (ص) من الغيب سواء أفسرت الاية بالمعجزة ام باطلاعه على الامر الغيبي ، بتمكين واقدار منه سبحانه .

وعلى الجملة : «فهذه الايات النافية للعلم بالغيب عنه وعن سائر الانبياء (ع) انما تنفيه عن طبيعتهم البشرية ، بمعنى أن تكون لهم طبيعة هي اعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب ، بحيث تستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر ، وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم ، بتعليم الهي من طريق الوحي »(١) .

(١) الميزان ج ١٨ ص ٢٠٦ .

هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب :

ان في وسع المولى سبحانه ان يظهر على غيبه من شاء من عباده (١) ويطلعه على ما حدث وغبر ، أو يحدث ويتحقق من ملاحم واحداث وفتن أوغيرها في حين أو احايين ويوقفه على ما لم يره ولم يشهده وليس في ذلك أي تصادم مع اختصاصه بالله فهو يعلم الغيب بالاصالة ، وغيره بتعلم منه ومن طريق التبعية .

وقد صرح بذلك في آيات ، الاولى قوله سبحانه « عالم الغيب فلا يظهر على غيبهأحداً الامن ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيىءعدداً» (الجن ٢٦-٢٨) فمعناه ان الغيب كله مختص به ، لا يظهر على غيبه أحداً الامن ارتضى من رسول ، فيظهر رسوله على ما شاء من الغيب فهذه الايةاذا انضمت الىقوله سبحانه «قل لايعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله » (النمل ـ ٦٥) يتضح ان الهـدف من الاية ،اختصاصه بهعلى وجه الاصالة والذاتية ، واطلاع الغير بتعليم منه سبحانه ليس ابطأ لا له بل استثناء منه يشبه الاستثناء المنقطع فان علمه بالاشياء بالاصالة وعلمغيره بالتبعية والعلم التبعي الاستنادي ، لم يكن داخلا فيه ، حتى يحتاج الى اخراجه الا بضرب من التأويل،لتشابه بين العلمين من بعض الجهات وان افترقا من جهات شتى فصح ان يقال : ان العلم بالغيب مختص به سبحانه وفي الوقت نفسه يظهر على غيبه

(١) قال الشيخ الرئيس فى اشاراته ما هذالفظه : «التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الانسانية أن تنال من الغيب نيلا ما ، فى حالة المنام ، فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة الا ما كان الى زواله سبيل ، ولارتفاعه امكان ، أما التجربة فالتسامع والتعارف يشهدان به ، وليس أحد من الناس الا وقـد جرب ذلك فى نفسه ، تجارب الهمته التصديق ، اللهم الا أن يكون أحدهم فاسد المزاج ، نائم قوى التخيل والذكر، وأما القياس فاستبصر فيه من تنبيهات» فذكر بعض التنبيهات لاثبات ما ارتأه،راجع الاشارات والتنبيهات النمط العاشر ج ٣ ص ٣٩٩ .

بعض عباده من دون ان يمس كرامة اختصاصه به .

نظير المقـام قوله سبحانه : « الله يتوفى الانفس حين موتها» (الـزمر ـ ٢٦) فهوظاهرفي ان التوفي منحصر في الله سبحانه مع انه سبحانه أسنده الى ملك الموت في مورد والى رسله في مورد آخر وقال « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم (السجدة ـ ١١) فالتوفي وأخذ الارواح والنفوس ، من فعل الله سبحانه على وجه الاصالة ومن فعل غيره على وجه التسبيب والتبعية ، ومع ذلك لا ينافي اختصاصه به سبحانه على الاطلاق لاختلاف الفعلين من جهة وتشابههما من جهة أخرى .

نعم ما يظهره على رسوله من الغيب لما كان في مظنة التغيير لم يكتف بنفس الاظهار والاعلام بل عين له رصداً وحفظة يحفظون ما يلقى اليه والى ذلك اشار سبحانه بقوله « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» .

ولما كان علم الرسول بالغيب محاطاً بعلمه سبحانه قال : « وأحاط بما لديهم » أي ما لدى الانبياء والخلائق وهم لا يحيطون الا بما يطلعهم الله عليه وقـد « احصى كل شيىء عدد » .

ثم انه وان خصص العام في هذه الاية بالرسول حيث قال « الامن ارتضى من رسول » الا انه لايأبى عن ورود مخصص آخر عليه فانه سبحانه كما أظهر غيبه على رسله ، أظهره على انبيائه الاخرين حيث قال سبحانه : «انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده» (النساء ١٤٣) والوحي أحد مصاديق الغيب على ماعرفناك.

هذا اذا قلنا باختلاف الرسول والنبـي في المصداق وان بين اللفظين حسب المصداق عموم مطلق أو عموم من وجه أما اذاقلنا باختلافهما في المفهوم وتساويهما في الصدق كما هو غير بعيد فلا يلزم تخصيص آخر .

ومن هنا يظهر الحال في علم خلفاء الرسول بالغيب فانهـم عليهم السلام لما جعلوا مصدر علمهم بالغيب التعلم من ذي علم وهو الرسول والوراثة منه لا يلزم عندئذ تخصيص آخر على الاية غير ان كون مصدر علمهم منحصراً فيها لايخلو من غموض لما سيوافيك من كونهم (ع) محدثين (بالفتح) فانتظر .

الثانية : قوله سبحانه «ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسوله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» (آل عمران ـ ١٧٩) فهو بظاهره يفيد ان الله سبحانه لا يظهر على غيبه أحداً من الناس ليعلم ما في قلوب الاخرين ، ويميز المؤمن من المنافق ، ولكن يختار من يشاء من رسله فيوقفه على الغيب ويطلعه عليه .

الثالثة : قوله سبحانه : « ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين » (التكوير ، ٢٢ ـ ٢٤) ، المراد من « الغيب » هو الوحي النازل عليه والمعنى انه لا يبخل بشيء مما يوحى اليه ، فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيره ، بل يبلغ الناس على النحو الذي أمر بابلاغه فتدل الاية على اطلاعه على الغيب .

الرابعة : قوله سبحانه «ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك» وقد تكررت الاية في الذكر الحكيم فراجع آل عمران ـ ٤٤ ، يوسف ـ ١٠٢ وقال «تلك من انباء الغيب نوحيها اليك» (هود ـ ٤٩) وعلى أي تقدير فتدل هذه الايات الاربعة على انه سبحانه يظهر غيبه على رسوله ويطلعه عليه ، وعلى الانباء الغيبية مما لم يكن يعلمه هو ولا قومه .

ولا يتوهم ان المراد من الغيب في الايتين الاولين هو القرآن النازل عليه ، اذ لا دليل عليه بل لا يناسب ذيل الاية الثانية أعني تميز الطيب عن الخبيث فان الظاهر ان النبي بفضل اطلاعه على الغيب يميز كلا ممن يتصف بأحد هذين الوصفين عن الاخر نعم لا بأس بالذهاب الى ذلك في الاخيرتين فان المراد من الانباء الغيبية بقرينة سياقهما ما اوقفه الله عليها من طريق القرآن .

وقد استدل في بعض الروايات على اطلاع النبي والائمة على الغيب بقوله سبحانه « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا منذرين » (الدخان ٣ ـ ٥) وبقوله سبحانه : « انا أنزلناه في ليلة القدر » الايات (القدر ١ ـ ٥) .

ونقلها الكليني في اصوله (١) عن الحسن بن العباس بن الحريش وقد عرفت حال الرجل وانه لايلتفت اليه ولايكتب حديثه وانه . . . (٢) .

نعم استدل بعض الاكابر (٣) على عموم علم النبي والائمة من اهل بيته لكل غابر وحادث بل على فعلية علومهم بكل شيء بقوله سبحانه «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا» (الاحزاب ـ ٣٣) وبقوله سبحانه : «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين» (آل عمران ٣٣) حيث قال : «ان عموم اذهاب الرجس والتطهير والاصطفاء ، الظاهري والباطني والتنزيه عن شوائب الكدر ، وظلمات الجهل والسهو دال على كل من المطلوبين من عموم علمهم وفعليته» لكن في دلالة الايتين على مطلوبه خفاءاً .

اما الاولى : فان دلالتها على اعتصام اهل البيت بالعصمة الالهية في غاية الظهور على ما هو مقرر في محله ، واما دلالتها على سعة علمهم وفعليته ففيه خفاء تام ، فان الرجس هو الشيء القذر يقال : رجل رجس ، ورجال أرجاس ، والقذارة امر وجودي توجب تنفر النفس من الشيء المتلبس بها وهي اما بحسب ظاهر الشيء كما في الخنزير كقوله سبحانه «الا ان يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس» (الانعام ـ ١٤٥) . أو بحسب باطنه وهي القذارة المعنوية كالشرك والكفر ومساوىء الاخلاق والخمر والميسر بما لهما من الاثار الموبقة ، قال سبحانه : «فاما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون» (التوبة ١٢٥) وقال عز وجل «ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون» (الانعام ـ ١٢٥) وقال تعالى انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون

(١) اصول الكافي ج ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩ .

(٢) راجع ما أسلفناه ص ٢٥٤ من كتابنا هذا ، وجامع الرواة ج ١ ص ٢٠٥ وقاموس الرجال ج ٣ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٣) السيد عبد الحسين النجفي الشيرازي .

(المائدة ـ ٩٠). والمتفحص فى موارد استعماله يذعن بأنه أمر وجودي فى الشيء اما بحسب ظاهره مما يدركه الناس او باطنه مما يجب ان ينبه عليه من جانب العقل أو الشرع ، والغاية من اذهاب الرجس عنهم هو ازالة كل صفة خبيثة فى النفس ، تدعوا الى الاعتقاد الباطل أوالعمل السيىء فى مقابل العصمة الالهية ، التي هي هيئة علمية نفسانية ، تصون الانسان عن الزلل فى الرأي والقول والعمل .

اما الجهل بالشيء مطلقاً خصوصاً الجهل بالفتن وملامح احداث وكل ما يجري فى الكون من نوازل أو ملمات أو ما يحكم فيه من نواميس وقوانين فليس أمراً وجودياً أو هيئة فى النفس ، يورث التنفر والتجنب ، حتى يدل اذهاب الرجس على اذهابه فلو جهل الانسان بنواميس الكون والقوانين السائدة فى الافلاك لايعد جهله هذا رجساً ، أترى من نفسك ان جهل الفقيه بالمعادلات الجبرية والقوانين الطبية رجس ، او جهل الاديب بفنون الصنايع رجس ؟

واما عد الالحاد والشرك من الرجس ، فليس لاجل كون الملحد والمشرك جاهلا بالله سبحانه وصفاته بل لاجل تعلق قلبه بأمر باطل لايعدو كونه امراً وجودياً وان كان يجتمع مع الجهل ايضاً (١) .

واما الاية الثانية فلان المراد من الاصطفاء هو أخذ صفوة الشيء وتخليصه مما يكدر ، فالمناسب له ، هو اصطفاؤهم من الزلل فى الرأي والقول والعمل ، الذي هو عبارة عن العصمة الالهية وهي الجهة الجامعة الوحيدة بين المصطفين، اعني آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران ، فان المراد من آل ابراهيم هم الطيبون من ذريته كاسحاق واسماعيل والطاهرون من ذريتهما كما ان المراد من آل عمران هي مريم وابنها المسيح أو هما وزوجة عمران بقرينة ذكر قصة امرأة عمران ومريم ابنته بعد الايتين . وعلى أي تقدير فالمراد اصطفاؤهم من كدر الشرك وقذارة الذنوب وتطهيرهم من مساوىء الاعمال وقبايحها ويؤيد ذلك قوله سبحانه «اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران ـ ٢٤٢) .

(١) راجع المفردات للراغب ص ١٨٨ والميزان ج ١٦ ص ٣٣٠ .

نعم ان الله سبحانه وان اصطفى آدم بتعليمه الاسماء حين قال سبحانه «وعلم آدم الاسماء كلها (البقرة ـ ٣١) لكنه اصطفاه بأمور اخر أيضاً فهـو أول خليقة وطأ الارض من النوع الانساني قال تعالى « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة» (البقره ـ ٣٠) ، وأول من اجتباه بقبول توبته قال سبحانه : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» (طه ـ ١٢٢) الى غير ذلك من خصائص ومناقب كما انه اصطفى نوحاً بجعله اول الخمسة اولى العزم أصحاب الكتـاب والشريعة لقوله سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً» (الشورى ـ ١٣) الى غير ذلك واصطفى ابراهيم وآله بامور وخصال يجدها المتفحص في سيرتهم المذكورة في القرآن .

لكن الجهة الجامعة المشتركة بين الجميع في الاية ، التي يمكن ان يكون الاصطفاء لاجلها ليست الا العصمة الالهية ، أعني التطهير من الذنوب وكدر الشرك أو هي مع النبوة في غير مريم ، لا ما يختص بكل واحد منهم من صفات وخصـال كتعليم الاسماء لادم مثلا حتى تكون الاية ناظرة الى اصطفاء المذكورين في الاية بتعليمهم كل شيء واطلاعهم على كل أمر . ويدل بالنتيجة على اطلاع النبي وآله على الغيب .

أسئله وأجوبة حول علمهم بالغيب

السؤال الاول ـ ان علمه سبحانه بالاشياء وان كان مطلقاً ومرسلا غير محدود وذاتياً له غير مفاض ، على ما دلت عليه البراهين الكلامية والفلسفية الا ان ذلك لا يصحح حمل الايات على هذه المعاني البعيدة عن مستوى الافهام، وكون علمه سبحانه عين ذاته وعلم غيره زائداً عليها أمر معلوم من الخارج ولا يكون مثل هذا العلم كقرينه على تفسير ما دل على اختصاص العلم بالغيب له سبحانه ، فكيف تحمل هذه الايات على العلم الذاتي ، المحيط بكل شيىء ، المرسل عن كل شيىء ؟ !

الجواب : ان من لاحظ سياق الايات ، والقرائن الحافة بها ، وسبر التاريخ والحديث ، يقف على ان المتبادر من « العلم بالغيب » في عصر الرسالة وبعده ، كان هو العلم الذاتي لا العرضي ولاجل ذلك كانت الائمة من أهل البيت مع ما اخبروا من المغيبات ما لا يحصى متحاشين عن توصيفهم بانهم عالمون بالغيب، ناسبين علومهم ومعارفهم وما يخبرون به من ملاحم وأحداث وفتن ، الى التعلم من ذي علم (١) والوارثة من الرسول (٢) وهذا أقوى دليل على ان المتبادر في عصر الرسالة وبعده ، من العلم بالغيب هو القسم اللائق بساحته سبحانه .

وكون العلم اكتسابياً أو غير اكتسابي ليس من المفاهيم الغامضة التي لاينقدح في الأفهام الوسطى فضلا عن العليا ، فان الانسان العارف بالله ، مهما تنازل وبعد عن المعارف ، يقف على ان هنا موجوداً غنياً من جميع الذات والغنى نفسه وذاته فوجوده وعلمه وقدرته وحياته ثابت له من دون استناد الى غيرها ، وموجوداً فقيراً

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٢٤ وسيوافيك لفظ الامام .

(٢) كما في الحديث عن الامام الطاهر موسى الكاظم (ع) وسيوافيك لفظه .

ومخلوقاً لغيره يعتمد في كل كمال وجمال الى خالقه وبارئه ولا نعني من الذاتي والاكتسابي غير هذا .

والىما ذكرنا يشير شيخ الامة الشيخ المفيد بقوله :

«ان الائمة من آل محمد (ص) قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، يعرفون ما يكون قبل كونه ، وليس بواجب فى صفاته ولا شرطاً في امامتهم وانما اكرمهم الله تعالى وأعلمهم اياه للطف في طاعتهم والنمسك بامامتهم وليس ذلك بواجب عقلا ولكنه وجب لهم من جهة السماع ، فأما اطلاق القول عليهم بأنهم « يعلمون الغيب » ، فهو منكر بين الفساد ، لان الوصف بذلك انما يستحقه من علم الاشياء بنفسه ، لا بعلم مستفاد وهذا لا يكون الا الله عزوجل وعلى قولي هذا جماعة أهل الامامة الا من شذ عنهم من المفوضة ومن انتمى اليهم من الغلاة (١) .

فالتوفيق بين قوله « اطلاق القول عليهم بانهم يعلمون الغيب بين الفساد » وقوله (ع) « بأنهم يعلمون بما في الضمائر » لا يحصل الا بما ذكرنا،بل هوصريح كلامه لمن امعن فيه النظر .

قال رشيدالدين محمد بنشهر آشوب (٢) النبي والامام يجب ان يعلما علوم الدين والشريعة ولا يجب ان يعلما الغيب وما كان وما يكون لان ذلك يؤدي الىان يعلما الغيب وما كان وما يكون ، وذلك يؤدي الى انهما شاركان للقديم تعالى في جميع معلوماته ، ومعلوماته لا تتناهى وانما يجب ان يكونا عالمين لانفسهما (٣)، وقد ثبت انهما عالمان بعلممحدث،والعلم لايتعلق علىالتفصيلالا بمعلوم واحد . ولو علما ما لايتناهى لوجب أن يعلما وجود ما لايتناهى منالمعلومات وذلك محال ، ويجوز ان يعلما الغائبات والكائناتالماضيات أوالمستقبلاتباعلام اللهتعالى لهما شيئاً منها (٤).

فان الظاهر من كلامه ان الشرك انما يلزم من أمرين « الاول » القول بعدم

(١) أوائل المقالات ص ٣٨ .

(٢) أحد اقطاب التفسير والحديث فى القرن السادس توفى عام ٥٨٨ ، وله أسباب نزول القرآن ، ومتشابهات القرآن كما صرح به فى معالمه .

(٣) كذا فى النسخه والصحيح لا لانفسهما كما هو واضح لمن أمعن النظر .

(٤) متشابهات القرآن ومختلفه ج ١ ص ٢١١ .

تناهي علومهم « الثاني » كون علومهم مستنداً لانفسهمالا باعلام منه سبحانه والمنفي في كلامه هو العلم الذاتي غير المتناهي ، وأما المتناهي المستند الى الله عز وجل فهو ثابت لهم .

السؤال الثاني :

لوكان النبي عالماً بالغيب بعلم مستفاد ومفاض منه سبحانه لما مسه السوء والشرمع انه كان يمسه السوء بنص منه سبحانه حيث قال «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء» (الاعراف-١٨٨) فان الانسان اذا وقف على ان في ركوب أمر خطراً على نفسه وماله ، أو أن في هذا الغذاء سماً لاجتنب عنهما وتركهما بتاتاً سواء أوقف عليهمامن جانب نفسه أم باطلاع غيره فمس السوء وفوت الخير ، دليلان على عدم اطلاعه على الغيب لامن جانب نفسه ولا من ناحية غيره مطلقاً .

الجواب من وجوه :

الاول : ان السؤال موجه اذا قلنا بسعة علم النبي (ص) بعامة الحوادث القادمة مع تفاصيلها وجزئياتها، وان علمه (ص) بغابر الامور وقادمها غير محدود بشيىءمن التحديد،غير كونه علما امكانياً مفاضاً ومستفاداً منه سبحانه ،فعند ذاك يتوجه السؤال ويقال :

بأنه لو كان النبي عالماً بما سيقع من الحوادث كلها، يجب ان لا يمسه السوء أبداً ويحترز من كل شر ، قبل اصابته وأما اذا حددناه بشيىء من التحديد وقلنا ان علمه بالحوادث ليس بهذه المثابه كما يدل عليه قوله (ع) «ان لله علمين: علم مخزون لا يعلمه الا هو ، من ذلك يكون البداء ، وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن

نعلمه»(١) وقوله (ع) «لولاآية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون الى يوم القيامة» فقلت أية آية؟ قال قول الله «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»(٢) فالسؤال غير وجيه جداً لانه اذا كان علمه بالحوادث المستقبلة ، محدوداً بشيء من هذه الحدود ، لا ينافيه مس السوء وعدم استكثار الخير في بعض الاحايين، لامكان ان يكون المورد من العلم المكنون الذي لم يطلع عليه أحد، أو من الامور التي تحقق فيها البداء بمعناه الصحيح الذي نصت عليه الاحاديث .

روى معمر بن خلاد قال : سأل أبا الحسن (ع) رجل من أهل فارس فقال له : اتعلمون الغيب ؟ فقال : قال أبو جعفر : يبسط لنا العلم فنعلم ، ويقبض عنا فلا نعلم فقال: سر الله عز وجل أسره الى جبرئيل ، وأسره جبرئيل الى محمد وأسره محمد الى من شاء الله (٣) ، وبهذا المضمون روايات وأحاديث ، واختاره لفيف من مشايخ الامامية (٤) .

نعم هذا الجواب ربما لايلائم مع ما دلت عليه بعض الاحاديث التي نقله الكليني في كافيه وعقد له باباً بـ «انهم (ع) يعلمون علم ماكان ومايكون وانه لايخفى عليهم الشيء»

غير ان ابداء الرأى القاطع فى سعة علومهم واطلاعهم على المغيبات يحتاج الى امعان النظر في أحاديث الباب كلها فانها ليست على صعيد واحد بل يختلف مضامينها وبما ان الاسهاب يوجب الخروج عن الهدف من هذا الفصل فنرجيء البحث عنه الى مقام آخر وسوف نقوم باذن منه سبحانه بتأليف رسالة حول علم النبي والامام على ضوء ما ورد من الاخبار والاحاديث بتوضيح معانيها على وجه يرتفع التضارب المتوهم بينها (٥) .

(١) اصول الكافى ج ١ ص ١٤٧ وتضافرت الروايات بهذا المضمون وقد جمعها العلامة المجلسى فى بحاره فى الباب الثانى من كتاب توحيده فراجع (ج ٢ ص ٤٧ - ٩٢) .

(٢) بحار الانوار ج٤ باب البداء والنسخ ص ١١٨ ، الحديث ٥٢ .

(٣) اصول الكافى ج ١ ص ٢٥٦

(٤) كالشيخ الصدوق وامين الاسلام الطبرسى وغيرهما ممن لا يقولون بعموم علمهم بكل شيء

(٥) نعم قام لفيف من الاعاظم فألفوا حول علم الامام رسائل سدوا بها الفراغ بعض السد، ودونك ما وقفنا عليه :

الثانـى : لو كان علمهم (ع) بالمغيبات علماً بالفعل بحضورها لديهم تفصيلا بدقائقها وتفاصيلها فلا يجتمع ذاك مع مفاد الاية ، وأما اذا قلنا بأن علمهم بالغيب على حسب مشيئتهم بحيث لو شاءوا علموا ، ولو لم يشاؤا لم يعلموا (١) فينقطع الاشكال من أصله فان مثلهم بالنسبة الى الحوادث القادمة (ع) كمثل الذي القي عليه سؤال وبيده كتاب ، فيه جوابه لو رجع اليه علم ، واذا لم يرجع لم يعلم ، أو مثل الفقيه الذي له ملكة الاجتهاد ، واستنباط الاحكام عن أدلتها أو الطبيب البارع الذي له قدرة التشخيص والعلاج ، أوالعالم الرياضي القادر على حل المعادلات الجبرية فانهم اذا شاؤا علموا وأجابوا عن السؤال، ورفعوا الستار عن مجهولهم بالرجوع الى ملكاتهم العلمية ، فلا ينافي عدم استحضارهم جواب السؤال ، امكان اطلاعهم عليه اذا شاؤا ، وعلى ذلك فكل ما أصابهم شر وفاتهم خير فيمكن أن يكون مما لم يشاؤا أن يعلموه .

قال العلامة الطباطبائي : « قد ورد فى بعض الاخبار ، وسياقه سياق التفسير لسائرها انهم (ع) اذا شاؤا علموا ، واذا لم يشاؤا لم يعلموا ، ويتحصل منه ان لهم بحسب مقام نورانيتهم علماً بالفعل بكل شيىء ، وأما بحسب الوجود العنصري الدنيوي فهم اذا شاؤا علموا ، بفضل الاتصال بمقام النورانية باذن الله ، وأما اذا لم يشاؤا لم يعلموا .

---

١ ـ «المعارف السلمانية بمراتب الخلفاء الرحمانية» ،طبع بايران على الحجر عام ١٣١٣ هجرية قمرية للعلامة السيد عبد الحسين النجفى الشيرازى قدس الله سره له ترجمة ضافية فى طبقات اعلام الشيعه ج ٣ ص ١٠٤٨ :

٢ ـ «الالهام فى علم الامام» للعلامة الشيخ محمد على الحائرى السنقرى طبع فى النجف الاشرف عام ١٣٧٠ :

٣ ـ «علم الامام» للعلامة الحجة المغفور له ، الشيخ محمد الحسين المظفر طبع فى النجف عام ١٣٨٠ أضف الى ذلك ما أفاده العلامة المجلسى فى بحاره فى غير موضع من مباحث الامامة، شكر الله مساعيهم :

٤ ـ رسالة فارسية فى علم الامام صنفها المفكر الاسلامى السيد محمد حسين الطباطبائى مد ظله وانتشرت سنة ١٣٩١ ، وله رسالة عربية صغيرة فى هذا الموضوع ايضاً ، مخطوطة :

(١) وقد عقد الكلينى باباً خاصاً لاحاديثه ، غير أن ما رواه فى هذا الباب ضعيف السند ! ج ١ ص ٢٥٨

وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض القصص والسير المأثورة عنهم مما ظاهره انهم ما كانوا على علم بما كان يستقبلهم من الحوادث فلا تفعل (١) .

جواب ثالث :

تفضل به سيدنا العلامة الطباطبائي عند ما عرضنا عليه هذا السؤال ، فألف في جوابه رسالة موجزة في ثمان صفحات على القطع الصغير باستدعاء منا،ونحن نقتطف منه ما يلي بتصرف يسير :

لما كان علمهم (ع) هذا بالحوادث علماً بها بما انها واجبة التحقق، ضرورية الوقوع ، لا تقبل بداء ، ولا تحتمل تخلفاً ، كما في الاخبار ، فلا تأثير لهذا العلم الذي هذا شأنه في فعل الانسان ، وتوضيحه ببيان أمور :

١ ـ ان من المقرر عقلا ، وقد صدقه الكتاب والسنة ان كل ظاهرة وحادثة تحتاج في تحققها الى علة ، ثم ان العلة التي يتوقف عليها وجود الشيء ، تنقسم الى ناقصة وتامة ، والتامة منها ما يتوقف عليه وجود الشيء ، بحيث يجب وجوده بوجودها ، وعدمه بعدمها ، والناقصة منها ، وان كان يتوقف عليه وجود الشيء ايضاً ، ويجب عدمه بعدمها ، الا انه لا يجب وجود الشيء بوجودها .

٢ ـ ان الحادثة لاتتحقق الا وهي موجبة بايجاب علتها التامة، ومحتمة بحتمية منها ، وكذا الكلام في علتها حتى ينتهي الى الواجب بالذات تبارك وتعالى. فالعالم مؤلف من سلسلة من الحوادث ، كل حلقة من حلقاتها واجبة الوجود ، بعلة تسبقها وان كانت ممكنة بالقياس الى احد أجزاء علتها العرضية أو أحد عللها الطولية .

٣ ـ هذه الوجوبات المترتبة ، الواقعة في سلسلة الحوادث هي نظام القضاء الحتمي الذي ينسبه الله سبحانه الى نفسه ويقول «ليقضي الله أمراً كان مفعولا» (الانفال ـ٤٢) وقال «وكان أمراً مقضيا» (مريم ٢١) .

٤ ـ ان للعلم أثراً في انتخاب أحد الامرين من الفعل والترك وجلب النفع

(١) عن رسالة خطية له دام ظله نحتفظ منها بنسخة .

ودفع الضرر ،فالانسان الفاعل بالعلم والارادة ،انما يقصد ما علم انه يفيده ،ويهرب مما علم انه يضره ، فللعلم تأثير فى انتخاب أحد الفعلين وفى فعل شيىء أوتركه .

٥ ـ علم الانسان بالخير والنفع وكذا علمه بالشر والضرر فى الحوادث المستقبلة انما يؤثر اذا تعلق بأمر ممكن غير مقضى،وذلك مثل ان يعلم الانسان انه لو حضر مكاناً كذا ، فى ساعة كذا ، من يوم كذا،قتل قطعاً ، فلهذا العلم تأثير خاص فى ترك الحضور فى المكان المعين ، تحرزاً من القتل ، وأما اذا تعلق العلم بالضرر مثلا من جهة كونه ضروري الوقوع واجب التحقق ، كما اذا علم انه فى مكان كذا ، فى ساعة كذا ، من يوم كذا ، مقتول لا محالة بحيث لاينفع فى دفع القتل عنه عمل، ولا تحول دونه حيلة ، فان مثل هذا العلم ، لايؤثر فى الانسان شيئا ولا يبعثه الى نوع من التحرز والاتقاء لفرض علمه بانه لاينفع فيه شيىء من العمل فهذا الانسان مع علمه بالضرر المستقبل ، يجري فى العمل ، مجرى الجاهل بالضرر .

اذا علمت ذلك ثم راجعت الاخبار الناصة على ان الذي علمهم الله تعالى من العلم بالحوادث ، لابداء فيه ، ولا تخلف ، ظهر لك اندفاع ماورد على القول بعلمهم بعامة الحوادث ، من انه لو كان لهم علم بذلك لاحتروزا مما وقعوا فيه من الشر ، كالشهادة قتلا بالسيف اوبالسم ،لحرمة القاء النفس فى التهلكة .

وجه الاندفاع ان علمهم بالحوادث علم بها من جهه ضرورتها كما هو صريح نفي البداء عن علمهم (١) والعلم الذي هذا شأنه لااثر له فى فعل الانسان يبعثه الى نوع من التحرز ، واذاكان الشر بحيث لايقبل الدفع بوجه من الوجوه ، فالابتلاء به وقوع فى التهلكة لاالقاء فيها قال تعالى « قل لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم» (آل عمران ـ ١٥٤) .

---

(١) يشير دام ظله الى ما روى عن أبى جعفر (ع) العلم علمان فعلم مخزون لم يطلع عليه احداً من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله ، فانه سيكون لايكذب نفسه ولاملائكته ولارسله،وعلم مخزون يقدم منه مايشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء . أصول الكافى باب البداء ج ١ ص ١٤٨ .

ايضاح واكمال

ان علم النبي بالمغيبات لو كان من عند نفسه يجب ان يكون مستندا الى امارات وقرائن تثير فى نفسه القطع والعلم بانه لو شرب هذا السم يهلك قطعا ، فالعلم فى هذا القسم يتعلق بقضية شرطية، بحيث لو تحقق الشرط لتحقق الجزاء، فاذا وقف الانسان على علم هذا شانه ، لاحترز عن اقترافه بحكم الغريزة الانسانية ولدفع عن نفسه السوء والشر ، فأصبح خلواً من كل مكروه .

وان شئت قلت ان العلم فى هذا النوع يتعلق بالحوادث من جهة امكانها لا من جهة ضرورتها ، كما مثل به دام ظله « من انه لو حضر مكانا كذا ، فى ساعة كذا من يوم كذا ، لقتل» وعند ذاك يختار ترك الحضور أخذاً بواحد من طرفي الامكان وهو الذي فيه نجاته ونجاحه .

واما اذا كان علمه (ص) مفاضا ومستفاداً من جانبه سبحانه فبما ان ما علمهم الله لابداء فيه ولاتخلف ، وهو مما يتحقق قطعا فلامحالة يسير النبي حسب ما اوحى الله اليه ولا يقدر ان يتخلف عنه قدر شعرة فيصيبه من الخير والشر ماقضي عليه بضرورة والى ذلك يشير قوله سبحانه «قل لو كنت اعلم الغيب» من عند نفسي «لاستكثرت من الخير» واخترت انفع الامور واصلحها «ومامسني السوء» واحترزت عن اقتراف المضار، بحكم الغريزة الانسانية التي تدعو الى صيانة النفس عما يضرها ويؤذيها « ان اتبع الا مايوحى» فأسير ، حسب ما اوحى الي ، وهو ليس خبرا يقبل الكذب او الخطأ، بل هو خبر قطعى الثبوت فيصيبني من الخير والشر ما قضى وقدر (١) .

وعلى ذلك ، لايدل ، مس السوء دليلا على عدم علمه بالغيب ، فانه لا اثر للعلم وعدمه فى هذا النوع فى الاجتناب والاتقاء .

غير ان القارىء الكريم بعد ما امعن النظر فى هذا الجواب يجب عليه ان

(١) ما اوضحنا به كلامه ، سمعناه منه دام ظله شفاهاً .

يلاحظ امرين .

١ ـ ان العلم العادي كما يمكن ان يتعلق بالقضيه من ناحية امكانها ـ فيصح فعل الشيىء وتركه ـ كذلك يمكن ان يتعلق بها من جهة ضرورتها ، كان ينكشف له باحد الاسباب بانه يموت فى وقت كذا ، ويهلك فى زمن كذا فلا ينحصر العلم غير المفاض على قسم واحد ولعله دام ظله يلتزم بذلك .

٢ ـ ان القول بان علمهم بالحوادث مما لابداء فيه ولا تخلف ، وان دل عليه بعض الاحاديث ولكن يظهر من كثير منها وقوع البداء فى ما وصل اليهم علمه ايضاً وقدجمع العلامة المجلسي احاديث هذا الباب فى بحاره راجع ج٤ ص ٩٢-١٣٤، ونبه على تضارب الروايات فى المقام فعاد بعلاجه وذكر وجوها فى المقام ، فراجع ص ١٣٣ من هذا الجزء .

السؤال الثالث :

مشكلة المشاركة مع الله :

تمسك بهذه الشبهة فى سلب العلم بالغيب من غيره سبحانه «عبد الله القصيمي» فقال رداً على عقيدة الشيعة فى علم الائمة بالغيب «فالائمة يشاركون الله في هذه الصفة صفة علم الغيب وعلم ماكان وماسيكون ، وانه لايخفى عليهم شيىء والمسلمون كلهم يعلمون ان الانبياء والمرسلين انفسهم لم يكونوا يشاركون الله فى هذه الصفة والنصوص فى الكتاب والسنة وعن الائمة ، فى انه لايعلم الغيب الا الله متواترة لا يستطاع حصرها فى كتاب وهذا غني عن الادلاء بشواهده ، ومن المؤسف المخجل لعمر الله ان يزعموا ان الائمة يعلمون الغيب (١)

الجواب :

هذه شبهة تافهة لاتستحق الرد والبحث ،وكتابه هذا مملوء بالسب والطعن لاعلام الشيعة بما ينزه اليراع عن نقله ونحن نمر عليه مر الكرام اذبين العلمين بون شاسع فان

(١) الصراع بين الاسلام والوثنية ج ١ انظر المقدمة .

الله سبحانه عالم بالغيب بذاته وغيره مطلع عليه باظهارمنه وأي تجانس بين العرضي و الذاتي والمحدود وغير المحدودوای صلة بين الاصيل في علمه ، المرسل فی ادراکه وبين المتدلي في ذاته وعلمه ،الفقير في كل شأن من شؤونه حتى فی علمه هذا فلو استلزم ذلك شركا لزم ان يكون توصيف الممكن بالحياة والقدرة والسمع والبصر مما يجرى عليه الله سبحانه ايضا شركا .

السئوال الرابع :

هل يوجد فی القرآن نصوص تدل على تحقق التنبوء من رسل الله وانبيائه وعباده المخلصين ؟ فان قوله سبحانه « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الامن ارتضى من رسول»لايدل على ازيد من امكان اظهارهم عليه لاعلى وقوعه وصدوره عنهم .

الجواب :

ان كل ما أتى به الرسول من اصول وفروع وقصص . . . كلها انباء غيبية اظهرهم الله عليها،قال سبحانه فی شأن النبی الاعظم «تلك من انباء الغيب نوحيها اليكماكنت تعلمها انتولا قومك من قبل هذا فاصبر انالعاقبة للمتقين» (هود-٤٩) فأي غيب اعلى واجلى مما اظهر نبيه عليه من القرآن المبين الذي يعد بنفسه نبأ غيبياً ، ويحتوي من الاخبار بالمغيبات الوافرة مالا يعد ولا يحصى ، فكل ماجاءبه فی مجالات مختلفة ،غيب بلفظه ومعناه ،اطلعه الله عليه واوحاه اليه بصورتهومفاده، اذ المفروض ان القرآن معجز بلفظه ومعناه ، والمعجزات احدى المغيبات التي اشرنا اليها فی صدر البحث فراجع .

ثم ان القرآن يدل بفضل نصوصه على اخبار غيبية ، تنبأت بها ثله جليلة من عباده المخلصين من انبيائه ورسله وخيار عباده ، واظهر من علمه المكنون ، ما كان خفياً على بعض رسله وانبيائه وثلة من أوليائه ، ودونك نماذج مما ورد فی الكتاب العزيز :

١ ـ «واذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به و أظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به ، قالت من أنبأك هذا ، قال نبأني العليم الخبير» (التحريم ـ ١٣) .

قال المفسرون ، ان النبي أسر الى حفصة حديثاً ، أمرها باخفائه، لكن حفصة أخبرت غيرها به ، فأفشت سره (ص) واطلع الله نبيه على ما جرى من افشاء سره فعرف رسول الله حفصة ببعض ماذكرت وأفشت ، وأعرض عن بعض ما ذكرت ، فلم يخبر بجميع ماأخبرت ، فسألته عن انه كيف اطلع على اخبارها ، وافشائها سره فقال : نبأني العليم الخبير بسرائر الصدور (١) .

٢ ـ «وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم» (آل عمران ـ ٤٩) فطفق المسيح ،ينبىء قومه باذنه سبحانه، باسرارهم وما كانوا يدخرون فى الصيف لشتائهم بمقداره ولونه وحقيقته .

٣ ـ هذا شيخ الانبياء نوح(ع) لم يزل سائراً بأمته سيراً سجحاً يتحمل فى سبيل دعوته المحن والكوارث ، يجابه ضوضاء الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يئس عن ايمانهم فدعا ربه باهلاكهم وابادتهم آيساً من ايمانهم فقال مخبرا عن مآل قومه ومن يرثهم : «رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً» (نوح ٢٦ ـ ٢٧)

أو ليس هذا اخباراً عن عواقب أمورهم وأخلافهم ، وأنه لن يؤمن أحد منهم ولا من أخلافهم .

لعل المعترض يقول : ان نوحاً بعد ان قضى ردحاً مديداً من الزمن مع قومه رأى ان البيئة الاجتماعية اصبحت منحرفة الى درجة لاتسمح مطلقاً بمقتضى علمه العادي ان يوجد فيها فرد صالح وهذا امر متصور .

وله ايضاً أن يقول : انما وقف على مآل امر قومه بعد اخباره سبحانه بذلك ، كما قال : «وأوحى ربك الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣١٦ .

تبتئس بما كانوا يفعلون» (هود ـ ٣٦) .

اقول : هب انه فهم مآل قومه من القرائن أو من اخباره سبحانه لكنه من أين وقف على أحوال خلفهم وأن من يرثهم ، لايكون الا فاجراً كفاراً ؟ وليس ذلك الا بتعليم من الله واظهاره على نبيه باحدى الطرق .

٤ ـ وهذا صاحب موسى الذي آتاه الله رحمة وعلماً من عنده ، قدأحاط بما لم يحط به موسى ، فخرق السفينة ، علماً منه بان وراء السفينة ، ملك ياخذ كل سفينة غصباً ، فخرقها حتى لايرغب فيها ، وقتل غلاماً كان أبواه مؤمنين ، فخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، وأقام جداراً يريد أن ينقض ، لعلمه بان تحته كنزاً ، لغلامين يتيمين ، وكان ابوهما صالحاً ، فاراد ستره وصيانته عن أعين الناس ، حتى يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما . ثم أسند علمه وعمله هذا الى الله سبحانه وقال: «وما فعلته عن أمري» (الكهف ٦٠ـ٨٢) ثم انه لم يصر بعلمه هذا ـ في فكرة اى انسان ـ شريكاً لله تعالى ، في علمه بالغيب ، واحاطته على السرائر والمكنونات والمغيبات. وشتان مابين علم غير أصيل عرضي ، مأخوذة فيه القيود الامكانية، وعلم متاصل ذاتي مرسل عن القيود ، غير محدود بشيء .

٥ ـ أما أخبر آدم عن الاسماء التي عرفه الله بها ، وكانت غيباً مكنوناً عن الملائكة ، لكنه (ع) انبأهم باذن الله ، فاوضح السر المكنون والغيب المستور عليهم كما يصرح به «وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين» (البقرة ـ ٣١) .

فقد علم سبحانه آدم (ع) الاسماء ، بل أوقفه على حقائق المسميات (بدليل قوله سبحانه : « ثم عرضهم ») فالا طلاع على الغيب والاخبار عن شؤون البشر في المستقبل ، والايحاء الى الملاحم والفتن ليس بأعلى من الوقوف على حقائق المسميات التي كلت دون ادراكها، ملائكة الله سبحانه حتى أنبأهم آدم واطلعهم عليها

فهل تتوهم أن آدم ، صار بذلك شريكالبارئه وخالقه خالق السماوات والاسماء والمسميات .

٦ ـ وهذا هو الصديق يوسف ، كشف الغطاء عن مستقبل صاحبيه فى السجن ، اذ قال أحدهما : اني أراني أعصر خمراً ، وقال الاخر : اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً ، تأكل الطير منه ، فاخبر على وجه البت والقطع ، بأن الاول يخرج من السجن ويسقي ربه خمراً ، والاخر يصلب ، وتاكل الطير من رأسه، ووقع الامر كما أخبر (١) .

٧ ـ أو ما أتاك حديث أم موسى ، اذ اصبح فؤادها فارغاً ، اذ ألقته فى اليم وحاق بها الحزن والخوف ، فأوحى الله اليها ، انه سوف يرده اليها ويجعله من المرسلين(٢) فاي فرق بين اطلاعها على الغيب واطلاع أحد من الانبياء والاوصياء وائمة الدين عليه ، نعم لافرق بينهم قدر شعرة اصلا .

٨ ـ هذا هو صالح قد بعث الى قومه «ثمود» فقال لهم «ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب. ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » (هود ـ ٦٣ ـ ٦٤) فلما عقروها لشقائهم المضروب به المثل ، تنبأ بهلاكهم وقال «تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب» (هود ـ ٦٥) وأكده سبحانه فى مقام آخر بقوله : «وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن امر ربهم فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون» (الذاريات ـ ٤٣ ـ ٤٤)

٩ ـ أو ليس من الاخبار بالغيب قول المسيح بن مريم لبني اسرائيل «يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدي اسمه احمد» (الصف ـ ٦) فقد اخبر باذن الله عن حادثة تتحقق بعد مضي زمن يقارب ستمائة سنة .

١٠ ـ ونظيره ما ورد فى العهدين حول نبينا الاكرم من ذكر اسمائه وصفاته وما يحل به وبأولاده وامته ، وغلبة دينه على جميع الاديان ، فان تلكم البشارات

---

(١) راجع سورة يوسف الاية ٣٦ ـ ٤١ .

(٢) القصص ـ ١٠ .

الواردة فيها مع تحقق مضمونها تعتبر دليلا وثيقاعلىأن المبشرين بهاكانوا يعلمون الغيب وهم اما انبياء الأمم السالفة او اوصياءهم .

حصيلة البحث :

ليس هناك اي‌وازع فى ان يعلم الله احد اوليائه بشيىء من غيبه المكتوم وسره المخفي ، مما كتمه على غيره ، وستره عنه . نعم لايجب على كل من اطلع على الغيب ، اعلام الناس به او العمل به ، فلا يستلزم العلم بالشيىء، العمل به او اخباره الناس بذلك فان هناك مراحل ثلاث : ، مرحلة الاطلاع ، مرحلة العمل ، ومرحلة الاعلام ، ولكل منها مقتضيات وشرائط وموانع تجب رعايتها نظير القاضى اذ ليس له الا الحكم على وفق ماسمع ، واقيمت عنده البينة لا على وفق ما علم وهذا اصل متبع فى باب القضاء .

السؤال الخامس

لاشك ان النبي الاعظم والائمة من أهل البيت ، قد تنبأوا بكثير من المغيبات التي كانت الفراسة والتكهن تقتضيان خلافها ، غير انا نـراهم فى بعض المقامـات يتحاشون عن نسبة العلم بالغيب اليهم ، فما وجه ذلك ؟ .

الجواب :

ان الناظر فى هذه الروايات يقف على ان المتبادر مـن العلم بالغيب فى تلك العصور ، هو العلم الاستقلالي الذاتي الذي ، يختص بالله سبحانه ، فهم (ع) لصيانة شيعتهم عن الغلو والشرك ، او لدفع تهم اعدائهم ، صرحوا بأن ما يخبرون عنه مـن الفتن وملاحم احـداث ليس بعلم غيب بل وراثة من رسول الله او تعلم من ذي علم الى غير ذلك مما لاينافيما اثبتناه من تحقق اطلاعهم علىالغيب بعلممفاض واعلام منه سبحانه . ودونك ماوقفنا عليه من تكلم الروايات :

١ ـ هذا امير المؤمنين ، قد اماط الستر عن المسئلة ، وعن علمه وعلم الائمة من بعده بالغيب ، وقد اخبر عن ملاحـم (١) تحدث بالبصرة ، فاعترض بعض اصحابه وقال«لقد اعطيت يا امير المؤمنين علم الغيب» ؟ فضحك (ع) وقال للرجل وكان كلبياً يا أخا الكلب ليس هو بعلم غيب وانما هو تعلم من ذى علم ، وانماعلم الغيب ، علم الساعة ، وما عدد الله بقوله : «ان الله عنده علم الساعة . . . » الايـة . فيعلم سبحانه ما فى الارحام من ذكر وأنثى وقبيح وجميل ، وسخي وبخيل وشقي وسعيد ، ومن يكون فى النار حطباً ، أو فى الجنان للنبيين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لايعلمه أحد الا الله، وما نرى ذلك،فعلمعلمه الله تعالى نبيه ، فعلمنيه ودعا لي أن يعيه صدرى وتضطم عليه جوانحي (٢) .

وهذا البيان من مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لا يدع لقائل شبهة ، ويعطي ان العلم بالمغيبات ، اذا كان على وجه التعلم من الغير ليس هو علم الغيب الذي لا يعلمه الا الله بل ليس علماً بالغيب وانما هو اظهار من الغير .

٢ ـ هذا الامام الطاهر ، موسى الكاظم (ع) قد كشف النقاب عـن وجـه الحقيقة حينما سأله يحيى بن عبد الله بن الحسن عن علمه بالغيب وقال «جعلت فداك انهم يزعمون انك تعلم الغيب فقال : سبحان الله ، ضع يدك على رأسي ، فو الله ما بقيت ، فى جسدي شعرة ولا فى رأسي الا قامت ، ثم قال : لاوالله ، ما هي الا وراثة عن رسول الله (٣) .

٣ـ ماروي عن الامام الصادق : «انه خرج وهو مغضب فلما اخذ مجلسه قال ياعجبا لاقوام يزعمون انا نعلم الغيب ، مايعلم الغيب الا الله عز وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني ، فما علمت فى اي بيوت الدار»(٤) فهذه الرواية محمولة ومفسرة بما اوضحناه ، وما سيوافيك من الاحاديث فالمقصـود نفي العلم

(١) سوف يوافيك لفظه .
(٢) نهج البلاغة خطبة الا ١٢٤ .
(٣) رجال الكشى ص ٢٥٢ـ٢٥٣ ط الاعلمى ، ورواه شيخنا المفيد فى اماليه فى المجلس الثالث ص ٤١٣ بأدنى تفاوت .
(٤) اصول الكافى ج ١ ص ٢٥٧ .

الاصالي القائم بذاتهم غير المستندالى غيرهم ، واما انه (ع) هم بضرب جاريته فهربت فما علم مكانها ، فيوجه بوجوه .

١ ـ ما اسلفناه من كون علومهم على حسب مشيئتهم وانهم اذا شاؤا علموا .

٢ ـ ماوافاك من ان هنا مراحل ثلاث، مرحلة الاطلاع، مرحلة العمل ، مرحلة الاعلام ولكل منها ، مقتضيات وشرائط وموانع ، وانه لايستلزم العلم بالشيء العمل به ، فلعله (ع) اراد ان يطلع على مكانها من الطرق العادية لا غيرها .

اضف الى ذلك ان ذيل الرواية تفصح عما ذكرناه بوضوح ، ويعطي للامام منزلة عظيمة ومكانة ارقى ممن كان عنده علم من الكتاب ودونك لفظه : «قال سدير فلما ان قام من مجلسه وصار في منزله دخلت انا وابو بصير وميسر وقلنا له : جعلنا فداك سمعناك وانت تقول كذا وكذا في امر جاريتك ، ونحن نعلم انك تعلم علما كثيرا ولا ننسبك الى علم الغيب قال : فقال : ياسدير : ألم تقرء القرآن؟ قلت بلى قال فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل « قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك» (١) قال قلت جعلت فداك قد قرأته قال فهل عرفت الرجل ؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب ؟ قال قلت اخبرني به ؟ قال قدر قطرة من الماء في البحر الاخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب ؟ قال : قلت جعلت فداك ما اقل هذا، فقال يا سدير ما اكثر هذا ان ينسبه الله عز وجل الى العلم الذي اخبرك به يا سدير ، فهل وجدت فيما قرات من كتاب الله عز وجل ايضا «قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»(٢) قال قلت قدقرأته جعلت فداك قال افمن عنده علم الكتاب كله أفهم ، ام من عنده علم الكتاب بعضه قلت : لابل من عنده علم الكتاب كله ، قال : فأومأ بيده الى صدره وقال علم الكتاب والله كله عندنا ، علم الكتاب والله كله عندنا» .

---

(١) النمل ٤٠ .

(٢) الرعد ـ ٤٣ .

٣ ـ ان يكون صدر الرواية وارداً على وجه التقيه مـن النصاب والمخالفين صيانة لهم ولشيعتهم ، كما انهم ببغضهم وحسدهم على امير المؤمنين ،اذا سمعوا مالا يحتملوه ربما اعترضوا بالسؤال عنه ، فيصدهم بقوله « وانما هو تعلم من ذي علم » كما نقلناه عن علي (ع) عند اخباره عن الفتن والملاحم فى البصـرة ، فان طريق علمهم بالحوادث وغيرها ليس منحصرا بالوراثة ، كما هو ظاهر لمن راجع الاحاديث الوارده فى باب علومهم ، وانما الـوراثة احـد هذه الطرق ، غير ان اسناد علمهم عند الاخبار بما لا تحتمله عامه الناس ، اليهاكان يصدهم عن الاعتراض عليه .

ثم ان العلامة الشيخ محمد الحسين المظفر ، اجاب عن حادثة الجارية وانكاره (ع) على من يقول بأنهم يعلمون الغيب بوجهين:ثانيها ماقدمناه اخيراً قال «انهم(ع) اعلم الناس بالناس واعرفهم بضعف عقولهم، وعدم تحملهم فلو انهم كانوا يتظاهرون دوما ، بما منحوا من ذلك العلم ، لاعتقد بهم اهل الضعف انهم ارباب او غير ذلك مما يؤول الى الشرك ، ولقد اعتقدبهم ، ذلك ، كثير من الناس ، من البدء حتى اليوم ، على انهم كانوا ينفون عنهم تلك المقدرة وذلك العلم احيانا ولم يكونوا بأهل السلطة ليقيموا أود الناس بالتاديب بعدالوعظ والزجر كما سبق لامير المؤمنين(ع) مع بعض اصحابه» ، وقال : «بل كانوا غرضا لفراعنة ايامهم ، وهدفها لنبالهم ولم يكونوا بذلك المظهر عندهم ، فلو تظاهروا بتلك الخلة ،كيف ترى يحمل الحسد اولئك الطواغيت ، على الفتك بهم وهم المحسودون على ما آتاهم الله مـن فضله واى حائل يحجز عما يريدونه بهم وبأوليائهم وانهم لم يطلعوا اعداءهم ولا سواد اوليائهم على جميع ما رزقوا من ذلك الفضل ، وقد لاقوا من المصائب والنوائب والحوادث والكوارث والوقائع والفجائع ، ما تسيخ منه شـم الجبال ، وتشيب من هوله الرضع ، ولو لم يكونوا رزقوا ذلك الجلد والصبر على قدر ما رزقوا من الفضل ، لما استطاع ان يحمل ـ ما تحملوه ـ بشر وهل مات احد منهم حتف انفه ، دون ان يتجرع غصص السم النقيع او يصافح حدود الصوارم ويعتنق قدود

الرماح ، هذا فوق ما يرونه من الهتك للمحرمات وتسيير العقائل والسب والسلب ، والغصب للحقوق والتلاعب بالدين ، وتضييع احكام الشريعة .

نعم لايظهر بتلك المنح الالهية جميعها الا الامام المنتظر عجل الله فرجه، لانه لايخشى ذلك التسرب الى ضعاف البصائر ، لو صارح بما وهب من الفضل، لقدرته على الردع والتاديب ، ولا يخاف حسد حاسد او سطوة ظالم ، وهو صاحب السلطة والسيف » (١) .

٤ ـ مارواه الكشي عن عنبسة بن مصعب قال قال لى ابو عبد الله (ع) : اي شيىء سمعت من ابي الخطاب ؟ قال سمعته يقول انك وضعت يدك على صدره وقلت له عه ولا تنس . وانك تعلم الغيب و . . . قال (ع) والله ما مس شيىء من جسدي الايده، واما قوله اني قلت اعلم الغيب فوالله الذي لااله الاهو ماعلم الغيب فلاآجرني الله فى امواتي ولا بارك لي فى احيائي ان كنت قلت له (٢)

٥ ـ ما اخرجه صاحب البصائر عن ابي بصير قال قلت لابي عبد الله جعلت فداك اي شيىء هو العلم عندكم قال مايحدث بالليله والنهار، الامر بعد الامر ، والشيىء بعد الشيىء الى يوم القيامة (٣) والحديث بصدد نفي العلم القديم عنهم (ع)

٦ ـ مانقله صاحب البصائر باسناده عن ضريس قال : كنت مع ابي بصير عند ابي جعفر (ع) فقال له ابو بصير «بما يعلم عالمكم، جعلت فداك ؟ قال : ياابا محمد ان عالمنا لايعلم الغيب ولو وكل الله عالمنا الى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث اليه ساعة بعد ساعة » (٤) وظهور الحديث فيما نرتئيه اغنانا عن البحث حوله .

٧ ـ ماخرج عن صاحب الزمان (ع) ردأعلى الغلاة من التوقيع جواباً لكتاب اليه على يدي محمد بن علي بن هلال الكرخي يامحمد بن علي تعالى الله عزوجل عما يصفون سبحانه وبحمده لسنا نحن شركاءه فى علمه ولا فى قدرته بل لايعلم

(١) علم الامام ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) رجال الكشى ص ١٨٨ .
(٣) بصائر الدرجات ص ٩٤ ونقله المجلسى فى بحاره ج ٢٦ ص ٦٠ .
(٤) بصائر الدرجات ص ٩٤ راجع البحار ج ٢٦ ص ٦١ .

الغيب غيره ، كما قال فى محكم كتابه تبارك وتعالى «قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله» الى ان قال . . . اشهدك واشهد كل من سمع كتابى هذا انى برىء الى الله والى رسوله ممن يقول : انا نعلم الغيب او نشارك الله فى ملكه او علينا محلا سوى المحل الذي نصبه الله وخلقنا له (١)

وفى التوقيع قرائن كثيرة تدل على ان المقصود من نفي علم الغيب هو العلم الاصالي الموجب لكونهم شركاء لله في علمه وملكه وقد اكد فى التوقيع بأنهم وجميع الانبياء والمرسلين كلهم عبيد الله عز وجل فراجع ، الى غير ذلك مما يمكن ان يقف عليه المتتبع الخبير .

خاتمة المطاف :

قد سبق منا فى اوليات الفصل (٢) ان كل ماغاب عن الحس والشهود فهو غيب لا يقف عليه احد الا باذن خاص من الله عزوجل وهو لايظهره على احد الا من ارتضاه قال سبحانه «ولا يحيطون بشىء من علمه الا بماشاء» (البقرة ـ ٢٥٥) .

غير ان الغيب الذي يتوقف التعرف عليه على اذنه ومشيئته الخاصة ، هو التعرف عليه من دون ان يتوسل بعلل واسباب عادية كما هو الحال فى علم الرسول وخلفائه واما الاطلاع على الغيب بطرقه العادية واسبابه الطبيعية ، كاخبار المنجم عن خسوف القمر فى ليلة مقمرة ، وكسوف الشمس فى يوم معين ، بالاعتماد على الجداول العلمية والمحاسبات الرياضية ، فهو وان كان علماً بالغيب وتعرفاً على ماهو غائب عن حس العامة غير انه ليس علما بالغيب فى مصطلح القرآن والاخبار .

وان ابيت الا عن دخوله فى علم الغيب فى مصطلح الذكر الحكيم فنقول : ان الاطلاع على الغيب باسبابه العادية من المغيبات التي اذن الله لكل احد ان يطلع

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ٢٨٨ ط النجف .

(٢) راجع ص ٢٨٠ من هذا الجزء .

عليها اذا طرقها من ابوابها ونظر اليها فى ضوء العلم والتجربة .

فقداذن لكل من تداول علم النجوم ومارس الطب والطبابة ان يعرف وقت التربيع والخسوف والكسوف واوضاع الكواكب واحوالها بفضل الجداول والقوانين الرياضية، وان يقف على مستقبل المريض وحالاته بل اوان موته ، كمااذن لكل من درس علم الفلاحة ومارسها ، ان يعرف الشجرة ونتاجها ، والوردة واوان تفتحها والتربة ومدى صلاحها ، وقابليتها للزراعة الى غير ذلك مما يدور في حقله، فالتنبوء بهذه الامور الغائبة ونظائرها تتحقق فى ظل دراسات ومسبقات علمية ، ولا يعدذلك آية معجزة ، ولا دليلا على صلة المخبر بالله والعوالم الغيبية بل ان دل بشيء فانما يدل على نبوغه وتوغله فى فنه الذي تخصص فيه .

ثم ان الرسول اذا كان ممن ارتضاه الله سبحانه للتعرف على الغيب والاطلاع عليه، فلله سبحانه ان يظهره على غيبه عن طريق كتابه وقرآنه ، وقد وقفت على نماذج من ذلك ، كما له أن يوقفه عليه بغير هذا الطريق بقذف فى روعه وتحديث من ملائكته أو غير ذلك من الطرق الغيبيه فلا نرى عند ذاك فرقاً بين ان يتنبأ بفضل كتابه المنزل عليه او بطريق آخر، فالتنبؤ فى كلا الموردين آية معجزة ودليل على صلته بالله سبحانه غير ان القرآن وحي بلفظه ومعناه، وغيره وحي بمعناه دون لفظه وكلاهما حق لاينطق بهما النبي الا عن وحي يوحى .

وقد شغلت بال المحدثين التنبؤات التى صدرت عن النبي عن طريق غير الوحي القرآني فعقدوا لبيانها باباً أو أبواباً ، بل ألفوا حولها كتباً ورسالات (١) .

ونحن نذكرهنا بالرغم على ما تثيره العناصر المعاندة لاهل البيت والعادية عليهم من انكار تعرفهم على الغيب واطلاعهم عليه ، معشار ما وقفنا عليه فى صحاح القوم ومسانيدهم وكتب الحديث والتاريخ حتى يلمس القارىء خلاله ما هو الحق فى المقام . . .

---

(١) أجمع كتاب الف فى هذا الموضوع لدى الشيعة ما الفه المحدث البحرانى وأسماه مدينة المعاجز ، وهو مجلد كبير طبع بايران .

تنبؤات نبوية

١ ـ تنبأ الرسول بغلبة المسلمين على كسرى وفتح كنوزه واستقرار السلام العام فى مناطقهم وبيئآتهم . قال عدي بن حاتم : بينا أناعند النبي اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ،فقال ياعدي : هل رأيت الحيرة ؟ قلت: لم أرها ، وقدانبئت عنها، قال : فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيره حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحداً الا الله . . . ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت : كسرى بن هرمز قال نعم ؛ ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضه فلا يجد من يقبله . . . . قال عدي رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبه لاتخاف الا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى رواه البخاري (١)

٢ ـ قد شكا خباب بن الارت الى النبي وكان هو يوسد بردة له فى ظل الكعبة فقال له الا تستنصر لنا ألاتدعو الله لنا، فقال النبي مشيراً الى ألوان التعذيب التي كانت تحل بالمؤمنين فى الامم السالفة،«والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير المراكب من«صنعاء»الى «حضرموت» لايخاف الا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري وأبو داود فى الجهاد وبهذا المضمون أحاديث كثيره (٢) .

٣ ـ تنبأ النبي بالمستقبل المظلم الذي يواجهه الخويصرة رئيس الخـوارج والمارقين وهو الذي قال لرسول الله «أعدل» فقال رسول الله ويلك من يعدل ان لم أعدل قد خبت وخسرت أن لم أعدل فقال عمر بن الخطاب يارسول الله أتأذن لـي فيه أضرب عنقه قال دعه فان له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهـم

(١) التاج ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٢) راجع التاج الجزء الثالث ص ٢٥٧ .

من الرمية ينظر الى نصله فلا يوجد فيه شبيء ..(١) وللحديث صور أخرى نقلها فى التاج (٢) .

٤ ـ وقد تنبأ (ص) بكذاب ثقيف وقتال الروم وفتح القسطنطينية وغيره من علامات خروج المهدي وقد جمعها صاحب التاج فى كتاب الفتن فراجع الجزء الخامس ص٢٩٦ ـ ٣٢٦ تجد فيها من التنبؤات ما لا يحصى .

٥ ـ تنبأ رسول الله بقتل علي بسيف اشقى الاولين والاخرين وهو يبكي،فقال علي : يارسول الله ما يبكيك فقال : ياعلي أبكي لما يستحل منك فى هذا الشهر كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الاولين والاخرين شقيق عاقر ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك(٣) وهو قد أخبر فى كلامه هذا عن عدة مغيبات من أن علياً لايموت بحتف أنفه ، بل يقتل فى شهر رمضان ، فى حال الصلاة ، بالسيف، ويصيب السيف بقرنه ، وتخضب منها لحيته ، وان قاتله شقيق عاقر ثمود فى الشقاء .

٦ ـ أخبر فى غزوة تبوك عن موت أبي ذر وحده بفلات من الارض وذلك عندما أبطأ على أبى ذر بعيره فتركه وأخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله فى بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال يارسول الله ان هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله (ص) كن اباذر فلما تأمله القوم قالوا : يارسول الله هو والله أبوذر فقال رسول الله(ص) رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

ولما سير عثمان أباذر الى الربذة مات هناك ولم يكن معه الا امرأته وغلامه فأوصاهما ان اغسلاني وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبوذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق وقام اليهم الغلام فاخبرهم بما أمر فاستهل عبدالله بن مسعود يبكى

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٨٦ كتاب الفتن .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٩٥ .

(٣) عيون اخبار الرضا ج ١ ص ٢٩٧ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ١٣٥ ، كامل مبرد ج ٢ ص ١٣٢ .

ويقول صدق رسول الله تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك ، ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال رسول الله فى مسيره الى تبوك (١) :

٧ ـ وقد خاطب(ص) عائشه بقوله ياحميراء كأني بك تنبحك كلاب الحوأب تقاتلين علياً وأنت ظالمة، ياحميراء اياك ان تكونى أنت (٢) .

٨ ـ كان رسول الله يحث أصحابه الى نصرة أمير المؤمنين فى قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وقال امير المؤمنين : أمرني رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين (٣) .

٩ ـ تنبأ النبي بما يجري على الامة من بني أمية وقال : كما قال ابو ذر لعثمان سمعت رسول الله يقول اذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلا اتخذوا بلاد الله دولا، وعباد الله خولا ، ودين الله دغلا ، فارتج الخليفه بسماعه فبعث الى علي بن ابي طالب فأتاه فقال : ياأبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ماحكاه أبوذر وقص عليه الخبر فقال علي : نعم (٤) . يحدثنا التاريخ عن سيرة الخليفة فى الغنائم والاموال وعن اقتناء جماعة من اصحاب الفتن والثورات من آل العاص وبني أمية ضياعاً عامرة ودوراً فخمة ، وقصوراً شاهقة ، وثروة طائلة وأسس الخليفة حكومة أموية قاهرة فى الحواضر الاسلامية وسلطهم على رقاب الناس وأدلى الامر ، فى المراكز الحساسة على أغلمة بني أمية وشبابهم وأشياخهم وطل لهم السبل وكسح عن مسيرهم العراقيل الى غير ذلك من احداث موبقة جرت الويلات على الامة الاسلامية فى أمصارها الى أن قتل من جرائها .

والى ذلك يشير النبي بقوله سيكون أمراء بعدي يقولون ما لايفعلون ويفعلون

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٥٤ .
(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٣ ، مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٤ .
(٣) تاريخ الخطيب ج ٨ ص ٣٤٠ وغيره .
(٤) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٢ ط النجف وغيره من المصادر الوافرة .

ما لا يؤمرون (١) .

١٠ـ قدأخبر لعماراذ دخل عليه وقدأثقلوه باللبن فقال يارسول الله قتلوني يحملون علي مـا لا يحملون بقوله : ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلوك انما تقتلك الفئة الباغية وأن آخر رزقك من الدنيا صياح من لبن أو مذقة من لبن وقد طلب عمار شربة فأتى بشربة لبن ، فقال أن رسول الله (ص) قال: آخر شربة تشربها فى الدنيا شرب لبن وشربها ثم قاتل حتى قتل (٢)

١١ـ تنبأ النبي بقتال الزبير مع أمير المؤمنين وقد برز علي ، قبل وقوع الحرب يوم الجمل وأراد أن يستفيئه الى طاعته ، وقال ليبرز الي الزبير فبرز اليه مدججاً فقيل لعائشة قد برز الزبير الى علي (ع) فصاحت وا زبيراه فقيل بها لابأس عليه منه ، انه حاسر ، والزبير دارع ، فقال له علي بعد كلام دار بينـه وبين الزبير : ناشدتك الله أتذكر يوماً مررت بي ورسول الله(ص) متكىء على يدك وهو جاء من بني عمرو ابن عوف فسلم علي وضحك فى وجهي فضحكت اليه لم أزده على ذلك فقلت لايترك ابن أبي طالب يارسول الله زهوة فقال لك مه انه ليس بذي زهوة اما انك ستقاتله وأنت له ظالم فاسترجع الزبير وقال لقد كان ذلك ولكن الدهر انسانيه . . . (٣) .

١٢ ـ تنبأ النبي بقتال علي (ع) على تأويل القرآن ، روى أبو سعيد قال كنا مع رسول الله (ص) فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها «فمشى قليلا ثم قال ان منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر قال أبو بكر يعني علياً فأتيناه فبشرناه فلم يرفع به رأسه كانه قد سمعه من رسول الله (ص) (٤) .

١٣ـ أخبر النبي بقتل كسرى وان الله سلط ابنه «شيرويه» عليه ، فقتله فى شهر كذا وليلة كذا ، وذلك عندما كتب كسرى الى «باذان» وهو باليمن ان أبعث الـي

(١) مسند احمد ج ١ ص ٤٥٦ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٧ ، اسد الغابة ج ٤ ص ٤٦ .
(٣) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٦٦ .
(٤) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٣ .

هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فلياتياتي به فبعث باذان «بابويه» وكان كاتباً حاسباً ورجلا آخر من الفرس فاعلما النبي بما قد ماله فقال لهما رسول الله ارجعا حتى تأتيان غداً فلما أتيا تنبأ بقتل كسرى وأمر بما أن يقولا ، لباذان «ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر» (١) .

١٤ ـ تنبأ النبي بأنه لاينقضي حتى يمضي فيهم اثناعشر خليفة وقد روى حصين عن أبيه جابر بن سمرة قال دخلت مع أبي على النبي سمعته يقول ان هذا الامر لاينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة قال ثم تكلم بكلام خفي علي فقلت لابي ما قال ؟ قال : كلهم من قريش (٢) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ممايقف عليه المتتبع فى مسانيد الحديث وصحاحه وجوامع التاريخ أتينا بها ، ليكون القارىء على بصيرة من الامر ولا يصغي لدعوة العناصر المعاندة من رماة القول على عواهنه

وأنت ايها القاريء الكريم ، اذا درست حقيقة النبوة وما أكرم الله سبحانه أنبيائه من نفسيات وملكات كالعصمة والقداسة الروحية والنزاهة النفسية ، والعلم الذي لايضل معه فى شيىء ، الى كثير من كرائم وفضائل ، حتى جعلهم أكمل البشر خلقاً وخلقاً ، وأصدقهم قولا ، وأحاطهم بالرعاية ، وشملهم بالعناية ، كما قال سبحانه مخاطباً النبي الاكرم «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا» (الطور ـ ٤٨) لوقفت ان التنبؤ بالغيب والاخبار عن غابر الحوادث وطارئها ليس أمراً عجيباً فى جنب مامنح الله لهم من عظائم المواهب ، وكرائم الفضائل .

فعندذاك فلاغرو فيما اخبروا عن غابر الامور وطارئها ممانقلناه ومالم ننقله فان النبوة منصب الهي خطير لايستحقه الا الامثل فالامثل من الناس وأفضلهم وأجمعهم للكمالات وأعلمهم بالحقايق والامور ، ممن شملته العناية الالهية وتعلم منه مالم يكن يعلمه هو

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٦٠ وتاريخ الكامل ج ٢ ص ١٤٦ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٢) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٩١ ، ورواه غيره بصور متقاربة .

ولا قومه كما قال «ويعلمه الكتاب والحكمة والتورات والانجيل (آل عمران ـ ٣٨) وقال سبحانه «تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» (يوسف ٤٨) . وقال سبحانه : «وانه لذو علم لما علمناه» (يوسف ـ ٦٨) ، وقال «ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون» (يوسف ـ ٩٦) ، فعند ذاك فلا عجب اذا أخبروا بغابر الامور وطارئها ، أو بكل ما كان وما يكون من الحوادث باذن من الله سبحانه فـ «ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب» .

تنبؤات علوية :

هذا أمير المؤمنين علي بن طالب صنو النبي ، وباب علمه ووارثه قد تنبا بملاحم أحداث وفتن في حياته وأيام امارته أخذها عن منهلها العذب ونميرها الصافي، فصدق الخبر الخبر ، فتحقق بعضها بعد مئات السنين ، ولم يكن تنبؤ الوصي عن تكهن وتخرص ولا عن فراسة ومحاسبات عادية ، وشتان بين تخرص متخرص ، أو كهانة متكهن ، أو تفرس متفرس ، وما تنبأ به الوصي على صهوات المنابر في الحواضر الاسلاميه وميادين الحروب الطاحنة وأندية الوعظ والتبليغ معلناً بأن ما ذكره وراثة عن رسول الله (ص) وعلم وصل اليه منه . ودونك نماذج مما وقفنا عليه :

قام خطيباً في البصرة مخاطباً أهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال:

١ ـ كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها (١) .

وقد وقع المخبر به ، فان البصرة غرقت مرتين في أيام القادر بالله ، ومرة في ايام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها الا مسجدها الجامع ، بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر ، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين(ع) جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الان بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها ، وغرق كل ما في ضمنها ، وهلك كثير من أهلها (٢) .

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٢ .

(٢) الشرح الحديدي ج ١ ص ٢٥٣ .

٢ـقوله: وكأني وقد ساربالجيش الذي لايكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل ، يثيرون الارض بأقدامهم ، كأنها أقدام النعام (١) .

٣ ـ قوله: وكأني أراهم قوماً كان وجوههم المجان المطرقة ، يلبسون السرق والديباج ، يعتقبون الخيل العتاق ، ويكون هناك استمرار قتل ، حتى يعيش المجروح على المقتول ، ويكون المفلت ، أقل من المأسور (٢) .

يومي بـه الى فتنـة التتار وجيشه العرمرم الذي أعده رئيسها لغزو المسلمين وهدم بلادهم ونهب أموالهم وقتل صغيرهم وكبيرهم ، وقد ذكر ابن الاثيـر ، هـذه الحادثة المؤلمة فى تاريخه (فى حوادث سنة ٦١٧ ومابعدها ج٩ص٣٢٩-٣٨٧) وقال فى أولها : ولقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاماً لهـا ، كارهـاً لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا ، واؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه ، أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ من ذا الذي يهون عليه ذكره ، فياليت أمي لم تلدني، وياليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسيا ، الا اني أخشى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لايجدي نفعاً .

وقد نقل الشارح الحديدي ج ٨ ص ٢١٨ ـ ٢٤١ اجمال هذه الملحمة ايضاً ، فراجع .

٤ ـ مايومي الى سلطة الحجاج : لو تعلمون ما أعلم مما طوى عنكم غيبه اذاً لخرجتم الى الصعدات تبكون على أعمالكم وتندمون على أنفسكم ، الى ان قال أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضركم ويذيب شحمتكم ايه ابا وذحة (٣) .

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٢٤ ، قال الشريف الرضى : يومى بذلك الى صاحب الزنج، وقد ذكر اخباره الطبرى فى تاريخه ج ٣ ص ١٧٤٣ طبع اوربا ، والمسعودى فى مروج الذهب ج٤ ص ١٩٤ ، ونقله الشارح المعتزلى فى شرح النهج ج ٨ ص ١٢٦-٢١٤ .

(٢) نهج البلاغة خطبة ١٢٤ .

(٣) الوذح ما يتعلق بذنب الشاة من البعار فيجف ، والمراد هنا الخنفساء وقد لسعت يد الحجاج فورمت يده وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته، ولا يخفى ان فى هذا الكلام القصير تنبؤات .

٥ ـ تنبأ بما ستلقى الامة من مروان وولده بقوله : (لما أخذ مروان أسيراً يوم الجمل) «أما ان له امرة كلعقة الكلب أنفه (١) وهو أبو الاكبش الاربعة وستلقى الامة منه ومن ولده يوماً أحمر(٢) وفسروا الاكبش الاربعة بولد عبدالملك بن مروان وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام الذين سودوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الانسانية بجناياتهم الموبقة وخزاياتهم المهلكة .

٦ ـ هذا «عرفة» الازدي وهو من أصحاب النبي و «الصفة» وقد دعا له النبي ان يبارك له في صفقته يقول : دخلني شك في شأن علي (ع) فخرجت معه على شاطىء الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله فقال مشيراً بيده ، هذا موضع رواحلهم، ومناخ ركابهم ، ومهراق دمائهم بأبي من لاناصر له في الارض ولا في السماء الا الله، فلما قتل الحسين ، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه ، فاذا هو الحال ما أخطأ شيئاً قال : فاستغفرت الله مما كان من الشك وعلمت أن علياً (ع) كان على حق لم يقدم الا بما عهد اليه منه (٣) .

٧ ـ ما تنبأ به عليه السلام عندما عزم على حرب الخوارج ، وقيل له : ان القوم قد عبروا جسر النهروان قال : مصارعهم دون النطفة والله لايفلت منهم عشرة ولايهلك منكم عشرة .

قال الرضي : معنى بالنطفة ماء النهر وهي أفصح كناية عن الماء وقال الشارح الحديدي : هذا الخبر من الاخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب .

والاخبار على قسمين :

أحدهما: الاخبار المجملة ولا اعجاز فيها : نحو ان يقول الرجل لاصحابه : انكم ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً ، فان نصر ، جعل ذلك حجة له عند اصحابه وسماها معجزة وان لم ينصره قال: تغيرت نياتكم وشككتم في قولي،

---

(١) تصوير عن تقصر مدتها ، وكانت تسعة اشهر ، وهذا تنبؤ آخر .

(٢) نهج البلاغة ط عبده ص ٧٠ .

(٣) اسد الغابة ج ٤ ص ١٦٩

فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول ، ولانه قد جرت العادة ان الملوك والرؤساء يعدون أصحابهم بالظفر والنصر ، ويمنونهم الدول ، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن اعجازاً .

والقسم الثاني : فى الاخبار المفصلة عن الغيوب ، مثل هذا الخبر ، فانه لايحتمل التلبيس ، لتقييده بالعدد المعين فى أصحابه وفى الخوارج ووقوع الامر بعد الحرب بموجبه ، من غير زيادة ولا نقصان وذلك أمر الهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه والقوة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا ، ولقد كان له من هذا الباب مالم يكن لغيره .

وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته ، وأحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا ، حتى نسب الى ان الجوهر الالهي حل فى بدنه كما قالت النصارى فى عيسى عليه السلام وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك فقال : «يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال» .

وقال له تارة أخرى «الذي نفسي بيده لولا اني اشفق ان يقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم ، لقلت اليوم فيك مقالا لاتمر بملأ من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة» (١) .

ثم قال : واعلم انا لاننكر ان يكون فى نوع البشر أشخاص يخبرون عن الغيوب ولكن كل ذلك مستند الى البارىء سبحانه باقداره وتمكينه وتهيئة اسبابه ، فان كان المخبر عن الغيوب ممن يدعى النبوة ، لم يجز ان يكون ذلك الا باذن الله سبحانه وتمكينه ، وان يريد به تعالى استدلال المكلفين على صدق مدعى النبوة .

واما اذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدعياً للنبوه ، نظر فى حاله ، فان كان ذلك من الصالحين الاتقياء نسب ذلك الى انه كرامة اظهرها الله تعالى على يده ابانة له وتميزاً من غيره ، كما فى حق علي عليه السلام وان لم يكن كذلك امكن ان يكون ساحراً او كاهناً ، او نحو ذلك .

---

(١) الشرح الحديدى ج ٥ ص ٤

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية افضل واشرف ممن لايكون فيه من حيث اختصاصه بها فان كان للانسان العاري منها مزية اخرى يختص بها توازيها اوتزيد عليها فنرجع الى التمثيل والترجيح بينهما والا فالمختص بهذه الخاصية ارجح واعظم من الخالي منها على جميع الاحوال (١) .

٨ ـ لما قتل الخوارج وقيل له : يا امير المؤمنين هلك القوم باجممهم فاجابهم: كلا والله ، انهم نطف في اصلاب الرجال وقرارات النساء (٢) كلما نجم منهم قرن ، قطع شيء حتى يكون آخرهم لصوصاً (٣) .

قوله عليه السلام : «كلما نجم منهم قرن قطع» استعارة حسنة ، يريد : كلما ظهر منهم قوم استؤصلوا فعبر عن ذلك بلفظة «قرن» كما يقطع قرن الشاة اذا نجم وقد صح أخباره عليه السلام عنهم انهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان وانها دعوة سيدعو اليها قوم لم يخلقوا بعد ، وهكذا وقع وصح أخباره عليه السلام أيضاً انه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين فأن دعوة الخوارج اضمحلت ورجالها فنيت حتى أفضى الامر الى ان صار خلفهم قطاع طريق متظاهرين بالفسوق والفساد في الارض.

وممن انتى امره منهم الى ذلك الوليد بن طريف الشيباني في أيام الرشيد بن المهدي فأشخص اليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله وحمل رأسه الى الرشيد .

ثم خرج في أيام المتوكل ، ابن عمر والخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، وتسمى بالخلافة ، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي .

وقد خرجت بعد هذين جماعة من الخوارج ، وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم وانما وكدهم وقصدهم أخافة السبيل والفساد في الارض واكتساب الاموال من غير حلها (٤) .

٩ ـ وقد أماط الامام الستر عن وجه الحقيقة وعن كمية علمه وكيفيته في بعض خطبه واقسم فيه بالله الذي نفسه بيده ، أنهم لايسألونه عن امر يحدث بينهم وبين القيامه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢-١٣
(٢) قرارات النساء كناية عن الارحام
(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥٩
(٤) الشرح الحديدى ج ٥ ص ٧٣-٧٧

الا أخبرهم به وانه ماصح من طائفة من الناس ، يهتدي بها مائة وتضل به مائة ، الا وهو مخبرلهم انسألوه برعاتها وقائدهاوسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلا ، ومن يموت منها موتاً حيث قال بعد انفرغ من قتال الخوارج .

«أيها الناس فاني فقأت عين الفتنه ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري ، بعد ان ماج غيهبها ، واشتد كلبها .

فاسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده ، لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة ، وتضل مائة ، الا أنبأتكم (١) بناعقها ، وقائدها ، وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتاً .

ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الامور ، وحوازب الخطوب، لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المسئولين،وذلك اذا قلصت حربكم ، وشمرت عن ساق ، وكانت الدنيا عليكم ضيقاً ، تستطيلون أيام البلاء عليكم ، حتى يفتح الله لبقية الابرار منكم .

ان الفتن اذا اقبلت شبهت ، واذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات . ويعرفن مدبرات ، يحمن حول الرياح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلداً .

الا وان أخوف الفتن عندي عليكم ، فتنة بني أمية ، فانها فتنة عمياء مظلمة ! عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطا البلاء من عمى عنها .

وايم الله لتجدن بني أمية لكم ارباب سوء بعدي ، كالناب الضروس ، تعذم بفيها ، وتخبط بيدها ، وتزبن برجلها ، وتمنع درها ، لايزالون بكم حتى لايتركوا منكم ، الا نافعاً لهم ، أو غير ضائر بهم .

ولا يزال بلاؤهم عنكم ، حتى لايكون انتصار أحدكم منهم الا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب من مستصحبه ، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية ، وقطعا جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى .

---

(١) مخطوطة النهج : «نبأتكم» .

نحن اهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة ، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الاديم ، بمن يسومهم خسفا، ويسوقهم عنفا، ويسقيهم بكاس مصبرة لايعطيهم الا السيف، ولايحلسهم الا الخوف ، فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور ، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه ، فلا يعطونيه» (١) .

قال ابن أبي الحديد : ولقد امتحنا اخباره فوجدناه موافقاً ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، كاخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته ، واخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وما قاله في كربلاء حيث مر بها، واخباره بملك معاوية الأمر من بعده واخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر، وما اخبره به من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدمه الى أصحابه من اخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب ، واخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، واخباره بعدة الجيش الواردة اليه من الكوفة لما شخص عليه السلام الى البصرة لحرب أهلها واخباره عن عبد الله بن الزبير وقوله فيه : « خب ضب ، يروم امراً و لا يدركه ، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا وهو بعد مصلوب قريش» .

وكاخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة اخرى بالزنج وهو الذي صحفه قوم فقالوا :بالريح ، وكاخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من اهلها يعرفون ببني رزيق ، (بتقديم المهملة) وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسن وولده واسحاق بن ابراهيم وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية وكاخباره عن الائمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله عليه السلام : «وان لال محمد بالطالقان لكنزاً يستظهره الله اذا شاء دعاؤه حق يقوم باذن الله فيدعو الى دين الله» .

---

(١) نهج البلاغه خطبة ٨٩ ، قال الشارح الحديدى : وهذه الخطبة ذكرها جماعة من اصحاب السير ، وهي متداولة مستفيضة، خطب بها على(ع) بعد انقضاء امر النهروان، وفيها الفاظ لم يوردها الرضى من ذلك قوله : «سلونى قبل ان تفقدونى ، فانى ميت عن قريب أو مقتول ، بل قتلا ما ، ينتظر أشقاها ان يخضب هذه بدم» وضرب بيده الى لحيته . شرح النهج ج٧ ص ٥٧ .

وكاخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله «انه يقتل عند احجار الزيت» وكقوله عن اخيه ابراهيم المقتول بباب حمزه : «يقتل بعد ان يظهر ، ويقهر بعد ان يقهر» وقوله فيه ايضاً : «يأتيه سهم غرب (١) يكون فيه منيته فيا بؤساً للرامي شلت يده ووهن عضده» واخباره عن قتلى «وج» وقوله فيهم : «هم خير اهل الارض» .

وكاخباره عن المملكة العلوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصروا ابا عبدالله الداعي المعلم وكقوله وهو يشير الى ابي عبدالله المهدي : وهو اولهم ثم يظهر صاحب القيروان الغض البض ، ذو النسب المحض ، المنتجب من سلالة ذي البداء ،المسجى بالرداء ، وكان عبيد الله المهدي ابيض مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن، تار (٢) الاطراف ، وذو البداء اسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام وهو المسجى بالرداء لان اباه اباعبدالله جعفر اسجاه بردائه لما مات ، وادخل اليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبه فى امره .

وكاخباره عن بني بويه وقوله فيهم : «ويخرج من ديلمان بنو الصياد » اشارة اليهم وكان ابوهم صياد السمك ، يصيد منه بيده مايقوت هو وعياله بثمنه ، فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة ، ونشر ذريتهم حتى ضربت الامثال بملكهم وكقوله عليه السلام فيهم : «ثم يستشرى امرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل : فكم مدتهم ياامير المؤمنين؟ فقال : «مائة اوتزيد قليلا» وكقوله فيهم: والمترف ابن الاجذم ، يقتله ابن عمه على دجلة وهو اشارة الى عزالدولة بختيار ابن معز الدولة ابي الحسين ، وكان معزالدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص فى الحرب، وكان ابنه عزالدولة بختيار ، مترفاً صاحب لهو وشرب ، وقتله عضد الدولة فناخسرو، ابن عمه ، بقصر الجص على دجلة فى الحرب ، وسلبه ملكه : فأما خلعهم للخلفاء فأن معز الدولة خلع المستكفى ، ورتب عوضه المطيع ، وبهاء الدولة ابا نصر بن عضد الدولة ، خلع الطائع ورتب عوضه القادر ، وكانت مده ملكهم كما اخبر به عليه السلام .

(١) سهم غرب ، أى لا يدرى راميه .
(٢) التار : الممتلىء جسمه وعظمه ريا .

وكاخباره عليه‌السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الامر الى اولاده فأن علي بن عبد الله لما ولد ، اخرجه ابوه «عبد الله» الى علي عليه‌السلام فأخذه وتفل فى فيه وحنكه بتمرة ، قد لاكها ، ودفعه اليه وقال : خذ اليك ابا الاملاك، هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها ابو العباس المبرد فى «كتاب الكامل» (١) وليست الرواية التي يذكر فيها العـدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه .

وكم له من الاخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ، مما لو اردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة ، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة»(٢) .

١٠ ـ قوله (ع) فى خطبة تسمى القاصعة . . . ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما ، ارى نور الوحـي والرسالة واشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (ص) فقلت: يارسول الله ما هذه الرنة ؟ ! فقال : هذا الشيطان آيس من عبادته انك تسمع ما أسمع وترى ما ارى الا انك لست بنبي ولكنك وزير(٣) .

قال الشارح الحديدي : روي عن جعفر محمد الصادق (ع) ، قال كان علـي عليه السلام يرى مع رسول الله (ص) قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت وقـال له (ص) «لولا اني خاتم الانبياء لكنت شريكا فى النبوة فان لاتكن نبيا فانك وصي نبـي ووارثه بل انت سيد الاوصياء وامام الاتقياء» (٤) .

ولا دليل على حمل قوله «انك تـسمع ما اسمع» على سماع خصوص رنة الشيطان بل هو ظاهر فى العموم حسب ما يظهر من الامام الصادق (ع) .

هذه عشرة كاملة من روائـع نصوص الامام تدل على وقوفه على ما غاب عن الحس باذن من الله سبحانه .

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٧ .
(٢) شرح النهج ج ٧ ص ٤٨ - ٥٠ .
(٣) نهج البلاغه طبعه عبده ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(٤) الشرح الحديدى ج ١٣ ص ٢١٠ .

عثرة لا تقال

هذا هـو الحق الذي أحق ان يتبع ، وقد صدقه كتاب الله العزيز وايدتة النصوص المستفيضة واطبقت عليه الاعلام فى العصور المختلفه .

غير أن هذه المسألة قد اثارت فى عصرنا قلقاً واضطراباً فى الاوساط الدينيه فحامت حولها الشبهات ، واكتنفتها أجواء تثير السخط والاستياء ، من أناس ابتلوا بعقدة النقص او جنون العظمة ، مع أن كتاب الله بين ظهرانيهم والنصوص المتضافرة بين أيديهم ، فلو رجعوا الى ذينك المصدرين ، بقلب سليم وفكـر مستقيم ، لعرفوا الحق واتبعوه ، والحق أحق أن يتبع . وقـد وقفت بعد ما كتبت هذا الفصل على «كتيب» لبعض من يضمر لائمة أهل البيت حقداً وعداءاً ، ويحارب كل فضيلة تثبتها النصوص لهم ، ويمتلىء صدره بالتعصب المقيت لمناوئيهم وقد اعاد فيه ما ذكره ابن تيمية ونظراءهم الذين أكل عليهم الدهر وشرب حيث استنكر علم النبي وأوصيائه بالغيب على وجه الاطلاق وعزاه الى جمهور الامامية وفطاحلهم ، قائلا بـأن فكـرة علمهم بالغيب ، أسطورة حدثت فى الاونة الاخيرة بيد الغلاة . واستشهد على ذلك بما ذكره امين الاسلام فى كتابه ، حيث قال فى تفسير قوله سبحانه : «يوم يجمع الله الـرسل فيقول ما ذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك انت عـلام الغيوب» (المائدة ـ ١٠٩) ما هذا لفظه :

وذكر الحاكم ابوسعيد فى تفسيره : أنها تدل على بطلان قول الاماميه : ان الائمة يعلمون الغيب» واقول ان هذا القول ظلم منه لهولاء القوم ، فانا لانعلم احداً منهم بل احداً من أهل الاسلام يصف احداً من الناس بعلم الغيب علماً ذاتياً ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين ، والشيعة الامامية برآء من هذا القول ومن نسبهم الى ذلك فالله ما بينه وبينهم (١) .

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٢٦١ ط صيدا .

غير انه عزب عن هذا المسكين أن ما ذكره «أمين الاسلام» لا يمثل رأي الشيعة الامامية في الموضوع ، وانما هو رأى واحد منهم ولا يمثل رأي الجميع ولا يؤخذ الجمع بفعل الواحد ورأيه .

اضف الى ذلك أن ماذكره امين الاسلام لايهدف الا الى ماذكرناه وان الممنوع توصيفهم باطلاعهم على الغيب نظير علمه سبحانه، بشهادة قوله «ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين» اذا أى صلة بين مفارقة الدين والقول بان الله سبحانه أظهر غيبه لاحد اوليائه ،واطلع هو على الغيب من تلك الناحية وتعرف بتعليم منه سبحانه.

ولو رجع الكاتب الى مواضع آخر من كتابه ولم يقصر نظره على موضع واحد منه ،لوقف على مغزى مارامه فانه قدس الله سره قد حقق المسألة في موضع آخر من كتابـه .

قال في تفسير قوله سبحانه : «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما يعملون» (هود-١٢٣) ماهذا لفظه: وجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدوان والتشنيع، قد ظلم الشيعة الامامية في هذا الموضع من تفسيره فقال : «هذا يدل على أن الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: ان الائمة يعلمون الغيب» ولا شك أنه عنى بذلك من يقول بامامة الاثني عشر ويدين بانهم أفضل الانام بعد النبي (ص) فان هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم ، وينسب الفضائح والقبائح اليهم ، ولا نعلم احداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لاحد من الخلق ، فانما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لابعلم مستفاد ، وهذه صفة القديم سبحانه ، العالم لذاته لايشاركه فيها أحد من المخلوقين ، ومن اعتقد ان غير الله سبحانه يشاركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملة الاسلام .

فاما مانقل عن امير المؤمنين (ع) ورواه عنه الخاص والعام من الاخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله يومي به الى صاحب الزنج كأني يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولالجب ولا قعقعة لجم، لاصهيل خيل يثيرون الارض

باقدامهم كانها اقدام النعام .

وقوله يشير الى مروان أما ان له امـرة كلعقة الكلب أنفه وهـو أبو الاكبش الاربعة وستلقى الامة منه ومن ولده موتاأحمر ومانقل من هذا الفن عن أئمه الهدى (ع) من أولاده مثل ماقاله أبو عبد الله (ع) لعبد الله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً والله ماهي اليك ولا الى ابنيك ولكنها لهم واشار الى العباسيين وان ابنيك لمقتولان ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهرى فقال له أرايت صاحب الرداء الاصفر يعنى أبا جعفر المنصور قال نعم فقال: انا والله نجده يقتله فكان كما قال .

ومثل قول الرضا «ع» بورك قبر بطوس وقبران ببغداد فقيل له قد عرفنا واحداً فما الاخر قال : ستعرفونه ثم قال : قبرى وقبر هارون هكذا وضم اصبعيه (١) وقوله فى القصة المشهورة لابي حبيب النباحى وقد ناوله قبضة من التمر لو زادك رسول الله (ص) لزدناك وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة «معك حلة فى السفط الفلاني دفعتها اليك ابنتك وقالت اشتر لى بثمنها فيروزجاً» والحديث مشهور الى غير ذلك مما روى عنهم عليهم السلام . فان ذلك متلقى عن النبي (ص) مما اطلعه الله عليه فلا معنى لنسبة من روي عنهم هذه الاخبار المشهوره الى أنـه يعتقد كونهم عالمين بالغيب وهل هذا الاسبب قبيح وتضليل لهم بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير والله يحكم بينه وبينهم واليه المصير» .

كبرت كلمة تخرج من افواههم

(١) نظير قوله لموسى بن مهران فى مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب : اترونني واياه ندفن فى بيت واحد . عيون اخبار الرضا ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) وقوله لمأمون عند ما ذاكره بقوله ندخل بغداد ان شاء الله فنعمل كذا وكذا فقال له الرضا تدخل انت بغداد يا امير المؤمنين ، ثم سئل عنه اصحابه فقال (وما انا وبغداد لا ارى بغداد ولا تراني) عيون اخبار الرضا ج ٢ ص ٢٢٥ .

اكمـال :

قد استدل بعض مشايخنا الامامية تبعاً للمأثور عن ائمة اهـل البيت (١) على علم النبي واسرته الطاهرة بالغيب ، ببعض الايات .

١ ـ كون النبي شهيداً على الامة بنص القرآن العظيم والشهادة على الشيء فرع العلم به وذلك في قوله سبحانه «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (البقره ـ ١٤٢) وقوله سبحانه «فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هولاء شهيدا» (النساء ـ ٤٠) .

وليس المراد من الشهادة في الايتين وغيرهما ، الشهادة على صور الاعمال والافعال حتى يكتفى فيه بالحواس العادية والقوى الكامنة في البدن ، بل الشهادة على حقايق الاعمال والمعاني القلبية من الكفر الايمان والاخلاص والرياء وغيرها ، وهي ممالاتكفيه الحواس العادية بل يحتاج الى احساس آخر وراء الاحساس العادي .

وبما ان الصديقين والشهداء والصالحين من الموضوعات الوارده في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا» (النساء ـ ٦٨) فنرجيء البحث عن معنى الشهيد والشهادة ومايراد منهما الى محله من اجزاء كتابنا هذا.

٢ ـ مادل على ان الله ورسوله بل المؤمنين يرون عمل المنافقين وذلك في قوله سبحانه :«يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من اخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهاده فينبئكم بما كنتم تعملون» (التوبة ـ ٩٤) ونظيره قوله سبحانه «وقل اعملو فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهاده فينبئكم بما كنتم تعملون» (التوبة ـ ١٠٥).

---

(١) اصول الكافي ج ١ ص ١٩٠ .

غير ان المتبادر فى بادىء النظر من رؤية الاعمال ، هـو شهـودها بانفسها او شهودها باثارها ونتائجها ، والاية الاولى تهدف الى ان العبرة بالعمل لابالاعتذار عن التقصير ، وهولا يخفى بعد على الله ورسوله ، والمتبادر من الايه الثانيه هو ذاك ايضا لانه عطف على قوله تعالى «خذمن اموالهم صدقة» اى اعملوا لدنياكم وآخرتكم وهو لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على الناس ، وهو مما تكفي فيه الحواس الظاهرية ولايتوقف على العلم بالعيب .

ورؤية الاعمال بهذا المعنى وانكانت لاتختص بالمؤمنين بل يعم الناس جميعاً غير انه لما كان البحث والحوار فى الاية دائراً بين المؤمنين والمنافقين خص الله سبحانه المؤمنين بالذكر وأعرض عن غيرهم .

نعم ربما يستظهر ان المراد من رؤية عملهم هو الوقوف على حقايق الاعمال ومقاصدهم ، من اعمالهم وهو مما لايمكن الاطلاع عليها من طريق الاثارو النتائج ، بل يتوقف على ادراكغيبي وعندذاكيكون المراد من المؤمنين شهداء الاعمالاكلهم وسوف توافيك جلية الحال عند البحث عن الشهداء فى الذكر الحكيم ، ومـا ورد حول الاية من الروايات (١) .

هل استاثر الله بعلم هذه الامور ؟

قداشتهر بين المفسرين ان هناك اموراً خمسة استأثرالله بعلمها لوحده ، لا يجليها لغيره واستندوا فى دلك على قوله تعالى :

«ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس باى ارض تموت ان الله عليم خبير» (لقمان ـ ٣٤) ويؤيده ماروى من اختصاص العلم بهذه الامور الخمسة بالله تعالى وان غيره لايطلع عليها ابدا

(١) اصول الكافى ج ١ ص ٢١٩ ،

وقد جرت مشيئة الله على كتمان العلم بهذه الامور عن خلقه .

ولقائل ان يقول : لامحيص عن صحة ماذكروه فى الاربعة التالية:علم الساعة، العلم بما فى الارحام ، العلـم بما يكسبه الانسان فى مستقبل أيامه ، وعلمه بالارض التى يموت فيها الانسان ، واما اختصاص العلم بوقت نزول الغيث به سبحانه فلاتفيده الاية اذ انه تعالى يقول : وينزل الغيث ، ولم يقل : وعنده علم نزول الغيث .

ويدفع بان العلم بوقت نزول الغيث لولم يكن مثل الاربعة الباقية لكان الاتيان به عندئذ اقتضابا بلاجهة وعطفاً بلا مناسبة فلاى وجه اورده فى هذه الاية فى عداد الامور التى سلمنا اختصاص علمها به سبحانه وليس هو منها،فلاجل الالتزام بوجود المناسبة بين المتعاطفات لامفر عن القول باختصاص علمه به سبحانه ايضاً .

دفع شبهة :

ربما يتخيل بل يقال:كيف استأثر الله بعلم هذه الامور ، والنشرات الجويـة لدائرة الانواء الجوية تعين مواقع نزول الغيث والوفر والاختبارات الطبية تبين وضع الجنين وانه ذكر او انثى . ولكنها مدفوعة بما يلي :

١ ـ ان الله سبحانه واقف على وضع الجنين من بدؤ تكونه فى رحم امه،حين ماهو خلية فيها ، ليس لها من الصور المعتورة عليه شيىء ، الى أن تضعه امـه ، فهو سبحانه يعلم حين ماهو خلية فى رحمها، أنه ذكر او انثى ،وليس ذلك مقدوراً للبشر وان أطل بنظره عليها بأشعة قوية كهربائية او باختبارات طبية فالعلم بذكورة الجنين او انوثته ، من بدء وجوده الى ختامه،مخصوص به سبحانه ، ولايشاركه فى هذا الحد الوسيع أحد من البشر .

٢ ـ ان تخصيص قوله سبحانه : ويعلم مافى الارحام باحد الوصفين المذكورين (الذكورة والانوثة) مخالف لاطلاق كلامه ، فان الظاهر منه انه سبحانه يعلم جميع

حالات مافى الارحام ، وأنه ذكر أو انثى ، قبيح أو جميل ،سخىاو بخيل، شجاع او جبان ؛ سعيد أو شقى ، مرافق النبيين فى الجنان او حطب لنار جهنم الى غير ذلك من الصفات والروحيات التي لايتمكن البشرمن الوقوف عليها عندماكان صاحب الصفات جنيناً فى رحم امه . وهذا التعميم وشمول الاية للصفات الظاهريةوالباطنية صريح كلام الامام امير المؤمنين (ع) فى نهج البلاغة (١) .

واما النشرات الجويه التي تصدرها ادارة الانواء الجويةالدارجة فىالحضارة الفعلية ، فأنباء ظنية مبنية على اصول وتجارب واستطلاع على أوضاع تكتسبهادائرة الانواء الجوية من مختلف البلدان قريبها وبعيدها ـ ومع ذلك ـ فلاتخرج عن دائرة الحدس والظن ، وليست مصونة عن الخطأ كما هو الشاهد لكل من يصغى اليها ، ثم يرجع الى فسيح الكون ويطبقها عليه .

توضيحه : ان لكل من الامم عبر الاجيال والقرون،تجارب فى هذا الباب، كانوا يستكشفون بها على سبيل الظن والتخرص ، مواقع نزول المطر والثلج ، حتى أن القرويين والبدو ، كانوا يستطيعون التنبؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر ، وما اشبه ذلك من بعض الظواهر الجوية كاتجاه الريح مثلا . بل كانوا يستكشفون بغير ذلك من نزول الكلب من سطح البيت الى داخله وقد حكى ان نصير الدين الطوسي (ذلك الفلكي العظيم) نزل فى بعض أسفاره على طحان له طاحونة خارج بعض البلاد فلمادخل المنزل صعدالسطح لحرارةالهواء فقال له صاحب البيت انزل ونم فى داخل البيت لاجل نزول المطر فنظر «نصيرالدين» الى الاوضاع الفلكية ، فلم ير شئاً يورث الظن بنزول المطر فقال له الطحان ان لى كلبا ينزل فى كل ليلةيحس ان المطر سينزل فيها، الى البيت فلم يقبل ذلك منه المحقق،وبات فوق السطح فأدركه المطر أثناء الليل وتعجب المحقق الطوسي (٢) .

نعم الادوات الحديثة لتعيين درجة الحرارة فى الجو وارتباط مختلف البلدان

---

(١) راجع نهج البلاغة خطبة ١٢٦ .

(٢) مكاسب الشيخ الانصارى ص ٢٥ .

بعضها ببعض، بواسطة أجهزه البرقيات السلكية واللاسلكية وتبادل المعلومات فيما بينها عن الحالة الجوية ساعة فساعة، ـ هذه الادوات ـ احتلت مكان التجارب السالفة وساعد على امكان تتبع تقلبات الطقس بالاستنتاج والتخمين .

ومع ذلك فان استنتاجات دائرة الانواء الجوية لاتكون صائبة دائماً فكثيراً ماتخطىء في تخمينها ، ولا تخبر عما تخبر الابالظن والترديد، بل على نحو الاجمال في جانب والاهمال في جانب آخر، ولا تستطيع أن تحدد وقت نزول المطر ومحال نزوله دقيقاً ، وانه في أي ساعة او على أي مكان من القطر العظيم ينزل .

وأعجب منه انه اذا شوهد منها التخلف حتى في مجمل ماأخبرته تراها تتمسك باعذار كاشفة عن قصور باعها وعدم احاطتها بما في الجو الفسيح من الاحوال والاوضاع .

واما الاختبارات الطبية ، فاعطف نظرك الى بعض ما ذكره بعض الاخصائيين في المقام لتقف على ان تحديد نوع المولود يرجع في جوهره الى الصدفة، او الى الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبؤ بها قال(١) :

توجد في كل فرد غدتان تناسليتان وتختلف الغدد الذكرية عن الغدد الانثوية في مكانها التشريحي بالجسم ، وفي وظائفها الاولية والثانوية وفي تأثيرها على شخصية الفرد .

وتؤثر هذه الغدد ، بهرموناتها المختلفة في التفرقة بين الذكر والانثى ولهذه الفروق الجنسية أثر قوى في سرعة النمو ، وفي تباين واختلاف مظاهره .

هذا وتنشأ الاختلافات الجنسية منذ اللحظة الاولى التي تتكون فيها البييضة المخصبة اي عندما تلتقي الصبغيات الذكرية بالصبغيات الانثوية في نواة البييضة وتتميز البييضة بأنها تحتوي على صبغي خاص بالجنس ، يوجد دائما بصورة واحدة نرمزلها بالرمز (س) ويتميز الحي المنوي بوجود صبغي خاص بالجنس يوجد احيانا، بصورة تماثل صورة الصبغي الانثوي ولذلك يرمز له بالرمز (س) ايضا ويوجد احيانا بصوره اخرى يرمزلها بالرمز (ص) فاذا احتوت البييضة المخصبة على الصبغيين (س س) كان الجنين

(١) الاسس النفسيه للنمو تأليف الدكتور فؤاد البهى مدرس علم النفس بجامعة عين شمس.

انثى ، واذا احتوت على الصبغيين (س ص) كان الجنين ذكراً وهكذا يتحدد الجنس منذ اللحظة الاولى فى تكوين البييضة المخصبة وبذلك يسيطر الحي المنوي على نوع الجنس، أي ان الجنس ذكراً كان ام انثى يرجع فى جوهره الى الرجل لا الى المرأة واذا عرفنا ان عدد الحيوانات المنوية الذكرية فى كل نطفة يربو على ٢٠٠/٠٠٠/٠٠٠ حي ذكري عرفنا بعد ذلك ان تحديد نوع المولود يرجع فى جوهره الى الصدفة او الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبو بها .

نظرنا فى الموضوع :

الى هنا جرينا على مسلك المفسرين فى تفسير الاية ودفعنا عنهم ما اشكل عليهم وقد ارسلوه ارسال المسلمات، وأيدوها بروايات سوف نوضح حالها، ومدى صحتها غير ان هنا احتمالا آخر ، ربما يكون اقرب الى ظاهر الاية مما ذكروه ودونك بيانه:

ان لسان الايه فى بيان علمه سبحانه بهذه الاشياء الخمسة، ليس على نسق واحد بل على وجوه ثلاثة .

١ ـ لسان الحصر : وهذا يختص بالعلم بوقت الساعة من الامور الخمسة ، فتراه يقول «وعنده علم الساعة ، بتقديم الظرف على المبتدأ وهو يفيد الحصر ولا تجد هـ ذا السياق من الكلام فى الاربعة الباقية ولاجل ذلك تراه غير اسلوب الكلام عندما اراد ان يبين تعلق علمه بغير الساعة وقال : «وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام و ..» وعلى هذا لاباس بما ذكروه فى هذا القسم فان ظاهر الاية يشير الى ان العلم بوقت الساعة مختص به سبحانه لايعدو غيره .

وتؤيده آيات اخر ، وردت فى هذا المضمار قال سبحانه: «يسئلونك عن الساعة ايان مرساها قل علمها عند ربي لايجليها لوقتها الاهو» (الاعراف ـ ١٨٧) وقال : «يسئلك الناس عن الساعة قل علمها عند ربى» (الاحزاب ـ ٦٣) وقال تعالى «اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من اكمامها وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه» (فصلت ـ ٤٧) ترى انه سبحانه فى هذه الاية الاخيرة عندما انهى غرضه عن رد علم الساعة اليه ، غير

اسلوب كلامه من الحصر ، الى اسلوب لايفيد سوى علمه بهذه الامور، وانه لايخرج ثمرة من اوعيتها وغلفها ، ولا تحمل انثى من ذكر أو انثى ، ولا تضع انثى ، الا فى الوقت الذي يعلم سبحانه انه تخرج منها او تحمل وتضع فيه .

ونظيره ، قوله سبحانه : «وعنده علم الساعة واليه ترجعون» (الزخرف ـ ٨٥) وقوله «يسئلونك عن الساعة ايان مرساها فيم انت من ذكراها الى ربك منتهاها» (النازعات ـ ٤٤) وقد فسر الطبرسي قوله «فيم انت فى من ذكراها» بقوله : اي لست فى شيء من علمها وذكراها .

ولاجل اختصاص علمه بالله سبحانه ، لما سئل عن وقت الساعة وتعيين تاريخها ، اعرض سبحانه عنه ، واخذ ببيان علائمها واشراطها كما فى قوله سبحانه «يسئل ايان يوم القيامة فاذا برق البصر ، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر» (القيامة ٦ ـ ١٠)

فاذا امعنا النظر فى هذه الايات وما فيها من السياق الواحد المفيد للحصر والقصر ، لانشك فى صحة ماذكره المفسرون فى جريان مشيئته سبحانه على كتمان العلم بوقتها عن غيره ولعل هنا من يفرق بين قوله «وعنده علم الساعة» وقوله «قل لايعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله» حيث حملنا الثاني على العلم الازلي الذاتي ، وقلنا ان المختص بالله سبحانه ، هو هذا القسم، دون العلم المستفاد المفاض منه، سبحانه الى عباده ، وان الاية لاتشمل ماكان من العلم اكتسابيا ، وعلى فرض عمومه لكلا القسمين ، يمكن تخصيصها بما دل على اطلاع الرسول على الغيب نظير قوله سبحانه «ولا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول» (الجن ـ ٢٦ و ٢٧)

واما قوله سبحانه «وعنده علم الساعة» فلان تضافر الايات على حصر خصوص العلم بالساعة به سبحانه والتصريح به فى كل مورد تحدث عنه، بأسلوب يغاير اسلوب ماعداه كماعرفت فيما تقدم من الايات ، ربما يؤكد نظر المفسرين من انه مما استاثر بعلمه لنفسه نعم امكان اطلاع النبي على وقتها بمكان من الامكان الا ان البحث فى وقوعه لا فى امكانه .

هذا كله راجع الى صدر الاية وهو القسم الاول من سياقها ودونك بيان الثاني والثالث منه

الثاني . اثبات علمه بوقت نزول الغيث ومافي الارحام من دون قصر العلم بهما عليه سبحانه .

الثالث : التصريح بجهل البشر بماذا تكسب غداً وبأي ارض تموت ولكن استفادة الاستئثار من هذين القسمين ، لايخلو من غموض وخفاء بل لايدل عليه فان اقصى مايستفاد منها عدم اطلاع البشر عليها من عند نفسه ، وهذا لاينا في اطلاعه عليها بتعلم من الله سبحانه كسائر الامور الغيبية ،وتخصيص هذه الموارد بالذكر مع كون الجميع كذلك ، للحث على علم الواجب سبحانه بجلائل الامور ودقائقها ، وجهل البشر بما يهمه ولايدل على جريان مشيئة الله على كتمانها عن كل بشر وعدم اعلامها لاحد .

بل يمكن ان يقال : ان نفي العلم عن الانسان بهذه الامور الاربعة كمالاينا في امكان اطلاعه عليها باذن الله واعلامه ،فهكذالاينافي امكان وقوف البشر عليها في ظل النواميس الكونية التى تم اكتشافها ، والادوات العلمية التي تم اختراعها ، فان مثل هذا العلم خارج عن مرمى الاية على احتمال قوي ، بل هي ناظرة الى ان البشر ، بما هوهو من غيران يستعين بشيء لايتمكن من الوقوف على هذه الامور .وهذالاينافي امكان اطلاعه عليها بتعليمه سبحانه او باتصاله بعوالم روحية او باستخدام وسائل وادوات تورث الظن او العلم باوضاعها .

ان الطبيب ربما يحدس او يخبر على سبيل القطع عن حال مريضه ، وان الموت سوف تنشب اظفاره فيه في وقت كذا ، ويصيب في اخباره هذا ، فكما ان هذا النحو من العلم لاستناده الى الامارات والعلائم والادوات الطبية ،المورثه للظن او العلم ، خارج عن مفاد الايه ،فهكذا مايستند اليه الانسان في كشف المغيبات من الوسائل والاختبارات .

ولاجل ذلك نرى النبي والخلفاء من بعده ، تنبوء وابمستقبل احوالهم ، وما

يحل بهم من نعمة ونقمة وعن زمان موتهم ومكانه .

وقد رأينا بعض المخلصين من عبـاده ، تنبؤوا بزمان موتهم ومكانـه وما يحل بهم من ازمة وازمات ونقل ايضا عن كثير من الصلحاء فكيف يمكن القول بانه سبحانه استأثر بهذه الامور .

وما ربما يقال: من تخصيص ظاهر الاية بما ثبت من تنبوء بعض المعصومين بما يحل بهم ومكان موتهم وزمانه لاطائل تحته ، فان لازم هذا التخصيص هو طرح تلكم الروايات لانخصيصها لانه عندئذ ينتقض الاختصاص ولايصدق الاستئثار ابداً فان الاستئثار يتوقف على كتمان العلم بها عن كل احد الى يوم القيامة .

اضف الى ذلك ان من الممكن القريب ان تصبح الوسائل العلميه دقيقه فنطلع على مواقع نزول المطر ونعرف الجنين ذكراً او انثى .

عرض وتحليل :

اعتمد المشهور فى تفسير الاية على روايات لم يصح اكثرها ولم يثبت صحة اسنادها ودونك بيان ما وقفنا علية .

١ ـ روى الصدوق فى خصاله عن ابن الوليد ، عن الصفار ، عن ابن هاشم، عن عبد الرحمان بن حماد عن ابراهيم بن عبد الحميد عن ابي اسامة عن ابي عبدالله قال قال لى ابي الا اخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها احدا من خلقه قلت بلى قال «ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث . . » (١)

ورجال الحديث كلهم ثقات غير عبدالرحمان بن حماد وعبد الحميد فان الاول مهمل لم يتضح حاله بوثاقة او ضعف ، واما عبد الحميد بن ابي اسامة فانه مختلف فيه وان رجح شيخنا العلامة التستري فى قاموسه وثاقته .

(١) الخصال ص ٢٩٠ طبع مكتبة الصدوق .

٢ـ روى صاحب البصائر عن احمد بن محمد عن محمد بن سنان عن ابي الجارود عن الاصبغ بن نباته قال سمعت امير المؤمنين يقول ان لله علمين علم استأثر به فى غيبه فلم يطلع عليه نبياً من انبيائه ولا ملكا من ملائكته وذلك قول الله تعالى «ان الله عنده علم الساعة ...» (١) والحديث ضعيف الاسناد لاجل «محمد بن سنان» فقد ضعفه كثير من علماء الرجال واما ابو الجارود فهو زيدي .

٣ ـ ماورواه القمى فى تفسيره (٢) مرسلا عن الصادق ومضمونه قريب مما رواه الصدوق فى خصاله .

وأما ماورواه الحافظ جلال الدين السيوطى فى الدر المنثور عن عكرمة ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال يامحمد متى قيام الساعة ؟ وقد اجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد ؟ وقد علمت ماكسبت اليوم فماذا اكسب غدا ؟ وقد علمت بأي ارض ولدت فباي ارض أموت ؟ فنزلت الاية (٣) فلا ينطبق على ظاهر الاية فان المتبادر من قوله «ويعلم مافى الارحام» هو العلم بخصوصية الجنين لا العلم بوقت ولادته كما هو ظاهر الحديث مضافا الى مافى سنده من الضعف الظاهر لانحراف عكرمة عن امير المؤمنين ؛ واخذه الحديث من أناس لاخلاق لهم منه وهذه الاحاديث لايصح الاعتماد عليها الاعلى مانقله الرضي فى نهج البلاغة عن الامام (ع) من ان علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله «ان الله عنده علم الساعة . . فهذا علم الغيب الذي لايعلمه احد الا الله (٤)

وهو مما يجب تأويله وتوجيهه على وجه لاينافى ماتواتر من الروايات من تنبؤ

---

(١) بصائر الدرجات ص ٣١ .

(٢) تفسير على بن ابراهيم القمى ص ٥١٠ وقد جمع احاديث الباب العلامة المجلسى فى بحاره فى باب «انهم لا يعلمون الغيب» راجع ج ٢٦ ص ١٠١ ـ ١٠٣

(٣) الدر المنثور ج ٥ ص ١٦٩

(٤) قداسلفنا لفظ الحديث فراجع ص ٣٤٩ من كتابنا .

المخلصين بزمان موتهم ومكانه ، وما يلم بهم من خيروشر خصوصا اذا وقفناان الامام القى كلامه هذا تجاه النصابين والمخالفين الذين سمعوا من الامام فى البصرة من الاسرار ما لا يتحملون، فاعترضوا عليه بأنه تنبئو بالغيب، فأجابهم وصد اعتراضهم بأنه ليس بعلم الغيب ، بل تعلم من ذي علم ، وانما الغيب هو الساعة ، وما عـدده سبحانه .. » .

وبما ان الكلام ورد فى مقام اسكات الخصم يمكن تاويله باحدى الوجوه التى ذكرهاالمجلسي فى بحاره (١)

واوضحها ان يكون العلم الحتمي بها مختصاً به تعالى وكل ما اخبر الله بهمن ذلك كان محتملا للبداء والغرض من تخصيص هذه الموارد بالذكر مع ان الجميع كذلك لاجل الحث على جهل البشر بما يهمه، والله سبحانه هو العالم بحقائق كتابه .

نجز الجزء الاول من الطبع ، ويليه الجزء الثاني
باذنه سبحانه ، والحمـد لله أولا وآخراً ،
وظاهراً وباطنا

(١) بحار الانوار ج ٢٦ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

أهم مصادر الكتاب

وهى ١٤٢ مصدر

الف

ابانة المختار، الارشاد ، ارشاد القلوب ، الاختصاص ، الاستيعاب ، الاسفار الاربعة ، الاشارات والتنبيهات، اشراقات، الاصابة ، اصول الكافي ، اصل الشيعة، اعلام الورى، الاقبال، اكمال‌الدين، امالي الصدوق ، الامامة فى التشريع‌الاسلامي آلاء الرحمان ، الالهام فى علم الامام،الانسان ذلك المجهول،اوائل المقالات،ايقان

ب

البيان فى تفسير القرآن ، بحار الانوار،بديع ، بصائرالدرجات ،بلوغ‌الارب، البيان والتبيين .

ت

التاج الجامع للاصول ، تاريخ الاسلام السياسى ، تاريخ ابن كثيـــر ، تاريخ بيهق ، تاريخ الخميس ، تاريخ الطبرى ، التبيان فى تفسيرالقرآن ، التبيان في اعراب القرآن ، تحف العقول ، تذكرة الفقهاء ، التفسير المنسوب الى الامام العسكري ، تفسير البيضاوي تفسير الجلالين ، تفسير الطبري ، تفسيرالقمي ، تفسير الايات المتشابهات،تفصيل‌الايات القرآن الكريم ، تنبيه الامة وتنزيه الملة ، تنقيح المقال، التهذيب .

ج ، خ

جامع الاصول ، جامع الروات ، جامع السعادات ، جمع الجوامع .
الخرائج والجرائح ، الخصال ،

د ، ذ

الدعوة الى الاسلام ، ديوان ابى طالب ، ديوان حسان ،
الذريعة الى تصانيف الشيعة ،

ر

رجال الكشي ، رجال النجاشى ، روضة الكافي

س ، ش

السرائر ، سيرة ابن هشام ، سيرة زيني دحلان ، السيرة الحلبية ، سيرة الرسول سفينة البحار ، سنن ابن ماجة ، سنن الدارمي ، سنن الترمذي ، السنن الكبرى .
الشرائع ، شرح ابن‌عقيل ، شرح الشفاء ، شرح المواهب ، شرح النهج‌الحديدي

ص ، ط
صحاح اللغة ، صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، الصحيفة السجادية ، الصحيفة العلوية ، الصراع بين الأسلام والوثنية ، الصواعق المحرقة .
الطبقات الكبرى .
ع ، غ
العروة الوثقى، عقائد الامامية ، علم الامام ، علل الشرائع، عيون اخبار الرضا ، الغدير .
ف ، ق
فتح الباري، فتوح البلدان،الفرائد ، فرحة الغري، قاموس الرجال، قاموس اللغة
ك ، ل
الكامل ، الكشاف، كشف الظنون، كشف الغمة ، كنز العمال ، كنز الفوائد.
لباب النقول ، لسان العرب ، اللوامع الالهية .
م
المبسوط ، متشابهات القرآن ومختلفه ، مجلة المرشد ، مجلة العرفان ، مجمع البيان ، المحاسن ، المدخل الى التشريع الاسلامي ، مستدرك الحاكم ، مستدرك الوسائل، مسند احمد ، مسند الشافعي، المعارف السلمانية ، معاني الاخبار، المعجزة الخالدة ، المعجم المفهرس ، محمد خاتم پيامبران ، المغازي،مفاتيح الغيب ، مقدمة ابن خلدون ، مكاتيب الرسول ، المكاسب ، مناقب آل ابي طالب ، المنار ، مناهل العرفان ، من هنا وهناك ، الميزان في تفسير القرآن ، ميثم التمار .
ن
نظرية السياسة والحكم ، نهاية الدراية ، نهج البلاغة .
هـ ، و ، ى
هشام بن الحكم ، الوافي ، وسائل الشيعة ، ولاية الفقيه .
ينابيع المودة ، اليهود فى القرآن ، اليواقيت والجواهر

فهرس ما فی هذا الجزء من امهات المطالب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة الكتاب	١
١ ـ عالمية الاسلام على ضوء القرآن المجيد	
سيرة النبي فی نشر دعوته	١٧
الرسول ينتهز الفرصة لنشر دعوته فی البلاد البعيدة	٢١
سفراءالرسول وكتبه الى قيصر الروم ، وعظيم القبط، وكسرىفارس و . .	٢١
ماكان لهذه الكتب من اثر بالغ	٢٤
النصوص القرآنية على عالميةرسالته	٢٥
الدليل على عمومية رسالته بوجه آخر	٢٨
الدعوة الى الفطرة اساس الاحكام الاسلامية	٣٣
الاسلام يكافح المبادىء الرجعية	٣٤
دحض شبهة حول عالمية دعوته	٣٧
ايضاح قوله سبحانه «لينذرام القرى ومن حولها»	٣٨
اجابة بعض المفكرين عن الشبهة ومناقشتها	٤١
ايضاح قوله سبحانه «وما ارسلنا من رسول الابلسان قومه»	٤٤
مغالطة اخـرى حول الاية	٤٥
شبهة ضئيلة حول الضرائب الاسلامية والجواب عنها	٤٦
نظرة عابرة الى انواع الضريبة فی الاسلام	٤٨
خاتمة المطاف	٥٠
٢ ـ الخاتمية فی الذكر الحكيم	
الوحدة الجوهرية للشرائع الالهية والاستدلال على ذلك	٥٣

الموضوع	رقم الصفحة
الاختلاف بين الشرائع انما هو فى الفروع والمنهاج	٥٤
النصوص القرآنية الدالة على ختم النبوة	٥٦
الاستدلال بقوله سبحانه «وخاتم النبيين» وايضاح معنى (الخاتم)	٥٧
تشكيكان حول دلالة الاية على كون الرسول خاتم النبيين	٦١
ردنا على المشككين	٦٣
الدليل الثاني على الخاتمية	٦٥
الدليل الثالث على الخاتمية	٦٩
الدليل الرابع على الخاتمية	٧٠
الدليل الخامس على الخاتمية	٧١
الخاتمية فى الاحاديث الاسلامية	٧٣
نصوص الرسول والائمة فى هذا المجال	٧٤
شبهات حول الخاتمية اختلقتها الفرقة البهائية	
ماذا يحاول المستعمرون	٩٣
الشبهة الاولى :الاستدلال بقوله سبحانه «يابني آدم امايأيتنكم رسل منكم ..»	٩٤
الجواب عن الشبهة	٩٥
دحض الشبهة بوجه آخر	٩٩
حوار وجدال بين المؤلف وبعض البهائيين فى مدينة عبادان	١٠٠
نقل كلام العلمين : البلاغى والشهرستانى	١٠١
الشبهة الثانيه : الاستدلال بقوله «يلقى الروح من امره . . » والجواب عنها	١٠٤
الشبهة الثالثة : الاستدلال بقوله سبحانه «لكل امة اجل» والجواب عنها	١٠٧
نظرة الى موارد استعمال الامة والاجل فى القرآن المجيد	١٠٨
سؤال من المستدل	١١٨
الاكذوبة التي نسبها المستدل الى رسول الله	١١٤

الموضوع الصفحة

الشبهة الرابعة الاستدلال بقوله «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق» والجواب عنها ١١٦
الشبهة الخامسة الاستدلال بقوله «يدبر الامر من السماء..» والجواب عنها ١١٨
مشكلة المفتتح والمختتم فى تطبيق الاية

اسئلة حول الخاتمية

السؤال الاول لماذا ختمت النبوة التبليغية ؟ والجواب عنه ١٢٦
بلوغ الامة الاسلامية فى الرشد والتفتح العقلى شأواً . . ١٢٧
بحث حول نهي النبي عن كتابة الحديث ١٢٩
دور اهل البيت فى اشباع حاجات الامة واستغنائها عن النبوة التبليغية ١٣٧
تدعيم فكرة الامامة بوجوه اربعة ١٣٨
السؤال الثانى : لماذا حرم الخلف من المكاشفة الغيبية ؟ والجواب عنه ١٥٠
نقل كلام لاهل السلوك والعرفان ١٥٣
الاسفار المعنوية الاربعة ١٥٧
مثل الفضيلة والاخلاق من اصحاب الامام علي (ع) ١٦٠
السؤال الثالث :«ليس فى العالم امر ثابت فكيف . . . والجواب عنه ١٦٤
ماذا يروم المادي من (الحتمية التاريخية) ١٦٦
السؤال الرابع : لزوم اختلاف القوانين باختلاف الوان الحياة والجواب عنه ١٦٧
الاحكام المتطورة فى الاسلام ١٧١
مقتضى الزمان صار رمزا للتحرر من القيم الاخلاقية ١٧٩
السؤال الخامس: ادعاء النقص فى التشريع الاسلامي والجواب عنه بأمور ١٧٨
الاعتراف بحجية العقل فى مجالات خاصة ١٨٠
الاحكام تابعة للمصالح والمفاسد ١٨٥
التشريع الاسلامي ذومادة حيوية ١٨٧
تشريع الاجتهاد ، دور الاجتهاد فى خلود الدين . ١٨٩

الموضوع	الصفحه
الحقيقة بنت البحث .	١٩٦
شبهة حول الاجتهاد الدارج فى عصرنا والجواب عنها .	١٩٧
حقوق الحاكم الاسلامي	٢٠١
مرونة احكام الاسلام ، الاسلام دين جامع والامة الاسلامية امة وسط	٢٠٣
النظر الى المعاني لاالمظاهر والقشور	٢٠٥
الاحكام التى لها دور التحديد	٢٠٥
٣ ـ النبى الامى فى الذكر الحكيم	
عدم الاختلاف بين المسلمين فى امية النبي (ص)	٢٠٩
الاستدلال عليه بقوله سبحانه «وما كنت تتلو من قبله من كتاب»	٢١٣
الاستدلال عليه بقوله تعالى «الذين يتبعون النبي الامي»	٢١٢
الاراء الشاذة فى تفسير الامي	٢١٦
نقدما اختاره الدكتور عبد اللطيف الهندي فى تفسير الامي	٢١٩
تضعيف ماورد من الروايات فى تفسير الامي بـ«ام القرى»	٢٢٢
تمكن النبي من الكتابة بعد البعثة	٢٢٥
الوجوه التي اعتمد عليه شيخنا المفيد فى المقام والجواب عنها	٢٢٩
الاستدلال بمفهوم الاية والجواب عنه	٢٣٠
الاستدلال بقوله سبحانه «يتلو عليهم صحفاً مطهرة» والجواب عنه	٢٣٣
الاستدلال بقوله سبحانه (واكتتبها) والجواب عنه	٢٣٤
الاستدلال بالاولوية ونقده	٢٣٥
الاستدلال بأن التجارة متوقفة على التمكن من الكتابة والجواب عنه	٢٣٦
الامية فى الاحاديث : حديث بدء الدعوة	٢٣٨
وقفة مع الرواية	٢٤٠
الاستدلال بحديث طلبه القلم والدواة والجواب عنه	٢٤٢

الموضوع	الصفحة
الاستدلال بقصة الحديبية والجواب عنه	٢٤٤
الاستدلال بكتاب النبي الى العذار	٢٤٩
عرض وتحقيق لما روى عن ائمة اهل البيت فى المقام	٢٥١
حصيلة الكلام في امية النبي	٢٥٤
نحن وقساوسة الغرب والمستغربة	٢٠٠
٤ ـ سيرة النبى الاعظم واسماؤه . . فى القرآن الكريم	
عناية المسلمين بضبط حياة النبي الاعظم (ص)	٢٥٩
عناية القرآن ببيان صفات النبي ونفسياته الكريمة	٢٦٠
اسماؤه فى القرآن الكريم	٢٦٦
شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة حول تسميته بأحمد والجواب عنها	٢٦٨
خاتمة المطاف	٢٧٥
٥ ـ علم الغيب فى الكتاب العزيز	
ماهو معنى الغيب ؟ !	٢٧٧
انواع المغيبات فى القرآن	٢٨٢
الاخبار عن الغيب احد وجوه اعجاز القرآن	٢٨٤
مغيبات القرآن واخباره الغيبية :	٢٨٨
تنبؤ القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله	٢٨٨
التنبؤ بانتصار الرومان على الفرس	٢٩٠
اخباره من صيانة النبي عن اذى الناس	٢٩١
تنبؤه بما يقوله المنافقون والمتخلفون من الاعراب	٢٩٢
الاخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة	٢٩٥
التنبؤ بصيانة القرآن عن التحريف	٢٩٦
الاخبار عن نجاح الاسلام والرسول	٢٩٧

الموضوع	الصفحة
التنبؤ باحداث جزئية	٣٠٢
تنبؤ القرآن فى مكة بما سيصيب كفار قريش	٣٠٤
التنبؤ حول اليهود والنصارى	٣٠٥
سؤال يوجهه الشباب حول نكسة الخامس من حزيران والجواب عنه بوجوه	٣١٠
اختصاص علم الغيب بالله سبحانه والاستدلال عليه بوجوه	٣٢١
ماهو مفاد الآيات النافية لعلم الغيب عن النبي	٣٢٩
هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب	٣٢٩
ان الله يظهر غيبه لرسله وانبيائه والاستدلال عليه بوجوه	٣٢٩
استدلال بعض الاكابر بآية التطهير والاصطفاء وتوضيح مفادهما	٣٣٣
اسئلة واجوبة حول علمهم (ع) بالغيب	٣٣٥
نصوص قرآنيه تدل على تحقق التنبؤ بالغيب عنهم	٣٤٤
لماذا يتحاشى الائمة من أهل البيت عن نسبة العلم بالغيب اليهم	٣٤٦
تنبؤات نبوية تضافرت عليها الروايات فى الصحاح والمسانيد	٣٥٥
تنبؤات علوية وردت فى نهج البلاغة	٣٦٠
عثرة لانقال وايضاح ماقاله الطبرسي	٣٦٩
هل استأثر الله بعلم هذه الخمسة لنفسه ؟	٣٧٣
دفع شبهات حول الاستئثار	٣٧٤
نظرنا فى الموضوع	٣٧٧
عرض وتحليل لما روي فى المقام	٣٨٠
اهم مصادر الكتاب	٣٨٣
فهرس امهات مطالب الكتاب	٣٨٥
جدول الخطأ والصواب	٣٩١

بالرغم مما بذلنا من الجهد فى اخراج الكتاب نقياً عن الغلط ، فقد وجدت فيه اغلاط طفيفة لا تخفى على القارىء الكريم .

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
٢٦	١٢	هتافاته	بهتافاته
٢٩	٢٣	شبها	شبهها
٣٢	٢١	مثبوته	مبثوتة
٥٠	٢٢	المتوفى	المتوفا
٥٩	١٧	واحد	واحداً
٦٢	١٣	يرتأيه	يرتئيه
٦٦	٢٠	خطابهم	خطاب
٧٤	١٨	اخرج	اخرجه
٧٧	١٨	أومسند	ومسند
٩٩	٩	مجىء	مجيىء
١٠٦	١٠	هذه الامة	هذه الاية
١٠٦	٢١	البيين	النبيين
١١٢	١٧،١٢	كتاب	كتاباً
١٢٠	٢٣	هذا الاية	هذه الاية
١٢٣	١٩	اسئله	اسئلة
١٢٨	٧	القرن	القرآن
١٣٢	١٧	اسماء	اسماء
٣٣	١٦	كليهما	كلاهما
١٣٤	٢٤	حافظ	الحافظ
١٢٥	٢٢	صدع بها	صدع به
١٤١	١٥	تسرب	عدم تسرب
١٤٣	١٦	بحفط	يحفظ
١٤٤	١٧	ان ى بنى ا	ان اى نبى
١٤٩	٢٤	المصدر نفسه	زائد

الصفحة	السطر	الغلط	الصحيح
١٦٣	٩	فى هذا الجزء	الجزء الثانى
١٦٣	١٩	الخامس	السادس
١٦٦	١٤	للانسان	الانسان
١٦٧	١٥	هى يتطور	هو يتطور
١٧٣	٢٣	السادس	السادس والسابع
٢١٥	٢١	كنهه	تكنه
٢٣٩	٢٣	الطائعه	الطائفة
٢٥٣	٢٠	للغاية	الى الغاية
٢٥٧	٤	بصفاة	بصفات
٢٦٦	٣	الصفاة	الصفات
٢٧١	٢٣	المسوى	الموسوى
٢٧١	٢٦	ولم نذكر	ولم نذكره
٢٧٢	١١	تدرف	تذرف
٢٧٢	١٣	يحق	يحف
٢٧٢	٢٠	الحيدرى	الحديدى
٣٤٤	١٢	الرسول	الرسل
٣٦٠	٨	طالب	أبى طالب

VETVS
TESTA
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 093673976